من

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

الشمس الساطعة

رسالة في ذكرى

العالم الرباني العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي التبريزي

أفاض الله علينا من بركات تربته

ومحاورات التلميذ والعلامة

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

دار المحجة البيضاء

هو الحي

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٤

الشمس الساطعة

رسالة في ذكرى

العالم الرباني العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي التبريزي

أفاض الله علينا من بركات تربته

ومحاورات التلميذ والعلامة

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب

السيد عباس نور الدين وعبد الرحيم مبارك

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

فهرس مطالب و موضوعات
الشمس الساطعة

المطالب	الصفحات
مقدّمة الطبعة الثانية	٣ ـ ٧

القسم الأوّل : رسالة الذكرى

شرح أحوال العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه

الصفحة ١١ إلى الصفحة ١٢٩

يشمل المطالب التالية :

المطالب	الصفحات

فهرس المطالب و الموضوعات

المطالب	الصفحات
القسم الثاني : محاورات التلميذ والعلّامة	١٣٣ ـ ٣٩٨

الأبحاث القرآنيّة

الصفحة ١٣٣ إلى الصفحة ١٧٥

يشمل المطالب التالية :

الأبحاث الفلسفيّة

الصفحة ١٧٩ إلى الصفحة ٢٨١

يشمل المطالب التالية :

الأبحاث العرفانيّة

الصفحة ٢٨٥ إلى الصفحة ٣٠٨

يشمل المطالب التالية :

فهرس المطالب و الموضوعات

الأبحاث الأخلاقيّة

الصفحة ٣١١ إلى الصفحة ٣١٣

يشمل المطالب التالية :

الأبحاث العلميّة

الصفحة ٣١٧ إلى الصفحة ٣٥٧

يشمل المطالب التالية :

الصفحات	المطالب

الأبحاث التأريخيّة

الصفحة ٣٦١ إلى الصفحة ٣٩٨

يشمل المطالب التالية :

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَة

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْــمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيم

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

بعد ارتحال سماحة آية الله أُستاذنا العلّامة رضوان الله تعالى عليه، تشرّف أعضاء من الحوزة العلميّة المقدّسة في قم بالمجيء إلى البقعة الرضويّة المقدّسة وطلبوا من الحقير نيابة عن مجمع من المجامع كتابة ما أعرفه عن سماحته في رسالة تأبينيّة تخليداً لذكراه لضمّها إلى رسائل الآخرين بهذه المناسبة وتقديمها في مجموعة واحدة.

وكنتُ آنذاك قد كتبتُ كتاب «الشمس الساطعة» فبسطتُ فيه القول والبيان، وكان على وشك الإتمام تقريباً، حيث سلّمت القسم الأعظم منه للطبع [1] على أن تتبعه بقيّة أجزائه تدريجيّاً خلال أسابيع معدودة. ولذلك فلم تكن هناك حاجة ـ مع وجود هذا الأثر ـ لكتابة رسالة أُخرى مفصّلة.

وباعتبار أنَّ كتاب «الشمس الساطعة» تحت الطبع في الوقت

١ـ طبعت الطبعة الأُولى لهذا الكتاب بالفارسيّة سنة ١٤٠٢ هـ، وقد ارتأى سماحة المؤلّف قدّس سرّه أن يضع إضافات، فكانت الطبعة الثانية سنة ١٤١٧ هـ مزيدة ومنقّحة.
وهذا الكتاب الذي بين يديك هو ترجمة للطبعة الثانية. (م)

الحاضر ، فقد طلب أُولئك السادة من الحقير عند عودتهم ، كتابةَ عدّة صفحات عن سماحة العلّامة من أجل إلحاقها وطبعها مع تلك المجموعة ، فلبّيت دعوتهم وحرّرت هذه الصفحات وأرسلتها إلى قم ، بيد أنـّها لم تطبع ضمن المجموعة لأسباب غير معلومة . وحيث إنَّه يجري حاليّاً إعادة طبع كتاب «الشمس الساطعة» طبعة ثانية ، فقد أدرجت هذه المطالب ضمنها لتكون تنويهاً بذكرى سماحة أُستاذنا وتجديد عهدٍ معه أسكنه الله بُحبوحة جنّاته .

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم
وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ

أفضل الحمد وأجدره للمعبود الذي خلق الإنسان فجعله مرآة تامّة لجماله وجلاله ، واختصّ لنفسه اسم أحسن الخالقين ، والذي هدى البشر بتجلّياته الربّانيّة من ظلمات الجهل إلى أعلى ذروة العلم والبصيرة والمعرفة والتوحيد .

وأتمّ الصلاة تختصّ بخاتم الأنبياء وقائد الرسل والمبعوثين الإلهيّين : **محمّد بن عبد الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم ، المخاطب بخطاب : **فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** ، المرتدي للخلعة الجميلة للعلم والمعرفة بالأنوار الملكوتيّة والسبحانيّة للربّ الودود .

وعلى وزيره ووصيّه الأوحد ذي المحتد الكريم : أمير المؤمنين وقائد الموحّدين عليّ بن أبي طالب ، الذي كشف بدرر بيانه المعضلات للباحثين عن سبيل السعادة والتوحيد ، وصار مُفَصِّلَ مجمل القرآن ومؤوّل تنزيل الفرقان الإلهيّ ، وعلى أولاده الأحد عشر ، وخاصّة صاحب العصر والزمان **الحجّة ابن الحسن العسكريّ** أرواحنا فداه ، الذين قادوا الواحد بعد

الآخر ـ بتحمّلهم أعباء الولاية ومهمّة الإمامة الخطيرة ـ قافلة عالم الوجود في سعيها إلى الوطن المقصود ومقرّ الأمن والأمان الإلهيّ ، ودَعَوا البشر للخروج من الظلمات البعيدة للغرور والعُجب وحبّ الذات والاستكبار والانشغال بالنفس ، نحو البحث عن الله ومعرفته .

وأجمل التحيّة والإكرام والدعاء والإعظام على الأرواح الطاهرة لعلماء الأُمّة الحقيقيّين ومفكّريها الراسخين ، الذين كانوا ربّانيي متعلّمي سبيل النجاة ، والذين قادوا على الدوام ، بيُمن تعليمهم وتربيّتهم ، والوالهين وعشّاق طريق الله العزيز إلى مقام عزّ التوكّل والرضا والتفويض والتسليم ، وهدوهم إلى أعتاب التوحيد .

وخاصّة على أُستاذنا المرتحل حديثاً : فقيد العلم والعرفان ، وفقيد التزكية والأخلاق ، ربّانيّ الباحثين بلهفة عن سبيل النجاة ، ومربّي طلّاب أنوار المعرفة ؛ الأُستاذ الذي لا بديل له ، العلّامة بلا نظير ، آية الله الأكرم **الحاجّ السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ التبريزيّ** أفاض الله علينا من بركات تربته الشريفة . الذي سعى في إعلان راية التوحيد في قلوب الوالهين اتّباعاً لنهج الأئمّة بالحقّ ، وأوصل دعوة الإيمان والإيقان إلى غور السواحل البعيدة وقعر أعماق القلوب الحيّة المستعدّة .

اللَهُمَّ أَفِضْ عَلَيهِ صِلَةَ صَلَوَاتِكَ وَسَلَامَةَ تَسْلِيمَاتِكَ ، يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ مَاتَ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيَّاً . آمينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ .

«هَجَمَ بِهِمُ العِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ البَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رُوحَ اليَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ المُتْرَفُونَ ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا الدُّنيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى .

أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ ؛ وَالدُّعَاةُ إلَى دِينِهِ» .

آهِ آهِ ! شَوْقاً إلَى رُؤْيَتِهِمْ .[1]

وقد ذكر أمير المؤمنين هذه الفقرات في بيان حال العلماء بالله ، الذين هم حجج الله في الأرض ، الذين يصونون الآيات الإلهيّة والبيّنات الربّانيّة عن الاندراس والبُطلان . ذوو العدد القليل والقدر والمنزلة الجليلة العظيمة .

أُولئك الذين يحفظ الله بهم حججه وبيّناته ، حتّى يودعوها أمثالهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ونظائرهم .

وحقّاً فإنّنا لو شئنا الإشارة إلى فردٍ يمثّل مصداقاً ومعياراً لهذا الكلام ، لكان **العلّامة الطباطبائيّ** من الطراز الأوّل .

فقد كان ذلك الرجل ملجأً للحوزة العلميّة ، وملجأً للطلّاب والدارسين ، وملجأً للعلم والمعرفة ، وملجأً للأخلاق والعلم ، وملجأً للإيمان والإيقان ، وملجأً للتضحية والإيثار ، وملجأً للصبر والثبات .

الرجل الذي بفقده نُكب عالم العلم والمعرفة ، واكتست وجوه أهل الفضل غبار الحزن في مأتمه .

الرجل الذي كان فقدانه خسارة لا تعوّض لعالم العلم والأدب ، لأنّه كان مُرشد النهضة الفكريّة والعلميّة .

وحقّاً فقد كانت أخلاق العلّامة الطباطبائيّ وأدبه وفكره وعرفانه ومعرفته دليلاً على أخلاق الأئمّة الطاهرين وأخلاقهم وعلومهم ومعارفهم . وكان سيماؤه آية في تلك الأنوار الطيّبة ، ونهجه وسيرته حكاية عن تلك الأرواح القدسيّة ، **مِنْهُمْ وَإلَيْهِمْ** .

وقد ذكر الحقير في كلّ مؤلّفاته بالتفصيل مطالب قرآنيّة وعلميّة

١ـ «نهج البلاغة» ج ٢ ، الحكمة رقم ١٤٧ .

وفلسفيّة وعرفانيّة وأخلاقيّة لآية الله العلّامة الطباطبائيّ ، ونوّهتُ بتلك المطالب النفيسة ليستفيد منها العموم دونما مقابل .

واحتراماً لتربته الطاهرة ، حاليّاً أكتبُ ما أعرفه عنه من حقائق ووقائع مفصّلة إلى حدٍّ ما ، حتّى تنشر في كتاب تحت عنوان «**الشمس الساطعة: رسالة في ذكرى العلّامة الطباطبائيّ** » ، قدّمتُها وأُقدّمها تدريجيّاً للطبع ، على أمل أن يُصار إلى إصدارها قريباً لتُقدّم إلى أصحاب البصيرة .

ولهذا ، فحين طُلب أخيراً من الحقير كتابة شيء بعنوان رسالة في ذكرى العلّامة ، فقد امتثلتُ بمحض الأدب مقابل اسمه المقدّس ، واكتفيت بهذه الصفحات المعدودة ، وأُوصي القرّاء الكرام بمطالعة كتاب «الشمس الساطعة : رسالة في ذكرى العلّامة الطباطبائيّ » .

أسأل الله التوفيق لجميع المتولّهين سبيل الخلوص ، وعشّاق لقاء المعبود ، ليسعوا في سبيل المقصود بمطالعة أحوال الأعلام من أمثال الأُستاذ الجليل : العلّامة الطباطبائيّ ، ولكي لا يكفّوا عن الطلب والقصد حتّى نيل المنشود .

اللَهُمَّ احْشُرْهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ وَاخْلُفْ عَلَى عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ ، وَأَيِّدْ وَسَدِّدْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى المُتَعَلِّمِينَ مِنْ سَمَاحَتِهِ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ.

وَوَفِّقِ اللَهُمَّ إيَّانَا وَجَمِيعَ إخْوَانِنَا المُحَصِّلِينَ مِنْ بَرَكَاتِ رَشَحاتِ قَلَمِهِ ، وَمِنْ شَآبِيبِ رَحَمَاتِ نَفْسِهِ فِي يَوْمِنَا بَعْدَ أَمْسِهِ.

حُرِّرَ في المشهد المقدّس للرضا عليه السلام ، يوم الجمعة ٢٦ ربيع الأوّل لسنة ألف وأربعمائة واثنتين هجريّة .

السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

رسالة في ذكرى

العالم الرباني العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي التبريزي

أفاض الله علينا من بركات تربته

القسم الأول

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيم

بِسْــمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

تِــهْ دَلَالاً فَأَنْتَ أَهْــلٌ لِــذَاكَـا وَتَحَكَّمْ فَـالحُسْنُ قَـدْ أَعْـطَاكَـا
وَلَكَ الأَمْرُ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَـاضٍ فَــعَلَيَّ الجَــمَالُ قَــدْ أَوْلَاكَــا
وَتَــلَافِي إنْ كَـانَ فِـيهِ ائْـتِلَافِي بِكَ عَـجِّلْ بِـهِ جُـعِلْتُ فِـدَاكَـا
وَبِمَا شِئْتَ فِي هَـوَاكَ اخْـتَبِرْنِي فَاخْتِيَارِي مَا كَانَ فِـيهِ رِضَـاكَـا
فَــعَلَى كُــلِّ حَــالَةٍ أَنْتَ مِـنِّي بِيَ أَوْلَـى إذْ لَـمْ أَكُـنْ لَـوْلَاكَـا
وَكَــفَانِي عِــزّاً بِــحُبِّكَ ذُلِّــي وَخُضُوعِي وَلَسْتُ مِنْ أَكْـفَاكَـا
وَإِذَا مَـا إِلَـيْكَ بِـالوَصْلِ عَـزَّتْ نِسْــبَتِي عِــزَّةً وَصَــحَّ وِلَاكَــا
فَاتِّهَامِي بِالحُبِّ حَسْـبِي وَأَنِّــي بَيْنَ قَـوْمِي أُعَـدُّ مِـنْ قَـتْلَاكَـا [1]

لقد تشرّف هذا الحقير سنة ألف وثلاثمائة وأربع وستّين هجريّة بالذهاب إلى بلدة قم الطيّبة لتحصيل العلوم الدينيّة ، فحللت في حجرة بمدرسة المرحوم آية الله حجّت ، التي عُرفت فيما بعد بالمدرسة الحجّتيّة ، حيث هناك بدأت بالدرس والبحث والمطالعة .

١ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٥٦ ، طبعة سنة ١٣٨٢ هـ.

كان بناء هذه المدرسة صغيراً ، وكان في نيّة آية الله حجّت أن يوسّع بناء المدرسة ليُضاف إليها عدّة آلاف متر مربّع من الأراضي المجاورة كان قد أعدّها من أجل تشييد مدرسة ضخمة للطلّاب على غرار المدارس الإسلاميّة ، بحيث تضمّ عدداً كبيراً من الغرف وقاعات للتدريس ومسجداً ومكتبة وسرداباً ومخزناً للماء وسائر ما يحتاج إليه الطلّاب ، وذلك وفق نظام صحّيّ صحيح ، مع ساحة واسعة كبيرة مريحة تبعث النشاط في أرواح الطلّاب .[١]

ومع أنَّ العديد من المهندسين قدموا من طهران وغيرها وقدّموا خرائط وتصاميم مختلفة ، إلّا أنَّ أيّاً منها لم يحظَ بموافقة آية الله ، إلى أن طرق سمعنا أخيراً أنَّ سيّداً قدم من تبريز فأعدّ تصميماً حاز على رضا آية الله وإقراره ، فكنّا في غاية الشوق واللهفة لرؤية هذا السيّد .

وكنّا ـ من جهة أُخرى ـ متلهّفين لدراسة الفلسفة ، وفي تلك الفترة تشرّف بالمجيء إلى قم العالم الجليل فخر الحكماء والفلاسفة آية الله **الحاجّ الميرزا مهدي الآشتيانيّ** قدّس الله نفسه قد تشرّف في ذلك الوقت عازماً التدريس ، فلبث في قم عدّة أشهر . وكان قد وعد أحد أصدقائنا الأعزّاء أن يعطينا درساً خاصّاً في الفلسفة من «المنظومة السبزواريّة» وكنّا على وشك البدء في الدرس حين انصرف بغتةً عن الإقامة في قم وعاد إلى طهران .

ثمّ سمعنا في تلك الأثناء أنّ ذلك السيّد الذي قدم من تبريز وصمّم خارطة بناء المدرسة معروف باسم القاضي ، وأنّه ضليع في الرياضيّات

١ـ كان في نيّة آية الله حجّت أن يبني كذلك مستوصفاً ومختبراً للطلّاب ملحقين بالمدرسة ، إلّا أنّه لم يوفّق لذلك لأسباب ما .

والفلسفة ، وقد بدأ بتدريس الفلسفة في الحوزة .

فازداد شوقنا لرؤيته ولقائه ، وكنّا نترصّد الفرصة للذهاب إلى منزله واللقاء به بذريعة ما ، إلى أن جاء إلى غرفتي يوماً أحد الأصدقاء الذين يتردّدون على المدرسة ـ وهو من علماء «رشت» حاليّاً ـ فقال : لقد عاد السيّد القاضي [١] من زيارة مشهد ، فهلّم نذهب لزيارته !

وما إن دخلنا منزله ، حتّى فوجئنا بأنَّ هذا الرجل المعروف المشهور هو نفس ذلك السيّد الذي كنّا نلتقيه يوميّاً في الأزقّة في غدوّنا ورواحنا والذي لم نكن لنحتمل أبداً أن يكون من أهل العلم ، فضلاً عن التبحّر في العلوم .

لقد كان يتردّد في أزقّة قم مرتدياً عمامة صغيرة جدّاً من الكرباس الأخضر وجبّة ذات أزرار مفتوحة ، وبدون جوارب ، بملابس أدنى من العاديّة ؛ كما كان بيته بدوره بسيطاً محقّراً جدّاً .

تعانقنا وجلسنا ، وتطرّق الحديث إلى بعض المسائل حول جهاتٍ عدّة ، فرأينا أنَّ الأمر ليس كما يتصوّره المرء ، فهذا الرجل في الحقيقة عالَم عظيم من العلم والدراية والإدراك والفهم ، وصار مشهوداً لدينا جيّداً أنَّ :

هر آنكو ز دانش برد توشه‌اى   جهانيست بنشسته در گوشه‌اى [٢]

وقد حصلت لنا حالة عظيمة من الوله والتعلّق به في ذلك المجلس ،

١ـ كان سماحة العلاّمة الطباطبائيّ يُعرف باسم القاضي بدء قدومه إلى قم ، لأنّه من سلسلة السادة «القاضي» المشهورين في آذربيجان ؛ ولكن باعتباره من السادة الطباطبائيّين، فقد رجّح بنفسه أن يُعرف بالطباطبائيّ . وقد انكشف للحقير أخيراً أنّه ربّما شاء أن ينحصر لقب القاضي بأُستاذه الأكرم الأوحد المرحوم الحاجّ السيّد عليّ آقاي القاضي ، وأنّه امتنع عن مشاركته في الشهرة تكريماً وإجلالاً لمقام الأُستاذ .

٢ـ يقول : إنَّ من كسب زاداً في العلم ، هو عالَمٌ قابعٌ في زاوية .

فسألناه أن يعطينا درساً خصوصيّاً في الفلسفة ، حتّى نتمكّن من طرح ما نريده بحرّيّة خلال الدرس ، وإزالة أيّ إشكال وإبهام يطرأ علينا ، فوافق في منتهى اللطف . وحين خرجنا من عنده التقينا سائر الأصدقاء الذين كنّا قد اتّفقنا معهم على دراسة الفلسفة ، فسألونا : كيف وجدتم السيّد القاضي ؟ أجبتُ ، عَلَيَّ أن أُجيبكم بتلك الرباعيّة التي أنشدها أبو العلاء المعرّيّ الضرير في السيّد المرتضى حين عاد إلى وطنه بعد لقائه به فسئل عنه : كيف وجدتَهُ ؟ فقال :

يَا سَائِلِي عَنْهُ لَمَّا جِئْتُ أَسْأَلُهُ
أَلَا هُوَ الرَّجُلُ العَارِي مِنَ العَارِ
لَو جِئْتَهُ لَرَأَيْتَ النَّاسَ فِي رَجُلٍ
وَالدَّهْرَ فِي سَاعَةٍ وَالأَرْضَ فِي دَارِ [١]

والخلاصة ، فقد شرع في تدريسنا درس الفلسفة في قاعة التدريس في المدرسة ، ومع أنّه كان من المقرّر أن يكون الدرس خصوصيّاً ، إلّا أنَّ الطلّاب اطّلعوا على الأمر ، فحضر في اليوم الأوّل ما يقرب من مائة منهم مَلئوا القاعة وبدأ السيّد بالتدريس . وعلى الرغم من أنَّ البحث والمناقشة كانا بقدر كافٍ خلال الدرس ، إلّا أنّه لم يكن من المصلحة بسبب ازدياد العدد أن تطرح إشكالات أعلى من المستوى العاديّ للدرس ، ولهذا فقد كنّا دائماً بعد نهاية الدرس نصاحبه حتّى باب منزله للتحدّث معه أثناء الطريق لاستيضاح بعض المطالب .

وازداد حبّنا وتعلّقنا به ؛ لأنّه كان إنساناً متواضعاً جليلاً خلوقاً شديد الحياء نزيهاً ، خالياً من التكلّف ، فقد كان يعاملني معاملة الأخ العطوف

١ـ «الكنى والألقاب» ج ٣ ، ص ١٦١ ، طبعة صيدا .

والرفيق الشفيق ، فكان يأتي إلى حجرتنا عصراً ، في كلّ يوم يضيف ساعة أو ساعتين بعد الدرس المعيّن ليشرح لنا بعض المعارف الإلهيّة والقرآن المجيد وإضافة إلى درس الفلسفة فقد كان يلقى سلسلة من الدروس في الهيئة القديمة (علم الفَلَك) [1] وشرع أيضاً بتدريسي تفسير القرآن الكريم .

أجل ؛ فقد كانت العظمة والجلالة والسكينة والوقار بادية في وجوده ، وكان بحر العلم والمعرفة ينضح كالنبع المتفجّر منه ، وكان يجيب على الأسئلة في هدوء وسكينة . ومع أنّا كنّا نصل أحياناً في البحث إلى حدّ التجرّؤ وتجاوز الحدود ، لكنّه لم يكن أبداً ليخرج عن سلوكه ونهجه ، فلم ترتفع نبرة صوته عن الحدّ المعتاد حتّى لمرّة واحدة ، فذلك الأدب وتلك المتانة والوقار والعظمة بقيت ثابتة ولم ينضح كأس صبره واحتماله أبداً .

وكان يلقي علينا أحياناً بيانات عن أحوال الأعلام وأولياء الله والمدارس والاتّجاهات العرفانيّة ، وبالأخصّ عن أُستاذه في المعارف الإلهيّة والأخلاق الذي كان في النجف المرحوم سيّد العارفين وسند المتألّهين آية الله الوحيد السيّد الحاجّ الميرزا علي آقاي القاضي

١ـ قال الصديق الكريم سماحة حجّة الإسلام الحاجّ السيّد محمّد علي نجل آية الله الميلانيّ : كنت يوماً في معيّة أبي وأعمامي ، فاستأجرنا عربة تجرّها الخيول من تبريز، فركبنا فيها وسرنا إلى القرية التي كان العلّامة يقطنها (شادآباد أو غيرها) . وكان أعمامي قد تحدّثوا مع أبي في موضوع القِبلة ؛ ولم تكن بوصلة معرفة القبلة «رزم آرا» قد استعملت بعد. ثمّ إنَّ أعمامي سألوا أبي في الطريق خلال سير العربة : أيّ شخصيّة هذا الذي تذهبُ إليه من تبريز في عربة ؟!

فأجاب أبي : هو الذي كان في حلّ هذه المسائل (يقصد مسائل القِبلة التي كانت مداراً للحديث) أُستاذاً فريداً .

وكان المرحوم أبي يقول في أغلب الأوقات والمواقف : «إنَّ لدى العلّامة علوماً نفتقدها نحن». ويقصد أبي بتلك العلوم ، العلوم الباطنيّة والغيبيّة .

رضوان الله عليه ، حيث كانت له بيانات مفصّلة عنه ، وكانت تلك الأحاديث تبعث في نفوسنا البهجة والسرور . وكانت مجالسنا معه تمتدّ أحياناً إلى ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم .

ولقد بلغت درجة الحبّ والوله به إلى الحدّ الذي حملنا على ترك حجرة المدرسة لنستأجر غرفة قرب منزله ، وننتقل إليها لأجل لقائه والأُنس به أكثر والاستفادة من فيوضاته بشكل أوفر ، فكان يُلقي علينا باستمرار مواعظ أخلاقيّة وعرفانيّة قبيل الغروب بساعة أو ساعتين . وتمتدّ أحياناً إلى انقضاء الليل ، كما كان يأتي في فصل الربيع إلى بستان القلعة «باغ قلعه» القريب من منزله ، فيُلقي عَلَيَّ وعلى اثنين من الزملاء بيانات مفصّلة عن سيرة ونهج الفلاسفة المتألّهين المسلمين ، وعن مسلك علماء الأخلاق ، وعن سير وسلوك العرفاء الأجلّاء ، وخاصّة عن أحوال المرحوم الآخوند الملّا حسين قلي الهمدانيّ وتلامذته المبرزين ، كالسيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ والحاجّ الميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ والحاجّ الشيخ محمّد البهاريّ والسيّد محمّد سعيد الحبّوبيّ ، وعن سيرة ونهج المرحوم السيّد ابن طاووس وبحر العلوم ، وعن أُستاذه المرحوم القاضي رحمة الله عليهم أجمعين ، وكانت تلك البيانات مفتاح طريقنا اءلى المعارف الإلهيّة .

وحقّاً ! فإنّنا لو لم نلتقِ بمثل هذا الإنسان ، لكانت أيدينا خالية من كلّ شيء وخسرنا الدنيا والآخرة ؛ **فللّه الحمد وله المنّة** .

أجل ؛ فقد كان ذكرنا وفكرنا الدائميّ ـ إضافة إلى الدروس الرسميّة الحوزويّة من الفقه والأُصول ـ في الاستفادة من محضره الطافح بالبركة ، سواء في الفلسفة أم الأخلاق والعرفان ، أو تفسير القرآن الكريم الذي كان يفسّره بأُسلوب بديع . ودام ذلك لغاية سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعين

هجريّة ، حيث تشرّفت بـالذهاب إلى النـجف الأشـرف لإدامـة التـحصيل وللاستفادة من مدينة العلم : مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام .

وكنّا قد طـلبنا مـنه فـي هـذه الفـترة أن يـدرّسنا «شـرح الفـصوص» للقيصريّ وشرح «منازل السائرين» للملّا عبد الرزّاق القاسانيّ ، فكان يعدنا بذلك دائـماً ، ولكـنّه كـان يـتناول ـ بـدلاً عـنها ـ آيـات القـرآن بـالشرح والتفصيل ، حتّى أدركنا أخيراً أنـّه لا يفضّل تدريس الكتابين المذكورين . بيد أنـّه شرح دورة كاملة في السير والسـلوك عـلى نـهج الرسـالة المـنسوبة لآية الله بحر العلوم ، وكانت بالنسبة لنا في غاية الروعة والتأثير . وفي أيّام العطل كان يشرح لبعض الطلّاب الخواصّ ممّن لا يزيد عددهم عن خمسة عشر شخصاً مراسلات الآيتين العـلميْن : سـيد العـرفاء والمـتألّهين **السـيّد أحمد الكربلائيّ** وشـيخ الفـقهاء الربّـانيّين الحـاجّ **الشـيخ مـحمّد حسـين الإصبهانيّ الكمبانيّ** رضوان الله عليهما ، وبعد البحث والتنقيح كان يـبيّن آراءه بشكل تفصيليّ .

وكان هذا الكتاب عبارة عن أربع عشرة رسالة في التـوحيد الذاتـيّ، السبع الأوّل منها لآيـة اللـه الكـربلائيّ فـي مسـلك التـوحيد عـلى مشـرب العرفاء ،وسبع أُخرى لآية الله الأصبهانيّ في مسلك التوحيد عـلى مشـرب الفلاسفة .

وقد دُوّنت هذه الرسائل كردّ وبدل على بعضها البعض ، حيث جـهّز كلّ واحد منهما وسائله الاستدلاليّة العرفانيّة والفلسفيّة بكلّ ما للكلمة مـن معنى لإبطال مدّعى خصمه في هذه المراسلات ، وتـقرّر أن يـقوم العـلّامة ـ بدوره ـ بكتابة تذييل على كلّ من هذه الرسائل بـعنوان «**مـحاكـمات**» ، فكتب فعلاً إلى التذييل السادس ، وبقيت الرسائل الأُخرى بـدون تـذييل ، وعندما تشرّفت بالذهاب إلى النجف لمـتابعة التـحصيل والدرس لم يكـن

العلّامة قد أتمّ تلك التذييلات فبقيت إلى النهاية دون إتمام ، رغم أنّي طلبتُ منه ذلك عدّة مرّات خلال تشرّفي بلقائي به ، ومع أنّه وعد بذلك ، إلّا أنَّ الشواغل وازدياد التعب والإجهاد لم يتركا له مجالاً لذلك ، إلى أن التحق برحمة الله .[١] نعم ؛ لقد كان سماحة العلّامة آية عظيمة ، ليس فقط في الفلسفة والإحاطة بتفسير القرآن الكريم ، وليس فقط في فهم الأحاديث وإدراك معناها ومرادها سواء الروايات الأُصوليّة أم الفرعيّة ، وليس فقط من ناحية الجامعيّة والشموليّة بالنسبة لسائر العلوم وإحاطته بالمعقول والمنقول ، بل وأيضاً من ناحية التوحيد والمعارف الإلهيّة والواردات القلبيّة والمكاشفات التوحيديّة والمشاهدات الإلهيّة القدسيّة ومقام

١ـ للّه الحمد وله الشكر ، فقد منّ الله على الحقير لإتمام التذييلات وتحريريها وطبعها ونشرها باسم «التوحيد العلميّ والعينيّ» (بالفارسيّة) في الرسائل الحكميّة والعرفانيّة المتبادلة بين الآيتين العلمين : الحاجّ السيّد أحمد الكربلائيّ والحاجّ الشيخ محمّدحسن الأصبهانيّ ، بانضمام تذييلات ومحاكمات الأُستاذ آية الله العلّامة الحاجّ السيّد محمّدحسين الطباطبائيّ أعلى الله مقامه على الرسائل الثلاث الأُولى للسيّد قدّس الله نفسه وللشيخ رحمة الله عليه ؛ مع تذييلات تلميذ العلّامة الطباطبائيّ : السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ على الرسائل الأربع الأخيرة للمرحوم السيّد والمرحوم الشيخ أعلى الله مقامهما.

وجرى في هذه المجموعة تقديم مقدّمة في هويّة أصل الرسائل والعرفاء العظماء الذين تطرّق الحديث عنهم فيها ، وأوردت فيها أيضاً تعليقات على جميع الرسائل وجميع تذييلات ومحاكمات سماحة الأُستاذ وتذييلات الحقير . هذا وقد حوت تذييلات سماحة الأُستاذ ـ واستوعبت بمجموعها خمس رسائل ونصف الرسالة السادسة ـ بعنوان «التذييلات والمحاكمات». أمّا ما جاء من الحقير ، ومجموعه ثمان رسائل ونصف الرسالة السادسة فقد جاء باسم «التذييلات» فقط ، إذ لست ـ عِلماً ولا عملاً ـ في مستوى جرح وتعديل المطالب ومحاكمتها؛ وأصغر من أن أشرح المطالب الغامضة النفيسة وأقدّمها كما فعل العلّامة . لذا تجنّبت إضافة لفظ «المحاكمات» لتتمّة هذه التذييلات ، واكتفيت بذكر المطالب من وجهة نظري بعنوان «تذييلات» وقدّمتها إلى أصحاب الكمال والمعرفة وطالبي العرفان والباحثين عن سُبل السلام والتوحيد .

التمكين واستقرار التجلّيات «والجَلَوات» الذاتيّة في جميع عوالم النفس وزواياها.

وكان يُخيّل لمن جالسه و شاهد صمته المطبق وسكوته المطلق أنَّ هذا الإنسان لا يملك شيئاً في مستودع فكره، بيد أنّه في الحقيقة كان مستغرقاً في الأنوار الإلهيّة والمشاهدات الغيبيّة الملكوتيّة بحيث لم يكن ليجد مجالاً للنزول عنها. وما أعجب جامعيّته لتحمّل تلك الجبال من الأسرار وحفظ الظاهر في مقام الكثرة وإعطاء حقّ العوالم وذوي الحقوق من تدريس الطلّاب وتربيتهم والدفاع عن حريم الدين والسنّة الإلهيّة وقوانين الإسلام المقدّسة وحصن الولاية الكلّيّة الإلهيّة.

ولقد كان **آية الله العلّامة الطباطبائيّ** ـ فضلاً عن جامعيّته وتبحّره في العلوم ـ جامعاً بين العلم والعمل، ذلك العمل المنعكس عن الرشحات النفسيّة والصادر عن طهارة سرّه؛ وكان جامعاً بين العلوم والكمالات الفكريّة وبين الوجدانيّات والأذواق القلبيّة وبين الكمالات العمليّة والبدنيّة، وحقّاً لقد كان رجل الحقّ الذي تحقّق كلّ وجوده بالحقّ.

كان خطّه على نسق «نستعليق»، أي نسخ التعليق، وهو خطّ فارسيّ معروف، وفي الخطّ الفارسيّ «شكسته» من أجمل وأفضل ما خطّه أساتذة فنّ الخطّ؛[1] ورغمّ أنّه أُصيب في أواخر حياته بضعف الأعصاب وحصول

١ـ كان العلّامة أُستاذاً في تشخيص الخطوط القديمة وخطوط أساتذة الفنّ، وكان يعرف خطوط المشهورين بأُسلوب فريد، بحيث كان الأساتذة المختصّين بالخطّ يرجعون إليه أحياناً، فكان يقول على الفور: هذا الخطّ لفلان ـ مثلاً.

وقال لنا أحد أساتذة فنّ الخطّ: أخذتُ يوماً قدراً كبيراً من الخطوط التي لم أتمكّن من تشخيصها، فكان العلّامة يمرّ عليها بسرعة فيدلّ على كاتبها. فكان يقول مثلاً: هذا خطّ المرحوم درويش! وهذا خطّ المير عماد! وهذا خطّ الميرزا غلام رضاكلهر! وهذا خطّ أحمد تبريزي! وهكذا فقد كان يدلّ على كاتب كلٍّ منها ويضع ـ من ثمّ ـ أوراق الخطّ فوق بعضها.

الرجفة في يده ، إلّا أنَّ جوهر خطّه المنطلق من يد مرتعشة كان يحكي عن أُستاذه في هذا الفنّ .

وكان يقول : لقد حفظت بعض المقاطع التي كتبتها أيّام شبابي ، وعندما أنظر إليها أتعجّب منها وأتساءل : أهذا خطّي أنا ؟

وكان للعلّامة اطّلاع على العلوم الغريبة كالرَّمْل والجَفْر ، ولكنّه لم يُرَ ممارساً لها قطّ ؛ كما كانت له مهارة عجيبة في علم الأعداد وحساب الجُمَّل والأبجد وطرقه المختلفة .

وفي الجبر والمقابلة والهندسة الفضائيّة كانت له حصّة وافرة ، إضافة إلى الهندسة المسطّحة والرياضيّات الاستدلاليّة ، وكان أُستاذاً في علم الهيئة القديمة بحيث كان يمكنه استخراج التقويم بسهولة ويُسر . وكما ذكرنا فقد درّسنا دورة كاملة فيه ، ولكن بما أنّني درست الرياضيّات (من الحساب والهندسة وعلم المثلّثات) في المدارس الحديثة إلى حدّ واف ، فلم تكن هناك ضرورة لدراستها عنده .

وكان أُستاذنا قد درس علوم الرياضيّات في النجف الأشرف عند السيّد أبي القاسم الخونساريّ ، الذي كان من أشهر علماء الرياضيّات في عصره . وكان يقول : عندما كانت بعض المسائل الرياضيّة تشكل على بعض الأساتذة في جامعة بغداد ويعجزون عن حلّها ، كانوا يأتون إلى النجف عند أُستاذنا السيّد أبي القاسم فيحلّ لهم ما أبهم عليهم . وكان العلّامة

ثمّ إنّي سألته بعد إكمال المهمّة : حسناً جدّاً ! لقد أوضحتم الأمر جليّاً ، ولكن قولوا ⇦
⇦ الآن : بأيّ دليل تقولون ذلك ؟ وما الحجّة لنا في ذلك ؟

فكان يتناول كلّ واحدة من الأوراق فيذكر أُسلوب كلّ واحد من أساتذة الخطّ ، ثمّ يقول : هذه القطعة تمتلك هذا الأُسلوب وهذه الخصائص !

وكان ذلك ـ بدوره ـ مثيراً لعجبنا جدّاً .

الطباطبائيّ أُستاذاً في الأدب العربيّ وعلم المعاني والبيان والبديع .

أمّا في الفقه والأُصول فقد كان أُستاذاً صاحب ذوق فقهيّ متحرّك قريب للواقع ، وقد درس دورات عديدة في الفقه والأُصول عند أساتذة كالمرحوم آية الله **النائينيّ** والمرحوم آية الله **الكمبانيّ** ، وقد استفاد في الفقه من آية الله **الأصبهانيّ** ، حيث استغرقت دراسته في هذا المجال حوالى عشر سنوات .

وأُستاذه الوحيد في الفلسفة هو ، الحكيم المتألّه المعروف المرحوم **السيّد حسين بادكوبهاى** ، وكان العلّامة قد درس عنده ، هو وأخوه آية الله الحاجّ محمّد حسن الطباطبائيّ الإلهيّ لسنوات متمادية عندما كانا في النجف الأشرف ، وقرءا على يديه «الأسفار» و «الشفاء» و «المشاعر» وغيرها .

كان المرحوم الحكيم بادكوبهاى يولي العلّامة اهتماماً خاصّاً ، وقد أمره أن يدرس الرياضيّات ، لأجل رفع قدرته في الاستدلال والبرهان .

أمّا في المعارف الإلهيّة والأخلاق وفقه الحديث ، فقد درس عند العارف الكبير **الحاجّ الميرزا علي القاضي** قدّس الله تربته الزكيّة ؛ وقد تربّى على يدي هذا الأُستاذ الكامل في السير والسلوك والمجاهدات النفسانيّة والرياضات الشرعيّة .

وكان المرحوم القاضي من أبناء أعمام العلّامة حيث عمل في النجف الأشرف على تربية التلامذة الإلهيّين والصالحين والعاشقين للجمال الإلهيّ والمشتاقين للقاء وزيارة حضرة الأحديّة ، حتّى صار في هذا الفنّ العالم الوحيد ؛ وكان العلّامة يطلق لقب «الأُستاذ» عليه فقط ، وعندما كان يقول «الأُستاذ» بدون قيد فهو يقصد المرحوم القاضي ؛ وكأنّ جميع الأساتذة الآخرين يختفون أمام وجود ذلك المقام والعظمة العلميّة .

أمّا في المجالس العامّة ، فإذا جاء الحديث عن أساتذته ، فلم يكن

يذكر اسم «القاضي» من شدّة الاحترام ، ولم يكن يذكره إلى جانب البقيّة من الأساتذة ، كما نلاحظ في المقالة الوجيزة التي كتبها عن حياته ، ونشرت في مقدّمة مجموعة المقالات والرسائل التي طبعت تحت عنوان «دراسات إسلاميّة» فلم يذكر اسم المرحوم القاضي إلى جانب الأساتذة .

كما لا نشاهد شيئاً عن إحيائه الليالي والعبادات والاعتكافات في مسجدي السهلة والكوفة ؛ وهنا ذكر أنّه كثيراً ما كان يحدث أن تطلع عليه الشمس بعد الليل وهو مستغرق في المطالعة (وخاصّة في الربيع والصيف) .

ومن الواضح أوّلاً : كم يكون الحديث عن العبادات وإحياء الليالي بالتهجّد والذكر والفكر أمراً تافهاً ولا قيمة له ، وخاصّة في مقال عامّ للناس ، وبالأخصّ عن أُستاذ لم يقدم خطوة واحدة نحو الجاه والحظوة ؛ وقد أحرق كلّ جذور حبّ الظهور والأنانيّة في وجوده .

ثانياً : في الوقت الذي يرى الأُستاذ أنَّ أحد الشروط الحتميّة لطي طريق الله هو كتمان السرّ ، كيف نحتمل أن يفشي عباداته المستحبّة التي هي سرّ بينه وبين ذات الحيّ القيّوم ليجعلها بمتناول أيدي الجميع ؟! وهكذا أخفى سائر عباداته المستحبّة واللازمة مثلما استثنى الحديث عن صلاة الصبح في ذلك الكلام الوجيز .

بيد أنّه لم يكن ليبخل عن ذكر ذلك الرجل العظيم في المحلّ المناسب ، بل كان يتحدّث عنه بتجليل وتكريم خاصّ ، كما جاء في المقدّمة التي كتبها على تعليقاته بعنوان «محاكمات» لرسائل العلَمَين : الكربلائيّ والكمبانيّ حيث يقول : «... وفي النهاية خضع (السيّد أحمد الكربلائيّ) لتربية المرحوم آية الحقّ وأُستاذ العصر ، الشيخ الأكبر الآخوند **الملّا حسين قلي الهمدانيّ** قدّس الله سرّه العزيز ، ولازمه لسنوات عديدة ، وأصبح من السابقين المتقدّمين ؛ وفي النهاية دخل في زمرة التلامذة

الأوائل الذين تربّوا على يديه ؛ ووصل إلى المرتبة الراسخة والمقام الأمين في العلوم الظاهريّة والباطنيّة .

وبعد وفاة المرحوم الآخوند ، اختار الإقامة عند عتبة النجف الأشرف المقدّسة واشتغل بدراسة الفقه ، وكانت له في المعارف الإلهيّة وتربية الناس وإرشادهم أياد بيضاء .

وقد استطاع جمع كثير من الأعلام والصالحين أن يدخلوا في دائرة التكامل ، ويطووا بساط الطبيعة ببركة تربية ذلك الإنسان العظيم ، وأن يصبحوا من سكّان دار الخلد ومحارم حريم القرب ! من جملتهم السيّد الأجلّ آية الحقّ ونادرة الدهر ، العالم العابد والفقيه المحدّث والشاعر المُفلِق سيّد العلماء الربّانيّين المرحوم **الحاجّ الميرزا علي القاضي الطباطبائيّ التبريزيّ** (المولود سنة ١٢٨٥ هـ والمتوفّي سنة ١٣٦٦ هـ) الذي كان أُستاذ هذا الأفقر في المعارف الإلهيّة وفقه الحديث والأخلاق . رفع الله درجاته السامية وأفاض علينا من بركاته» ـ انتهى كلام أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه .

لقد كان أُستاذنا يحمل في قلبه عشقاً شديداً لأُستاذه ، وحقّاً كان يرى نفسه صغيراً أمامه ؛ ويلمس في سيماء المرحوم القاضي عالماً من العظمة والبهاء وأسرار التوحيد والملكات والمقامات .

في أحد الأيّام قدّمت له عطراً ، فحمله بيده ، وقال بعد تأمّل : لقد رحل أُستاذنا المرحوم القاضي منذ سنتين ؛ ومنذ ذلك الحين لم أتطيّب حتّى الآن . وإلى الفترة الأخيرة أيضاً كنت كلّما قدّمت له عطراً ؛ كان يفلقه ويضعه في جيبه . ولم أره قد تعطّر ، رغم انقضاء أكثر من ٣٦ سنة على وفاة أُستاذه .

والمدهش تساوي عمر العلّامة مع أُستاذه القاضي ؛ فقد عاش كلّ

منهما ٨١ سنة .

فقد ولد سنة ١٣٢١ هـ[١] وتوفّي صباح الأحد الواقع في الثامن عشر من محرّم الحرام سنة ١٤٠٢ هـ قبل الظهر بثلاث ساعات ، (فعمره ٨١ سنة) كما في حياة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ووصيّه أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فقد عاش كلّ منهما ٦٣ سنة .

كان العلّامة الأُستاذ يقول :

عندما تشرّفت بالذهاب إلى النجف الأشرف للدراسة ، كنت من حين لآخر أزور المرحوم القاضي للقرابة والرَّحِميّة الموجودة بيننا ، حتّى جاء ذلك اليوم الذي كنت فيه واقفاً على باب المدرسة والتقيت به عابراً ، فلمّا وصل إليّ وضع يده على كتفي وقال : «يا بني ! إذا كنت تريد الدنيا فعليك بصلاة الليل ؛ وإذا كنت تريد الآخرة فعليك بصلاة الليل ! » .

ولقد أثّر فيّ هذا الكلام إلى الدرجة التي جعلتني لا أترك محضره

١ـ ذكر العلّامة الحاجّ الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ رحمة الله عليه في «نقباء البشر» ج ٤ تحت الرقم ٢٠٨٠ ص ١٥٦٥ و ١٥٦٦ في ترجمة أحوال المرحوم القاضي قدّس الله سرّه، أنَّ ولادته كانت في ١٣ ذي الحجّة من سنة ١٢٨٥ ، ورحلته في ٦ ربيع الأوّل سنة ١٣٦٦ هجريّة.

ولد العلّامة في التاسع والعشرين من ذي القعدة لسنة ألف وثلاثمائة وإحدى وعشرين هجريّة... في قرية «شادگان» من توابع تبريز ، ولأنّ والدته رحلت عن الدنيا أثناء وضع أخيه المرحوم السيّد محمّد حسن الإلهيّ الطباطبائيّ وكان للمرحوم العلّامة آنذاك خمس سنوات فيتّضح أنَّ فرق السنّ بين الأخوين كان خمس سنوات .

بعد أن أنهى العلّامة آية الله الطباطبائيّ رحمة الله عليه مدّة تحصيلاته من المقدّمات والسطوح، عزم السفر إلى النجف الأشرف حيث كان يحضر لمدّة عشر سنوات دروس الأساتذة أمثال آية الله الشيخ محمّد حسين النائينيّ ، وآية الله الشيخ محمّد حسين الغرويّ الأصفهانيّ المشهور بالكمبانيّ ، وآية الله السيّد حسين بادكوبهاى وآية الله السيّد أبوالحسن الأصفهانيّ . وبعد أن نال مقام الاجتهاد في سنة ١٣٥٤ رجع إلى تبريز وبقي فيها عشر سنوات كان فيها مشغولاً بالتدريس . وفي سنة ١٣٦٥ هاجر إلى بلدة قم الطيّبة حيث كان مقيماً فيها.

طوال خمس سنوات حتّى رجوعي إلى إيران ؛ ولم أفرّط بلحظة واحدة استطعت فيها أن استفيدُ من فيضه . وقد تأصّرت علاقاتنا منذ رجوعي إلى الوطن حتّى رحيله ، وكان يلقي عَلَيَّ تعاليمه وإرشاداته كأُستاذ مع تلميذه ، وكنّا نراسل بعضنا البعض .

وكان العلّامة يقول :

«إنَّ كلّ ما عندنا هو من المرحوم القاضي» . لقد كان المرحوم القاضي من المجتهدين العظام ، ولكنّه كان ملتزماً بالتدريس في بيته ؛ وقد درّس دورات عديدة في الفقه . وكان يقيم صلاة الجماعة بطلابه في بيته ، فكانت صلاته في غاية السكينة وتستغرق وقتاً طويلاً . وبعد صلاة المغرب التي كان يقيمها عند أوّل استتار الشمس تحت الأُفق ، كان يواظب على التعقيبات حتّى وقت العشاء حيث يقوم للصلاة ليستغرق فيها طويلاً .

كان الطلّاب في شهر رمضان المبارك يأتون لإدراك صلاة المغرب جماعة معه ، ولأنَّ البعض منهم لم يكن يصلّي قبل ذهاب الحمرة المشرقيّة من جهة الرأس ، كان يطلبون منه أن يتمهّل قليلاً ؛ وكان يقبل ، ولكنّ السماور [1] كان مجهّزاً ، فبمجرّد استتار القرص كان المرحوم يبادر إلى الإفطار .

في الأيّام العشرين الأُوَل من شهر رمضان ، كانت الليالي تتحوّل إلى مجالس التعليم والأُنس ؛ وكان الطلّاب يحضرون مجلسه بعد مرور أربع ساعات من الليل ليطول جلوسهم إلى ساعتين إضافيّتين . أمّا في العشر الأواخر من الشهر ، فقد كان المرحوم يوقف التدريس ويغيب عن الأنظار حتّى آخر الشهر المبارك ؛ ومهمّا كان الطلّاب يبحثون عنه في النجف وفي

١ـ السماور ، وعاء لغلي الماء : يستعمل عادة لإعداد الشاي . (م)

مسجد الكوفة وفي مسجد السهلة أو في كربلاء لم يكونوا ليعثروا له على أي أثر . وكان هذا نهج المرحوم طوال سنواته حتّى رحيله .

لم يكن للمرحوم القاضي من نظير في اللغة العربيّة ؛ ويقال : إنّه حفظ أربعين ألف كلمة . وكان ينشد الشعر العربيّ بطريقة لم يكن العرب يتصوّرون أنّه أعجميّ .

و روى أنّه كان مع المرحوم آية الله الحاجّ الشيخ عبد الله المامقانيّ رحمة الله عليه في إحدى جلسات المباحثة ، فقال له الشيخ : إنَّ لي تسلط على اللغة العربيّة وأشعارها بحيث أستطيع أن أميّز من ينشد الشعر العربيّ إذا كان عجميّاً حتّى ولو كان شعره في أعلى مستوى من الفصاحة والبلاغة .

فبدأ المرحوم القاضي يقرأ قصيدة لأحد الشعراء العرب ، ثمّ أضاف بداهة عدّة أبيات من تأليفه وقال له : أيّ الأبيات التي ليست للعرب ؟ فلم يستطع تحديدها .

وكان للمرحوم القاضي باع طويل في تفسير القرآن الكريم ومعانيه ، وكان أُستاذنا المرحوم العلّامة الطباطبائيّ يقول : إنَّ هذا الأُسلوب الذي يفسّر الآية بالآية قد تعلّمناه من المرحوم القاضي ونحن ننهج نهجه في التفسير . أمّا بالنسبة لفهم معاني الروايات المنقولة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام فقد كان يمتلك ذهناً وقّاداً ومعرفة واسعة ، وقد تعلّمنا منه طريقة فهم الأحاديث التي يقال لها : «فقه الحديث» .

كان المرحوم القاضي في تهذيب النفس والأخلاق والسير والسلوك في المعارف الإلهيّة ، والواردات القلبيّة ، والمكاشفات الغيبيّة السبحانيّة ، والمشاهدات العينيّة ، فريد عصره ووحيد دهره وسلمان زمانه وترجمان القرآن .

لقد كان كالطود الشامخ الذي حوى نبع الأسرار الإلهيّة ، يقوم بتربية

الطلّاب في هذا المجال . يتحلّقون حوله في المجالس الخاصّة التي كان يقيمها في منزله لأيّامٍ وكانوا يستمعون نصائحه ومواعظه وإرشاداته لساعة من الزمن .

وبِيُمْن تربيّته في المراحل المختلفة ، استطاع أفراد كثيرون أن يتقدّموا في مسير الحقيقة ، ليصبحوا من أصحاب الكمالات والمقامات ؛ ويدخلوا في الصالحين والأحرار والأطهار ؛ ويتنوّروا بنور معرفة التوحيد ، ويَرِدوا إلى الحرم الآمن ، طاوين بساط عالم الكثرة والاعتبار .

ومن جملتهم أُستاذنا المعظّم العلّامة الطباطبائيّ وأخوه الفاضل آية الحقّ المرحوم الحاجّ السيّد محمّد حسن الإلهيّ رحمة الله عليهما اللذان كانا رفيقين وشريكين في جميع المراحل والمنازل ، كالفرقدين متلازمين ، وحبيبين يتشاطران هموم الحياة .

ومنهم أيضاً **الحاجّ الشيخ محمّد تقي الآمليّ** ، **والحاجّ علي محمّد البروجرديّ** ، **والحاجّ علي أكبر المرنديّ** ، **والحاجّ السيّد حسن المَسْقَطقيّ** ، **والحاجّ السيّد أحمد الكشميريّ** ، **والحاجّ الميرزا إبراهيم السيستانيّ** ، **والحاجّ الشيخ علي القسّام** ، ووصيّه المحترم الأُستاذ آية الله **الحاجّ الشيخ عبّاس هاتف القوچانيّ** الذين كان كلّ واحد منهم نجماً ساطعاً في سماء الفضيلة والتوحيد والمعرفة ؛ شكر الله مساعيهم الجميلة .

أمّا المرحوم القاضي رضوان الله عليه فقد كان في أُمور المعرفة تلميذاً عند أبيه المرحوم آية الحقّ السيّد حسين القاضي الذي كان من أشهر تلامذة المرحوم المجدّد آية الله الحاجّ الميرزا محمّد حسن الشيرازيّ رحمة الله عليه ، وهو تلميذ المرحوم آية الحقّ إمام قُلي النخجوانيّ ، وهو تلميذ آية الحقّ السيّد قريش القزوينيّ .

ويروى أنَّ المرحوم السيّد حسين القاضي كان عندما همّ بالرجوع من

سامراء إلى مسقط رأسه في آذربيجان، حضر عند المرحوم المجدّد لوداعه فأوصاه؛ وقدّم له نصيحة قائلاً: اجعل لنفسك في كلّ يوم ساعة واحدة **!**

لقد أصبح السيّد حسين في تبريز متوغّلاً في الأُمور الإلهيّة إلى الدرجة التي يحكي فيها أنّه عندما سافر تجّار من تلك المدينة إلى سامراء وحضروا للقاء المرحوم الميرزا الشيرازيّ، سألهم عن أحوال السيّد القاضي؛ فقالوا له: إنَّ تلك الساعة التي نصحته بها قد سيطرت على جميع أوقاته؛ وهو لا يترك مناجاة ربّه في الليل والنهار.

ولكن، بما أنَّ المرحوم القاضي جاء إلى النجف فقد تعلّم وتربّى على يدي المرحوم آية الحقّ **السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ**، ليطوي الطريق تحت مراقبته.

وقد لازم المرحوم القاضي المرحوم العابد الزاهد والناسك، وحيد عصره **الحاجّ السيّد مرتضى الكشميريّ** رضوان الله عليه وصاحبه لسنوات متمادية، ولم يكن ذلك تلمذة، بل ملازمة واستفادة من الأحوال ومشاهدة الحالات والواردات القلبيّة. وممّا لا شكّ فيه أنَّ هناك اختلافاً واسعاً بين هذين العظيمين في السلوك العرفانيّ.

فطريقة آية الحقّ السيّد أحمد الكربلائيّ في التربية هي طبق نظريّة أُستاذه المرحوم الآخوند حسين قُلي الهمدانيّ، وتقوم على أساس معرفة النفس. ولأجل الوصول إلى هذا المرام، كانوا يعتبرون المراقبة من أهمّ الأُمور. وكان الآخوند تلميذاً لآية الحقّ والفقيه العظيم المرحوم **السيّد علي الشوشتريّ** الذي كان أُستاذ الشيخ مرتضى الأنصاريّ في الأخلاق وتلميذه في الفقه.[١]

١ـ كان المرحوم الشيخ الأنصاريّ رحمة الله عليه قد أوصى أن يصلّي على جثمانه

كان المرحوم القاضي يعطي توجيهاته وتعليماته الأخلاقيّة لكلّ واحد من تلاميذه بطريقة خاصّة طبق الموازين الشرعيّة مع رعاية الآداب الباطنيّة للأعمال وحضور القلب في الصلاة والإخلاص في الأفعال ؛ وكان بذلك يعدّ قلوبهم لتلقّي إلهامات عالم الغيب .

وكان يمتلك حجرة في مسجد الكوفة وأُخرى في مسجد السهلة ، وكان في بعض الليالي يبيت لوحده فيهما ؛ ويوصي تلامذته أيضاً بأن يبيتوا بعض الليالي في مسجد الكوفة أو السهلة للعبادة .

وكان يوصي تلامذته بعدم الالتفات إلى ما يمكن أن يحدث أثناء الصلاة أو قراءة القرآن أو الذكر والتفكّر ، من مشاهدة الصور الجماليّة أو ظهور بعض الحالات الأُخرى لعالم الغيب ؛ ويأمر بضرورة الاستمرار بالعمل ! وكان **الأُستاذ العلّامة** يقول : كنت جالساً ذات يوم في مسجد الكوفة مشغولاً بالذكر ؛ وفي تلك الأثناء أقبلت حوريّة من حوريّات الجنّة

المرحوم السيّد علي الشوشتريّ . ولذا فقد صلّى عليه المرحوم الشوشتريّ بعد رحيله، ⇦
⇦ وجلس على مسنده للتدريس . وتابع نفس الدروس التي كان يعطيها الشيخ إلى ستّة أشهر حتّى وافاه الأجل .

ينقل سماحة شيخ الفضلاء العظام آية الله الحاجّ ميرزا هاشم الآمليّ آدام الله أيّامه عن أُستاذه المرحوم آية الله الشيخ ضياء الدين العراقيّ رحمة الله عليه ، عن أُستاذه المرحوم آية الله الآخوند ملّا محمّد كاظم الخراسانيّ رحمة الله عليه أنّه كان يقول : عندما كنّا نذهب لدرس الشيخ كان بين الحاضرين سيّد موقّر وصامت يجلس في الزاوية ، ورغم أنَّ الكثير من تلامذة الشيخ كانوا يتكلّمون خلال البحث إلّا أنّه لم يكن يقول شيء أبداً . وكنّا نظنّ أنّه رجل غير بصير ولا فهيم ، وقد حضر لأجل عظمة درس الشيخ فقط ، ولذا يبقى صامتاً .

ولكن بعد رحلة الشيخ ، فقد جلس مكانه وتابع نفس الدرس ، وكنّا نتواجد في محضره، وعجباً ما رأينا ... بحر زاخر .. في التحقيق ، والتوفيق وسعة الاطّلاع ، وقوّة الفكر ودقّة النظر !

لقد أدرك المرحوم الخراسانيّ درس الشيخ لمدّة سنتين .

من جانبي الأيمن في يدها كأساً من شراب الجنّة وقدّمته لي وعرضت نفسها عَلَيَّ ، وعندما أردت أن ألتفت إليها تذكّرت فجأة كلام الأُستاذ ؛ ولهذا أعرضت ببصري عنها ، فقامت وأتتني من الجانب الأيسر ، وكرّرتُ الإعراض عنها بلطف ولم أعتني بها ، ورجعت إلى نفسي ؛ فتألّمت تلك الحوريّة وذهبت .

وإلى الآن كلّما تذكّرت ذلك المشهد أتأثّر من تألّم تلك الحوريّة .

كان المرحوم القاضي آية رائدة في العمل ؛ ويروي أهل النجف عنه خصوصاً أهل العلم منهم قصصاً عديدة ، فقد كان يعيش في منتهى الفقر والفاقة مع عائلة كبيرة جدّاً . لكنّه كان غارقاً في بحر التوكّل والتسليم والتفويض والتوحيد إلى الدرجة التي لم تخرجه هذه العائلة عن مسيره بقدر شعرة واحدة .

وقد ذكر لنا أحد أصدقائنا النجفيّين ، وهو حاليّاً من أعلامها ، أنّه كان ذاهباً في أحد الأيّام إلى دكّان الخضار ؛ فرأى المرحوم القاضي منحنيّاً يفتّش بين الخسّ ؛ ولكن ـ خلافاً للمعهود ـ كان يأخذ تلك الذابلة ذات الأوراق الخشنة والكبيرة .

يقول : وكنت أُراقبه بدقّة ؛ حتّى أعطاها إلى البائع فوزنها ثمّ دفع الحساب ، ووضع الخسّ تحت عباءته وخرج .

وفي ذلك الوقت كنت طالباً فتيّاً والمرحوم القاضي رجلاً مسنّاً ، وغدوت وراءه لأسأله : سيّدي أنت قد أخذت هذا الخسّ الرديء ، بعكس ما يفعله الجميع ؟

فقال لي : يا عزيزي ! إنَّ هذا البائع فقير مسكين ، وأنا أُساعده من حين إلى حين آخر ؛ ولا أُريد أن أعطيه شيئاً بدون عوض لكي لا يهدر ماء وجهه وعزّته وكرامته أوّلاً ؛ ولئلّا يعتاد لا سمح الله على الأخذ المجّاني ،

فيكسل عن الكسب والتحصيل ثانياً ؛ وبالنسبة لنا لا يوجد فرق فيما لو أكلنا الخسّ الطريّ والصغير أو هذا الخسّ ، وكنت أعلم أنَّ أحداً لن يشتريها ، وعند حلول الظهر سوف يغلق محلّه[١] ويعود ، فبادرت لشرائها لكي أمنع عنه الضرر .

أجل ؛ فإنَّ الحديث عن فضائل المرحوم القاضي الأخلاقيّة يطول ، وإذا أردنا أن نذكرها هنا لخرجنا عن أساس المطلب .

أمّا نسب أُستاذنا العلّامة فإنّه من جهة الأب يعود إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، وهو من سلالة إبراهيم بن إسماعيل الديباج .

ومن جهة الأُمّ من أولاد الإمام الحسين عليه السلام . ولهذا نجده في آخر كتبه التي ألّفها في شادآباد تبريز يختم الكلام بالتوقيع التالي : «السيّد محمّد حسين الحسنيّ الحسينيّ الطباطبائيّ» .

فهو : السيّد محمّد حسين بن السيّد محمّد ، بن السيّد محمّد حسين[٢] ،

١ـ يعمد الباعة في النجف الأشرف ظهراً إلى إغلاق دكاكينهم آخر الربيع وفي الصيف لشدّة الحرّ .

٢ـ آية الله الحاجّ السيّد محمّد علي القاضي الطباطبائيّ رحمة الله عليه (وهو ابن عمّ أُستاذنا السيّد العلّامة ، في ص ٢٢٥ ضمن تعليقة له على كتاب «جنّة المأوى» لكاشف الغطاء قائلاً: هناك رسالة مستقلّة في مسألة البداء لعمّنا العلّامة المجتهد الأكبر السيّد ميرزا محمود شيخ الإسلام قد سمّاها باسم «إبداء البداء» وقد طبعت سنة ١٣٠٢ هجريّة قمريّة في طهران مع رسالة «مسائل الدعاء» التي هي أيضاً من تأليفه .

وقد أورد العلّامة الكبير الحاجّ الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ رحمة الله عليه في «الذريعة» ج ١، ص ٦٤، تحت عنوان «الأبد» الرقم ٣١١ : أنَّ «إبداء البداء» في حقيقة القضاء والقدر وتحقيق مسألة البداء التي طبعت هي من تأليف السيّد الأجلّ الحاجّ ميرزا محمود بن شيخ الإسلام الميرزا علي أصغر الطباطبائيّ التبريزيّ المتوفّي بالوباء في مكّة المعظّمة سنة ١٣١٠.

ويستنتج من كلام هذين العلمين أنَّ مؤلّف كتاب «إبداء البداء» هو شقيق المرحوم

ابن السيّد عليّ الأصغر ، ابن السيّد محمّد تقي القاضي ، ابن الميرزا محمّد القاضي ، ابن الميرزا محمّد علي القاضي ، ابن الميرزا صدر الدين محمّد ، ابن الميرزا يوسف نقيب الأشراف ، ابن الميرزا صدر الدين محمّد ، ابن مجد الدين ، ابن السيّد إسماعيل ابن الأمير علي أكبر ، ابن الأمير عبد الوهّاب[1] ابن الأمير عبد الغفّار ، ابن السيّد عماد الدين أمير الحاجّ ابن فخر الدين حسن ، ابن كمال الدين محمّد ، ابن السيّد حسن ، ابن شهاب الدين عليّ ، ابن عماد الدين عليّ ، ابن السيّد أحمد ، ابن السيّد عماد ابن أبي الحسن عليّ ، ابن أبي الحسن محمّد ، ابن أبي عبد الله أحمد ، ابن محمّد الأصغر (المعروف بابن خزاعيّة) ابن أبي عبد الله أحمد ، ابن إبراهيم

السيّد محمّد حسين وهو جدّ الأُستاذ السيّد العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه ، أي شقيق جدّه الذي هو عمّ أبيه .

١ـ آية الله الحاجّ السيّد محمّد علي القاضي الطباطبائيّ رضوان الله عليه ، ابن عمّ الأُستاذ السيّد العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله تربته الزكيّة ، وهو من الشخصيّات العلميّة وله معرفة سابقة بالحقير ، حيث كنّا معاً في مرحلة واحدة في حوزة قم والنجف العلميّة ، وهو رجل محقّق وصاحب تصنيفات نفيسة وممتعة ، وقد كتب في تعليقته على كتاب «الفردوس الأعلى» من تصنيف آية الله الحاجّ الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء رضوان الله عليه ص ٦٥ : الشاه إسماعيل بن السلطان حيدر الموسويّ الصفويّ من كبار سلاطين الشيعة الإماميّة المتولّد سنة ٨٩٢ هجريّة . أُمّه هي ابنة جدّنا : السلطان حسن بيك آق قوينلو المعروف بأوزن الحسن ، ولأنَّ والد الشاه إسماعيل : حيدر كان ابن أُخت حسن بيك وصهره زوج ابنته أيضاً ...

وكذلك جدّنا الفقيه المعروف والمشهور «شيخ الإسلام» الشهيد في أعماق السجون وظلمات السراديب الأمير عبد الوهّاب الحسين الطباطبائيّ قدّس الله سرّه كان هو الآخر صهر حسن بيك ... ويمكن الحصول على تفصيل هذه المطالب في كتابنا «عائلة عبد الوهّاب» ـ انتهى.

ويمكن الإفادة من هذا بأنَّ نسب الأمير «عبد الوهّاب» يكون في السلسلة الثالثة عشر من أجداد السيّد العلّامة الطباطبائيّ ... وقد كان عديل السلطان حيدر والد الشاه إسماعيل... وأولادهما الأمير علي أكبر والشاه إسماعيل يكونان أولاد خاله بعضهما البعض.

الطباطبائيّ ، بن إسماعيل الديباج ، بن إبراهيم الغَمْر ، بن الحسن المثنّى ، بن الإمام أبي محمّد الحسن المجتبى ، بن الإمام الهمام عليّ بن أبي طالب عليه وعليهم السلام .

ولأنَّ أُمّ إبراهيم الغَمْر هي فاطمة بنت الإمام الحسين سيّد الشهداء عليه السلام ، لهذا فإنَّ السادة الطباطبائيّين الذين يرجعون إلى إبراهيم الطباطبائيّ الذي هو حفيد إبراهيم الغَمْر ، جميعهم حسينيّون من جهة الأُمّ .

أمَّا المرحوم السيّد القاضي رضوان الله عليه ، فهو ابن السيّد ميرزا حسين القاضي ، بن الميرزا أحمد القاضي ، بن الميرزا رحيم القاضي ، بن الميرزا تقي القاضي ؛ وهو الجدّ الثالث للمرحوم . وكذلك الجدّ الثالث للعلّامة الطباطبائيّ ، وهكذا يعلم نسبه أيضاً .

في سنّ الواحد والعشرين صحّح المرحوم السيّد القاضي كتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد (سنة ١٣٠٦ هـ) وكتب بخطّ محمّد بن حسين التبريزيّ في السابع عشر من شهر ربيع سنة ١٣٠٨ ليطبع بعد ذلك . وقد كتب المرحوم في آخره سلسلة نسبه الشريف بنفس الطريقة التي أوردناها هنا ، وصولاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد سألت أُستاذي المعظّم العلّامة الطباطبائيّ عن تصحيح إرشاد المفيد بقلم المرحوم القاضي والطبعة المصحّحة له وسلسلة نسبه فأيّد كلّ ذلك ؛ وأضاف : أنَّ المرحوم الميرزا السيّد تقي الطباطبائيّ القاضي ، هو جدّنا الثالث معاً . ومن بعده نشترك في النسب الواحد .

كان آباء وأجداد العلّامة من العلماء الأعلام حتّى الجدّ الرابع عشر . وكان الجدّ السادس المعروف بالسيّد الميرزا محمّد عليّ القاضي قاضي القضاة في منطقة في آذربيجان ، وقد وَسِعَ علمه وفقهه وقضاؤه كافّة

المنطقة ؛ وعلى هذا الأساس لقّب بالقاضي ، وانتقل هذا اللقب إلى أولاده من بعده .

لقد فقد **العلّامة الطباطبائيّ** أُمّه في السنة الخامسة من عمره ، ولم يصل إلى السنة التاسعة حتّى فقد أباه أيضاً ؛ ولم يكن له منهما إلّا أخ واحد هو **السيّد محمّد حسن** .

وحفاظاً على حياتهما من التداعي ، تابع وصيّهما رعايتهما كسابق الحال ؛ واستخدم لأجل ذلك خادماً وخادمة [1] ، وأشرفا بشكل مستمرّ على أُمورهما بدقّة . حتّى كبرا وأنهيا دراستهما الابتدائيّة وتابعا دراسة المقدّمات في تبريز ؛ [2] وحصل كلّ واحد منهما على قدرة فائقة وفنّ رائق في الخطّ .

١ـ كان اسم ذاك الخادم كربلائي قُلي ، واسم تلك الخادمة سلطنة خانم ، يقول حضرة الأُستاذ: لقد اصطحبنا الخادم والخادمة معنا عندما تشرّفنا أنا وأخي والعائلة إلى النجف الأشرف للتحصيل ، وبعد عشرة أيّام كان كربلائيّ قلي قد ذهب إلى السوق لشراء بعض الأشياء الضروريّة كالخبز والخضار واللحم ... وعندما رجع كان متحيّراً متعجّباً يقول : أيّها السيّد ! أيّها السيّد ! تعال انظر وشاهد هؤلاء الأطفال ذوو الثلاث والأربع سنوات يتكلّمون مع بعضهم اللغة العربيّة في الأزقّة .

٢ـ في اليوم الثالث من شهر جمادى الأُولى لسنة ألف وأربعمائة وسبع هجريّة، حصل لي توفيق الحضور واللقاء بالصديق الكبير الكريم سماحة آية الله الحاجّ الشيخ صدرالدين الحائريّ الشيرازيّ دامت بركاته حين تشرّف لزيارة مشهد المقدّسة...

وقد ذكر أحد المطالب عن أُستاذنا الأعظم ، رأيت من المستحسن أن أُسجّل هنا ، قال: كنت قد سمعت من أخ زوجتي سماحة حجّة الإسلام الحاجّ الشيخ حسن آقا البهلوانيّ النمكيّ أطال الله عمره أنّه كان ينقل عن العلّامة قوله : إنَّه عندما كان صغيراً كان فكره لا يستوعب جيّداً ولم يكن يفهم مطالب الأُستاذ كما يجب حتّى ذهب أخيراً إلى صحراء وسجد متوسّلاً بالله سبحانه وتعالى قائلاً : أمّا الموت أو الفهم .

وكنت أترصّد الفرصة المناسبة حتّى أسأله عن هذا الموضوع لتتوضّح هذه المسألة لأنّها تتعلّق بعدم فهمه ، وحتّى لا تصدر كلمات وجملات فيها سوء أدب لا تليق بشأنه ومقامه، إلى أن جاء العلّامة في سفر إلى شيراز مع صهره المرحوم حجّة الإسلام القدّوسيّ ... انتهزت فرصة هدوء المجلس بتمام معنى الكلمة حيث كنت جالساً لوحدي معه ، وكان

كان المرحوم الأُستاذ يقول: كنت أخرج في أغلب الأيّام أنا وأخي من تبريز إلى سفوح الجبال والتلال الخضراء، لنتسلّى بكتابة الخطّ من الصباح إلى الغروب، ومن بعدها هاجرنا سويّاً إلى النجف الأشرف.

السيّد القدّوسيّ يصلّي في الغرفة المجاورة، وابتدأت تدريجيّاً بطرح المسألة، إذ قلت: هل أنت مستعدّ للإجابة إذا كان عندي سؤال؟ قال: وما الضرر في ذلك، إن كنت أعلم أُجيب. ⇦

⇦ قلت: المسألة تتعلّق بكم شخصيّاً، إذا كنت حتماً تعرف وتجيب أسأل، وإلّا أصرف النظر عن سؤالي ... قال: إن كنتُ أعرف أُجيب. قلت: لقد سُمع أنّه عندما كنت في سنّ الطفولة لم تكن تدرك الدروس حتّى سجدت بعدها سجدة فشملتك عناية الله سبحانه تعالى حتّى استطعت أن تحصل على جواب أصعب المسائل العلميّة، أكان ذلك ...؟ وما إن قلت هذه الجملات حتّى رأيت حالة العلّامة قد تغيّرت وأصبح لون وجهه متجهّماً لدرجة أنّني خجلت إلى حدّ ما من سؤالي، قال وهو في هذه الحال: والآن حيث لابدّ من الإجابة حسب الاتّفاق، أقول:

عندما كنت أدرس كتاب «السيوطيّ» في تبريز أجرى لنا أُستاذنا امتحاناً لم أُوفّق فيه، فقال لي الأُستاذ: لا تعطّل نفسك ولا تعطّلنا ... وقد انفعلت جدّاً من كلام الأُستاذ هذا وكأنّه قد وقع في نفسي وروحي، حتّى أنّني لم أستطع البقاء في المدينة وخرجت من تبريز إلى قم، حيث قمت بعمل وتفضّل الله عَلَيّ، ولم يذكر هل كان ذاك العمل السجدة أم عمل آخر. وسكت ولم يقل شيئاً. فقلت له: من ذلك الوقت لم يبق لديك أيّ مسألة لا تنحلّ، ومهما كانت عويصة تجد لها حلّاً ... أجاب: إلى الآن هذا ما حصل ـ انتهى كلام آية الله الحائريّ.

وفي يوم الأربعاء الثالث من شهر ربيع الأوّل سنة ١٤١٠ هجريّة شرّف الصديق الكريم والحبيب المكرّم آية الله الحاجّ الشيخ عبد الحميد الشربياتيّ دامت بركاته إلى منزل الحقير في مشهد المقدّسة الرضويّة سلام الله على شاهدها ... ولأنّه من تبريز، فقد كان مطّلعاً على وقائع حياة حضرة العلّامة الأُستاذ بكاملها من عائلته وأُسرته وأرحامه وكان على علم بهذه القصّة، وقد نقلها طبقاً لما ذُكر سابقاً، وأضاف: لقد قال العلّامة: بعد هذا العمل كتبت حاشية في تلك الليلة على حاشية أبي طالب التي كتبها على كتاب «السيوطيّ» وقال: إنّ أُستاذأخيه السيّد محمّد حسن الإلهيّ الذي كان يعلّمهما كتاب «السيوطيّ» هو الشيخ محمّدعلي السرابيّ، الذي كان قد عيّنه: خالهما السيّد محمّد باقر القاضي والد السيّد صديقنا الشهيد المتوفّي آية الله الحاجّ السيّد محمّد علي القاضي القيِّم والوصيّ عليهما من أبيهما.

وفي جميع المراحل وطي المنازل العلميّة والعمليّة ، لم يفارق أحدهما الآخر ، وبقيا معاً رفيقين شفيقين في السرّاء والضرّاء ،كأنّهما حقّاً روح واحدة في جسدين .

كان آية الله الحاجّ السيّد محمدّ حسن الطباطبائيّ يشبه أخاه من جميع الجوانب . في نهجه ومسلكه ، وسعة صدره وعلوّ همّته ، وحياته العرفانيّة المليئة بالزهد الحقيقيّ ، والبعد عن أبناء الزمان وأهل الدنيا مقرونة بالتفكّر والتأمّل ، والإدراك والبصيرة ، والتعلّق بحضرة الأحديّة ، والأُنس والأُلفة في زوايا الخلوات .

ومن جهة أُخرى فقد عُرف بقدرته الفكريّة الواسعة ، وعشقه للشرع المطهّر وأهل بيت العصمة ، والإيثار والتجاوز والصبر على نهجهم ؛ وإعلاء كلمة الحقّ ، وخدمة الفقراء والمستضعفين ،كان أُنموذجاً بارزاً مشهوراً في أنحاء تبريز وآذربيجان ؛ وكانت قداسته وطهارته موضع حديث الخاصّ والعامّ في تلك المنطقة .

وحقّاً ، ما أجمل أن يقال بشأن هذين الأخوين ما أنشده أبو العلاء المعرّيّ بحقّ السيّد المرتضى وأخيه الرضيّ ، في قصيدته الطويلة في رثاء والدهما :

أَبْقَيْتَ فِينَا كَوْكَبَيْنِ سَنَاهُمَا
فِي الصُّبْحِ وَالظَّلْمَاءِ لَيسَ بِخَافِ
مُتَأَنِّقَيْنِ وَفِي المَكَارِمِ أَرْتَعَا
مُتَأَلِّقَيْنِ بِسُؤْدَدٍ وَعَفَافِ
قَدَرَيْنِ فِي الإرْدَاءِ بَلْ مَطَرَيْنِ
فِي الإجْدَاءِ بَلْ قَمَرَيْنِ فِي الإسْدَافِ

رُزِقَـــا العَــلَاءَ فَأَهْــلُ نَــجْدٍ كُــلَّمَا
نَــطَقَا الفَــصَاحَةَ مِــثْلُ أَهْـلِ دِيَـافِ
سَـاوَى الرَّضِـيُّ المُـرْتَضَى وَتَـقَاسَمَا
خِــطَطَ العُــلَا بِــتَنَاصُفٍ وَتَـصَافِ[1]

وقد أمضى كلّ منهما عشرة سنوات في النجف الأشرف ، منشغلين في تحصيل الكمال ؛ واشتركا معاً في الدروس الفقهيّة والأُصوليّة ، والفلسفيّة والعرفانيّة والرياضيّة .

وبسبب ضيق المعيشة ، وعدم وصول الراتب المقرّر من مزروعاتهما في تبريز اضطرّا للرجوع إلى إيران والاشتغال بالزراعة والفلاحة لمدّة عشر سنوات في قرية شادآباد التبريزيّة حتّى تحسّنت أوضاع الزراعة ، فهاجر الأُستاذ العلّامة إلى قم لحفظ عقائد الطلّاب من هجمات الحوادث ، أمّا أخوه فقد اختار تبريز مسكناً له وانصرف إلى التدريس . وفي حوزة تبريز قام آية الله الحاجّ السيّد محمّد حسن الإلهيّ بتدريس الفلسفة من «الشفاء» و«الأسفار» وسائر مؤلّفات الملّا صدرا ، وفي بعض الأحيان كان يأخذ بيد عاشقي طريق الله ؛ ويقودهم إلى منزل المقصود .

لقد كان بدوره إنساناً بعيداً كلّ البعد عن التكلّف ، متواضعاً ، وخلوقاً ، تملأ قلبه الأسرار الإلهيّة ، عالماً بالضمائر ، ومربٍّ عظيم . كان أُستاذنا يمتدحه كثيراً ، ويظهر تعلّقاً شديداً وحبّاً جمّاً له ، وكان يقول : عندما كنّا في النجف الأشرف حصلنا على نسخة خطّيّة لمنطق «الشفاء» لابن سينا لم تكن قد طبعت بعد ، فنسخناها معاً .

١ـ «شرح التنوير» لـ «سقط الزند» لأبي العلاء المعرّيّ ، ج ٢ ، ص ٦٢ ، طبعة بولاق.

ويقول : ألّف أخي كتاباً حول تأثير الصوت وكيفيّة الأنغام وأثرها على الروح ، وأثر المناغاة على الأطفال وحملهم على النوم ، وبعض أسرار علم الموسيقى ، والروابط المعنويّة للروح والصوت وحركته في الأُذن ، وكانت رسالة نفيسة بحقّ ، لم يسبق لها مثيل في عالم اليوم ، وبديعة في جميع الجهات ، لكنّه خشي بعد إنهائها من أن تقع بيد غير أهلها ، وبيد حكّام الجور فيستغلّوها ، ولهذا لجأ إلى إتلافها .

لم أُوفّق لرؤيته ، رغم أنّه سكن في قم لمدّة سنة تقريباً ، ولكنَّ تلك الفترة كانت فترة إقامتي في النجف الأشرف لطلب العلم ؛ وعندما رجعت كان قد عاد إلى تبريز ، ولم تمض بضع سنوات حتّى رحل إلى الرفيق الأعلى .

وقد شيّعت جنازته في قم حيث وُري الثرى في جوار مرقد المعصومة المطهّر في المقبرة المعروفة بـ «أَبُو حُسَيْن» قرب الجسر الحديديّ المعروف بجسر «آهنچي» وقد ترك رحيله أثراً في نفس أُستاذنا وأدّى إلى نشوء أو اشتداد ضعف قلبه وأعصابه .

والسبب الآخر الذي ترك أثراً عميقاً في نفسه كان الذبحة القلبيّة التي أصابت زوجته وأودت بحياتها . وكانت محبّتها ومودّتها قد امتزجت فيه كما يذوب السكّر بالحليب . فالحياة السعيدة التي كانت مبنيّة على الصفاء والمحبّة والوفاء قد تحطّمت ، وكما هو ظاهر من جوابه على رسالة التعزية التي كتبها هذا الحقير ؛ ومع أنّه كرّر الحمد للّه وللّه الحمد عدّة مرّات ، فقد كتب يقول : لكن برحيلها شطر خطّ البطلان للحياة السعيدة والهادئة التي عشت معها .

وهذه السيّدة المؤمنة هي أيضاً من عائلة السادة الأطهار ، ومن بنات أعمامه ، وهي ابنة المرحوم آية الله الحاجّ الميرزا مهدي التبريزيّ الذي

كان مع إخوته الخمسة : السيّد الميرزا محمّد آقا ، والسيّد الحاجّ الميرزا علي أصغر آقا ، والسيّد الحاجّ الميرزا كاظم آقا (صهر مظفّر الدين شاه) والسيّد الحاجّ الميرزا رضا ، وأخ آخر من العلماء وأبناء المرحوم آية الله الحاجّ الميرزا يوسف التبريزيّ .[١]

وكان يقول : عيالي كانت سيّدة مؤمنة وعظيمة ، وعندما تشرّفت بزيارة النجف الأشرف لتحصيل العلم كانت برفقتي ، وكنّا أيّام عاشوراء نذهب إلى كربلاء للزيارة ، وعندما انتهت مدّة تحصيلي رجعنا إلى تبريز ؛ ذات يوم كانت جالسة في البيت ومشغولة بزيارة عاشوراء وكما قالت :

أحسست فجأة أنَّ قلبي انكَسَرَ ؛ وقلت لنفسي عشر سنوات كنّا إلى جانب المرقد المطهّر لحضرة الإمام أبي عبد الله الحسين في عاشوراء ؛ والآن لقد أصبحنا محرومين من هذا الفيض . وفجأة وجدت نفسي في الحرم المطهّر في زاويته مقابل الضريح المطهّر أقرأ الزيارة . وخصوصيّات الحرم كما هي ؛ ولأنّه يوم عاشوراء ، والناس عادة تذهب لرؤية مواكب العزاء التي تقام مقابل الضريح وسائر الشهداء ، كان بعض الأشخاص واقفون للزيارة مع بعض الخدم . وعندما انتبهت ، وجدت نفسي جالسة في البيت ، أقرأ بقيّة الزيارة !

نعم ، هذه السيّدة العظيمة مدفونة كذلك في جوار السيّدة المعصومة سلام الله عليها في مقبرة آية الله الحائريّ اليزيديّ في الجانب الأيسر من الجناح الملحق ، في إحدى المواقع الخاصّة بالعوائل .

وكان أُستاذنا يزور هذه المخدّرة أوّلاً ثمّ أخاه، ضمن زيارة أهل

١ـ اسم تلك المرحومة قمر السادات ، واسم شهرتها المهدويّ ، لأنَّ والدها كان الحاجّ الميرزا مهدي آقا المعروف بالمهدويّ ... وقد توفّيت تلك المرحومة ليلة الأربعاء في السابع والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة ١٣٨٤ .

القبور كلّ عصر خميس بدون انقطاع .

* * *

النهج العلميّ : كان الأُستاذ مفكّراً عميقاً ؛ لم يكن ليمرّ على المطالب العلميّة بسهولة ؛ فإذا لم يصل إلى عمق المطلب ويكشف جميع جوانبه لم يكن يرفع عنه أبداً .

وفي العديد من المرّات عندما كان يُسأل سؤالاً بسيطاً في مسألة فلسفيّة أو تفسيريّة أو روائيّة بحيث يمكن الإجابة عنها بعدّة كلمات مباشرة وينهي الموضوع ؛ كان يسكت ويتأمّل مليّاً ثمّ يبدأ بتقديم الاحتمالات وعرض جوانب القضيّة وما قيل ، فيكون ذلك عبارة عن درس تعليميّ .

لم يكن ليخرج عن دائرة البرهان في الأبحاث الفلسفيّة ؛ وكان يفصّل جيّداً بين المغالطة والجدال ، والخطابة والشعر ، وبين القياسات البرهانيّة ، لا يرفع يده إلّا بعد انتهاء القضيّة بأوّليّاتها ونظائرها . ولم يخلط أبداً بين المسائل الفلسفيّة والمسائل الشهوديّة والعرفانيّة والذوقيّة ، و لا يدخل أيّة مسألة شهوديّة حين التدريس في المسائل الفلسفيّة ؛ وبذلك كان يختلف عن صدر المتألّهين وعن الحكيم السبزواريّ بشكل عامّ .

وكان يودّ كثيراً أن ينحصر البحث في كلّ فرع من العلوم حول مسائل ذلك العلم وعن موضوعاته وأحكامه ؛ دون الخلط بين العلوم . وكان ينزعج كثيراً من الذين يمزجون الفلسفة بالتفسير والأخبار ؛ فإذا لم ينجحوا في البرهان وعجزوا عن الخروج من المسألة اعتمدوا على الروايات والتفسير في محاولة لإتمام برهانهم .

كان العلّامة يمجّد ذكر المرحوم **الملّا محسن الفيض القاسانيّ** ، ويقول عنه : إنَّه رجل جامع للعلوم ، أو يندر أن نجد مثيلاً له في الجامعيّة داخل العالم الإسلاميّ ؛ ومع ملاحظة أنّه كان يرد في كلّ علم بصورة

مستقلّة ولا يخلط بين أيّ واحد منها .

ففي تفاسيره «**الصافي**» و «**الأصفى**» و «**المصفّى**» التي تنحو نحواً تفسيريّاً روائيّاً ، لم يدخل أبداً في المسائل الفلسفيّة والعرفانيّة والشهوديّة . والذي يطالع كتابه المسمّى بـ«**الوافي**» في الأخبار ، يراه واحداً من الأخباريّين الذين لم يدرسوا الفلسفة أبداً . وهكذا كان في كتبه العرفانيّة والذوقيّة لا يميد عن هذا النهج أبداً ؛ ولا يخرج عن الموضوع بتاتاً . هذا ، رغم أنّه كان أُستاذاً في الفلسفة وأحد أبرز تلامذة صدر المتألّهين .

كان أُستاذنا يجلّل ابن سينا ويعتبره أقوى من صدر المتألّهين في فنّ البرهان والاستدلال الفلسفيّ . ولكنّه كان معجباً جدّاً بصدر المتألّهين ومنهجه الفلسفيّ في هدم الفلسفة اليونانيّة ، والإتيان بأُسلوب جديد وحديث كـ **أصالة الوجود والوحدة والتشكيك في الوجود** ، وإيجاد مسائل جديدة كقضيّة **إمكان الأشرف** ، **واتّحاد العاقل والمعقول** ، **والحركة الجوهريّة** ، **والحدوث الزمانيّ** للعالم على هذا الأصل ، وقاعدة «**بسيط الحقيقة كلّ الأشياء**» ونظائرها .

كان العلّامة الطباطبائيّ يرى فلسفة صدر المتألّهين أقرب للواقع . وكان يقدّر خدمته لعالم العلم والفلسفة غاية التقدير ، بسبب زيادة عدد المسائل الفلسفيّة . (فقد رفع عددها من مائتي إلى سبعمائة مسألة) .

وكان يشيد بصدر المتألّهين كثيراً ، لأنّه لم يندفع نحو المدرسة المشّائيّة فقط ؛ بل جمع بين الفلسفة الفكريّة الذهنيّة والإشراق الباطنيّ والشهود القلبيّ ، وطبّقهما على الشرع الأنور .

وقد أثبت صدر المتألّهين في كتبه كـ«الأسفار الأربعة» و «المبدأ والمعاد» و «العرشيّة» والعديد من الرسائل الأُخرى عدم وجود الاختلاف بين الشرع (الذي يحكي عن الواقع) وبين المنهج الفكريّ ، والشهود

الوجدانيّ ؛ وأنَّ هذه الينابيع الثلاثة تنبع من منبع واحد ؛ وكلّ واحد يؤيّد الآخر ويعضده .

وكانت هذه أعظم خدمة قدّمها هذا الفيلسوف إلى عالم الوجدان وعالم الفلسفة وعالم الشرع . ولم يغلق باباً من أبواب الدخول أمام المؤهّلين لنيل الكمال ، وقبول الفيوضات الربّانيّة ، بل فتح أمامهم جميع السبل المؤدّية . ومع أنَّ أساس وجذور هذه النظريّة مشهودة في كلمات المعلّم الثاني **أبو نصر الفارابيّ** ، **وابن سينا وشيخ الإشراق** ، **والخواجة نصير الدين الطوسيّ وشمس الدين بن تُركة** ، ولكنّ الذي نجح في أداء هذا الأمر المهمّ بحيث أوصله المقصود إلى نهايته بأُسلوب بديع وطريقة رفيعة ، هو هذا الفيلسوف صاحب القلب الحيّ والمتشرّع العظيم .[1]

كان الأُستاذ المرحوم يعتقد أنَّ صدر المتألّهين قد أخرج الفلسفة من الضياع والاندراس ، و نفخ فيها روحاً جديدة ؛ ولهذا يمكن عدّه محي الفلسفة الإسلاميّة .

وإذا تجاوزنا كلّ ما سبق فإنَّ أُستاذنا كان كثيراً ما يشيد بمقام الزهد وترك الدنيا ، ومنهج التعلّق بالله ، وتصفية الباطن ، والرياضات الشرعيّة ، والعزلة التي كان ينهجها صدر المتألّهين ؛ وكان يمدح طريقته في تصفية السرّ وإيلاءه الاهتمام الأكبر لطهارة النفس في «كَهَك»[2] قم .

١ـ من جملة ما تفرّد به صدر المتألّهين في الفلسفة ، هو القول بالوحدة الصرفة لذات الحقّ الأقدسيّة ، وامتلاك العلّة للعلم الحضوريّ بمعلولها . وكان ابن سينا قد صرّح في كتاب «الشفاء» بالوحدة العدديّة للحقّ ، واعتبر أنَّ علم ذات الحقّ بالموجودات علم حصوليّ حضوريّ . وقد أبطل صدر المتألّهين أدلّة ابن سينا في هاتين المسألتين اللتين تعدّان من أهمّ المسائل العقائديّة .

٢ـ كهك قم : إحدى قرى مدينة قم الطيّبة . (م)

وكان يعتقد : أنَّ أغلب الإشكالات التي كانت ترد على صدر المتألّهين وفلسفته ، تعود إلى عدم الفهم وعدم الوصول إلى إدراك لب المسائل التي كان يطرحها . ومع أنّه كان يملك بعض التعليقات على بعض استدلالاته ؛ ولكنّه بشكل عامّ كان يعتبره مجدّد الفلسفة الإسلاميّة ، وأحد فلاسفة الطراز الأوّل في الإسلام كابن **سينا** و**الفارابيّ** وكان يعتبر **الخواجة نصير الدين** و**بَهْمَنْيار** و**ابن رشد** و**ابن تُركة** من فلاسفة الدرجة الثانية .

كان **أُستاذنا** يعتقد : بالوجود التشكيكيّ في أبحاث الوجود ، وكان يؤمن بالوحدة التي ينادي بها العرفاء ، ولا يراها منافية للتشكيك ؛ بل هي في الدرجة العليا والمقام الأرفع من التشكيك عند العارف ؛ لأنَّه بوجود التشكيك يجد الوحدة .

وقد درّس في الحوزة العلميّة لمدينة قم عدّة دورات في الفلسفة سواء من «الأسفار» أم «الشفاء» حتّى عُدَّ الفيلسوف الأوحد في عالم الإسلام . وفي السنوات الأخيرة قام بتدريس بعض الطلّاب الخواصّ دورة في مستوى بحث الخارج في الفلسفة ، وكانت ثمرتها إعداد كتابي : «بداية الحكمة» و «نهاية الحكمة» اللذين طبعا ونشرا ليستفيد منهما الجميع .

ولم يكن الصديق والعدوّ ليختلف على أنّه الأخصّائيّ الوحيد في الفلسفة الشرقيّة في كلّ العالم .

ويقال : إنَّ أمريكا قد عرفته قبل ثلاثين سنة أفضل ممّا عرفه الإيرانيّون ؛ ولأجل إحضاره إلى أمريكا لتدريس الفلسفة الشرقيّة ، طلبت من شاه إيران الطاغوتيّ (محمّد رضا) ذلك ، وقد طلب الشاه من حضرة آية الله العظمى البروجرديّ رضوان الله عليه أن يقنعه بذلك ، فحدّثه به ؛ ولكنَّ العلّامة لم يقبل .

وقد كان العلّامة ، وخلافاً لاعتقاد الكثر الذين يرون أهمّية الاطّلاع

الشامل للطلّاب على أخبار وروايات الأئمّة الأطهار عليهم السلام في البداية قبل الدخول في الفلسفة ، فقدكان يقول : إنَّ هذا الاعتقاد كمن يقول **كَفَانَا كِتَابُ اللَهِ** . فروایاتنا مشحونة بالمسائل العقليّة العميقة والدقيقة التي تستند إلى البرهان الفلسفيّ والعقليّ ؛ وبدون معرفة الفلسفة والمنطق وإدراك طريق البرهان والقياس الذي ينمّي العقل ،كيف يمكن للإنسان أن يلج هذا البحر العظيم للروايات ؟ وكيف يصل إلى اليقين والثبات في الأُمور العقائديّة بدون التقليد والشكّ فيها ؟ إنَّ الروايات والأحاديث الواردة عن الأئمّة المعصومين لا تشبه الروايات الموجودة عند أهل السنّة ، أو غيرهم من الفِرَق والمذاهب والأديان ، التي يمكن فهمها عند العامّة .

ولكنَّ الأئمّة عليهم السلام كان لديهم تلامذة مختلفون ، وبيانات متفاوتة ؛ فبعضها بسيط وقابل للفهم لدى العامّة ؛ وأغلب ما ورد في أُصول العقائد ومسائل التوحيد مشكلٌ وغامض ، وكان مختصّاً بأصحابهم الذين كانوا من أهل الاستدلال والمناظرة ؛ وكان الأصحاب بعدها يدخلون مع الخصوم في الأبحاث على أساس ترتيب القياسات البرهانيّة . فكيف يمكن الوصول إلى اليقين بدون الاعتماد على العقل والمسائل العقليّة . وترتيب القياسات الاقترانيّة والاستثنائيّة ؟

ومن باب المثال والنموذج نستحضر هنا أحد تلك الأبحاث المتعلّقة **بتوحيد ذات الحقّ عزّ وجلّ** :

إحدى المسائل الإسلاميّة المهمّة التي تميّز هذا الدين عن غيره من المذاهب والمدارس ، هي مسألة التوحيد ؛ التي هي في عين الواقعيّة ، غامضة إلى الدرجة التي يصعب على سائر الأُمم والمدارس فهمها ؛ مع أنَّ كلّ ما قالوه وكتبوه ، وكلّ ما حقّقه مفكّروهم ؛ يكشف الاعتراف الإجماليّ بالتوحيد ؛ فمع ذلك لم يخطُ الإلهيّون منهم والدينيّون خطوة واحدة أبعد

من التوحيد العدديّ لذات الحضرة الأحديّة المقدّسة .

وهذه المسألة من أهمّ قضايا القرآن الكريم ؛ بل هي أُسُّ وأساس معارف القرآن وإحدى تجلّيات أصالته ، وهي المبيّنه لجميع المعارف والأخلاق والأحكام الموجودة فيه . وعلى هذا الأصل قام التحدّي القرآنيّ لجميع الأديان والمذاهب ، والدعوة إلى البحث والمحاجّة في مسألة وحدة ذات الحقّ ، ولم تكن هذه المواجهة مختصّة بالوثنيّين والثنويّين والمشركين والمادّيّين والطبيعيّين ، بل شملت كلّ الأديان السماويّة التي تعرّضت للتحريف ؛ وجعلت مسألة أصالة التوحيد تظهر بشكل محرّف وممسوخ .

إنَّ وحدة ذات الحقّ عزّ وجلّ ليست وحدة عدديّة ، بل هي **وحدة بالصرافة** . فهو صرف الوجود ومَحضه ؛ ومع تصوّر مثل هذه الوحدة لا يمكن تصوّر وجود آخر مماثل له .

وبالطبع فإنَّ الوجود الذي يكون صرفاً ومحضاً ، لا حدّ له ولا نهاية في الأزل وإلى الأبد ، ذاتاً وصفة ، شدّة وكثرة وسَعَة ؛ بحيث إنّه لو فرض وجود آخر في أيّة مرحلة لن يكون داخلاً في ذلك الوجود الصرف ، وبناء عليه لن يكون لغرض الغيريّة والبينونة والاستقلال أيّ معنى ؛ **وَكُلَّمَا فَرَضْتَهُ ثَانِيَاً عَادَ أَوَّلاً** . ولهذا يوجد رواية تقول : **وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ ، قَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ** .

إنَّ هذه الحقيقة تظهر في جميع أنحاء القرآن الكريم بشكل واضح ، والتعليم القرآنيّ ينفي جميع أقسام الوحدة العدديّة والجنسيّة والنوعيّة عن الذات المقدّسة ، ويحارب التثليث ؛ وهو يبطل قول الذين آمنوا بالأقانيم التي هي عبارة عن الأب والابن والروح ، ومرادهم منها الذات والعلم والحياة . وهم يقولون بالتثليث في عين الوحدة ؛ (مثل القول بالإنسان العالِم والحي ؛ مع كونه إنساناً واحداً . فهو ثلاثة : ذات ، وعلم ، وحياة الإنسان) .

ويعتبر القرآن أنَّ هذه الوحدة لا تليق بذات الحقّ .

يبيّن القرآن الكريم وحدة الله تعالى التي لا يمكن معها فرض أيّ نوع من الكثرة سواء في الذات أو في الصفات ، وكلّ ما يفرض من كثرة في هذا الباب هو عين الذات الواحدة ؛ لأنَّ الله لا حدّ له ، وذاته عين صفاته ؛ وكلّ صفة مفترضة ، هي عين الصفة الأُخرى ؛ وهي بالنسبة له فرض اللامتناهية وغير محدودة وغير محصورة وغير معيّنة .

تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَسُبْحَانَهُۥ عَمَّا يَصِفُونَ .

ولهذا السبب ، نجد أنَّه كلّما جاء ذكر قهّاريّة الله في القرآن الكريم فإنّنا نجد وصف الله قبلها بالوحدة ؛ لأجل إيصال هذا المعنى وهو : أنَّه وحدته بحيث أن لا يوجد لأيّ إنسان مجال لافتراض وجود مماثل له ؛ فكيف بالنسبة لخروجه عن دائرة الفرض وتحقّقه في عالم الوجود والواقعيّة والثبوت ؟!

لاحظوا هذه الآيات :

ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ .[1]

فوصف الله بالوحدة القاهرة التي تقهر كلّ شريك مفترض ؛ ولا يترك لأيّ معبود غير ذاته المقدّسة شيئاً سوى الاسم .

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ .[2]

لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .[3]

١ـ الآيتان ٣٩ و ٤٠ ، من السورة ١٠ : يوسف .

٢ـ الآية ١٦ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٣ـ ذيل الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

ولأنَّ ملكيّته المطلقة لا تدع مالكاً غيره إلّا أن يكون نفس هذا المالك وما يملكه ملكاً مطبقاً للّه تعالى .

وعن هذه الوحدة لذات الأحديّة الأقدسيّة ، فقد كشف الستار أمير المؤمنين في العديد من خطبه وكلماته ، حيث تظهر هذه **الوحدة بالصرافة** بشكل مفصّل .

منها ، خطبته الأُولى في «نهج البلاغة» :

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ؛ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ؛ وَكَمَالُ التَّصْدِيْقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ؛ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإخْلَاصُ لَهُ ؛ وَكَمَالُ الإخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ ـ إلى آخر الخطبة .

ومنها ، الخطبة الثالثة والستّون :

الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً ؛ وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنَاً ؛ كُلُّ مُسَمَّىً بِالوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ ؛ وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ ـ إلى آخر الخطبة .

ومنها ، الخطبة الخمسون بعد المائة :

الحَمْدُ للَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ ؛ وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شِبْهَ لَهُ ؛ لَا يَسْتَلِمُهُ المَشَاعِرُ ؛ وَلَا يَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالمَصْنُوعِ ؛ وَالحَادِّ وَالمَحْدُودِ ؛ وَالرَّبِّ وَالمَرْبُوبِ ؛ الأَحَدُ بِلاَ تَأْوِيلِ عَدَدٍ ؛ وَالخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ـ إلى آخر الخطبة .

ومنها ، الخطبة الحادية والستّون بعد المائة :

الحَمْدُ للَّهِ خَالِقِ العِبَادِ ؛ وَسَاطِحِ المِهَادِ ؛ وَمُسِيلِ الوِهَادِ ؛ وَمُخْصِبِ النِّجَادِ ؛ لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ ؛ وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ ؛ هُوَ الأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ ؛ وَالبَاقِي بِلَا أَجَلٍ ؛ خَرَّتْ لَهُ الجِبَاهُ ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ ـ إلى آخر الخطبة .

ومنها ، الخطبة الرابعة والثمانون بعد المائة :

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ؛ وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ ؛ وَلَا إيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ ؛ وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ ـ إلى آخر الخطبة .

ومنها ، خطبته عليه السلام في جواب «ذِعلب» الذي سأله :

يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟

فقال عليه السلام : **وَيْلَكَ يَا ذِعْلِبْ ! لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدَ رَبَّاً لَمْ أَرَهُ** . وهي خطبة طويلة وحاوية لمطالب رفيعة في أمر التوحيد بالصرافة ، وقد نقلها الصدوق في «التوحيد» بإسناده عنه عليه السلام .

ومنها ، خطبته عليه السلام التي وردت في كتاب «الاحتجاج» للطبرسيّ :

دَلِيلُهُ آيَاتُهُ ؛ وَوُجُودُهُ إثْبَاتُهُ ؛ وَمَعْرِفَتُهُ تَوحِيدُهُ ؛ وَتَوحِيدُهُ تَمْيِيزُهُ مَنْ خَلْقِهِ ؛ وَحُكْمُ التَّمْيِيزِ بَيْنُونَةُ صِفَةٍ لَا بَيْنُونَةُ عُزْلَةٍ ... إلى أن يقول : **لَيْسَ بِإلَهٍ مَنْ عُرِفَ بِنَفْسِهِ ؛ هُوَ الدَّالُّ بِالدَّلِيلِ عَلَيْهِ ؛ وَالمُؤَدِّي بِالمَعْرِفَةِ إلَيْهِ** .

وعلى كلّ حال ، فقد أورد الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ هذه المطالب بالتفصيل في تفسير «الميزان» ج ٦ ، ص ٩٦ إلى ١٠٨ ؛ ثمّ إنّه يقول في البحث التأريخيّ «القول بأنَّ للعالم صانعاً ، ثمَّ القول بأنّه واحد ، من أقدم المسائل الدائرة بين متفكّري هذا النوع تهديه إليه فطرته المركوزة فيه . حتّى أنَّ الوثنيّة المبنيّة على الإشراك ، إذا أمعنّا في حقيقة معناها وجدناها مبنيّة على أساس توحيد الصانع وإثبات شفعاء عنده ، **مَا نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إلَى ٱللَهِ زُلْفَىٰ** ، وإن انحرفتْ بعدُ عن مجراها ، وآل أمرها إلى إعطاء الاستقلال لآلهة دون الله . والفطرة الداعية إلى توحيد الإله وإن كانت تدعو إلى إله واحد غير محدود العظمة والكبرياء ذاتاً وصفة ، غير أنَّ أُلفة الإنسان وأُنسه في ظرف حياته بالآحاد العدديّة من جانب ، وبلاء الملّيّين بالوثنيّين والثنويّين وغيرهم لنفي تعدّد الآلهة من جانب آخر ، سجّل عدديّة الوحدة

وجعل حكم الفطرة المذكورة كالمغفول عنه .

ولذلك ترى المأثور من كلام الفلاسفة بالباحثين في مصر القديمه واليونان وإسكندريّة وغيرهم ممّن بعدهم، يعطي **الوحدة العدديّة** ، حتّى صرّح بها مثل **الرئيس أبي علي بن سينا** في كتابه «الشفاء» وعلى هذا المجرى يجري كلام غيره ممّن بعده إلى حدود الألف من الهجرة النبويّة .

وأمّا أهل الكلام من الباحثين فاحتجاجاتهم على التوحيد لا تعطي أزيد من الوحدة العدديّة أيضاً ، في عين أنَّ هذه الحجج مأخوذة من الكتاب العزيز عامّة ؛ فهذا ما يتحصّل من كلمات أهل البحث في هذه المسألة .

فالذي بيّنه القرآن الكريم من معنى التوحيد أوّل خطوة خُطيت في تعليم هذه الحقيقة من المعرفة ، غير أنَّ أهل التفسير والمتعاطين لعلوم القرآن من الصحابة والتابعين ثمّ الذين يلونهم أهملوا هذا البحث الشريف ، فهذه جوامع الحديث وكتب التفسير المأثورة عنهم لا ترى فيها أثراً من هذه الحقيقة لا ببيان شارح ، ولا بسلوك استدلاليّ .

ولم نجد ما يكشف عنها غطاءها إلّا ما ورد في كلام الإمام **عليّ بن أبي طالب** عليه أفضل السلام خاصّة ، فإنَّ كلامه هو الفاتح لبابها ، والرافع لسترها وحجابها ، على أهدى سبيل وأوضح طريق من البرهان ، ثمّ ما وقع في كلام الفلاسفة الإسلاميّين بعد الألف الهجريّ[1] ، وقد صرّحوا بأنّهم إنّما استفادوه من كلامه عليه السلام .

وهذا هو السرّ في اقتصارنا في البحث الروائيّ السابق على نقل نماذج

١ـ المراد من الفلاسفة الإسلاميّين بعد الألف الهجريّ هو صدر المتألّهين الذي قال في كتبه في كون وحدة ذات الحقّ بالصرافة ، وقد أوصل إثبات هذا المعنى بأبلغ وجه، ونفى كلام ابن سينا القائل في كون وحدة ذات الحقّ بالوحدة العدديّة . ولد صدر المتألّهين في حدود سنة ٩٧٩ هـ في مدينة شيراز .

من غرر كلامه عليه السلام الرائق ، لأنَّ السلوك في هذه المسألة وشرحها من مسلك الاحتجاج البرهانيّ لا يوجد في كلام غيره عليه السلام .

ولهذا بعينه تركنا عقد بحث فلسفيّ مستقلّ لهذه المسألة ، فإنَّ البراهين الموردة في هذا الغرض مؤلّفة من هذه المقدّمات المبيّنة في كلامه لا تزيد على ما في كلامه بشيء ، و جميعها مبنيّة على صرافة الوجود و أحديّة الذات جلّت عظمته» .

ثمّ يقول العلّامة في التعليقة : «وللناقد البصير والمتدبّر المتعمّق أن يقضي عجباً من ما صدر من الهفوة من عدّة من العلماء الباحثين حيث ذكروا أنَّ هذه الخطب العلويّة الموضوعة في «نهج البلاغة» موضوعة دخيلة ، وقد ذكر بعضهم أنّها من وضع الشريف **الرضيّ** رحمه الله ، وقد تقدّم الكلام في أطراف هذه السقطة .

وليت شعري كيف يسع للوضع والدسّ أن يتسرّب إلى موقف علميّ دقيق لم تقوَ بالوقوف عليه أفهام العلماء حتّى بعدما فتح عليه السلام بابه ورفع ستره قروناً متمادية ، إلى أن وفّق لفهمه بعد ما سير في طريق الفكر المترقّي مسير ألف سنة ، ولا أطاق حمله غيره من الصحابة ولا التابعون ، بل كلام هؤلاء الرامين بالوضع ينادي بأعلى صوته إنّهم كانوا يظنّون أنَّ الحقائق القرآنيّة والأُصول العالية العلميّة ليست إلّا مفاهيم مبتذلة عامّيّة ، وإنّما تتفاضل باللفظ الفصيح والبيان البليغ» .

ولقد أوردنا هذا المثال هنا ليتّضح أنَّ ما جاء في الخطب والروايات لم يكن مطالب مبتذلة عامّيّة ، بل إنَّ الكثير منها يحتاج إلى فهم متين وبرهان قويم . وعلى هذا الأساس فقد كان الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ يعدّ أمر تقوية الفكر و تصحيح القياس ، وبشكل عامّ تصحيح المنطق والفلسفة ، ضروريّاً ، ويعتبر أنّ الفلسفة هي المفتاح والدليل الوحيد في هذا الباب .

وبغضّ النظر عن ذلك ، فإنَّ حجّيّة الروايات بالنسبة لنا قائمة بواسطة البرهان العقليّ ، وسيكون الرجوع إلى الأخبار والتعبّد بها وإسقاط الأدلّة العقليّة موجباً للتناقض والخُلف ، وهو محال .

وبعبارة أبسط ، فإنَّ الأخبار الواردة ليس لها حجّيّة قبل الرجوع إلى العقل وترتيب القياس ؛ أمّا بعد الرجوع للعقل ، فلا فرق ـ من ثمّ ـ بين هذا القياس وسائر الأدلّة العقليّة ، وسيكون الالتزام آنذاك بمفاد الأخبار ونفي الأدلّة العقليّة موجباً للتناقض ولإبطال المقدّمة بالنتيجة المستحصلة منها .

وقد كان **العلّامة الطباطبائيّ** قدّس الله تربته يعظّم كثيراً كتاب «بحار الأنوار» لجدّنا [1] في جميع الأخبار ، وبالأخصّ في كيفيّة تفصيل فصوله وتبويب أبوابه على المنهج المطلوب ، ففي كلّ كتاب أحصى الأبواب بالترتيب ، وجعل في كلّ باب بالترتيب الآيات المناسبة من سورة الحمد حتّى آخر القرآن ، ثمّ قام بتفسير الآيات بشكل إجماليّ وتابع للترتيب المذكور ، ثمّ بيّن بعد ذلك جميع الروايات التي وردت عن المعصومين عليهم السلام في الأبواب المذكورة بالترتيب أيضاً ؛ فإذا كانت الرواية أو الباب يحتاج إلى شرح أو بيان ، كان يقوم بذلك في ذيل الرواية أو آخر

١ـ كانت جدّتنا لأبينا ، أي أُمّ أب هذا الحقير ؛ أُخت العلّامة الكبير آية الله آقاي الميرزا محمّد الطهرانيّ صاحب كتاب «مستدرك البحار» . كما أنَّ أُمّ العلّامة آقا الميرزا محمّد الطهرانيّ وجدّتنا الكبرى من أحفاد العالم المتضلّع المير محمّد صالح الحسينيّ الخاتون آباديّ صهر العلّامة محمّد باقر المجلسيّ ، حيث تزوّج ابنته فاطمة بيگم ، لذا فإنَّ العلّامة المجلسيّ سيكون الجدّ الأعلى لأبينا لأُمّه .

وباعتبار أنَّ المرحوم العلّامة السيّد مهدي بحرالعلوم والمرحوم آية الله البروجرديّ من أحفاد بنات المجلسيّ الأوّل الملّا محمّد تقي ، من ابنته آمنة بيگم التي تزوّجها المرحوم الملّا محمّد صالح المازندرانيّ ، فإنَّ آمنه بيگم ستكون العمّة الكبرى لأُمّ أبينا ، وسيكون المرحوم بحر العلوم وآية الله البروجرديّ رضوان الله عليهما من بني عمّاتنا .

الباب .

وكان يعتقد : أنَّ **العلّامة المجلسيّ** أحد حماة المذهب ، ومُحيي آثار وروايات الأئمّة عليهم السلام ، وأنَّ مقامه العلميّ ، وسعة اطّلاعه ، وطول باعه تستحقّ التقدير ، وأنَّ مدى علم هذا المجتهد الخبير تتّضح في كيفيّة دخوله في البحث وفي الجرح والتعديل للمطالب الموجودة في «مرآة العقول» ومدى الخدمات الفائقة التي قدّمها .

ولكنّه مع اجتهاده وبصيرته في فنّ الروايات والأحاديث ، لم يكن مطّلعاً على المسائل الفلسفيّة العميقة ، ولم يشابه **الشيخ المفيد** ، **والسيّد المرتضى** ، **والخواجة نصير الدين الطوسيّ** ، **والعلّامة الحلّيّ** الذين يعدّون من متكلّمي الشيعة ، ومن حماة المذهب .

ولهذا وقع في العديد من الاشتباهات في بعض البيانات التي قدّمها ، ممّا أدّى إلى هبوط مستوى هذه الموسوعة . وعلى هذا الأصل كان من المقرّر أن يطبع «بحار الأنوار» في طبعة جديدة تحت إشرافه وتعليقاته في الأمكنة المناسبة ؛ حتّى يحتفظ هذا الكتاب الثمين على مستواه العلميّ .

وبالفعل قام بهذا العمل ، وكتب تعليقاته إلى الجزء السادس من الطبعة الجديدة ؛ ولكن نظراً لرفضه تعليقة أو تعليقتين من رأي العلّامة المجلسيّ بشكل صريح ، فقد كانت هناك مجموعة لم تكن لترضى بأن تصبح نظريّات المجلسيّ موضعاً للانتقاد إلى هذا الحدّ ؛ فقام الناشر ، بناء على تدخّلات خارجيّة ، وطلب منه أن يخفّف الكلام في بعض الأماكن ؛ ويغضّ النظر عن بعضها الآخر .

فلم يقبل العلّامة ؛ وقال : في مدرسة التشيّع أنَّ قدر ومنزلة الإمام **جعفر بن محمّد الصادق** عليه السلام أعظم من العلّامة المجلسيّ ؛ وحين

يدور الأمر لأجل شروحات العلامة المجلسى أن نقبل بالاءشكالات العقيلة و العلمية الواردة فى بيانات الأئمّة المعصومين عليهم السلام ، فلسنا مستعدّين أبداً أن نستبدل الأئمّة المعصومين عليهم السلام بالعلّامة المجلسيّ . وما أراه ضروريّاً في مكانه فسوف أكتبه ، ولن أرفع كلمة واحدة . ولهذا طبعت بقيّة أجزاء البحار بدون تعليقات العلّامة الطباطبائيّ ؛ وبقي هذا الأثر النفيس بدونها .[1]

ونحن هنا نذكر التعليقتين اللتين أدتا إلى إيقاف طبع التعليقات الأُخرى ، ونترك الحكم للقرّاء وأهل التحقيق :

الأُولى : تعليقته في الصفحة ١٠٠ من الجزء الأوّل على المعاني المختلفة التي قدّمها العلّامة المجلسيّ للعقل وفقاً لرأيه . فردّ العلّامة الطباطبائيّ هذه المعاني ، وقال : إنَّ ما ذكره رحمه الله من معان مختلفة للعقل بادّعاء أنّها في الاصطلاح كذلك : لا يخفى على الشخص الخبير والمطّلع في هذه الأبحاث ، أنّها لا تنطبق على مصطلحات أهل البحث ،

١ـ يقول سماحة الأُستاذ : عندما قمنا بالتحقيق والتفتيش في الأحاديث الواردة في كتاب «بحار الأنوار» بشأن الولاية ، وجدنا خمسة وعشرين حديثاً من الصحاح المعتبرة عند أهل السنّة التي نقلت من تلك المصادر المعتبرة .

وكلّ ما قمنا به من تدقيق في كتبهم المطبوعة والخطّيّة لم نعثر عليها ، وحتّى الكتاب الذي يعود إلى ثماني مائة سنة قبل ، فقد بحثنا فيه من أوّل ورقة إلى آخره ولم نجد فيه حتّى رواية واحدة من هذه الروايات الخمس وعشرين . وهناك روايات كثيرة من العامّة قد فقدت. وهي غير موجودة في الكتب ـ انتهى كلام الأُستاذ الفقيد رضوان الله عليه .

بالتأكيد لو كانت سلسلة «بحار الأنوار» قد طبعت مع تعليقاته فإنَّ بيانات كانت ستطرح في المكان المناسب من هذه الأحاديث أو غيرها ، وكانت ستحلّ الكثير من الغوامض الأُخرى أيضاً.

وأيّ جناية ، وأيّ أضرار كبيرة قد أُلحقت بدائرة المعارف الشيعيّة هذه بإسقاط تعليقاته في الطبعة الجديدة .

ولا تنطبق على ما يذكره عامّة الناس ، من معان للعقل أيضاً .

فالذي أوقعه فيما وقع فيه أمران :

الأوّل : سوء الظنّ بالباحثين في المعارف العقليّة بطريق الاستدلالات العقليّة والبراهين الفلسفيّة .

الثاني : الأُسلوب الذي استخدمه في فهم معاني الأخبار ؛ حيث أخذ جميع الروايات في مرتبة واحدة من ناحية البيان ؛ وهي المرتبة التي تعادل فهم عامّة الناس ؛ بادّعاء أنّ تلك المرتبة هي نفس المنزلة التي كانت فيها الأخبار جواباً لأسئلة الناس من قِبل الأئمّة عليهم السلام . في حين أنّنا نعلم أنَّ في الأخبار مطالباً عالية ونفيسة تشير إلى حقائق لا يسعها إلّا الأفهام العالية والعقول الخالصة .

وعندما نجعل الأخبار في مستوى واحد ، فإنَّ هذا يؤدّي إلى اختلاط المعارف العالية التي أفاض بها الأئمّة عليهم السلام ، وفساد البيانات الرفيعة بسبب تنزّلها إلى غير منزلتها ؛ وزوال قيمة البيانات البسيطة أيضاً بسبب عدم التعيّن والتمييز .

لم يكن جميع السائلين من رواة الأحاديث في مستوى واحد من الفهم والإدراك ؛ ولم تكن كلّ الحقائق في مستوى واحد من حيث الدقّة والعمق . وكتاب الله وسنّة رسوله مليئان بهذا النوع من المعارف الدينيّة التي هي ذات مراتب مختلفة ، لكلّ مرتبة أفراد خاصّون . وإنَّ إلغاء المراتب أو إهمالها يؤدّي إلى زوال المعارف الحقيقيّة .

التعليقة الثانية : في الصفحة ١٠٤ من الجزء الأوّل ، حيث ينفي العلّامة المجلسيّ مبدأ العقول المجرّدة بقوله : إنَّ تجرّد العقول مستحيل عقلاً ؛ فالتجرّد مختصّ بذات الواجب ، معتبراً أنَّ كلام الفلاسفة فضولٌ ؛ ثمّ يقول : بناء على ما ذكرنا ، يمكن أن يكون المراد من العقل نور النبيّ الذي

تتشعّب منه أنوار الأئمّة عليهم السلام . فيقول العلّامة الطباطبائيّ : إنَّ رجوع الفلاسفة إلى الأدلّة العقليّة ليس فضولاً ؛ بل إنَّهم قد أثبتوا أنَّ حجّيّة الظواهر الدينيّة متوقّفة على البرهان الذي يقيمه العقل ؛ هذا أوّلاً . والعقلُ في استناده واعتماده على المقدّمات البرهانيّة لا يفرّق بين مقدّمة وأُخرى . فإذا أُقيم البرهان على أمر ما ، فإنَّ العقل مضطرّ لقبوله .

ثانياً : أنَّ الظواهر الدينيّة تتوقّف على الموجود في الألفاظ ، وهذا الظهور دليل ظنّيّ ؛ والظنّ لا يمكنه مقاومة العلم واليقين الذي يحصل من خلال إقامة البرهان .

وأمّا قضيّة التمسّك بالبرهان العقليّ في مسائل أُصول الدين ، ثمّ عزل العقل في الأخبار الآحاديّة التي وردت في المعارف العقليّة ، وعدم التقيّد به ، فليس إلّا من قبيل بطلان المقدّمة بسبب النتيجة التي تؤخذ من تلك المقدّمة ؛ وهذا تناقض صريح ؛ **والله الهادي** .

فإذا كانت هذه الظواهر تريد إبطال حكم العقل ، فقد أبطلت مفاد حكمها بأنّ حجّيّتها تستند إلى حكم العقل .

فالطريق الثابتة والاحتياط الدينيّ للذين لم يتقدّموا بمتانة في الأبحاث العقليّة العميقة ، هو العمل بظاهر الكتاب والأخبار المستفيضة ؛ وإرجاع العلم بواقع الأمر إلى الله ؛ واجتناب الدخول في الأبحاث العقليّة العميقة نفياً وإثباتاً .

أمّا إثباتاً ، فلأنّ إثباته مظنّة الضلال والضياع ؛ وفي ذلك ، الهلاك الدائميّ .

أمّا نفياً فلأنّ فيه منقصة القول بدون علم ، ونصر الدين بما لا يرضاه الله ، والابتلاء بتناقض الآراء ؛ كما وقع المؤلّف رحمة الله عليه في ذلك التناقض ؛ لأنّه لم يورد في أبحاث المبدأ والمعاد أيّ إشكال على آراء أهل

الرأي إلّا وقد وقع فيه حيث قَبِل ذلك الإشكال أو ما هو أشدّ منه ؛ وسوف نشير إلى ذلك في مكانه المناسب .

وأوّلها ما قاله طعناً على الحكماء الإلهيّين في اعتقادهم بالمجرّدات العقليّة ؛ وهناك أثبت جميع آثار التجرّد لأنوار النبيّ والأئمّة عليهم السلام ؛ ولم يلتفت إلى أنَّ تحقّق الموجود المجرّد في الخارج لغير الله لو كان محالاً ، لما اختلف هذا الحكم بتغيير الاسم ؛ وإطلاق **النُّور والطِّينَة** ونحوهما على العقل المجرّد لا يغيّر شيئاً في الاستحالة ـ انتهى كلام الأُستاذ .

إنَّ الأشخاص المطّلعين على القياس والبرهان يعلمون أنَّ كلّ جملة ممّا قاله هذا الحكيم الإلهيّ في هذا البيان ، هي برهان واستدلال ؛ وهناك يظهر سرّ ومعنى كلامه حيث يقول : إنَّ الرجوع إلى ظواهر الروايات قبل الرجوع إلى الأدلّة العقليّة هو في حكم **كَفَانَا كِتَابُ اللَهِ** .

إنَّ الاجتهاد في مذهب الشيعة أدّى إلى حفظ الدين من الاندراس والجمود وعدم التعبّد بالآراء التي اعتبرت في وقت ما عند البعض من الأُصول المسلّمة ، وفي زمان آخر كان بطلانها من البديهيّات . فقد كان التعبّد بغير قول الله و رسوله والمعصومين عليهم السلام في الأحكام الفرعيّة سبباً لسدّ باب الاجتهاد والوقوع في المهالك والمزلّات ؛ وهذا ما حصل بالنسبة للعامّة . أمّا في الأحكام الأُصوليّة ، فإنَّ التعبّد والتقليد لا معنى له بتاتاً ؛ بل إنَّ العقل والنقل يحكمان بلزوم الرجوع إلى الأدلّة العقليّة ، وكان العلّامة رحمة الله عليه ينقل رأي الإجماع في هذه المسألة .

وفي قم ، بعد تدريس دورة فلسفيّة في «الأسفار الأربعة» للمرحوم صدر المتألّهين قدّس سرّه ، عزم **العلّامة الطباطبائيّ** على القيام بالبحث المقارن بين فلسفة الشرق والغرب . وكان يعتقد أنَّ البحث فيما لو أُقيم على أساس البرهان والأشكال الصحيحة للقياسات فمن المستحيل أن

نخرج بنتيجتين مختلفتين ، وفي أيّة مدرسة كنّا . ولهذا يجب أن نتتبّع سرّ الاختلاف بين الفلسفتين ، وبيان نقاط الضعف فيهما .

وكان يعتقد في الأصل : بأنَّ العلوم التجريبيّة وإن كان تحقّقها في الخارج على أساس التجربة واضحاً ؛ لكن ينبغي أن ندرك جذور وأصل نتيجة هذه التجربة ، ونبحث في نشوئها وعلّتها .

فمثلاً ، ينبغي أن ننظر ما هي العلّة الموجودة في الحرارة التي يمكنها أن توجد الطاقة الحركيّة «سينتيك» وتحرّك الأجهزة الميكانيكيّة ؛ وبالعكس ، ما هي العلّة الموجودة في الطاقة الحركيّة «سينتيك» التي يمكن أن تكون مصدراً للحرارة والطاقة الحراريّة ؟ وأيضاً ما هو السبب والعلّة الموجودة في الطاقة الكهربائيّة التي يمكن تحويلها إلى عمل يستفاد منه ؛ كتحريك عجلات الآلات . وبالعكس ، ما هو السبب الموجود في الطاقة الميكانيكيّة ، الذي بالاستفادة منه ، يمكن الحصول على الطاقة الكهربائيّة من خلال المُوَلِّد ؟

وأخيراً ، ينبغي أن يتّضح السبب والأساس الذي تقوم عليه جميع هذه التغيّرات والتحوّلات في الطاقة ، والتي تجري على أساس معادلات دقيقة ، فيتحوّل مقدار منها إلى مقدار معيّن من الطاقة ، وما هو الرابط والجامع الموجود بينهما ؟ وينبغي أن يتّضح أيضاً أنَّ ثبوت المسائل التجريبيّة يكون على أساس التجربة ؛ وهو لا يتنافى مع المسائل الفلسفيّة والأدلّة العقليّة التي تقوم على أساس التفكير العقليّ والبرهانيّ ؛ فكلّ واحد منهما يطوي طريقه ولا يتعارض مع الآخر ولا يزاحمه .

ولهذا المقصد أُقيمت بعض المجالس في ليالي العطلة من الخميس والجمعة كان يحضرها بعض الطلّاب الذين لهم اطّلاع على العلوم الحديثة ؛ وقد أمرني أن أحضر أيضاً .

وقد طالت هذه المجالس لمدّة وكانت نتيجة البحث عبارة عن سلسلة من الدروس ، تقرّر أن تطبع تحت عنوان «الميتافيزيقيا» (أي علوم ما وراء الطبيعة) ولكنّني تشرّفت بالسفر حينها إلى النجف الأشرف واستمرّت تلك المجالس ، والتحق بها بعض الأصدقاء العلماء والموقّرين كالمرحوم الحاجّ الشيخ مرتضى المطهّريّ رحمة الله عليه ؛ وكانت النتيجة إعداد كتاب جليل النفع ، يحلّ معظم المسائل الخلافيّة ، ويواجه المغالطات الكثيرة التي يطرحها المثقّفون المتغرّبون ، تحت عنوان «**اصول فلسفه و روش رئاليسم**» (= أُصول الفلسفة والمنهج الواقعيّ) وقد طبع منه الجزء الأوّل والثاني في ذلك الحين مع تعليقات مفيدة وقيّمة للشهيد المغفور له ، وقد أرسل لي حضرة الأُستاذ المؤلّف نسخة منه إلى النجف الأشرف .

ثمّ طبع بعد ذلك تدريجيّاً الجزء الثالث والخامس ، وكان المرحوم الشهيد آية الله المطهّريّ يقول : لقد جمعت تعليقات الجزء الرابع أيضاً وأنتظر الفرصة المناسبة لترتيبها وتنظيمها حتّى تصبح بمتناول الطالبين . رحمة الله على أُستاذنا الأكرم وعلى صديقنا المكرّم وعلى مَن غَبَر منهم من إخواننا الماضين بمحمّد وآله الطاهرين .

* * *

أمّا المنهج التفسيريّ عند العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه ، لقد كان طبقاً للأُسلوب التفسيريّ لأُستاذه في العرفان والعلوم الباطنيّة الإلهيّة : المرحوم آية الله الحاجّ ميرزا علي القاضي ، وهو تفسير الآيات بالآيات ؛ أي استنباط مفهوم ومغزى آية القرآن من القرآن نفسه . وقد كانت هذه طريقة المرحوم آية الله القاضي ، فقد كتب تفسيراً من بداية القرآن إلى سورة الأنعام ، وكان يُعَلِّم تلامذته الكتاب الإلهيّ على هذا النحو . وكان أُستاذنا المرحوم سماحة السيّد العلّامة يقول كراراً : «إنَّ هذا الأُسلوب

التفسيريّ الذي لدينا هو من المرحوم القاضي» .

وعندما كان في تبريز ، ألّف العلّامة تفسيراً مختصراً للقرآن الكريم من أوّل آياته حتى سورة الأعراف ، وكان يعتمد فى تدريس الطلاب على ذالک التفسير. وفيما بعد تطلّب الأمر إعداد تفسير مفصّل وشامل لكلّ حاجات العصر ، يراعى فيه الجوانب التأريخيّة والفلسفيّة والأخلاقيّة ، وتعالج فيه الأبحاث الاجتماعيّة والروائيّة بأُسلوب حديث .

ولقد وفّقه الله تعالى ، فألّف تفسيراً بعنوان «**الميزان في تفسير القرآن**» في عشرين مجلّداً . بدأ به حوالى سنة ١٣٧٤ وختمه في ليلة القدر (في الثالث والعشرين) من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٢ هـ، وكان مع التأليف ، يدرّس مطالبه لطلّاب الحوزة العلميّة في قم ، وقد استفاد من محضره المبارك العديد من الفضلاء والطلّاب .

وأوّل وأهمّ مزيّه من مزاياه، هي تفسير الآيات بالآيات ؛ وهو تفسير القرآن بالقرآن ؛ فطبقاً للروايات الموجودة عندنا والتي تقول : **إنَّ القُرْآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضَاً** .[١] فإنّ آيات القرآن قد تنزّلت من مبدأ واحد ، وهو كلام واحد لا يؤثّر تقدّم بعض الآيات أو لحوقها على البعض الآخر في المعنى الكلّيّ المستفاد من الآية ، وبناءً عليه فإنَّ جميع القرآن بحكم كلام واحد ، وخطاب واحد ، قد جاء من متكلّم واحد ؛ وكلّ جملة فيه يمكن أن تكون قرينة ومفسّرة لكلّ الجمل الأُخرى . فلو رأينا خفاء في معاني بعض الآيات ، لأمكن إزالته من خلال الملاحظة والتطبيق والمقارنة مع الآيات الأُخرى الواردة في مثل موضوع الآيات أو ما يشابهه .

١ـ وقد ورد في الخطبة ١٣١ من «نهج البلاغة» : **كِتَابُ اللَهِ تُبْصِرُونَ بِهِ ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ وَتَسْمَعُونَ بِهِ ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ؛ لَا يَخْتَلِفُ فِي اللَهِ ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَهِ** .

وهذا التفسير مبني على تفسير الآيات بالآيات ، وتحصيل معاني القرآن من القرآن ، وعلى هذا الأساس تقاس المعاني المستفادة من الخارج ويعلم مدى موافقتها أو مخالفتها للقرآن ؛ ولا تجعل المعاني الموجودة في الذهن أصلاً ومحوراً تطبّق عليه الآيات القرآنيّة ؛ أو بتعبير آخر ، نصب القرآن في قالبها .كما هو حاصل في أكثر التفاسير ؛ وهي في الحقيقة ليست تفسيراً ، وإنَّما هي تطبيق للمعاني الذهنيّة والمعلومات الخارجيّة ، أو العلوم الفلسفيّة والعمليّة والاجتماعيّة والتأريخيّة والروائيّة على القرآن الكريم .

ومن الواضح أنَّ الآيات ستفقد بهذا النهج التطبيقيّ مفهومها ومحتواها واعتبارها بشكل تامّ ؛ لأنَّ كلّ واحد من أصحاب العلوم بدءاً من النحويّ ووصولاً إلى الفيلسوف ، وحتّى أصحاب العلوم التجريبيّة والطبيعيّة كالأطبّاء وعلماء الفلك والنجوم ، يريدون تحميل علومهم على القرآن واكتساب سنداً وشاهداً لهم منه . وما أكثر التفاسير التي كتبت على هذا النحو ، حتّى الموضوعيّة منها .

إنَّ مثل هذا العمل ، في الحقيقة ، يمسخ القرآن . وبعبارة أُخرى يقتل القرآن ويميته ؛ ويفقده قيمته واعتباره .

فينبغي أخذ معاني القرآن من نفس القرآن ؛ وفي «الميزان» رُوعي هذا المنهج على النحو الأكمل .

ومن خصائص هذا التفسير أيضاً ، رعاية المعاني الكلّيّة للألفاظ الموضوعة ؛ وليس خصوص المعاني الجزئيّة الطبيعيّة والمادّيّة المأنوسة لذهن الإنسان . وأيضاً تحديد موارد الجَرْي والانطباق وفصلها عن متن المدلول المطابقيّ للآيات .

ومنها أيضاً ، معالجة الأبحاث المختلفة . وإضافة إلى البيانات

القرآنيّة ، روعيت **الأبحاث الروائيّة ، الاجتماعيّة ، التأريخيّة ، الفلسفيّة والعلميّة** ،كلّ واحد على حدة بدون الخلط أو المزج بين الموضوعات .

وعلى هذا الأساس ، عولجت المسائل المتعلّقة بعالم اليوم وآراؤه وأفكاره والمدارس والمذاهب الموجودة بشكل كافٍ ومستوفٍ ، وطبّقت على قانون الإسلام المقدّس ، وحُدّدت مواقع الجرح والتصويب والردّ والإيراد أو النفي والإثبات . وأُجيب بأفضل نحوٍ على الإشكالات التي أُوردت على الشريعة الإسلاميّة المقدّسة من المدارس الشرقيّة والغربيّة والإلحاديّة والكافرة ، وسرت إلى العالم الإسلاميّ ، مبيّناً نقاط الضعف والإبهام والمغالطة . وعلى أساس الآيات الكريمة :

إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ .[1]

و **إِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مَن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** .[2]

ونظائرها التي هي محور الحقّ وميزان الأصالة والواقعيّة ؛ وإنَّما تقاس بها بقيّة الآراء والمذاهب ، وعليه تظهر موارد الخطأ والمغالطات الفكريّة في مرامهم .

ومن خصائص هذا التفسير أيضاً ، حمايته لمذهب التشيّع ؛ وقد أدّى هذا الدور المهمّ من خلال الأبحاث الدقيقة والعميقة وإظهار مواضع الآيات ، بلغة وبيان بليغ دون إثارة الحَميّة الجاهليّة ، ونيران العصبيّة ؛ وبالاعتماد على نفس الآيات القرآنيّة ، وتفسيرها بنحو لا يقبل الردّ والإنكار ؛ وبواسطة الروايات التي نقلها العامّة أنفسهم ،كما جاء في تفسير

١ـ الآيتان ١٣ و ١٤ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

٢ـ الآيتان ٤١ و ٤٢ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

«**الدرّ المنثور**» وغيره ، وقد أجلى المطالب في كلّ موضوع من المواضيع الولائيّة ، وأثبت الولاية العامّة والكلّيّة **لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والأئمّة الطاهرين** صلوات الله عليهم أجمعين .

وبالنسبة للمفسّرين المصريّين المعاصرين من العامّة ، أورد مطالبهم بدون ذكر أسمائهم ، وأشار إلى نقاط الضعف والتزييف فيها ؛ وبرهن على مواقع الخطأ والشبهات .

وفي المسائل الأخلاقيّة تحدّث بشكل مبسوط مفصّل ، وفي المسائل العرفانيّة بصورة دقيقة ولطيفة ومختصرة ، وفي جملة قصيرة كان يظهر عالماً من العلم . ويدعو الإنسان إلى لقاء الله والوطن الأصليّ .

وفي هذا التفسير ، جمع بين المعاني الظاهريّة والباطنيّة للقرآن ، وبين العقل والنقل ، وأعطى كلّ شيء حظّه .

إنَّ هذا التفسير من الروعة والجمال والبهاء بقدر يمكن معه تعريفه للعالم كسند لعقائد الإسلام والشيعة ، ويمكن إرساله إلى جميع المدارس والمذاهب ؛ ودعوتهم على أساسه إلى دين الإسلام ومذهب التشيّع . كما أنّه قد قام بنفسه بإنجاز هذا الأمر الهامّ ، وانتشر «**الميزان**» في العالم ووصل إلى قلب فرنسا وأمريكا ، وأُرسلت الأعداد الكثيرة منه إلى البلاد الإسلاميّة ، وأُجريت التحقيقات حوله ، وأدّى إلى فخر الشيعة ومباهاتهم ورفعتهم في المحافل العلميّة .[١]

١ـ والأمر الشيّق هنا أنَّ هذا التفسير متين في العربيّة ، بليغ ومتين في حفظ القواعد العربيّة وفي أُسلوب تسلسل المواضيع بحيث يعسر على العلماء والمحقّقين العرب ـ وهم أهل الأدب العربيّ ـ تمييز وإدراك أنَّ مؤلّفه من غير العرب . بل لم يُنقل حتّى الآن عن أحد القول بأنَّ هناك قرائن في هذا التفسير تشير إلى أنَّ مؤلّفه إيرانيّ أو أنَّ لغته الأصليّة هي التركيّة الآذربيجانيّة، أو أنّه من غير العرب عموماً . فقد سئل المرحوم آية الله الحاجّ الشيخ

«الميزان» هو التفسير الأوحديّ الذي يبيّن النكات الدقيقة والحسّاسة ، ويقف مقابل مغالطات المعاندين ، ويتميّز بالجامعيّة . وحقّاً يمكن القول : إنَّه لم يؤلّف تفسير مثله منذ صدر الإسلام حتّى اليوم . وكان أُستاذنا جامع العلوم ووارث زُبُرِ العلماء الحقّ ، وقد حاز على مقام الجامعيّة في مجال هذه الفنون والعلوم .

محمّد حسين كاشف الغطاء في حياته ، وكان أُستاذاً في الأدب والعربيّة وفريد عصره فيهما، عن كاتب دورة معروفة في الإمامة حُرّرت في عصره ، فأجاب : من البيّن أنَّ الذي كتبها ⇐ ⇐ من غير العرب .

وحين سئل المرحوم الشيخ عبد الله السبيتيّ صهر المرحوم السيّد عبد الحسين شرف الدين العامليّ عن ذلك ، أجاب : من الجليّ أنَّ كاتبها عجميّ .

أمّا في تفسير «الميزان» فلم تُنقل مثل هذه الأُمور إضافة إلى أنّه قد نُقل عن أحد الفضلاء والعلماء المعاصرين ، وهو من مشاهير الأدب العربيّ ، أنَّ «الميزان في تفسير القرآن» يعدّ من حيث الطابع الأدبيّ واللغويّ من بين الكتب الأدبيّة المعتبرة للطلبة الجامعيّين في لبنان؛ هذا مع أنَّ بعض الكتّاب كان يأخذ نسخته إلى النجف الأشرف فيقرأها على المرحوم آية الله الشيخ محمّد علي الأُردوباديّ ـ وكان ممتازاً في الأدب العربيّ ـ فيصحّحها له.

ولقد صحّح «العروة الوثقى» للمرحوم آية الله اليزديّ شخصان ، أحدهما عربيّ وهو الشيخ أحمد كاشف الغطاء ، والآخر إيرانيّ وهو السيّد أحمد الخونساريّ ، كما جرى أيضاً تصحيح «الكفاية» للمرحوم آية الله الخراسانيّ .

يقول المرحوم آية الله السيّد محسن الأمين العامليّ في كتاب «معادن الجواهر ونزهة الخواطر» (ج ١ ، ص ٤٢) بعد تأكيده على ضرورة إتقان اللغة العربيّة والأدب العربيّ لدارسي العلوم الإسلاميّة ، وبعد إبدائه أسفه الشديد على تدنّي مستوى الأدب في الحوزات الحاليّة: «وإذا نظرنا أنَّ جلّ العلماء المحقّقين كانوا في الأعصار السالفة من العجم من الشيعة وأهل السنّة، وأنّهم كانوا يتقنون العلوم العربيّة أشد إتقان كما تشهد به آثارهم ومؤلّفاتهم ، علمنا أنَّ هذا التقصير حصل في الأعصار الأخيرة فقط .

ونحن نذكر بعض الأمثلة لما قلناه وهو قليل من كثير ، فهذا الشيخ مرتضى الأنصاريّ شيخ المحقّقين وقدوتهم وفاتح باب التحقيق لمن بعده في هذا العصر ، ومبتكر التحقيقات الكثيرة والفوائد الجمّة النافعة لعلم الأُصول ، الذي كان ـ على ما يقال ـ يحافظ على معرفة علم العربيّة أشدّ المحافظة ، بل قيل : إنّه كان يواظب على تلاوة «ألفيّة ابن مالك» وبعضهم

فَلِلَّهِ دَرُّهُ وَعَلَيْهِ أَجْرُهُ . فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ .

امشب كــه نُـقل مـجلس مـا گـفتگوى او است
ســاقى بـيار بــاده كـه امشب شبى نكـوست
مــــطرب بــــاز ســـاز كـــه از پــنجهٔ قــضا
بر ما خوش است هر چه كه تقدير كرده دوست
شــادى و غُـصّه هـر دو بَـرِ اهـل دل يكـيست
چون در امور هـر چـه بـما مـى‌رسد ز اوست [١]

يبالغ ويقول: كان يتلوها في أعقاب الصلاة ويجعلها من جملة التعقيبات ، لمّا كان غير ضليع مع ذلك بالاستعمالات العربيّة ، ذكر في تفسير حديث : **النَّاسُ فِي سَعَةٍ مَا لَا يَعْلَمُونَ** : ⇦ ⇦ من جملة الاحتمالات أن تكون «ما» مصدريّة ظرفيّة ، و «سعة» منوّنة غير مضافة ، أي: «**الناس في سعةٍ ما داموا لا يعلمون**» ؛ مع أنَّ العربيّ العارف بأساليب العرب في استعمالاتهم لا يشكّ أنَّ هذا الاستعمال غير صحيح عندهم ، وأنّه إذا قصد هذا المعنى يجب أن يُقال: **النَّاسُ فِي سَعَةَ مَا لَم يَعْلَمُوا**» . ثمّ يختم المرحوم الأمين المطلب بعد ذكر عدّة أمثلة لأفراد آخرين.

أمّا تفسير «الميزان» الذي كان يُكتب على الورق مباشرة دونما مسوّدة ، حتّى تصحيح الأخطاء المطبعيّة كان يتمّ من قبل سماحة الأُستاذ العلّامة نفسه ؛ رحمة الله عليه ملء زنة عرشه. وكان حين ينشغل بالكتابة يكتفي بشرب قدح من الشاي المخفّف ، أو يدخّن نصف سيجارة، وكانت سجائره من نوع «أُشنو» وكان ثـمن العـلبة الواحـدة مـنها سـبعة قـرانـات (ريالات) وكثيراً ما كان يحصل أنّه لا يمتلك ثمن تلك السجائر . **فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ مَاتَ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيَّاً .**

١ـ يقول :
ألاَ أيُّـــــــها الســـــــاقي أدِرْ كأْساً ونــــاولها
فـــالليلة حـــديث أُنســـه يـــملأ مـجلسنا
والمـطرب قــل له أن يـعزف ألحـان القـضاء
فكــــلّ مــــا حـــلّ عـــلينا وقـدّر مـحبوبنا

زاهــد حـديث حـورى و غـلمان چـه مـى‌كنى
آنــجا كــه عــقل مــحوِ تـماشاى روى اوست
فــرق مـيان مـا و تـو اى شـيخ ايـن بس است
مــا در خـيال مـغز و تـوئى در هـواى پـوست
گــفتم بــدل كــه سِــرّ غـنچهٔ لعـل لبش بگـو
گفتا خموش بـاش كـه ايـن نكـته تـو بـتوست
ســرو چــمن مگــر قــد بــالاش ديـده است
كو مانده پـاى در گـل و بـى بَـرْ كـنار جـوست
ذوقــــى بـجرم آنكــه بُـتا آشــناى تــوست
هـــر دم بســنگ طـعنهٔ اغــيار روبــروست[١]

ورغم أنَّ هذا الحقير قد طالع أكثر من ثلاثين من التـفاسير المـهمّة للشيعة والسنّة ، لكنّي لم أرَ مثل «الميزان» في الروعة والبـهجة والجـامعيّة ،

فــالحزن والفــرح عــند أهــل القــلوب تـوجّدا
لأنَّ كـلّ مـا يـصل هـو مـن المـحبوب لنـا

١ـ يقول :

أيّها الزاهد المستغرق في حديث الحور والغلمان
انـظر كـيف العـقل يـذوب مـن ظـهوره لنـا
فـــالفرق بـــيننا أيّـــها الشــيخ هـذا فـقط
نحن في خـيال العـقل وأنت فـي فـضاء قشـورنا
قـلت لقـلبي مـا هـو سرّ شـفاه بـراعـم الوحـدة
قــال اخـرس ! فـلهذه النـقطة مـعاني بـاطنيّة
وهـــل اســتطاعت الســرو بـقامتها المــريدة
الوصول ، فبقيت في الطين بلا ثـمر قـرب القـنا
ذوقـــــي ـ إنَّك تـــــعرف ذاك الصــــنم
كــلّ لحــظة أُواجــه طــعنات الأغــيار

وكأنـّه قد عزل كلّ التفاسير الأُخرى وبقي وحده . وفي الحقيقة ، لست الوحيد المتفرّد ، بل هناك العديد مـن العـلماء الأعـلام والمـفكّرين العـظام وأهـل البحث والتحقيق الذين عبّروا عنها أو أشاروا إليها .

وهذا صديقنا الصالح وزميلنا في الدراسة الجليل الحاجّ السيّد مـوسى الصدر خلّصه الله من أيدي الفجرة وأطال الله بقاءه ، ينقل عن العالم الوحيد والكاتب المشهور والمتضلّع الخبير **الشيخ محمّد جواد مغنيّة اللبنانيّ** أنـّه كان يقول : منذ ذلك الوقت الذي حصلت على «الميزان» تعطّلت مكتبتي ، وانهمكت في مطالعة «**الميزان**» فقط .[1]

١ـ قال سماحة الصديق الأكرم حجّة الإسلام والمسلمين الحاجّ السيّد مـحمّد عـلي نجل آية الله الميلانيّ في شأن المرحوم أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه : لقد قدم رئيس الجمعيّة الثقافيّة المصريّة : الشيخ محمّد الفحّام ومساعده الشيخ الشرباصيّ إلى مشهد، فجاءا عند أبي ، وكان من جـملة كـلامهما : لقـد وجـدنا تـفسير «المـيزان» أفـضل التفاسير، وقد طالعناه إلى الجزء الثامن عشر ولم نعثر على الجزءين الأخيرين . وكانا في غاية الشوق لرؤية العلّامة الطباطبائيّ عن كثب ، بيد أنَّ العلّامة لم يكن آنذاك في مدينة مشهد المقدّسة، إذ كان قد سافر إلى الخارج ، لذا فلم يلتقيا به ، لكنَّ المرحوم أبي أرسل إليهما في مصر الجزءين التاسع عشر والعشرين من التفسير .

كان هذا كلام سماحة نجل الميلانيّ ؛ أمّا سماحة آية الله الحاجّ الشيخ محمّد رضـا المهدويّ الدامغانيّ فقد سبق أن حكى للحقير هذا المطلب بهذه الكيفيّة :

نظراً لعقد علاقات الصداقة بين إيران ومصر ، ولتـقرّر إقـامة العـلاقات الثـقافيّة بـين البلدين، فقد قدم إلى إيران مـمثّلاً عـن مـصر ، الشـيخ مـحمّد الفـحّام والشـرباصيّ فـزارا المؤسّسات الثقافيّة والتقيا بالعلماء . وكنتُ أحد تلامذة ومعتمدي المرحوم آية الله الحاجّ السيّد هادي الميلانيّ فأرسل لي يُخبرني برغبته في لقائي يوم الغد مبكّراً ، فذهبتُ صباح اليوم التالي مبكّراً إلى محضره فقال : لقد تقرّر أن يزورنا شخصان من الشخصيّات المصريّة من قبل جمعيّة العلاقات الثقافيّة الإيرانيّة ـ المصريّة ، فلتكن حاضراً في تلك الجلسة . وعلينا من جهة أُخرى أن نهديهما شيئاً ، فما الذي ترونه صالحاً للإهـداء ؟ فـقلت : دورة تـفسير «الميزان»، فهو كتاب علميّ وشريف ومعتبر ، ويناسب هذا اللقاء .

قال : لقد بدا لي ذلك أيضاً . لذا فقد أعدّ دورة من تفسير «الميزان» ليهديه لهما عند

وكــان له الذي يسـتحقّه فـي الحـوزات العـلميّة ؛ ولم تُـدرك قـيمته الواقعيّة . فإذا دُرِّسَ هذا التفسير في الحوزات العلميّة ، وأُجريت التحقيقات والأبحاث والتحليلات حول محتواه ومطالبه ، واستمرّ العمل بهذه الطريقة ، فإنَّ قيمته سوف تعرف بعد مرور مائتي سنة .

وقلت في مرّة أُخرى : حين أُطالع هذا التفسير فـي بـعض الأوقـات وأُشاهد كيف تـربطون الآيـات بـبعضها وكـيف تـوازنـون بـين سـلاسلها وتخرجون معانيها عن طريق التطبيق ، لا أجد إلّا أن أقول إنَّ قـلم الوحـي والإلهام الإلهيّ قد جريا على يديك !

فهزّ رأسه ، وقال : إنّ هذا من حسن نظركم فقط ؛ فأنا لم أفعل شيئاً ! [1]

اللقاء بهما. كما أنـّه ـ من جهة أُخرى ـ أرسل إلى العلّامة الطباطبائيّ ليحضر ذلك المجلس، فاعتذر العلّامة عن الحضور لمرضه .

١ـكان هذا الحقير قد ذهب يوماً في مشهد المقدّسة بعد طبع هذا الكتاب «مهر تابان» (=الشمس الساطعة) لردّ زيارة الصديق الأكرم والأخ المعظّم : سماحة آية الله الحاجّ السيّد محمّد الشاهروديّ دامت بركاته ، نجل المرحوم أُستاذنا : سماحة آية الله العـظمى الحـاجّ السيّد محمود الشاهروديّ رضوان الله عليه ، وكان أولاده وأصهاره حاضرين كذلك ، فـدار الحديث عن العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه ، فذكر أنَّ شخصيّة العـلّامة مـهمّة جـدّاً لديهم. وقال لي صهره الأكبر الحاجّ السيّد مرتضى الصدر ، حفيد المرحوم الحـاجّ السـيّد حسن الصدر : ما كان أحسن لو كنتم كتبتم رسالة الذكرى هذه «مهر تابان» بالعربيّة !

فقال الحقير : لقد كانت رسالة الذكرى هذه لشرح حـاله للـناطقين بـالفارسيّة الذيـن يعرفونه والذين تعاملوا مع أفكاره قليلاً أو كثيراً . ولقد كان وطنه ومحلّ سكناه في البـلاد الفارسيّة. فقال السيّد الصدر : أنتم مخطئون ! فالعلّامة أكثر شهرة في البلاد العربيّة منه في المدن الإيرانيّة ، وليس من عالم ومحقّق ـ وخاصّة في مصر ولبنان ـ إلّا ويـمتدح العـلّامة ويصفه بالعظمة ، وإلّا وله مراجعة ومراودة مع كتاب «الميزان» حتّى أنَّ الطلبة الجـامعيّين والطلّاب عموماً يمتلكون تفسير «الميزان» ويقدّرون أفكار العلّامة .

فقال الحقير : يلزم إذاً ـ والحال هذه ـ أن يُترجم كتاب «مهر تابان» إلى العربيّة فيوضع في متناول أيديهم !

ومن مؤلّفاته أيضاً :

كتاب «التوحيد» الذي يحتوي على ثلاث رسائل : ١ـ «رسالة التوحيد» ٢ـ «رسالة في أسماء الله سبحانه» ٣ـ «رسالة في أفعال الله سبحانه» . وقد أُضيف إلى هذا الكتاب رسالة **«الوسائط»** وكتاب **«الإنسان»** الذي يحتوي على ثلاث رسائل هي : ١ـ «الإنسان قبل الدنيا» ٢ـ «الإنسان في الدنيا» ٣ـ «الإنسان بعد الدنيا» . وطبع في مجلّد واحد تحت عنوان **«هفت رساله»** (**=سبع رسائل**) .

ومن مؤلّفاته الأُخرى رسالة **«الولاية»** التي تبرهن آخر السير الإنسانيّ في حضرة الأحديّة وفناءه في الذات ، وحيازته على مقام العبوديّة . وأيضاً رسالة **«النُّبوَّة والإمامة»** .

ويصل عدد هذه الرسائل إلى تسعة ، كلّها بالعربيّة وما زالت بخطّ اليد لم تطبع لحدّ الآن . وقد طلب منه مرّات عديدة أن يوافق على طبعها ، لكنّه كان يرجع ذلك إلى ضرورة المراجعة وتجديد النظر .

وله كتاب «شيعه در اسلام» (= الشيعة في الإسلام) ، وكتاب «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ، وكتاب «وحى يا شعور مرموز» (= الوحي أو الشعور الخفيّ) .

كان العلّامة يعتقد : أنَّ الإسلام الصحيح لم يدخل إلى أُوروبا وأمريكا ؛ لأنَّ جميع المستشرقين الذين جاءوا من هناك إلى البلاد الإسلاميّة قد قابلوا أهل السنّة وعاشوا في مناطق العامّة سواء في إفريقيا ومصر أم في سوريا ولبنان والحجاز وباكستان وأفغانستان ؛ واعتمدوا على مكتباتهم المعتبرة وتواريخهم كـ «الطبريّ» و «ابن الأثير» و «سيرة ابن هشام» ، وتفاسيرهم وكتبهم في الحديث كـ «صحيح» البخاريّ والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجة وابن داود و «الموطّأ» لمالك وغيرها ، وجعلوها مصادر

التعرّف على الإسلام ؛ وعرفوا الإسلام على أساس نظريّات وآراء العامّة بشكل عامّ ؛ وعلى هذا الأساس اعتبروا الشيعة فرقة منشعبة عن الإسلام ؛ ولهذا لم يولوا اهتماماً لكلّ المصادر الشيعيّة التحقيقيّة كالتفاسير والتواريخ وكتب الحديث والفلسفة والكلام ؛ وهكذا بقي الشيعة مجهولين ؛ في حين أنَّ هذه الفرقة هي التجلّي الواقعيّ للإسلام الصحيح ، وهي حقيقة التبعيّة لسنّة رسول الله المتجلّية في الولاية ؛ والشيعة هم الفرقة الوحيدة التي سارت على سنّة الرسول ؛ وقد تحقّق الإسلام وتجسّد فيها قولاً وعملاً .

ولأنَّ نقاط النقد والتزييف والغشّ والتحريف كثيرة في تواريخ العامّة وكتبهم ؛ وفيها قد نسب للرسول ما لا يليق به ، وأُزيلت العصمة عنه ، لهذا ، فإنَّ الإسلام الواقعيّ لم يتجلّ بصورته الحقيقيّة في الغرب ، وبالتالي لم يجذبهم إلى دين الإسلام . أمّا عند الشيعة فالأمر مختلف ؛ فإنَّ جميع كتب الشيعة ، تبيّن رسول الله معصوماً عن الخطأ والمعصية والزلل والذنب ولا تنسب إليه ما لا يليق بمقام النبوّة .

إضافة إلى ذلك ، فالشيعة يعتبرون الأئمّة الأطهار معصومين ، وهم الخلفاء الواقعيّين ؛ خلافاً لكتب العامّة من التفاسير والتواريخ وكتب الحديث التي نجدها مشحونة بجواز تولّي غير المعصوم ، بل الإمام الجائر ، وضرورة طاعته .

ولهذا تحوّلت الخلافة الطاهرة لرسول الله إلى إمبراطوريّة عظيمة تماثل الإمبراطوريّتين الرومانيّة والفارسيّة . وارتكب خلفاء بني أُميّة وبني العبّاس كافّة الفجائع والقبائح تحت ستار خلافة رسول الله ؛ كلّ هذا كان سبباً لعدم توجّه الأُوروبيّين نحو الإسلام .

ولكنّهم لو عرفوا وفهموا أنَّ هذه السيرة مخالفة لسنّة رسول الله ، وأنَّ الإسلام قد جاء لهدم أُسس وأركان أمثال هذه الحكومات ؛ لاندفعوا

حتماً نحو الإسلام .

وقد كانت لقاءات العلّامة الطباطبائيّ ومحادثاته مع الأُستاذ **هنري كوربِن** مع تحمّل المشقّات الجسيمة ، حيث كان يضطرّ للسفر من قم إلى طهران بالحافلة العاديّة ؛ كلّ هذا ، لأجل إيصال حقيقة التشيّع وإظهار الوجه الواقعيّ للولاية ، وبيان علائم الشيعة وغيرها .

وكان هذا العمل حقّاً خدمة عظيمة ؛ فبالإضافة إلى تسجيل كافّة المطالب ونشرها في أُوروبا ، كان هنري كوربن يُعَرِّف على حقيقة التشيّع ، ويدافع بقوّة عن مبادئه في محاضراته ومؤتمراته ؛ وخاصّة في باريس .

كان **كوربن** يعتقد أنَّ المذهب الوحيد في العالم الذي لم يمت هو مذهب الشيعة ؛ لأنّه يقول بوجود الإمام الحيّ ؛ وعلى هذا الأساس يبني اعتقاداته ، وبالاعتماد والرجوع إلى **المهديّ قائم آل محمّد : محمّد بن الحسن العسكريّ** بقي حيّاً دائماً .

لأنَّ اليهود قد أماتوا دينهم بوفاة النبيّ **موسى** ؛ والمسيحيّون بعروج النبيّ **عيسى** ؛ وسائر طبقات المسلمين بارتحال النبيّ **محمّد** ؛ ولكنّ الشيعة يؤمنون بأنَّ وليّهم وإمامهم وصاحب ولايتهم الذي يتّصل بعالم المعنى والإلهام السماويّ حيّ وناظر ؛ وهذا ما جعل هذا المذهب حيّاً .

كان كوربن قريباً جدّاً إلى التشيّع ؛[1] وعلى أثر لقاءاته ومحادثاته مع

١ـ أوردت مجلّة «جوانان امروز» (= الشباب المعاصر) ص ٥٢ ، العدد ٨٢١ بتاريخ ٢٤ آبان ١٣٦٢ هـ.ش ، وهو العدد الخاصّ بالذكرى السنويّة لارتحال العلّامة الطباطبائيّ ، ضمن لقاء مع نجله الأكبر : السيّد عبد الباقي حفظه الله ، مطلباً نقله عن العلّامة حول هنري كوربن ، ننقله عنه هنا ، قال :

التفت إليّ أبي يوماً دون أن أسأله شيئاً فقال في بشاشة ونشاط خاصّين : لقد آمن هذا البروفيسور بالإسلام ، إلّا أنّه يستحيي من إعلان إيمانه شفاهاً !

وما إن مرّت عدّة أيّام على مقولة أبي ، حتّى تحدّث البروفيسور يوماً في أحد

العلّامة وتعرّفه على هذه الحقائق وبالخصوص، أصالة الاعتقاد بحضرة **المهديّ** حدث تغيّر شديد فيه.

وكان العلّامة يقول: كان كوربن يقرأ «الصحيفة المهدويّة» في أغلب الأوقات ويبكي.

وقد بدأت معرفة كوربن بالعلّامة الطباطبائيّ ومحادثاته سنة ١٣٧٨ هـ، واستمرّت لأكثر من عشرين سنة.

وتشرّف هذا الحقير يوم الجمعة في الثامن عشر من شهر شعبان المعظّم سنة ١٣٩٩ هـ بالحضور عند الأُستاذ العلّامة في مشهد المقدّسة، وهناك جرى الحديث عن كوربن؛ وقد سجّلت ما قاله، وهنا أذكره للقرّاء الكرام:

قال **العلّامة**: **الأُستاذ هنري كوربن** هو أُستاذ الدراسات الشيعيّة في جامعة السوربون؛[1] وقد توفّي منذ حوالي شهرين؛ وكانت له جلسات تحقيق عديدة معي حول مذهب الشيعة.

كان رجلاً منصفاً وسليم النفس. وكان يعتقد: أنَّ المذهب الوحيد في كلّ العالم الذي ما زال حيّاً ومتحرّكاً هو مذهب الشيعة؛ أمّا بقيّة المذاهب فقد أنهت عمرها بدون استثناء، وليس فيها أيّ نوع من التكامل والتنافس.

فاليهود لا يؤمنون بإمام ووليّ حيّ (وكذلك المسيحيّون

المؤتمرات في الخارج حديثاً أثار بسببه ضجّة، فلقد أورد حديثاً حماسيّاً ساخناً عن صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه، قال فيه: لقد كدتُ أخسر منصبي التحقيقيّ لأجل ⇦ ⇦ البحث في الإسلام والوصول إلى هذه الحقائق. أي أنّني أوشكت أن أُعزل عن هذا المنصب من قبل الكنيسة.

وقد سُرَّ أبي جدّاً حين اطّلع على هذا الأمر وسعد بذلك وقال: ألم أقل لك إنَّ البروفيسور كوربن هذا مؤمن بالإسلام إلّا أنّه يستحيي أن يعترف بذلك صراحة؟!

١- Henry Corbin professeur a` l' Ecole des Houtes-Etudes (Sorbonne)

والزردشتيّون) فهم لا يعتمدون على مبدأ حيّ ، بل يكتفون بالعمل بالتوراة والإنجيل والزند وأوِستا ؛ وهم يبحثون عن تكاملهم ضمن هذه الدائرة فقط .

وكذلك سائر فرق السنّة الذين يرون تكاملهم محصوراً بالقرآن والسنّة .

أمّا التشيّع ، فهو دين الحياة والحركة ؛ لإيمانه بضرورة وجود الإمام والقائد للأُمّة الذي ما زال حيّاً ، ولا يحصل الكمال للإنسان إلّا بالوصول إلى مقامه المقدّس ؛ ولأجل هذا المقصد فإنَّه لا يبخل بأيّ تحرّك وسير وعشق .

يقول العلّامة : قلتُ مرّة لكوربن : في دين الإسلام المقدّس إنَّ جميع الأراضي والأمكنة تعتبر محلّاً للعبادة ؛ فلو أراد الإنسان أن يصلّي أو يقرأ القرآن أو يسجد أو يقرأ الأدعية ، فيمكنه أن يؤدّي هذه الأعمال في أيّ مكان يريد ؛ وقد قال رسول الله : **جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدَاً وَطَهُورَاً** ؛ أمّا في المسيحيّة فليس الأمر كذلك ؛ لأنَّ الكنيسة هي المحلّ الوحيد للعبادة ، وفي غيرها تكون باطلة .

ولهذا ، فإن اعترت أحد المسيحيّين حالة وأراد أن يدعو الله وهو في منتصف الليل في منزله ، فماذا يفعل ؟ عليه أن ينتظر حتّى يأتي نهار الأحد لتفتح الكنيسة ويذهب إليها للدعاء ! وهذا هو معنى قطع علاقة العبد بالله .

فقال كوربن : نعم ، إنّ هذا إشكال على المسيحيّة ؛ أمّا الإسلام والحمد للّه فهو دين لجميع الأزمنة والأمكنة والأحوال ، وهو يحفظ علاقة المخلوق مع خالقه .

وقال : في دين الإسلام المقدّس ، فإنّ الإنسان المحتاج يمكنه أن يدعو الله طبق تلك الحالة والحاجة ؛ لأنَّ الله له الأسماء الحسنى . فهو الغفور والرحيم والرزّاق والمنتقم وغيرها ، والإنسان طبق حاجته ومطلبه

يذكر الله ويدعوه بأحد الأسماء التي يراها مناسبة . فإذا أراد أن يستغفر الله ويطلب منه العفو عن ذنوبه ، فعليه أن يستفيد من اسم **الغفور** أو **الغفّار** أو **غافر الذنب** .

أمّا المسيحيّة ، فإنَّه لا وجود للأسماء الحسنى الإلهيّة ؛ ولا يطلق عليه إلّا ألفاظ **الربّ والإله والأب** . فإذا كنتم تريدون أن تدعوا الله على أساس حاجة أو مطلب ما ، أو أردتم أن تناجوه بأسمائه وصفاته وتطلبون حاجاتكم باسمه الخاصّ ، فماذا تفعلون ؟

فأجاب كوربن : أنا أقرأ في مناجاتي «الصحيفة المهدويّة».

وكان العلّامة يقول : كان كوربن يقرأ «الصحيفة السجّاديّة» باستمرار ، ويبكي أثناء قراءتها .

وقد نشرت مباحثات العلّامة الطباطبائيّ مع كوربن باللغات الأربع : **الفارسيّة والعربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة** . وأوّل سلسلة منها نشرت بالفارسيّة تحت عنوان «**مكتب تشيّع**» (= مدرسة التشيّع) في الدورة السنويّة الثانية ، وقد طبعت مجدّداً . وقد نشرت وتنشر حاليّاً كتب للعلّامة مثل كتاب «**شيعه**» (= الشيعة) ، وكتاب «**رسالت تشيّع در دنياى امروز**» [١] (= رسالة التشيّع في العالم المعاصر) ، و «**پرسش‌هاى اسلامى**» (= مسائل إسلاميّة) ، وكتاب «**اسلام وانسان معاصر**» (= الإسلام والإنسان المعاصر) .

ومن مؤلّفاته أيضاً ، كتاب «**حكومت در اسلام**» (= الحكومة في الإسلام) الذي ترجم من الفارسيّة إلى العربيّة . وهناك رسالة عربيّة حول «**الحكومة في الإسلام**» ، ورسالة أُخرى في «**الإعجاز**» ، ورسالة عربيّة

١ـ كتاب «شيعه» (= الشيعة) عبارة عن محاورات العلّامة مع كوربن في سنة ١٣٣٨ هـ؛ وكتاب «رسالت تشيّع در دنياى امروز» (= رسالة التشيّع في العالم المعاصر) عبارة عن محاوراتهما في سنتي ١٣٣٩ و ١٣٤٠ هـ.

بعنوان «**عليّ والفلسفة الإلهيّة**» وقد ترجمت إلى الفارسيّة . وهناك حواشي نفيسة على «**الأسفار الأربعة**» للملّا صدرا نشرت في الطبعة الأخيرة ضمن التعليقات في تسعة أجزاء ، وحاشية على «**كفاية الأُصول**» .

ومن مؤلّفاته أيضاً كتاب «**سنن النبيّ**» الذي طبع ونشر مع إضافات لأحد الفضلاء .[1]

وعدّة رسائل في الاعتباريّات والبرهان والمغالطة والتحليل والتركيب والمشتقّ وغيرها ، لم تطبع حتّى الآن .

* * *

أمَّا نهج الأُستاذ في العرفان والأخلاق :

آنچه مى‌دانم از آن يار بگويم يا نه
وآنچه بنهفته ز اغيار بگويم يا نه
دارم اسرار بسى در دل و در جان مخفى
اندكى ز آنهمه بسيار بگويم يا نه
سخنى را كه در آن بار بگفتم با تو
هست اجازت كه در اين بار بگويم يا نه[2]

١ـ الحاجّ الشيخ هادي الفقهيّ ، زادَه اللهُ هِدايةً وفِقْهاً .

٢ـ «ديوان المغربيّ» ص ١٠٩ ؛ يقول :

هل أُخبركم ما أعلمه عن الحبيب أو لا ؟
وهل أكشف ما غاب عن الأغيار أو لا
عندي أسرار كثيرة ولكنّها في القلب والروح مختفية
فهل أُخبركم عن قليل منها أو لا
ما أخبرتك به يوماً وقلت لك
هل تأذن لي اليوم أن أقوله أو لا

معنى حُسن گل و صورت عشق بلبل
همه در گوش دل خار بگويم يا نه
وصف آنكس كه در اين كوچه و اين بازار است
در سر كوچه و بازار بگويم يا نه[١]

ماذا أقول في إنسان كانت حياتي وروحي ونفسي معه ! فإذا كنتُ عارفاً بالله أو بالرسول أو بالإمام ، فكلّ هذا ببركة رحمته ولطفه .

فمنذ ذلك الوقت الذي أرسله الله إلينا فقد أعطانا كلّ شيء . وكان هو كلّ شيء ؛ طويلاً شامخاً وقصيراً ، قصيراً في عين شموخه والنزول . في عين الأوج والصعود ، كان في الحضيض . فمعنا نحن الطلّاب العجولين المتسرّعين ، كان هادئاً ومعتدلاً ، كالأب الشامخ الذي ينحني ليأخذ بيد طفله ، ويمشي به خطوة خطوة ؛ وكان يعامل كلّ واحد منّا ويربّيه طبق ذوقه وسليقته ، واختلاف حدّته وشدّته ، وسرعته وبطئه ؛ ويتعاهده بالتربية .

ورغم الأمواج المتلاطمة لبحر الأسرار الإلهيّة في قلبه الزاهر ، فقد كان دائم البشاشة ، والسماحة ، شعاره الصمت ، والنبرة الهادئة . ويستغرق دائماً في التفكير ، وتعلو شفتيه ابتسامة لطيفة .[٢]

١ـ يقول :
معنى جمال الورد وحسن وجه العندليب
هل أفصح عنه كلّه في قلب الشوك أو لا
فله وصف هذا الحيّ وذاك السوق
هل أُذيعه في الأزقّة والأسواق أو لا

٢ـ نقل سماحة حجّة الإسلام السيدّ أحمد الرضويّ دام عزّه أنَّ المرحوم آية الله الآخوند الملّا الهمدانيّ رحمة الله عليه كان يقول : لقد كنّا نرى المرحوم آية الحقّ آية الله العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه ساكتاً منقبضاً دون أن يرشح عنه شيء ، وكان يتحاشى الظهور باستمرار . حتّى كانت ليلة كنت فيها في مكان خارج مدينة مشهد المقدّسة مع ⇦

بحسن خلق و وفا کس به یار ما نـرسد
تو را در این سخن انکار کار مـا نـرسد
اگر چه حسن فروشان به جلوه آمده‌اند
کسی به حسن و ملاحت به یار ما نرسد
بحقّ صحبت دیرین که هیچ مـحرم راز
بــه یــار یکـجهت حـقگزار مـا نـرسد
هزار نقش برآید ز کِـلک صُـنع و یکـی
بــدلپذیری نــقش نگــار مــا نــرسد
هــزار نــقد بــه بــازار کــائنات آرنــد
یکی به سکّهٔ صاحب عـیار مـا نـرسد[1]

⇦ آيه‌الله الميلانيّ والمرحوم الحاجّ السيّد محمود ضيابري والعلّامة الطباطبائيّ وآخرين، فطرح موضوعاً بالمناسبة بحيث تحدّث العلّامة بشأنه لساعتين كاملتين ، فبسط القول وفصّله بحيث قلتُ بعد إكماله كلامه : لقد قرأتُ في أعمال ليلة الجمعة ـ ظاهراً ـ أنَّ من قام بالعمل الفلاني ، أنعم الله عليه بكنز من مالٍ أو علم . ولم أكن لأبغي مالاً ، فقمتُ بذلك العمل ليُنعم الله عَلَيَّ بكنز العلم ؛ ولِلّه الحمد والشكر فقد نلتُ الليلةَ مرادي ووجدت كنز العلم.

١ـ «ديوان حافظ» طبعة بژمان ، حرف الدال ، ص ٨٠.

يقول : «ليس في العالم من يبلغ مرتبة حبيبنا ، في الحسن والخلق والوفاء ... ومن أجل ذلك لن ننكر حالنا معه ، وما نقوله في صدق ووفاء.

ولو اجتمع بائعو الحسن والملاحة ، فأقبلوا في جلوة وبهاء ... لما وصل أحد منهم إلى مرتبته في الحسن والملاحة والرواء .

وبحقّ الصحبة القديمة ، لن يستطيع محرمٌ للأسرار ... أن يصل مثلنا إلى الاعتراف بحقوق هذا الحبيب الوفي .

وهذه الآلاف من النقوش والصور ، تنبعث من قلم الصنع ... ولكنّ واحدة منها لا تصل إلى ملاحة حبيبنا .

وهذه الآلاف من قطع النقد يجلبونها إلى سوق الكائنات ... ولكـنَّ واحـدة مـنها ⇦

دريــغ قــافلهٔ عــمر كــانچنان رفــتند

كه گردشان به هـواى ديـار مـا نـرسد[١]

أجل ؛ أيّها الأُستاذ العزيز ! فبعدك يجب أن نقول ما قاله الإمام السجّاد عليه السلام على قبر والده :

أَمَّا الدُّنْيَا فَبَعْدَكَ مُظْلِمَةٌ ؛ وَأَمَّا الآخِرَةُ فَبِنُورِ وَجْهِكَ مُشْرِقَةٌ .

هذا الإنسان ، كان عالَماً من العظمة ؛ وكطالب صغير كان يجلس في زاوية ساحة المدرسة على الأرض ؛ ويأتي عند الغروب إلى المدرسة الفيضيّة فيصلّي عندما تقام الجماعة مثل سائر الطلّاب مؤتمّاً بالمرحوم آية الله الحاجّ السيّد محمّد تقي الخونساريّ .

لقد كان متواضعاً ومؤدّباً ، وشديداً في حفظ الآداب إلى الدرجة التي حملتني على أن أقول له تكراراً : إنَّ هذه الدرجة من الأدب والدقّة والرعاية فيكم جعلتنا بلا أدب ! فهلّا فكرتم بحالنا !

ولمدّة أربعين سنة تقريباً وحتّى اليوم لم يُرَ في مجلسٍ ما مستنداً إلى وسادة أو ما شابه ، بل كان دائماً يجلس بعيداً عن الحائط قليلاً ؛ وبكلّ أدب أسفل الداخلين أو الضيوف . وكنتُ تلميذه ، وأتردّد كثيراً على منزله ، فأُريد أن أجلس بشكل مؤدّب أسفل منه ؛ ولم أقدر أبداً . وكان يقوم ، ثمّ يقول : على هذه الحال ينبغي أن أجلس في الأسفل أو خارج الغرفة !

وقبل عدّة سنوات زرته في مشهد المقدّسة ؛ وعندما دخلت عليه كان مستلقياً على وسادة (فقد أمره الطبيب أن لا يجلس على الأرض الصلبة بسبب ضعف قلبه) وبمجرّد أن رآني نهض من مكانه وطلب منّي أن

⇦ لا تصل إلى سكّة صاحب عيارنا» .

١ـ يقول : «فوا أسفا لقافلة العمر ، فقد ذهبوا معها ... ولم يصل غبار سيرها إلى الهواء الذي يمرّ بديارنا».

أجلس عليها ، فلم أقبل وبقينا لفترة واقفين ؛ حتّى قال : اجلس ، فيجب أن أقول لكم شيئاً !

فأطعته متأدّباً ، وجلس هو على الأرض ، ثمّ قال : ماكنت أُريد أن أقوله لكم : «إنَّ هذا المكان أكثر ليونة» !

ومنذ ذلك الوقت الذي كنّا ندرس في قم ، لم يحصل أن سمح لنا بالصلاة جماعة وراءه . وقد بقي هذا حسرة في قلوبنا ؛ لأنّنا لم ندرك جماعته ؛ واستمرّ إلى اليوم ، إلى أن جاء شهر شعبان[1] هذه السنة ، حيث تشرّف بزيارة مشهد ، فحلّ في منزلنا ، وجعلنا غرفته في المكتبة لكي يتسنّى له قراءة ما يشاء من الكتب . وجاء وقت المغرب ، ففرشت له وللممرِّض الذي كان يرافقه سجادةَ الصلاة ، وخرجت من الغرفة ليبدأ بالصلاة فألتحقُ به على هذه الحال ، لأنّني كنتُ أعلم أنّه لم يؤمّنا ما دمنا فيها .

فمرّت ربع ساعة من المغرب ؛ وناداني مرافقه ، وقال : ما زال السيّد ينتظركم لتبدءوا بالصلاة .

قلت : أنا أُريد أن أقتدي !

قال : بل نحن نقتدي !

قلت : أرجوكم أن تبدءوا بصلاتكم .

فقال : ونحن نرجوكم أيضاً .

قلت له : منذ أربعين سنة وأنا أطلب منكم أن تسمحوا لنا بالصلاة وراءكم ؛ فاقبلوا منا !

فقال مبتسماً : سنة تضاف إلى الأربعين .

١ـ أي آخر شهر شعبان الذي مضى وذلك سنة ١٤٠١ هـ.

ولم أستطع أبداً أن أتقدّمه ، واعترتني حالة شديدة من الخجل والحياء . فرأيت أخيراً أنّه قد ثبت في مكانه ولم يكن مستعدّاً للتنازل بتاتاً ؛ وليس من الصحيح أن أُخالف طلبه ، فأذهب وأُصلّي لوحدي فرادى .

قلت له : إنّني عبدٌ مطيع لكم ؛ فإذا أمرتم التزمتُ .

قال : أيّ أمر ... ! نحن نرجو منكم !

فنهضت للصلاة ، وصلّى مأموماً . وبعد أربعين سنة ، إضافة إلى أنّني لم أقدر على تحقيق الصلاة جماعة ، بل وقعت هذه الليلة في هذا الفخّ .

الله يعلم حال وجهه وحال حيائه الذي كان بادياً على سيمائه وهو يطلب ذلك :

خُلُقٌ يُخْجِلِ النَّسِيمَ مِنَ اللُّطْفِ وَبَأْسٌ يَذُوبُ مِنْهُ الجَمَادُ
جَلَّ مَعْنَاكَ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الشِّعْرُ وَيُحْصِي صِفَاتِهِ النُّقَّادُ[1]

* * *

مسلكه العرفانيّ :كان مسلك أُستاذه الأوحد المرحوم آية الحقّ وسيّد العارفين الحاجّ الميرزا علي القاضي ، وهو مسلك أُستاذه السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ ، الذي كان يتبع مسلك أُستاذه المرحوم آية الحقّ الآخوند الملّا حسين قلي الهمدانيّ الدَّرْجَزينيّ رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو مسلك معرفة النفس ، الذي يتلازم مع معرفة الربّ ، وتدلّ على هذا الأصل الروايات الكثيرة .

وهو يحصل بعد عبور عالم المثال والصورة ، وبعد عبور عالم النفس

١ـ «سفينة البحار» ج ١ ، ص ٤٣٧ ، عن صفي الدين الحلّيّ تلميذ المحقّق الحلّيّ ، ضمن قصيدة ألقاها في أمير المؤمنين عليه السلام .

حيث **عِنْدَ الفَنَاءِ عَنِ النَّفْسِ بِمَرَاتِبِهَا يَحْصُلُ البَقَاءُ بِالرَّبِّ** ؛ أمّا تجلّي سلطان المعرفة فإنّه سيحصل عندما لا يبقى من الآثار النفسانيّة في السالك أيّ وجود .

ومن الشروط المهمّة لتحصيل هذا الأمر ، المراقبة . حيث يجب على السالك أن يحفظ آدابها وشرائطها في كلّ مرحلة من المراحل ، أو منزل من المنازل حسب المرحلة أو المنزلة ، بكلّ ما للكلمة من معنى . فبدون المراقبة تكون الأعمال والعبادات كالدواء الذي يتناوله المريض مع عدم الاحتراز من تناول الأطعمة المضرّة التي لن تفيده شيئاً .

أمّا كلّيّات المراقبة التي تختلف بجزئيّاتها حسب اختلاف المنازل ، فيمكن اختصارها في خمسة أشياء :

صَمت و جُوع و سَهَر و عُزلت وذِكرى بدوام

نـا تـمامان جـهان را كـند ايـن پـنج تـمام[١]

كان **المرحوم الأُستاذ** يعظّم اثنين من علماء الإسلام كثيراً ، ويذكر مقامهما ومنزلتهما بتقدير شديد : الأوّل : **السيّد الأجلّ عليّ بن طاووس** أعلى الله تعالى مقامه الشريف ، وكان يولي كتاب «إقبال الأعمال» اهتماماً

١ـ يقول : «صَمْتٌ وجُوعٌ وسَهَرٌ وعُزلة ودوام الذكر ، فهذه الخمسة ستجعل غير الكاملين في العالم كاملين» .

بالنسبة إلى لزوم رعاية هذه الأشياء الخمسة ، فقد وردت روايات تفوق حدّ الإحصاء نذكر منها فقط رواية واحدة ذكرت في «مصباح الشريعة» في الباب ٢٨ من الكتاب ، يقول : **قَالَ الإمَامُ الصَّادِقُ عَلَيهِ السَّلَامُ : لَا رَاحَةَ لِمُؤْمِنٍ إلَّا عِنْدَ لِقَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفِي أرْبَعَةٍ : صَمْتٌ تَعْرِفُ بِهِ حَالَ قَلْبِكَ وَنَفْسِكَ فِيمَا يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ بَارِئِكَ ، وَخَلْوَةٌ تَنْجُو بِهَا مِنْ آفَاتِ الزَّمَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً ، وَجُوعٌ تُمِيتُ بِهِ الشَّهَوَاتِ وَالوَسْوَاسَ ، وَسَهَرٌ تُنَوِّرُ بِهِ قَلْبَكَ وَتُصَفِّي بِهِ طَبْعَكَ وَتُزَكِّي بِهِ رُوحَكَ .**

وهنا غير دوام الذكر لم يأت أيّ ذكر عن الأشياء الأربعة الأُخرى ، ومن المعروف أنَّ دوام الذكر من أهمّ المقاصد كذلك .

فائقاً ويعتبره «سيّد أهل المراقبة».

والثاني: **السيّد مهدي بحر العلوم** أعلى الله تعالى مقامه، وكان يشيد بأُسلوب عيشه وسلوكه العلميّ والعمليّ ومراقباته. وقد ذكر في مرّات عديدة تشرّفه والسيّد ابن طاووس للقاء حضرة إمام الزمان أرواحنا فداه. وكان معجباً بمخالفتهما واجتنابهما لهوى النفس، ومجاهداتهما في سبيل الوصول إلى المقصود، وكيفيّة حياتهما وسعيهما لتحصيل رضى الله تعالى، وينظر إليها نظرة التجليل والتكريم.

كان يهتمّ بـ«**رسالة السير والسلوك**» المنسوبة **للسيّد بحر العلوم**، ويوصي بقراءتها، وقد قام بشرحها مفصّلاً لعدّة مرات لبعض الرفقاء الخواصّ من الطلّاب الصالحين والوالهين من طلّاب الحقّ ولقاء الله.

كان يعتبر أنَّ أفضل الكتب الأخلاقيّة المختصرة هو كتاب «طهارة الأعراق» لابن مسكويه؛ وأفضل المتوسّط منها كتاب «جامع السعادات» للحاجّ الملّا مهدي النراقيّ؛ وأفضل المطوّل منها كتاب «إحياء الإحياء» للملّا محسن الفيض الكاشانيّ. وكان يقول: ما جاء في كتاب «روضات الجنّات» في ترجمة أحوال الخواجة نصير الدين الطوسيّ حول كتابه «أخلاق ناصرى» في أنّه اقتبسه من كتاب «طهارة الأعراق»، وهذا الأخير مقتبس من أحد علماء الهند، ليس صحيحاً أيضاً، لأنَّ ابن مسكويه كان معاصراً لابن سينا، وقد ألّف كتاباً في الفلسفة على طريقة الفلسفة اليونانيّة تماماً، ولا يرتبط بالفلسفة الهنديّة بتاتاً؛ إضافة إلى أنَّ كتابه الأخلاقيّ المذكور لا ينطبق مع مشرب الهنود.

أمّا النراقيّ[١] فهو من الفقهاء والعرفاء وفلاسفة الدرجة الأُولى، وهو

١ـ الحاجّ ملّا مهدي النراقيّ: أحد خمسة أشخاص يسمّون بـ**المهادي الخمسة**، ⇦

من حيث سعة الفكر وبُعد النظر في العلوم الرياضيّة والفلك نادر المثيل ، وله في الأخلاق مقام سام . ومن العجيب جدّاً أنّه لم يُعرَف حتّى اليوم وبقي مجهولاً رغم كمالاته ومقاماته العديدة . وقد طبعت مؤخّراً بعض مصنّفاته ، ومن المقرّر أن تطبع بقيّة آثاره الجليلة .

أمّا الفيض فهو أشهر من الشمس ، وكتابه «المحجّة البيضاء» الذي كتبه في إحياء «إحياء العلوم» ليُعدّ من أنفس كتب الشيعة رضوان الله عليهم أجمعين .

أمّا الفرق الواضح الذي كان يميّز العلّامة الطباطبائيّ عن الآخرين هو أنَّ أخلاقيّاته كانت ناشئة من رشحات الباطن ، وبصيرة الضمير ، وحلول حقيقة السير والسلوك في باطن القلب والذهن ، وتمايز عالم الحقيقة والواقعيّة عن عالم المجاز والاعتبار ، والوصول إلى حقائق عوالم الملكوت ، وفي الحقيقة ، تنزّل مقامه المعنويّ في عالم الصورة وعالم الطبع والبدن . وكانت معاشراته ومعاملاته وسائر أُموره تقوم على ذلك الأصل .

أمّا مسلك غيره في الأخلاق فقد كان ناشئاً من تصحيح الظاهر ، ورعاية الأُمور الشرعيّة والمراقبات البدنيّة لعلّهم يفتحون بذلك نافذة على الباطن ، ويجدون طريقاً إلى جوار الحضرة الأحديّة رحم الله الماضين

⇦ وعاشوا في عصر واحد ، يعتبرون من أعلام وأساطين الشيعة في أقطار العالم ، وهم عبارة عن: **السيّد مهدي بحر العلوم ، والسيّد مهدي القزوينيّ ، والحاجّ ملّا مهدي النراقيّ ، والحاجّ ميرزا مهدي الشهرستانيّ ، والسيّد مهدي الخراسانيّ الشهيد** . والمرحوم الحاجّ ملّا مهدي النراقي جدّ أُمّنا الأعلى من جهة الأُمّ ، يعني والد أُمّ أُمّ أُمّ أُمّ الحقير . وعلى هذا يكون ابنه الحاجّ ملّا أحمد النراقيّ خال جدّتنا العليا ، وابنه الحاجّ ملّا محمّد يكون ابن خال جدّتنا العليا.

منهم أجمعين .

كان **للعلّامة الأُستاذ** روحاً لطيفة ، وذوقاً رفيعاً ، ورقّة خاصّة[1] .

١ـ نقل جناب حجّة الإسلام سماحة الحاجّ السيّد محمّد علي ابن آية الله الميلانيّ قصّة عن إحاطة وسيطرة السيّد العلّامة على الشعر الفارسيّ ، وهي حقّاً قابلة للتعجّب ، قال: كنت يوماً مع السيّد العلّامة الطباطبائيّ وصهره القدّوسيّ والمناقبيّ قادمين بالسيّارة من سبزوار إلى مشهد ... وقرّرنا أن نتبارى بالشعر ، نحن الثلاثة من جهة ، والسيّد العلّامة وحده من جهة أُخرى ، ولم تستطع مجموعتنا أن تتغلّب عليه ، بل لقد أفحمنا ، لا ببيت واحد من الشعر، بل بعدّة أبيات كان يأتي بها دائماً بعنوان شاهد ... وحقّاً لقد تعجّبنا من قدرته وتسلّطه في الشعر والأدب .

وهكذا وكما سنرى أن للسيّد العلّامة قريحة شعر راقية ، ومتانة وسموّ في الذوق ، وقد طبعت أشعار العلّامة التاليّة في جريدة «آستان قدس مشهد» في السنة الثانية في العدد ٥٤٩ ، يوم الأربعاء الواقع في ١٥ ربيع الثاني ، سنة ١٤١٠ هـ ، الموافق يوم ٢٤ آبان ١٣٦٨ حسب التأريخ الشمسيّ الفارسيّ . ومع الأسف هذا التأريخ حسب التقويم الشمسيّ ، وقد تصوّروا أنّه يوم ذكرى ارتحاله ، إذ خلافاً لجميع الموازين الشرعيّة يقيمون ذكرى ارتحاله على حساب التقويم الشمسيّ .

فيوم ارتحال السيّد العلّامة كان في اليوم الثامن عشر من محرّم لا الخامس عشر من ربيع الثاني ... فتأمّل وافهم ، فإنَّ ضلالة الإنسان تجرّه إلى هذه المزالق .

خشت اوّل چون نهد معمار كج ‏ ‏ ‏ ‏ تا ثريّا مى‌رود ديوار كج

يقول : «لأنَّ العمّار وضع الحجر الأوّل باعوجاج ... حتّى وإن ارتفع الحائط إلى الثريّا فسيبقى أعوجاً».

أجل ؛ فهذه أشعاره :

دامن از انديشهٔ باطل بكش ‏ ‏ ‏ ‏ دست از آلودگى دل بكش
كار چنان كن كه در اين تيره خاك ‏ ‏ ‏ ‏ دامن عصمت نكنى چاك چاك
يا به دل انديشهٔ جانان ميار ‏ ‏ ‏ ‏ يا به زبان نام دل و جان ميار
پيش نياور سخن گنج را ‏ ‏ ‏ ‏ ور نه فراموش نما رنج را
يا منگر سوى بتان تيز تيز ‏ ‏ ‏ ‏ يا قدم دل بِكش از رستخيز
روى بتان گر چه سراسر خوش است ‏ ‏ ‏ ‏ كشتهٔ آنيم كه عاشق كُش است
عشق بلند آمد و دلبر غيور ‏ ‏ ‏ ‏ در ادب آويز ، رها كن غرور
چرخ بدين سلسله پا در گل است ‏ ‏ ‏ ‏ عقل بدين مرحله لا يَعقِل است ⇦

وكان يحبّ في الشعر العربيّ قصائد **ابن الفارض** وخاصّة قصيدته المعروفة **بالتائيّة الكبرى** في «نظم السلوك» .

وكان يثني في الشعر الفارسيّ على «ديوان الخواجة حافظ الشيرازيّ» .

وكان يقرأ بهدوء على مسامع الأصدقاء من حين إلى آخر بعض الأشعار العرفانيّة الفارسيّة والعربيّة في الغزل .

إنَّ همّ وغمّ السالك يجب أن يكون جميعه خالصاً للّه ، لا لأجل البحث عن الزيادة والفضيلة ، بل أن يكون همّه الله ، وزادُ طريقه ذلّ العبوديّة ، ودليله محبّته . وكان كثيراً ما يردّد هذه الأبيات ، ويقول : إنَّ الشاعر في إشارته إلى طريق الفناء قد أبدع :

⇦ **جان و جسد سوخته زين مرهمند مُلك و مَلك سوختهٔ اين غمند**

ـ يقول : «طهّر وجودك من الأفكار الباطلة ... واترك مايبعث على تلويث القلب .

اعمل كما يجب في هذه الدنيا الدنيّة ... حتّى لا تمزّق لباس العصمة تمزيقاً .

إمَّا أن لا يجول الحبيب في أفكار قلبك ... أو بلسانك لا تلفظ اسم الحبيب .

ولا تذكر حديث الكنز المنطوي فيك ... وإلّا فعليك أن تنسى الجهد والتعب .

وإمَّا أن لا تحدّق إلى الأصنام (المقصود هنا مقامات الوحدة . أي لا تمعن النظر فيها وتطمع في الوصول إليها ، وإن فعلت فتهيّأ لقيامة قيامتك في هذه الدنيا ، أي : موتوا قبل أن تموتوا) بإمعان ودقّة ... أو اسحب خطوات القلب من محشر القيامة .

وإن كانت كلّ وجوه الأصنام (المقصود الأسماء والصفات ، ومهما كانت جميلة «فأينما تولّوا فثمة وجه الله» بل والمهمّ التوجّه إلى «الذات» وأن لا يرضى الإنسان بديلاً عنها) جميلة ... فنحن قتلاه هو الذي يقتل العشّاق .

للحبّ رفعة وسموّ والحبيب غيور ... فتحلّى بالأدب واترك الغرور .

ووقعت الأفلاك في قيد العشق ... والعقل في هذه المرحلة لا يعقل .

احترق الجسد والروح من هذا المرهم ... والمُلك والملكوت احترقا من هذا الغم» .

وهذه هي بعض أبيات من قصيدة له ، وقد نشرت بكاملها في «كيهان فرهنگى» ، السنة السادسة، شهر آبان ١٣٦٨ حسب التأريخ الفارسيّ ، العدد ٨ ، ص ٩ .

رَوَتْ لِـــي أَحَــادِيثَ الغَــرَامِ صَــبَابَةٌ
بِــــإِسْنَادِهَا عَـــنْ جِــيرَةِ العَــلَمِ الفَــرْدِ
وَحَـــدَّثَنِي مَــرُّ النَّسِــيمِ عَــنِ الصَّــبَا
عَنِ الدَّوْحِ عَنْ وَادِي الغَضَى عَنْ رُبَى نَجْدِ
عَنِ الدَّمْعِ عَنْ عَيْنِي القَـرِيحِ عَـنِ الجَـوَى
عَنِ الحُزْنِ عَنْ قَلْبِي الجَـرِيحِ عَـنِ الوَجْـدِ
بِأَنَّ غَــــرَامِــــي وَالهَــوَى قَــدْ تَــحَالَفَا
عَــلَى تَــلَفِي حَتَّى أُوَسَّـدَ فِـي لَـحْدِي[١]

كان **للعلّامة** قريحة شعريّة ، وكان ينشد الغزليّات العرفانيّة الجيّاشة المليئة بالوجد والعشق والشوق . ونذكر هنا نموذجاً منها :

مِهر خوبان دل و دين از همه بى پروا بـرد
رُخ شَـطرنج نـبرد آنـچه رخ زيـبا بـرد
تو مپندار كه مجنون سرِ خود مجنون گشت
از سَمَک تا بـه سـهايش كشش ليـلَى بـرد
من به سرچشمۀ خورشيد نه خود بردم راه
ذرّه‌اى بـودم و مِـهر تـو مـرا بـالا بـرد[٢]

١ـ هذه الأبيات موجودة في «الميزان» ج ١ ، ص ٣٧٩ .

٢ـ يقول :

«حبّ الحبيب أخذ القلب والدين من الجميع بلا عائق ... وما أخذه وجه الحبيب الجميل لم يستطع حجر القلعة في الشطرنج أن يأخذه .

ولا تحسب أنَّ المجنون قد أصبح مجنوناً من تلقاء نفسه ... بل هي جاذبيّة ليلى التي أوصلت قيس إلى السُّهى ورفعته من المدارك .

أنا ما وصلت إلى معدن النور من تلقاء نفسي ... كنت ذرّة صغيرة وحبّك هو الذي أوصلني .

من خَس بی سر و پایم که به سـیل افـتادم
او کــه مـیرفت مـرا هـم بـه دل دریـا بـرد
جام صَهبا ز کجا بـود مگـر دست کـه بـود
کــه دریـن بـزم بگـردید و دل شـیدا بـرد
خم ابروی تو بود و کـف مـینوی تـو بـود
که بیک جلوه ز من نام و نشان یکجا بـرد
خودت آموختیم مهر و خـودت سـوختیم
بـا بـرافـروخته روئـی کـه قـرار از مـا بـرد
هــمه یــاران بــه سـر راه تـو بـودیم ولی
خـم ابـروت مـرا دیـد و ز مـن یَـغما بـرد
همه دل باخته بودیم و هراسان کـه غـمت
همه را پشت سـرانـداخت مـرا تـنها بـرد[1]

١ـ يقول : «أنا كنت قشّة من التبن وقعتُ في السيل ... كان يجري وأخذني إلى قلب أعماق البحر.

هذا الكأس العظيم من الشراب العتيق من أين كان ؟ وبأيّ يد ... أدار هذا الحفل وسقى الهيام نشوة قلوب العاشقين وصلاً .

كان انحناء حاجبيك أنت وكفّ يدك السماويّة ... بـجلوة واحـدة أخـذ مـنّي الاسـم والعنوان والوجود بلحظة واحدة .

حرارة الحبّ التي تلتهب في القلب كانت ولا زالت ، مذ ذاك اليوم الذي ولدت فـيه وسلّمت القلب للحبيب .

أنت الذي علّمت الحبّ وأنت الذي ألهبتَ القلب ... لحظة أسفرت عن وجهك البراقع .

كلّ العاشقين وقفوا في الطريق منتظرين ... ولكنَّ انـحناء حـاجبيك نـحوى نـظرت وقتلتني بالهيام .

كلّ العاشقين كانوا قلقين ، خائفين ، منتظرين ... ولكنَّ لطفك ترك الجميع واختارني وحدي ليأخذني إليك .»

«پروانه و بلبل» (= الفراشة والبلبل) من الأشعار الجميلة والفصيحة للسيّد الأُستاذ ⇦

....

⇦ التي أنشدها حين رجوعه من تبريز :

از دلِ آنروز که من زاده‌ام — داغ بدل بوده و دل داده‌ام
تا به ره افتاده‌ام از کودکی — هیچ نیاسوده دلم اندکی
شهر و ده و سینه و دریا و کوه — گشتم و بگذشتم و دل در ستوه
رحل بهر جای که می‌افکنم — روز دگر خیمهٔ خود می‌کَنم
شاهد مقصود ندیدم دمی — هیچ ندیدم خوشی و خرّمی
چرخ نگردید بکامم دمی — قرعه نیفتاد بنامم دَمی
از کف و از کاسهٔ گردون دون — برده‌ام و ریخته‌ام اشک و خون
من که نبودم به رهش خار راه — کوشش وی را ننمودم تباه
جرم من اینست که آزاده‌ام — در رقمِ تیره دلی ، ساده‌ام
دوش بیاد دل ویران شدم — چون خطِ ایّام پریشان شدم
عاقبتم سینهٔ غم تنگ شد — پای شکیبائی من لنگ شد
شمع بدستی و بدست دگر — ساغر و مینا ، شدم از در بدر
نیم شب از خانه گریزان شدم — گاهِ سحر سوی گلستان شدم
گاهِ بهار و شب مهتاب بود — خرگه گُل بود و لب آب بود
جشن به دو شیوهٔ سرو و سمن — کرده پر از غلغله صحن و چمن
بر سر هر بوته گلی گل زند — پای سخن زیور و سنبل زند
نغزْ نسیمی که ز خاور وزد — خود لب گل ، گل لب نسرین گزد
رقص کنان نسترن و یاسمن — چنگ زنان ، چنگ زنان چمن
تازه عروسان چمن گرم ناز — پرده در افتاده برون جسته راز
مرغ سحر هر چه به دل راز داشت — چون نیِ بی خویش در آواز داشت
چون بغُنودیم بیک کُنج باغ — شیشه و پروانه و جام و چراغ
لیک دلم چون خم می‌جوش داشت — شاهد اندوه در آغوش داشت
بسته لب و دیده و گوش از جهان — گرمْ سر از تابش سوز نهان
چشم و لبی را که ز غم بسته بود — گریه گهی خنده گهی می‌گشود
دیدم و پروانه به گرد چراغ — گردد و بزمی است دگر سوی باغ
لیک سراسر همه خاموشی است — جلوه گه راز ، فراموشی است
در دو سر باغ دو تا جان فروش — این بطواف آمده آن در خروش
عالم پروانه همه راز بود — عالم بلبل همه آواز بود ⇦

....

⇦ گـفت بـه پـروانهٔ خـامش ، هَـزار | هـان تـو هـم از سـينه نـوائـى بـيار
بـا دل پـر سـوز تـرا تب سـزاست | در جـلوى نـاز نـيازت رواست
گـفت بـه مـرغ سـحر آرام شـو | بسـتهٔ دامـى ، بـرو و رام شـو
راسـتى ، ار عـاشق دل رفـته‌اى | ايـن هـمه از بـهر چـه آشـفته‌اى
گـفت مـرا يـار بـدينسان كـند | بى خود و بى تاب و پـريشان كـند
گـفت بگـو زنـده چـرا مـانده‌اى | تـخم وفـا گـر بـه دل افشـانده‌اى
صـاعقهٔ عشـق بـه هـر جـا فـتاد | نـام و نشـان سـوخته بـر بـاد داد
يـا بـه دل انـديشهٔ جـانان مـيار | يـا بـه زبـان نـام دل و جـان مـيار
پـيش نـياور سـخن گـنج را | ور نـه فـرامـوش نـما رنـج را
فارغ از اين پـند چـو پـروانـه گشت | از دل و جان بيخود و بيگانه گشت
خويش بر آتش زد و خاموش شـد | رخت بـرون بُـرد و فـرامـوش شـد

يقول : «حرارة الحبّ التي تلتهب في القلب كانت ولا زالت ، مذ ذاك اليوم الذي ولدت فيه وسلّمت القلب للحبيب .

من اللحظة التي ابتدأت أحبو فيها منذ طفولتي ، لم يهدأ قلبي للحظة واحدة ولم يسكن.

بحثت عابراً المدينة والقرية ، والصحراء ، والبحر والجبل ، ولا يزال القلب في ضيق وانقباض.

وأينما أحطّ رحالي وفي أيّ مكان كان ... أقتلع أوتاد خيمتي في اليوم التالي وأرحل.

وللحظة واحدة لم أرَ المحبوب والمقصود ... ولم أشعر أبداً بأيّ فرح وسرور .

ولم يدرْ دولاب الزمان والحظّ للحظة وفق مرادي ... ولا استقرّت القُرعة أبداً للحظة على اسمي .

تجرّعت من كفّ الدنيا وساقيها ... انسكاب الدموع التي أذرفها الدماء .

أنا لم أكن الشوك يعترض طريق عطاء الدنيا وسخائها ... ولم أُضيّع سعيها وكدحها .

جرمي الوحيد أنّي حرّ لا أُذلّ لها ... وقلبي ناصع بين القلوب القاتمة .

في الليلة الماضية فكّرت بالقلب المتزلزل ... فاضطربت كخيوط الأيّام المتشابكة.

وكانت عاقبتي أن ضاق صدري المملوء بالغمّ ... واعوجّت قدماي فلم أعد أملك استقامة الصبر.

حملت الشمع بيدٍ والكأس والزجاجة باليد الأُخرى وخرجت من الباب . ⇦

....

⇦ هارباً نصف الليل من البيت ... سائراً في السحر نحو روضة الأزهار .
كان الفصل ربيعاً والليل مقمراً ... وكانت الورود تعرش كالخيمة على حافّة الماء .
كان مهرجانٌ ولكن على طريقتَي السرو والياسمين ... فامتلأ الفضاء والعشب بالضجيج والغوغاء.
وكلّلت كلّ شجيرة وردٍ رأسها بالورد ... وزيّنت حواشيها بأحاديث السنابل .
نسيم الشرق اللطيف الذي هبّ لامس شفاه الورد ليعانقه ، وعانق الورد شفاه النسرين.
وتراقصت زهور الياسمين والنسترن ... وعزفت الحشائش الأناشيد على أوتار آلة الكنّارة.
وكانت عروس الحشائش غارقة في الدلال ... لحظة انكشف الغطاء وانقشع السرّ .
وصدح طائر قدس السحر بما في قلبه من الأسرار كقصب الناي أصبح بلا إرادة ينشد الأنغام.
ولأنـّني رقدتُ في ناحية من البستان ... الزجاجة والكأس والفراشة والمصباح .
كالخمر حين اختماره كان قلبي فوّاراً ... وقد احتضن الحزن حبيباً بين الذراع .
مطبق الشفاه مغمّض العينين أصّم السمع عن العالم ... ملتهب الرأس من حرارة احتراق القلب .
العينان المغمّضتان والشفاه المطبقتان من الحزن ... كانت تنفتح تارة من البكاء وطوراً من الضحك .
فلمحت فراشة تحوم حول المصباح وفي الناحية الأُخرى رأيت احتفالاً .
لكنّ الصمت كان مطبقاً في كلّ الأنحاء ... إنَّه ميعاد تجلّي السرّ ولا شيء غيرالنسيان.
وفي طرفي البستان روحان يتقدّمان للتضحية قرباناً ... هذه بالطواف وذاك بالصخب والضجيج.
عالم الفراشة كلّه أسرار ... وعالم البلبل كلّه أناشيد وأنغام .
لام البلبل الفراشة الصامتة قائلاً لها ... وأنت انشدي من صدرك الأنغام .
بقلبك هذا الطافح احتراقاً أجدر بك الحرارة أكثر من السكون ... وأمام الدلال إظهار احتياجك مستساغ أكثر .
قالت ، لطائر السحر : اسكت واهدأ ... وقعت أسيرة المصيدة فانطلق وكن مطيعاً.
إن كنت حقّاً عاشقاً وسلّمت قلبك للحبيب ، لما كلّ هذه الحيرة والاضطراب .
قال : هذا ما فعله بي الحبيب ... أفقدني الحواسّ والتحمّل وجعلني هكذا مضطرباً مشوّشاً.
قالت : قل إذاً لماذا إلى الآن بقيت حيّاً...إن كنت بذرت في القلب الوفاء للمحبوب. ⇦

....

⇦ أينما وقعت صاعقة الحبّ ... أحرقت الاسم والشهرة وبعثرتها الرياح .
إمّا أن لا يجول الحبيب في أفكار قلبك ... أو بلسانك لا تلفظ اسمه الحبيب .
ولا تذكر حديث الكنز المنطوي فيك ... وإلّا فعليك أن تنس الجهد والتعب .
وما أن انهت الفراشة نصيحتها هذه ... أصبحت بكلّ وجودها بلا وجود ولا حواسّ ولاإرادة.
رمت بنفسها في النار لتذوب وتفنى ... خلعت الجسد لتصبح النسيان .»

ومن قصائد العلّامة الطباطبائيّ التي تتحدّث عن التوجّه الكامل إلى اللـه سبحانه وتعالى، وانقطاع القلب عن الدنيا ، وقد أوردناها في آخر هذا الكتاب .

وهذه قصيدة أُخرى من قصائده البليغة والبديعة في التمسّك بالإسلام والسعي والمجاهدة في طريق الوصول إلى المقصود وعدم الاهتمام بالأُمور الدنيويّة ، وقد نظمها بمناسبة رحلة آية‌الله السيّد محمّد الحجّة الكوه‌كمريّ ، وهي حقّاً جميلة وبليغة جدّاً .

وقد وردت هذه القصيدة في كتاب «گنجينه دانشمندان» (= خزانة العلماء) ج ١ ، ص ٣١٦ و ٣١٧ ضمن ترجمة وبيان أحوال المرحوم آية اللـه الحجّة رحمة اللـه عليه. والقصيدة هي :

دريغا كه مهر هدايت برفت دريغا جهان فضيلت برفت
شه علم و تقوى و همّت برفت فسوس آية اللـه حجّت برفت
به سر خاكْ اين تيره ايّام را
كه بشكست اركان اسلام را
سپهر فضائل نگونسار شد جهان هنر همچو شب تار شد
دل و ديدهٔ علم خونبار شد بلى رستخيزى پديدار شد
كه او رخت از اين دام بيرون كشيد
فرو خرگه خود به هامون كشيد
مهين طائر آسمانى سرشت كه پرّيد از اين تيره‌گون دام زشت
زند نغمه در گُلْسِتان بهشت پيامى به آنان كه افسرده هشت
پيامى كه همچون سرود سروش
كند جلوه هر لحظه در گوش هوش
كه ياران نمى‌پايد اين روزگار بگرديد پابند كردار وكار
مگيريد از كار و كوشش قرار مناليد از رنج تن زينهار ⇦

....

⇦ به ویرانه در ، گنج بـی مـار نـیست
گلی اندرین باغ ، بی خـار نـیسـت
نـداریـد جـز کـیش اسـلام کـیش در این ره مـنالید از نـوش و نـیش
بکـوشید و بـنهید پـائی بـه پـیش مـترسید از قـطرهٔ خـون خـویش
که زیباتر از خون به پـیکار نـیست
خود از لاله خوشتر به گلزار نیست
بـــزرگان کـــه رادنـد و آزاده‌انــد بـحق مــهر ورزیــده دل داده‌انــد
بــه خـون خـود آغشـته افـتاده‌انـد بـــدین آرمـــان راه بگشـــاده‌انــد
بـه شـمشیر هـر بـند بگسسـته‌انـد
بــه نــیروی دانش دژی بسـته‌انـد
مــبادا کـه گــردون کـند رامـتان مـــبادا کـه کـوته کـند گــامتان
مــبادا شــود تـیره فـر جـامتان مـبادا کـه نـنگین شـود نـامتان
شــود تـیره دل ، دشـمنِ پـر زکـین
بگــیرد دژ و بشکـند کـاخ دیــن
حـقیقت جـز آئـینِ اسـلام نـیست بـه از نـام نـیکوی وی نـام نـیست
به چیزی فضیلت جز او رام نـیست جهان جز بـه وی هـرگز آرام‌نـیست
مـــهین کـــاخ اســلام آبـاد بـاد
هـــمیشه بـر و بـومش آزاد بـاد
یقول : «واحسرتاه لقد ارتحل من كان وجوده دامغ تصديق الهداية ... واحسرتاه عالم الفضيلة قد رحل .
سلطان العلم والتقوى والهمّة قد ارتحل ... للأسف آية الله الحجّة قد رحل .
لقد لبسنا ذلّ هذه الأيّام القاتمة
التي زلزلت أركان الإسلام .
شمس الفضيلة قد تهاوت ... وعالم الفضلاء مثل الليل قد أظلم .
بكاه قلب العلم وأعينه دماً ... حقّاً كأنَّ القيامة قد قامت وظهرت .
خلع لباس هذه الدنيا الدنيّة
ودفن خيمته في عمق أعماق الصحارى .
هذا الطائر العظيم السماويّ الفطرة ... حلّق وتخلّص من حبائل هذه الدنيا الدنيّة الكريهة.
ينشد الأنغام في روضة الجنان ... ويرسل توصياته للانطلاق من الحزن والخمول . ⇦

كان الأُستاذ محبّاً وعاشقاً متيّماً بالأئمّة الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وعندما كان يذكر اسم أحدهم ،كانت تعلو محياه حالة التواضع والأدب . وكان يعظّم إمام العصر أرواحنا فداه بشكل خاصّ ، ويؤمن بأنَّ مقامهم ومنزلتهم مع رسول الله والصديقة الكبرى لا يمكن

⇦ يرسل أناشيده التي ما هي إلّا بشارة
تتجلّى كلّ لحظة في آذان الأذكياء
أيّها الرفقاء ، هذه الأيّام لا تدوم ... تعلّقوا وتمسّكوا
بالعمل الصالح والكدح والسعي .
لا تتوقّفوا لحظة عن العمل وعن السعي ... واحذروا
أن تشكوا من آلام الجسد .
لا يوجد في الخربة كنز بلا خطر الأفعى
ولا يوجد ورد في الحدائق بلا شوك
ليس لكم غير الإسلام ديناً ... وفي طريقه لا شكوى من الفرح ولدغ الأحزان .
تقدّموا بثبات في سعيكم إلى الأمام ... ولا تخافوا من سفك دمائكم على الطريق.
فلا أجمل من أن تسفك الدماء في الجهاد
ولا أروع من شقائق النعمان في البستان
العظماء الذين كانوا أبطالاً وأحراراً ... أحبّوا الحقّ بصدق وسلّموا قلوبهم وكلّ وجودهم إليه.
فسقطوا متخبطين بدمائهم ... ليفتحوا الطريق نحو الهدف الأسمى .
حطّموا بسيوفهم كلّ القيود
بقوّة المعرفة بنوا السدود والحصون
حذار أن تجعلكم الدنيا عبيداً مطيعين لها ... وإيّاكم أن تقصر خطى أقدامكم الثابتة .
حذار أن تجعلوا عاقبتكم مظلمة ... وأن يلحق باسمائكم العار .
أصبح العدوّ بقلبه الأعمى المليء بالحقد والكره
على وشك أن يحطّم حصون وقصور الدين
فلا حقيقة إلّا دين الإسلام ... ولا اسم أحسن وأفضل من اسمه الجميل .
لا توجد أيّ فضيلة إلّا بالإطاعة له ... ولا يهدأ العالم إلّا بأحكامه وقوانينه .
فليدم عزّ الإسلام شامخاً معموراً
وليدم كلّ شبر فيه حرّاً

تصوّرها . وكان يعيش حالة من الخضوع والخشوع الحقيقيّين والتعلّق الوجدانيّ بهم ، يرى منزلتهم ومقامهم ملكوتيّاً . وهو عظيم الاطّلاع على سيرتهم .

في العديد من المطالب عندما كان يُسأل عنهم كان يجيب ويشرح بطريقة وكأنّه قد طالع تلك السيرة في يومه ، أو أنّه قد جلس إلى مصدر الوحي والتشريع ، وهو يتلقّى عنهم وينقله إلى هذا العالم .

وفي أيّام الصيف كانت عادته دائماً منذ القديم أن يتشرّف لزيارة حضرة ثامن الأئمّة عليه السلام ، ويبقى طوال فصل الصيف هناك ، ولا يقدّم أيّ مكان على هذه الأرض المقدّسة ، إلّا عند حصول المحذور .

وهناك كان يأتي كلّ ليلة إلى الحرم المطهّر ، ويقضي وقته بالتوسّل والتضرّع .

وكان مهما طلب منه أن يسكن خارج مدينة مشهد كـ «طُرقَبَه» و «جاغَرْق» ـ بسبب لطافة جوّهما ومياههما ـ وإمكانيّة التنقّل منهما للزيارة من حين إلى آخر ، لا يقبل أبداً ، ويقول : لا ألجأ إلى غير الإمام الثامن .[١]

١ـ كان من دأب هذا الحقير قبل إقامتي في مدينة مشهد المقدّسة التي انقضى عليها إلى هذا التأريخ ، الخامس من شهر رجب ١٤٠٣ هـ ، ثلاث سنوات وأربعة أيّام (فقد كان ورودي إلى هذه الأرض المقدّسة في السادس والعشرين من جمادى الأُولى لسنة ١٤٠٠ هـ) أن أتشرّف خلال فصل الصيف مع جميع أولادي وعائلتي إلى مشهد المقدّسة فأبقى فيها لما يقرب من الشهر ؛ وقد تشرّفت بالمجيء صيف ١٣٩٣ هـ وكان آية الله الميلانيّ وسماحة العلّامة آية الله الطباطبائيّ كلاهما على قيد الحياة ، فاستأجرت منزلاً في نهاية سوق «حاج آقا جان» ، في زقاق «حمّام برق» ؛ وكنت ـ عادة ـ أتشرّف بالذهاب إلى الحرم المطهّر عن طريق الصحن الكبير ؛ فتشرّفت يوماً بالذهاب إلى الحرم قبل الظهر بساعتين ، حيث كنت في أحسن حالاتي ، ثمّ إلى مسجد «گوهر شاد» لأداء صلاة الظهر ، فصلّيتها فرادى مع بعض الرفقاء ، ثمّ أردت الخروج من المسجد باتّجاه السوق الذي كان متّصلاً بالصحن الكبير والذي كان يمثّل طريقي الوحيد ، فقبّلت باب المسجد المتّصل بمحلّ حفظ الأحذية . وكانت ⇦

....

⇦ صلاة الجماعة في مسجد «گوهر شاد» قد انتهت آنذاك فتقاطر الناس للخروج من المسجد وأدّى ازدحامهم إلى تضييق الطريق . فلمّا قبّلت الباب طرق سمعي صوت رجل يقول : أيّها السيّد إنَّ الخشب لا يُقَبَّل !

ولم أدرك الحالة التي اعترتني إثر هذا الصوت ، فقد كانت تماماً أشبه بشرارة تقدح في القلب فتُفقد الإنسانَ وعيه ، فخرجتُ عن طوري وقلت : لماذا لا يُقَبَّل ؟ لماذا لا يُقَبَّل ؟ إنَّ خشب الحرم يُقَبَّل ، وخشب محلّ حفظ الأحذية في الحرم يُقَبَّل ، وأحذية زوّار الحرم تُقَبَّل، وتراب أقدام زوّار الحرم يُقَبَّل . وكنت أقول كلامي هذا بصوت عالي ؛ ثمّ ألقيت بنفسي على الأرض فجأة وسط الجمع وأخذت أمسح وجهي بغبار الأحذية وتراب الأرض وأقول: انظر ! هكذا، هو يُقَبَّل !

ثمّ نهضت متّجهاً نحو المنزل ، فقال ذلك الرجل : أيّها السيّد ، إنّني لم أقل شيئاً ؛ إنّني لم أتفوّه بجسارة ما !

قلتُ : ما الذي أردت قوله بعد ؟! وما الذي أردتَ فعله بعد ؟! ليس هذا خشباً ، بل هو خشب محلّ حفظ الأحذية في الحرم . هنا مرقد الإمام عليّ بن موسى الرضا ، هنا مطاف الملائكة، هنا محلّ سجود الحور والمقرّبين والأنبياء ، هنا عرش الرحمن ، هنا ... وهنا ...

قال : أيّها السيّد ، أنا مسلم ، أنا شيعيّ ، ومن أهل الخُمس والزكاة ؛ ولقد دفعتُ صباح اليوم حقوقي الشرعيّة إلى سماحة آية الله الميلانيّ .

قلت : عسى الخمس أن يميتك ! إنَّ الإمام ليس محتاجاً إلى فضل أموالك ، ومبارك عليك ما لديك ؛ بل إنَّ الإمام يريد منك أدباً ، فلما تفتقد الأدب ؟ أُقسم بالله إنّني لن أكفّ عنك حتّى أُدخلك نار جهنّم يوم القيامة بيدي فأكفئك فيها على وجهك !

فتقدّم آنذاك أحد أصهارنا (وهو زوج لأُختنا) واسمه السيّد محمود نوربخش فقال: إنّني أعرف هذا الرجل ، فهو من المؤمنين وكان من مريدي والدكم المرحوم !

قلت : فليكن ! لقد تردّى الشيطان في جهنّم لتركه الأدب .

وكنت مشغولاً في تلك الحال بالحركة إلى المنزل ، فدخلتُ السوق والرجل يتبعني ويقول: «سامحني أيّها السيّد ! أُقسم عليك بالله أن تعفو عنّي» . حتّى وصلنا إلى داخل الصحن الكبير ، فقلت له : من أكون أنا لأعفو عنك ؟ إنّني لستُ بشيء ! وجسارتك لم تكن موجّهة إليَّ ، بل إلى الإمام الرضا ، وهو أمر لا يمكن غفرانه ! إنَّ عظماء الأعلام من علمائنا كأمثال العلّامة ، وأمثال الشيخ الطوسيّ ، و أمثال الخواجة نصير الدين ، والشيخ المفيد والملّا صدرا، كانوا جميعاً ممّن يقبّلون أعتاب هذا المرقد ، وكان شرفهم في خضوعهم لهذه الأعتاب؛ ثمّ تأتون فتقولون : إنَّ الخشب لا يُقَبَّل ! ⇦

....

⇦ قال : لقد أخطأت وها أنا تائب ، ولن أُكرّر خطأً كهذا أبداً !

قلت : إنّني لست مكدّراً منك في قلبي بقدر ذرّة ، وإن كنتَ تُبتَ حقيقة فإنَّ أبواب السماء مُشرعة بوجهك !

وكان الناس في الصحن الكبير في تلك الأثناء يتقاطرون صوبنا من كلّ جهة ، ثمّ عدتُ إلى المنزل .

ثمّ تشرّفت عصر ذلك اليوم بالذهاب إلى محضر الأُستاذ الكريم المرحوم الفقيد آيةالله الطباطبائيّ رضوان الله عليه ، فدارت بيننا مذاكرات في شأن بعض النفحات التي تومض كالبرق على القلب فتجعل الإنسان تائهاً يتغرّب عن معيشته ، ومن جملتها هذا البيت لحافظ:

برقى از منزل ليلى بدرخشيد سَحَر وَه كه با خرمن مجنون دل افكار چه كرد

وترجمته : «أومض برق من منزل ليلى سحراً ـ فآهٍ ما فعل في بيدر مجنون ليلى وأفكار قلبه الجريح.»

فأورد العلّامة بيانات قيّمة ، فتذكّرتُ ـ بالمناسبة ـ واقعة اليوم ، فقصصتها عليه وقلت: أهي أيضاً من تلك الومضات ؟ فسكت العلّامة طويلاً ، وكان مُطرقاً برأسه مفكّراً ، ثمّ لم يقل شيئاً !

وكان من دأب المرحوم آية الله الميلانيّ أن يجلس نهاراً في القسم الخارجيّ من البيت قبل الغروب بساعة ، وكان سماحة العلّامة آية الله الطباطبائيّ يذهب إلى منزله في تلك الساعة فيلتقي به ، ثمّ يتشرّف قرب الغروب بالذهاب إلى الحرم المطهّر ، أو يحضر في صلاة الجماعة هناك ، فيجلس في آخر الصفوف كطالب عاديّ .

وكان قد مرّ على موضوع نقلي لقصّتي إلى سماحة الأُستاذ ثلاثة أيّام تقريباً ، حين التقيتُ في مشهد بأحدَ أصدقائي السابقين واسمه الشيخ حسن منفرد شاه عبد العظيميّ فقال: ذهبتُ أمس إلى منزل آية الله الميلانيّ ، فكان العلّامة الطباطبائيّ ينقل بالتفصيل ما حدث لأحد علماء طهران في مسجد «گوهر شاد» عند خروجه وتقبيله باب محلّ حفظ الأحذية في المسجد ، فكان العلّامة يذرف الدموع من أوّل القصّة إلى آخرها ، ثمّ قال ببشاشة وسرور: الحمد للّه إنَّ هناك فعلاً بين العلماء أفراداً متمسكّين بالشعائر الدينيّة وبإظهار الأدب في ساحة قدس الأئمّة الأطهار .

ولم يورد العلّامة اسم ذلك العالم ، إلّا أنّني استنتجت من القرائن أنّكم أنتم ، أفكان الأمر كذلك ؟ قلت : نعم ، إنَّ القضيّة تتعلّق بي .

وعلمتُ آنذاك أنَّ سكوت العلّامة وتفكيره كان علامة الرضا والإقرار لتصرّفي ، ⇦

وقد كان العلّامة شديد التواضع وكثير الخشوع أمام **القرآن الكـريم** . ويدلّ على مواضع الآيات في السور المختلفة ، وكان غالباً ما يتلو آياته عن حفظ ، كما يتلو الآيات المناسبة مع كلّ آية . لقد كانت مجالس ذلك الفقيد السعيد في الأبحاث القرآنيّة في غاية الروعة و غزارة المحتوى .

* * *

أمّا عن أوضاعه المعاشيّة : فكما يلاحظ من شجرة عائلته ، فقد كان من أُسرة محترمة ومعروفة وبارزة في آذربيجان . وكان مصدر معيشته وأخيه محصوراً بزراعة الأرض التي كان يملكانها في قرية شادآباد تبريز منذ الطفولة ، وقد ورثاها عن أسلافهما . وذلك كما يظهر من كتاباته في مرحلة إقامته هناك وعمله بالزراعة لكسب لقمة العيش ، فالرسائل الخطّيّة (كتاب «التوحيد» وكتاب «الإنسان » ورسالة «الوسائط» ورسالة «الولاية») قد كتبت في شادآباد .

وكان يقول : إنَّ هذا المِلك ، قد كان لآبائنا وأجدادنا لأكثر من مائتين وسبعين سنة ، وكان الوسيلة الوحيدة للارتزاق عن طريق زراعته ، وعندما اغتصب اختلّت معيشتنا وضاقت علينا .

ولأنَّ **العلّامة الطباطبائيّ** لم يجد فرصة لتدوين رسالة عمليّة ، رغم حيازته على مقام الفقاهة والعلم والمرجعيّة ، وذلك لاهتمامه بالأُمور العلميّة والتربويّة للطلّاب ، وبالأخصّ من الناحية المعنويّة والأخلاقيّة والعقائديّة ، والدفاع عن حصن الإسلام وحريم التشيّع ، لذلك فقد جعل طريقه متعمّداً منذ البداية في غير هذا الاتّجاه . وباعتبار أنَّ هذه الأُمور (الماليّة) كانت مقطوعة كلّيّاً من جهة ، ومن جهة أُخرى كان لا يقبل أخذ سهم الإمام بتاتاً

⇦ حيث قام بنقل تفاصيل الحادث مقروناً بالبكاء ؛ رحمة الله عليه رحمة واسعة.

فيتّضح حينئذٍ كيف ستكون حالته المعيشيّة عندما يفقد عائدات الزراعة ، فسوف تكون أقلّ من حياة وضع طالب بسيط ، لأنَّ الطالب ، حتّى وإن لم يحصل على مرتّب من المدينة أو القرية ، فإنَّه على الأقلّ سوف يستفيد من سهم الإمام .

وتلك العائدات التي كان يحصل عليها من الزراعة ، لم تكن حال وصولها تكفي إلّا للمقدار اللازم من أُمور المعاش الضروريّة .

لقد كانت هذه سيرة رجال العلم والفكر منذ قديم الأيّام : فالمرحوم آية الله **الشيخ جواد البلاغيّ النجفيّ** الذي كان فخر الإسلام ، وقد أضاءت علومه ومؤلّفاته عالم الفكر والعلم لم يكن يمتلك في النجف الأشرف سوى بيت حقير لا يحتوي إلّا على حصير . واضطرّ لبيع بيته عندما أراد أن يطبع كتبه في الردّ على المادّيّين والطبيعيّين واليهود والنصارى ، هذه الكتب التي تعتبر من أهمّ المصادر ، والتي هي موضع فخر عالم الإسلام ومباهاته .

أمّا أُستاذ أُستاذنا : **المرحوم القاضي** رضوان الله عليه ، فرغم أنّه كان يعيش مع عائلة كبيرة في النجف الأشرف ، إلّا أنَّ الصعوبات والضائقة الشديدة التي كان يعانيها أصبحت قصصها مضرباً للأمثال عندنا .

فلم يكن في بيته سوى حصير واحد مصنوع من سعف النخيل . وما أكثر الليالي التي قضاها في الظلام الدامس ، لأنّه لم يكن يمتلك وقوداً للإضاءة أو لعدم وجود مصباح أو محروقات .

والمرحوم آية الله **العلّامة الحاجّ الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ** لم يكن يمتلك أيّة وسيلة للمعيشة ، وقد خدم العلم والإسلام والتشيّع لمدّة مائة سنة ، ولم يكن لأحد علم بحاله ووضعه ، فترك من مجاهداته العظيمة وآثاره النفيسة النادرة ما أفاد كافّة المحقّقين والمؤلّفين .

وكان هذا الإنسان يقضي أيّامه ولياليه مشغولاً بالكتابة والتأليف ،

متحمّلاً لكلّ مشقّات البحث والتصنيف وجمع المصادر والرجوع إلى المراجع . أمّا منزله فلم يكن بأفضل من منزل طالب عاديّ ، لا بل أقلّ ؛ وأمّا المصائب والصعاب التي مرّت عليه فهي تفوق كلّ تصوّر .

وكان **العلّامة الأمينيّ** صاحب كتاب «الغدير» يمرّ في ظروف معيشيّة قاسية قبل شهرته وبروزه ، حتّى أنّه واجه مشاكل عديدة عندما أراد أن يطبع كتابه «الغدير» النفيس لأوّل مرّة . وهذا نقص فادح في جهاز العلماء الحالي من ناحية كيفيّة إدارة الأُمور الماليّة .

فلماذا يبقى أُولئك الذين يصرفون عمرهم في الفروع الخاصّة كالفلسفة والعرفان وعلم الكلام والتفسير والحديث والتأريخ وعلم الرجال وغيرها ، مع وجود الأرصدة الفقهيّة العظيمة لخدمة الإسلام وحاجة المجتمع إلى تلك المعارف وسدّ الثغرات وحماية المذهب والذود عنه فلماذا يبقون محرومين حتّى من الحياة العاديّة البسيطة ، ويعانون من آلاف المشكلات في سعيهم لتمرير معاشهم وحفظ ماء الوجه والاعتبار .

اءن ميزانيّة صندوق المسلمين التي ترسل إلى الحوزة تحت عنوان سهم الإمام ، لا تتوجّه إلى أمثال هؤلاء . أمّا قبول هذا السهم منهم ـ بواسطة المتصدّين لتوزيعه ـ فإنّه يحمل معه الذلّ والاستخفاف والتحقير أمام جهاز الإدارة .

فتُمنع الإجازة من هؤلاء الأفراد الأجلّاء الذين يمتلكون الصفات الأخلاقيّة والروحيّة ، إضافة إلى الجوانب العلميّة ، ويُحتاط من تصديق مقام اجتهادهم وفقاهتهم ، كلّ ذلك لأنّه يؤدّي إلى تثبيت شخصيّتهم واستقلال أُمورهم .

وتعطى للأفراد الجهّال والأُمّيّين من غير المحتاطين والذين يتجرؤون على الكثير من الأُمور ، الإجازات الطويلة والمطوّلة والألقاب

والمجالات ، طالما أنّهم جباة لسهم الإمام ، وذلك حتّى لا يهتزّ مركز الحكم عن مقرّه ولا يُرى الخلل في وصول الأموال إلى الأفراد غير الواجدين للشرائط والذين هم من الناحية الروحيّة والأخلاقيّة أقلّ من عامّة الناس بمجرّد ادّعاء العلم والأعلميّة والفقه والفقاهة والورع والأورعيّة .

فَيا لَلأَسَفِ بِهَذِهِ السِّيرَةِ الرَّدِيَّةِ المُرْدِيَةِ المُبِيدَةِ لِلْعِلْمِ وَالعُلَماءِ وَالفِقْهِ وَالفُقَهاءِ .

وإذا قيل لهم : بأيّ دليل ؟ وبأيّة آية أو رواية أنتم تقولون إنَّ سهم الإمام ينبغي أن يصل إلى المرجع أو نائبه بالخصوص ؟ وفي أيّ كتاب فقهيّ وأخباريّ وتفسيريّ رأيتم مثل هذا المطلب ؟ وأيّ سنن وبدع أنتم تخترعون ؟

يقولون : فلان وعلّان يقولون هكذا . انتم الذين تدعون إلى الاجتهاد ! لماذا تصبحون هنا مقلّدين لفلان وعلّان ؟!

كانت حياة **العلّامة الأُستاذ** حياةً شديدة البساطة ، وبعيدة كلّ البعد عن الرفاه والتكلّف ، لا يأخذ لها إلّا الحدّ الأدنى . ورغم مرض القلب والأعصاب الذي كان يعانيه ، ورغم كِبَر سنّه كان يسافر إلى طهران كلّ أُسبوعين مرّة لملاقاة ومحادثة ذلك المستشرق الفرنسيّ ذوداً عن الدين ، ونشراً للثقافة الإسلاميّة رغم المشقّات الكثيرة الناجمة عن ذلك .

هكذا كانت حياة فيلسوف الشرق ، بل فيلسوف العالم الأوحد ! ونحن طوينا الذكر عن أوضاعه الخاصّة صفحاً ، لأنّنا نعتقد أنَّ هذا البحث لا يليق بمقام العِفَّة والشرف . هكذا كانت حياة أولياء الله :

صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً ، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً .[1]

١ ـ «نهج البلاغة» من خطبة المتّقين (همّام) ، رقم ١٩١ .

ولقد كنّا نرى ونشاهد ونتلمّس صفة من صفات المتّقين التي ذكرها مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة همّام في وجود هذا الرجل الإلهيّ :

أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.[1]

هذه هي حياة الصالحين والأحرار من أغلال النفس الأمّارة ، والمحلّقين في سماء القضاء والمشيئة الإلهيّة ، والمنقادين في عالم التفويض والتسليم والرضا .

وما أكثر ماكان أُستاذنا يعجب بهذا الشعر :

منم كه شُهرهٔ شهرم بعشق ورزيدن
منم كه ديده نيالوده‌ام به بد ديدن
به مى‌پرستى از آن نقش خود بر آب زدم
كه تا خراب كنم نقش خود پرستيدن
وفا كنيم و ملامت كشيم و خوش باشيم
كه در شريعت ما كافرى است رنجيدن
به پير ميكده گفتم كه چيست راه نجات
بخواست جام مى و گفت راز پوشيدن[2]

١ـ «نهج البلاغة» من خطبة المتّقين (همّام) ، رقم ١٩١ .

٢ـ «ديوان حافظ» ص ١٧٧ ، حرف النون ، طبعة پژمان .

يقول : «أنا المشهور في بلدي بالعشق والغرام ... وأنا الذي لم أُلطّخ عيني برؤية العيوب والآثام.

ولقد نقشت على الماء صورة نفسي وقدّمتها لعابد الخمر ... لعلّي أستطيع أن أهدم بها عادة الغرور وعبادة النفس .

ومن دأبي الوفاء واحتمال اللوم والإحساس بالرضاء ... لأنّ «الغضب» في شريعتنا هو عين الكفر والبلاء .
⇦

وفي خضم هذه المشكلات والصدمات، كان في وجود الأُستاذ عالَماً من العظمة والوقار والسكينة والطمأنينة.

وهنا، كانت تتجلّى حقيقة حياة أئمّتنا المعصومين، لأنَّ أمثال الطباطبائيّ يمكنهم أن يكونوا أفضل مرآة وآية وممثّل لتلك الأرواح الطاهرة، ولأنّهم مرآة صافية قد صُقلت، فهم ينطقون عن ذوات الطهر ويصبحون آيات إلهيّة وحججاً ربّانيّة.

كانت هجرة العلّامة الطباطبائيّ إلى قم، وتحمّله لكلّ أنواع المشاكل وبُعده عن وطنه الذي ألفه لأجل إحياء المعنويّات وأداء الرسالة الإلهيّة في نشر الدين وتبليغه، وتنمية أذهان الطلّاب، وتصحيح العقائد الحقّة، وبيان الطريق المستقيم لتهذيب النفس وتزكية الأخلاق وتطهير السرّ، والتشرّف بلقاء الله، والارتباط بعالم المعنى.

كما كان فقيدنا السعيد يقول: عندما جئت من تبريز إلى قم، وبدأت بتدريس «الأسفار»، وتحلّق الطلّاب حولي حتّى وصل عددهم إلى أكثر من مائة شخص؛ أمر آية الله البروجرديّ رحمة الله عليه **أوّلاً**: بقطع راتب كلّ طالب يحضر هذا الدرس.

وعندما وصل الخبر إليَّ، وقعت بحيرة، فماذا أفعل يا إلهي؟ فإذا قُطِعَتْ رواتب هؤلاء الطلّاب الذين لا حول ولا قوّة لهم، والذين يأتون من المدن البعيدة ولا مصدر لهم للعيش إلّا هذا الراتب الشهريّ، فماذا يفعلون؟ وإذا تركت تدريس «الأسفار» لأجل مرتّب الطلّاب، فإنّني أُوجّه صفعة لمستوى الطلّاب العلمي والعقائديّ! فبقيت على هذا الوضع متحيّراً إلى أن

⇦ ولقد سألت «شيخ الحانة» ما سبيل الخلاص والنجاة ... فطلب كأساً من الخمر ثمّ قال ستر العيوب والهنات».

جاء اليوم الذي كنت فيه أهمّ بالمرور حول الكرسي[1] فوقع نظري على«ديوان حافظ» الذي كان موضوعاً عليه،فأخذته وتفاءلت به لأعلم ماذا أفعل هل أترك تدريس «الأسفار» أو لا ؟ ففتحته ، وإذا بهذه القصيدة الغزليّة :

من نه آن رِندم كه ترک شاهد و ساغر كنم
محتسب داند كه من اين كارها كمتر كنم
من كه عيب توبه كاران كرده باشم بارها
توبه از مِی وقت گل ديوانه باشم گر كنم
چون صبا مجموعهٔ گُل را به آب لطف شست
كج دلم خوان گر نظر بر صفحهٔ دفتر كنم
عشق دُردانه است و من غوّاص و دريا ميكده
سر فرو بردم در آنجا تا كجا سر بر كنم[2]

١ـ الكُرسي : وسيلة للتدفئة ، وهي أشبه بالمنضدة المنخفضة ، يوضع تحتها وسيلة للتدفئة ويبسط عليها لحاف في الشتاء ، فيجلسون تحت اللحاف حولها للتدفئة ، وهي مشهورة في إيران . (م)

٢ـ «ديوان حافظ» ص ١٥٧ و ١٥٨ ، حرف الميم .

يقول : «لست أنا ذلك العربيد الذي يهجر المحبوب ويترك الكأس ، والمحتسب نفسه يعلم ذلك وإنّني قلّما أصنع هذا الأمر .

أنا الذي كثيراً ما عبثُ على التائبين توبتهم ... لو أنّني تبت عن الشراب في موسم الورد لكنت مجنوناً ودخلت في زمرتهم (يقصد بالشراب ، شراب المعرفة ، وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً) .

وعندما تأخذ ريح الصبا «ماء اللطف» وتغسل به مجموعة الأزهار والورود لو أنّني نظرت إلى صحيفة الكتاب ، لحقّ لك تسميتي أعوج الطبع سقيم العود .

فالعشق درّة يتيمة وأنا الغوّاص ، والحانة هي البحر الواسع ، ولقد أنزلت رأسي فيه فلأرى كيف أرفعها ومتى أستطيع» .

لاله ساغر گير و نرگس مست و بر ما نام فسق
داورى دارم بســـى يـا ربّ كـرا داور كـنم
بازكش يكدم عنان اى تُرک شهر آشـوب مـن
تا ز اشک و چهره ، راهت پر زر و گوهر كنم
مـن كـه از يـاقوت و لعـلِ اشک دارم گـنجها
كى نظر در فـيض خـورشيد بـلند اخـتر كـنم
عهد و پـيمان فـلک را نـيست چـندان اعـتبار
عـهد بـا پـيمانه بـندم شـرط بـا سـاغر كـنم
من كه دارم در گدائـى گـنج سـلطانى بـدست
كى طمع در گـردش گـردونِ دون پـرور كـنم
گـر چـه گـردآلودِ فـقرم ، شـرم بـاد از هـمّتم
گر بـه آب چشـمهٔ خـورشيد دامـن تـر كـنم[1]

١ـ يقول : «وزهرة اللعل هي التي تمسك بالقدح والنرجسة هي المخمورة ولكنّ شهرة الفسق تصيبني وحدي فيا ربّ ما أكثر الشكاوي التي عندي ... فمن القاضي الذي عنده أتظلّم له وأشتكي .

ويا محبوبي التركيّ الذي يملأ البلدة بالفتن . آمن عنانك عنّي لحظة من اللحظات حتّى أملأ طريقك بالذهب والدرر من دموعي وورود الوجنات .

وأنا الذي عندي الكنوز الكثيرة من يواقيت الدموع الحمراء ، كيف أنظر إلى فيض الشمس الرفيعة في وسط السماء ؟!

وليس يمكنني الاعتماد على عهد الفلك وميثاقه ، فلا قيمة له ولا اعتبار ومن أجل ذلك فإنّني أعقد العهد مع القدح والميثاق مع الكأس الدوّار .

وأنا الذي أمتلك في فقري ومسكنتي كنوز السلطان ، كيف أطمع في دورة الفلك الذي يربّي السفلة وأهل الذلّ والهوان .

والفقر يمسك بأذيالي ، ولكن حذارِ منّي ، وأخجل من همّتي ، إذ أنا غسلت من نبع الشمس العالية ردائي وحافتي» .

عاشقان را گر در آتش می‌پسندد لطف دوست

تنگ چشمم گر نظر در چشمهٔ کوثر کنم

دوش لعلش عشوه‌ای میداد **حافظ** را ولی

من نه آنم کز وی این افسانها باور کنم[١]

ودهشت من هذا الغزل ، فهو يدلّ على ضرورة تدريس «الأسفار» وأنَّ تركه في حكم الكفر السلوكيّ .

وثانياً : ثمّ لم يمر يوم أو يومان حتّى بعث آية الله البروجرديّ خادمه الحاجّ أحمد ليبلّغني رسالة مضمونها : نحن في أيّام الشباب كنّا ندرس في الحوزة العلميّة في أصفهان كتاب «الأسفار» عند المرحوم **جهانگير خان** ولكن بشكل سرّي ، ولم يكن أحد يعرف بذلك ، أمّا أن يكون هناك تدريس علني لـ«الأسفار» في الحوزة الرسميّة فليس فيه أيّ وجه للصلاح ، ويجب أن يُترك !

فقلتُ في جوابه : أبلغ السيّد البروجرديّ من جانبي ، أنّني قد درست العلوم المعروفة والرسميّة كالفقه والأُصول ، وباستطاعتي أن أتولّى تدريسها وتأسيس مجالسها ، ولن نتوانى عن الآخرين .

لقد جئتُ من تبريز إلى قم فقط وفقط لأجل تصحيح عقائد الطلّاب على أساس الحقّ ، ولمواجهة عقائد المادّيّين الباطلة وغيرهم . وفي ذلك الزمان الذي كان حضرة آية الله يدرس مع مجموعة قليلة من الطلّاب عند المرحوم جهانگير خان ، كان الطلّاب والناس قاطبة بحمد الله مؤمنين

١ـ يقول : «وإذا اختار «اللطيف الحبيب» أن يقذف بالعاشقين وسط النيران ، فما أضيق نظري إذ تطلّعت إلى نبع الكوثر في جنّة الرضوان .

ولقد داعب المحبوب حافظاً ليلة أمس وغرّرت به شفته الحمراء ، ولكن لستُ أنا الذي يصدق فيه هذه الأقوال الهراء» .

وعــقائدهم صــافية ولم يــحتاجوا إلى تأليــف مـجالس عـلنيّة لتـدريس «الأسفار» . ولكنَّ اليوم ،كلّ طالب يدخل إلى قم ، فإنَّه يأتـي مـحمّلاً بـعدّة حقائب من الشبهات والإشكالات .

واليوم يجب أن ندرك الطلّاب ، ونعدّهم لمواجهة المادّيّين وعقائدهم على أساس صحيح ، ونعلّمهم الفلسفة الإسلاميّة الحـقّة ، ونـحن لن نـترك تدريس «الأسفار» .

ولكن في نفس الوقت فإنّني أعـتبر آيـة الله البـروجرديّ حـاكـم الشرع . فإذا حكم بترك «الأسفار» فإنَّ القضيّة ستأخذ منحى آخر .

ثـمّ قـال **العـلّامة** : وبـعد هـذه الرسـالة ؛ لم يـتعرّض لنـا آيـة الله البروجرديّ بأيّ وجه ، وانشغلت لسنوات بتدريس الفـلسفة مـن «الشـفاء» و «الأسفار» وغيرهما .

وكان آية الله البروجرديّ كلّما التقى بنا عاملنا باحترام شـديد ، وقـد أهداني ذات يوم مصحف من القرآن الكريم من أجود وأروع الطبعات .

* * *

حقّاً ، ماذا أقول في فضائل رجل كان غريباً بيننا فجاء غريباً ورحـل غريباً ؛ ولم يعرفه أحد ؟**!**

كان **العلّامة الطباطبائيّ** رضوان الله عليه ملجأً وملاذاً للمخلِصين من تلامذته ومريديه يهرعون إليه عند وقوع الحوادث . وكالمصباح المـضيء كان ينير الطريق ويكشف عن الأخطار ويفرق الحقّ من الباطل ، ويرشد إلى كشف المسائل العلميّة ورفع كلّ مجهول .

وأنا الحقير لم أكن أستفيد من محضر فيضه وعلمه في تـلك الأيّـام التي قضيتها بالدراسة في قم فحسب ، وإلى الحدّ الذي أَعْتَبِرُ نفسي فيه عبداً وربيب منزله ، بل حتّى بعد تشرّفي للنجف الأشرف بقي باب المراسـلات

مفتوحاً ، وكان يردّ علَيّ بكتاباته الجذّابة الهادية .

وبعد رجوعي من النجف وحتّى اليوم لم يأت زمن رأيت نفسي في غنى عن علمه ومحضر فيضه العظيم .

وفي كلّ مجلس كنت أتشرّف بزيارته كان يفيض علَيّ برحمته وعلمه ، وكان يبعث البهجة والسرور والوجد إلى الدرجة التي تشعرني بالخجل الشديد من شدّة حقارتي في نفسي . وكانت عادتي أن أزور قم كلّ أُسبوعين مرّة ؛ وكانت ساعات زيارته ولقائه عظيمة وقيّمة عندي .

ما زلت أذكر جيّداً تلك الليلة في طهران عندما كنت أكتب شرحاً على كتاب «**السير والسلوك**» المنسوب للمرحوم آية الله بحر العلوم النجفيّ أعلى الله تعالى درجته ، وواجهني إشكال عجزت عن حلّه رغم تفكيري المتواصل . ولم يكن في ذلك الوقت قد استعمل الهاتف الآليّ في إيران ، لهذا عزمت على الذهاب إلى قم في تلك الليلة ، ووصلت إليها عند منتصف الليل ، وقضيت ليلتي في «مهمانخانه بلوار» (= فندق البُلقار) . وفي الصباح ذهبت إليه بعد أن تشرّفت بزيارة مرقد حضرة السيّدة المعصومة سلام الله عليها ، وبقيت عنده حتّى الظهيرة أستفيد من محضره العظيم البركة . ولم تكن المسألة الوحيدة التي حصلت على إجابتها ، بل حصلت على حلّ الكثير من المسائل الأُخرى .

وكنت كلّما تشرّفت بلقائه وأردت أن أنحني لأُقَبِّلَ يده خبّأها تحت عباءته ، وقد اعتراه حياء وخجل يجعلني أتأثّر وأضطرب .

قلت له ذات يوم : نحن نريد أن نحصل على الفيض والبركة والحاجة بتقبيل يدكم ، فلماذا تمنعونا ؟! ثمّ قلتُ : ألَا تقبلون هذه الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام : **مَنْ عَلَّمَنِي حَرْفَاً فَقَدْ صَيَّرَنِي**

عَبْدَاً . [١]

فقال : نعم ، فهي رواية مشهورة ، ومتنها مطابق للموازين .

فقلت : لقد علّمتني كلّ هذه الكلمات ، وجعلتني عبداً لمرّات وكرّات ؛ أليس من أدب العبد أن يقبّل يدي مولاه ؟! ويتبرّك بهما ؟

وببسمة خجولة قال : نحن جميعاً عبيد الله ! [٢]

ما لم أتحمّله ، ولم أتصوّره ، هو رحيل هذا الرجل .

فموت هذا الإنسان الإلهيّ موتٌ للعالَم ، لأنَّ العلّامة كان عالَماً . [٣]

١ـ هنا نذكر رواية شريفة في هذا المجال ذكرها المرحوم الصدوق في كتاب «التوحيد» ص ١٧٤ ، بإسناده عن أبي الحسن الموصليّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يروي أنّه: **جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَتَى كَانَ رَبُّكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! وَمَتَى لَمْ يَكُنْ حَتَّى يُقَالَ : مَتَى كَانَ . كَانَ رَبِّي قَبْلَ القَبْلِ بِلَا قَبْلٍ وَيَكُونُ بَعْدَ البَعْدِ بِلَا بَعْدٍ ، وَلَا غَايَةَ وَلَا مُنْتَهَى لِغَايَتِهِ ؛ انْقَطَعَتِ الغَايَاتُ عَنْهُ فَهُوَ مُنْتَهَى كُلِّ غَايَةٍ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَنَبِيٌّ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : وَيْلَكَ ! إنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .**

ينقل ابن أبي الحديد في آخر «شرح نهج البلاغة» ألف كلمة من مواعظ وحكم أمير المؤمنين عليه السلام التي هي بصورة كلمات قصار ، والرقم ٥٧ منها هو : **إذَا كَانَ الآبَاءُ هُمُ السَّبَبَ فِي الحَيَاةِ ، فَمُعَلِّمُوا الحِكْمَةِ وَالدِّينِ هُمُ السَّبَبُ فِي جَوْدَتِهَا** . (ج ٢ ، ص ٢٦١ ، طبعة دار الكتب العربيّة) .

٢ـ يذكر المحدّث القمّيّ في «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، عن كتاب إجازات «بحار الأنوار» ص ٥٠ و ٥١ ، وصيّة الشيخ محمّد بن جمهور الأحسائيّ في إجازته للشيخ ربيعة بن جمعة في حقّ المعلّم والأُستاذ وحقوقه حين ينقل رواية عن الرسول الأكرم سيّد العالمين صلّى الله عليه وآله وسلّم : **إنَّهُ قَالَ : مَنْ عَلَّمَ شَخْصَاً مَسْأَلَةً ، مَلِكَ رِقَّهُ (رَقَبَتَهُ ـ ظ) . فَقِيلَ لَهُ : أَيَبِيعُهُ ؟ قَالَ : لا ، وَلَكِنْ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ .**

٣ـ گر چه از هر ماتمی خیزد غمی ... فرق دارد ماتمی تا ماتمی
ای بساکس مُرد و کس آگه نشد ... مرگ او را مَبدئی و مَختَمی
ای بساکس مُرد و در مرگش نسوخت ... جز دل یک چند یار همدمی
لیک اندر مرگ مردان بزرگ ... عالَمی گرید برای عالَمی ⇦

النَّاسُ مَوتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ[1]

أَحِبَّايَ أَنْتُمْ أَحْسَنَ الدَّهْرُ أَمْ أَسَا
فَكُونُوا كَمَا شِئْتُمْ أَنَا ذَلِكَ الخِلُّ
إذَا كَانَ حَظِّيَ الهَجْرَ مِنْكُمْ وَلَمْ يَكُنْ
بِعَادٌ فَذَاكَ الهَجْرُ عِنْدِي هُوَ الوَصْلُ
وَمَا الصَّدُّ إلَّا الوُدُّ مَا لَمْ يَكُنْ قِلَيً
وَأَصْعَبُ شَيءٍ غَيْرَ إعْرَاضِكُمْ سَهْلُ
وَصَبْرِيَ صَبْرٌ عَنْكُمُ وَعَلَيْكُمُ
أَرَى أَبَدَاً عِنْدِي مَرَارَتَهُ تَحْلُو
أَخَذْتُمْ فُؤَادِي وَهْوَ بَعْضِي فَمَا الَّذِي
يَضُرُّكُمُ لَوْ كَانَ عِنْدَكُمُ الكُلُّ
نَأَيْتُمْ فَغَيْرَ الدَّمْعِ لَمْ أَرَ وَافِيَا
سِوَى زَفْرَةٍ مِنْ حَرِّ نَارِ الجَوَى تَغْلُو
حَدِيثِي قَدِيمٌ فِي هَوَاها وَمَا لَهُ
كَمَا عَلِمَتْ بَعْدٌ وَلَيْسَ لَهَا قَبْلُ

⇦ لا جــرم در مــرگ مــردانــی چنین　　گــفت بــايد : ای دريــغا عــالَمی !

يقول : «وإن تصاعد الحزن والغمّ من كلّ مأتم ... هناك فرق بين مأتم ومأتم.

فما أكثر من مات و ما اطّلع أحد على الخبر ... وكان موتهم البداية والنهاية.

وما أكثر من مات ولم يلتهب لموتهم ... إلّا قلب صاحب أو عدّة من الأحبّاء والأصحاب.

لكنّ في رحيل الرجال العظماء ... يبكي العالَم لأجل العالَم.

لا جَرَم أنّه في رحيل مثل هؤلاء الرجال ... يجب القول وا حسرتاه على العالَم».

١ـ من «الديوان المنسوب لأمير المؤمنين» عليه السلام.

وَحُــرْمَةِ عَــهْدٍ بَـيْنَنَا عَـنْهُ لَـمْ أَحُـلْ
وَعَــــقْدٍ بِأَيْــدٍ بَــيْنَنَا مَــا لَــهُ حَــلُّ
لَأَنْتَ عَلَى غَيْظِ النَّوَى وَرِضَى الهَوَى
لَـدَيَّ وَقَـلْبِي سَـاعَةً مِـنْكِ مَـا يَـخْلُو
تُـرَى مُـقْلَتِي يَـوماً تَـرَى مَـنْ أُحِـبُّهُمْ
وَيَــعْتِبُنِي دَهْــرِي وَيَــجْتَمِعُ الشَّــمْلُ
وَمَـا بَـرِحُوا مَـعْنَىً أَرَاهُـمْ مَـعِي فَـإِنْ
نَأَوْا صُورَةً فِي الذِّهْنِ قَامَ لَـهُمْ شَكْـلُ
فَهُمْ نُصْبُ عَيْنِي ظَاهِرَاً حَـيْثُمَا سَـرَوا
وَهُمْ فِـي فُـؤَادِي بَـاطِنَاً أَيْـنَمَا حَـلُّوا
لَــهُمْ أَبَــدَاً مِــنِّي حُــنُوٌّ وَإِنْ جَــفَوا
وَلِــي أَبَــدَاً مَــيْلٌ إِلَـيْهِمْ وَإِنْ مَـلُّوا[1]

لم أكن أتوقّع أن يأتـي ذلك اليـوم الذي لا تكـون فـيه وأنـا حـيّ ، فأجلس في عزائك ! وأكتب في رثائك . حقّاً ، فأنت من عالم القدس دائماً القلق على حال المـهجورين ! تـرشدهم بـذلك اللـطف والعـطف والصـفاء والوفاء في عالم الطبع والكثرة كيف تغفل عنهم في عالم التجرّد والوحدة؟!

پيش ازينت بيش ازين غمخوارى عُشّـاق بـود
مِــهر ورزىّ تــو بــا مــا شُــهرهٔ آفــاق بـود[2]

١ـ أبيات منتخبة من لاميّة ابن الفارض . انظر : «ديـوان ابـن الفـارض» ص ١٣٥ إلى ١٣٩ .

٢ـ «ديوان حافظ» ص ١١٠ و ١١١ ، حرف الدال .

يقول : «قبل هذا الوقت كنت تحسّ أكثر من هذا القدر بآلام العشّاق وكـانت طـريقة عطفك علينا مشهورة في الآفاق» .

يـاد بـاد آن صـحبت شـبها کـه در زلف تـوام
بـحث سِـرِّ عشـق و ذکـر حـلقهٔ عشّـاق بـود
حُسن مَهرویان مجلس گرچه دل می‌برد و دین
عشق ما در لطـف طـبع و خـوبی اخـلاق بـود
از دم صـــبح ازل تـــا آخـــر شـــام ابـــد
دوستیّ و مهر بر یک عـهد و یک مـیثاق بـود
سایهٔ مـعشوق اگـر افـتاد بـر عـاشق چـه شـد
مـا بـه او مـحتاج بـودیم او بـما مشـتاق بـود
پیش ازین کاین سقف سبز و طاق مینا برکشند
مـنظر چشـم مـرا ابـروی جـانان طـاق بـود[1]

* * *

بحث عامّ حول : العقل والقلب والشرع

إنَّ كلّ إنسان يجد في نفسه مصدرين للإدراك والفـهم . الأوّل : وهـو

١ـ يقول : «قبل هذا الوقت كنت تحسّ أكثر من هذا القدر بآلام العشّاق وكانت طريقة عطفك علينا مشهورة في الآفاق .

فالذكرى الذكرى لأحاديثنا في تلك الليالي حينما كان يتردّد ... على الشفاه الحلوة بحث أسرار العشق وذكريّات العشّاق .

وأقمار المجلس يسلبن القلب والدين بحسنهنّ ... ولكنَّ تفكيرنا فيهنّ كـان مـقصوراً على ما امْتَزْنَ به من لطف في الطبع وسموّ في الأخلاق .

ومنذ تنفّس صبح الأزل وإلى أن ينتهي ليل الأبد والصداقة والحبّ موقوفان بيننا على العهد والميثاق .

وماذا يحدث إذا وقع ظلّ المعشوق على العاشق ... وقد كنّا في احتياج إليه ، وكان إلينا في اشتياق .

وقبل أن يرفع فوقنا هذا السقف الأخضر وهذه السماء الزرقـاء ، كـان حـاجب عـين الحبيب في نظري هو وحده المحراب والطاق» .

العقل ، والثاني : وهو **القلب والوجدان** .

فبالقوّة العاقلة يُدرك الإنسان مصالحه ومفاسده ، ويميّز بين المحبوب والمكروه ، والحقّ والباطل ؛ وبالقلب والوجدان اللذين يمكن تسميتهما بالفطرة أو الشعور الخفيّ أو الإدراك الخفيّ يتعرّف على الطريق الذي يربطه بعالم الوجدان ، وعلّة إيجاده وإيجاد العالم ، وانجذابه لمبدأ المبادئ وغاية الغايات .

وبالتأكيد ، فإنَّ هذين العاملين المهمّين للإدراك موجودان في كلّ إنسان يؤدّي كلّ واحد منهما دوره في آفاق الإدراك والفهم الخاصّ لا يستغني أحدهما عن الآخر ، وإذا فقد واحد أُغلق في وجه الإنسان عالم من المدركات والمعلومات .

ويوجد العديد من الآيات والروايات التي تتحدّث عن ضرورة القوّة العاقلة وعدم استغناء الإنسان عنها ؛ نكتفي هنا بذكر بعضها كأمثلة على الكلام :

ففي الآيات قوله تعالى :

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .[١]

ومن المفروض هنا أنَّ المشركين يتبعون القلب والوجدان بعبادتهم غير الله ، وقد اعتبروا أنفسهم مرتبطين بالله ؛ غاية الأمر أنـّهم قد انحرفوا وتزلزلوا بسبب عدم تعقّلهم ، ولم يقدروا على التشخيص والتطبيق . وبسبب ضيق تفكيرهم اعتبروا الله مقيّداً بخصوص أرباب الأنواع ومظاهرها من الأصنام والأوثان .

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .[٢]

١ـ الآية ٦٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ١٧١ ، من السورة ٢ : البقرة .

لأنّهم لم يستخدموا القوّة العاقلة ، وأصبحوا مثل من فقد الحواسّ ـ البصر والسمع والنطق ـ.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ .[١]

فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ .[٢]

فمن الواضح أنَّ الاستماع للحديث ، وتمييز حقّه من باطله وحسنه من قبحه من وظائف القوى الفكريّة ، ولهذا وصفتهم الآية بأنّهم أصحاب العقول والألباب .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .[٣]

وذلك لأنَّ الكفّار قد اختاروا ديانتهم على أساس غرائزهم واتّبعوها حتّى وإن كانت عبادة للأصنام ، ولكن لأنّهم لم يستمدّوا من قواهم العقليّة فإنَّ تلك الغرائز والأحاسيس الباطنيّة كانت تحرفهم دائماً إلى الخيالات الواهية والأوهام الفاسدة . وإضافة إلى أنّهم لم يلتصقوا بقواهم الوجدانيّة . فأصبح مثلهم كالذي لا يدرك من الحديث إلّا الصوت المنبعث ، فهم لا يسمعون من كلام الحقّ وحديث التوحيد إلّا بعض المفاهيم ، لكنّهم لا يدركون الحقائق ، وهي لا تستقرّ في أنفسهم . لذلك كانوا صمّاً وعميّاً وبكماً لا يعقلون أبداً .

وأمّا في الروايات :

ففي «الكافي» عن عدّة من الأصحاب ، عن أحمد بن محمّد ، عن

١ـ الآية ٤٢ ، من السورة ١٠ : يونس .

٢ـ الآيتان ١٧ و ١٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٣ـ الآية ١٧١ ، من السورة ٢ : البقرة .

بعض مرفوعاً عن الإمام الصادق عليه السلام ، **قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :**

إذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ كَثِيرَ الصِّيَامِ فَلَا تُبَاهُوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ عَقْلُهُ .[١]

وكما يروي في «الكافي» عن عدّة من الأصحاب ، أنّه **قَالَ : قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَهِ عَلَيهِ السَّلَامُ : دَعَامَةُ الإنْسَانِ العَقْلُ .**[٢]

وفيه أيضاً ، عن عليّ بن محمّد ، عن سهل بن زياد ، عن إسماعيل بن مهران ، عن بعض رجاله ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال : **العَقْلُ دَلِيلُ المُؤْمِنِ .**[٣]

وحول ضرورة القلب والوجدان وعدم الاستغناء عنهما ، وردت آيات وروايات عديدة :

ففي الآيات ، قوله تعالى :

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ .[٤]

فظاهر الخطّاب موجّه إلى أُولئك الذين يملكون عقولاً وشعوراً ولكن بسبب اتّباع أهواء النفس الأمّارة أعموا بصيرتهم ، إذ جعلوا وجدانهم تحت حجب المعاصي والذنوب الباطنة .

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .[٥]

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٢٦ ، الطبعة الحروفيّة .
٢ و ٣ـ «أصول الكافي» ج ١ ، ص ٢٥ .
٤ـ الآية ٤٦ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .
٥ـ الآية ٨٠ ، من السورة ٢٧ : النمل .

فالله تعالى يشبّه الذين أفسدوا وجدانهم ونور باطنهم بالموتى ، بل إنَّه يعدّهم موتى بالحقيقة ، وهم أصمّاء يهربون دائماً ، ولا يستقرّ كلام الحقّ في آذانهم ولا يؤثّر فيهم أبداً .

إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ .[1]

قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ .[2]

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ .[3]

ففي هذه الآيات نجد الله سبحانه وتعالى يصف أُولئك الذين أخمدوا نور باطنهم وأغلقوا في وجوههم سبيل الآخرة بأنّهم كالأموات الذين حلّوا في القبور ، أو كالعمي .

وهذه الآيات تشير إلى اختفاء نور القلب ، ولا تقصد عدم اتّباع القوّة العقليّة والفكريّة .

أمّا الروايات التي تتحدّث عن هذا الأمر فهي فوق طور الإحصاء وإنَّما نذكر هنا بعضاً منها كأمثلة على المطلب :

روى في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن فضّال ، عن أبيه ، عن ابن أبي جميلة ، عن محمّد الحلبيّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله تعالى : «**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**» **قَالَ : فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ** .[4]

وأيضاً في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن محمّد بن عيسى بن عُبَيد ، عن يونس ، عن جميل قال :

١ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٢ـ الآية ١٣ ، من السورة ٦٠ : الممتحنة .

٣ـ الآية ١٩ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٤ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ١٣ .

سَأَلْتُ أَبَا عَبدِ اللهِ عَلَيهِ السَّلَامُ عَنْ قَولِهِ عَزَّ وَجَلَّ «**هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**» **قال : هُوَ الإيمَانُ . قَالَ : قُلْتُ :** «**وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ**» **قَالَ : هُوَ الإيمَانُ . وَعَنْ قَولِهِ :** «**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ**» **قَالَ : هُوَ الإيمَانُ .**[1]

وأيضاً ورد في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن محمّد بن عيسى بن يونس ، عن عبد الله بن مسكان ، عن الصادق عليه السلام في قوله : «**حَنِيفًا مُسْلِمًا**» قال : **خالِصَاً مُخْلِصَاً لَيْسَ فِيهِ شَيءٌ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ.**[2]

ويلاحظ في هذه الروايات أنَّ جلاء القلب من الصدأ وأكدار الطبيعة والأهواء ، والإيمان بالله والفطرة التوحيديّة ، هي ذلك النور الباطنيّ الذي هو منبع إدراك القلب واتّجاه الوجدان إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت .

من مجموع ما ذكر ، يستفاد أنَّ كلا المصدرين للإدراك موجوادن في الإنسان ، ولا ينفكّ عنهما ، وهما مصدر التفكّر العقليّ ومصدر الأحاسيس والعواطف والشهود القلبيّ والوجدانيّ .

فالشهود القلبيّ يؤدّي إلى الإيمان ، وإخراج الإنسان من حقيقته وواقعيّته وربطه بذات الباري تعالى شأنه ؛ وبدونه ، لن يحصل للإنسان أيّ خضوع أو خشوع ولو امتلك آلاف الأنواع من التفكير العقليّ والفلسفيّ والذهنيّ ، بل يمكن أن يقع التزلزل الروحيّ والوجدانيّ بعد سلسلة من الاستدلالات الصحيحة القائمة على أساس البرهان الصحيح والقياس المنطقيّ ؛ ولن توصل الإنسان إلى عالم السكينة والطمأنينة .

---

١ و ٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ١٥ .

التفكير العقليّ يؤدّي إلى تعادل وتوازن العواطف والأحاسيس الباطنيّة ، ويقف مقابل الميول والنزعات الوهميّة الخياليّة الواهية ، ويسير بذلك الشهود والوجدان في الطريق الصحيح .

فإذا لم يكن هناك تفكّر عقليّ لانحرف ذلك الشهود عن مسيره الصحيح ولآمن بالموهومات والخيالات ، ولانجذب القلب عند أدنى مواجهة إلى ما يجذبه ، مبتلياً بذلك بشكل دائم .

وممّا ذكر يمكن أن ندرك محلّ النزاع بين العقل والعشق ، وتقدّم كلّ واحد على الآخر جيّداً ، حيث إنَّ أصل هذا النزاع لا طائل له ؛ فإنَّ دور العشق منفصل عن دور العقل ومتميّز عنه ، وكلّ واحد قد جعل في قناة خاصّة مختصّة به ، وكلاهما ضروريّان للإنسان ، فإذا أعمل أحدهما وترك الآخر أو أهمله وقع في الخطأ والاشتباه .

وقد حثّ **الشرع** كذلك على الموضوعين ، وقوّى كلّ واحد منهما ، لأنَّ كلّاً من العقل والقلب والشرع يحكي عن حقيقة وواقعيّة واحدة ، فهم ثلاثة تراجم لمعنى واحد .

وبناء على هذا ، فمن المستحيل أن يكون حكم الشرع مخالفاً لحكم العقل والفطرة ؛ أو حكم العقل مخالفاً لحكم الفطرة والشرع ، أو حكم الفطرة مخالفاً لحكم العقل والشرع .

فهذه الأُمور الثلاثة متّصلة كالسلسلة الواحدة التي تحفظ كلّ حلقة منها الأُخرى وتسعى إلى تثبيتها .

شَرَعَ لَكُم مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَٱلَّذِىَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.[١]

١ـ الآية ١٣ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا. [١]

ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. [٢]

وروي في «الكافي» عن أبي عبد الله الأشعريّ، عن بعض أصحابنا مرفوعاً عن هشام بن الحكم روى أنّه قال: **قَالَ لِي أَبُو الحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ**؛ إلى أن قال:

يَا هِشَامُ! إنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَةً بَاطِنَةً؛ فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالأَنْبِيَاءُ وَالأَئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُولُ.

وأيضاً في «الكافي» عن محمّد بن يحيى مرفوعاً، **قَالَ: قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ:**

مَن اسْتُحْكِمَتْ لِي فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ، احْتَمَلْتُهُ عَلَيْهَا وَاغْتَفَرْتُ فَقْدَ مَا سِوَاهَا؛ وَلَا أَغْتَفِرُ فَقْدَ عَقْلٍ وَلَا دِينٍ.

لأَنَّ مُفَارَقَةَ الدِّينِ مُفَارَقَةُ الأَمْنِ، فَلَا يَتَهَنَّأُ بِحَيَاةٍ مَعَ مَخَافَةٍ، وَفَقْدَ العَقْلِ فَقْدُ الحَيَاةِ وَلَا يُقَاسُ إلَّا بِالأَمْوَاتِ. [٣]

أجل، فقد جرى التأكيد في آيات القرآن الكريم وأخبار المعصومين سلام الله عليهم أجمعين على المواضيع الثلاثة من تقوية العقل

١ـ الآية ٤٨، من السورة ٥: المائدة.

٢ـ الآية ١٨، من السورة ٤٥: الجاثية.

٣ـ وكما يلاحظ هنا، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يحمد ويشكر الله سبحانه وتعالى على كمال العقل والثبات في الدين وترسيخ الإيمان القلبيّ.

وتقوية القلب وضرورة اتّباع الشرع . ونجد في الأدعية والمناجات طلباً دائماً لتقوية هذه الأُمور بالاستمداد من الذات الأقدسيّة للحضرة الأحديّة .

فأمير المؤمنين عليه السلام ضمن أدعيته الواردة في «نهج البلاغة» يقول :

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتَاً وَلَا سَقِيمَاً ، وَلاَ مَضْرُوبَاً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ ، وَلَا مَأْخُوذَاً بِأَسْوَءِ عَمَلِي ، وَلَا مَقْطُوعَاً دَابِرِي ، وَلَا مُرْتَدَّاً عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكِرَاً لِرَبِّي ، وَلَا مُسْتَوحِشَاً مِنْ إيمَانِي ، وَلَا مُلْتَبِسَاً عَقْلِي ، وَلاَ مُعَذَّبَاً بِعَذَابِ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِي .[١]

لقد كان **أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ** قدّس الله سرّه بالنسبة للأُمور الثلاثة في درجة الكمال ، بل كان حائزاً على المرتبة الأُولى بين أقرانه :

فمن جهة كمال القوّة العقليّة والحكمة النظريّة فمتّفق عليه بين العدوّ والصديق . وكما ذكرنا فإنَّه كان وحيد عصره في العالم الإسلاميّ .

وأمّا من ناحية كمال القوّة القلبيّة والحكمة العمليّة ، والسير الباطنيّ في مدارج ومعارج عوالم الغيب والملكوت والوصول إلى درجات المقرّبين والصدّيقين ، فإنَّ فمه الصامت دائماً حيث كان يعتبر أنَّ كتمان السرّ من أعظم الفرائض لا يجيز لنا أن نكشف أكثر من ذلك في هذه المرحلة ، حتّى بعد زمن حياته .

١ـ «نهج البلاغة» ج ١ ، ص الخطبة ٢١٣ .

ينقل المرحوم المجلسيّ رضوان الله عليه من النسخة القديمة لمؤلّفات الأصحاب في تطبيق المراحل الثلاث ، الفطرة والعقل والشرع ، حتّى إذْن دخول السرداب المقدّس لإمام العصر أرواحنا فداه وسائر الأئمّة المعصومين ، ما أوّله : «**اللَهُمَّ إنَّ هَذِهِ بُقْعَةٌ طَهَّرْتَها وَعَقْوَةٌ شَرَّفْتَهَا**» وقد ورد :

فَسُبْحَانَكَ مِنْ إلَهٍ مَا أَرْأَفَكَ ، وَلَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ مِنْ مَلِكٍ مَا أَعْدَلَكَ ؛ حَيْثُ طَابَقَ صُنْعُك مَا فطَرْتَ عَلَيْهِ العُقُولَ ، وَوَافَقَ حُكْمُكَ مَا قَرَّرْتَهُ فِي المَعْقُولِ وَالمَنْقُولِ .

إلّا أنّنا نقول إجمالاً ، كما سبق أن قلنا : إنَّ العلّامة كان غائباً عن الدنيا ، فقد جاء غائباً ورحل غائباً .

وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا .[١]

وأمّا من جهة الشرع ، فقد كان نفسه فقيهاً متشرّعاً يعنى برعاية السنن والآداب بكلّ ما في الكلمة من معنى ، حتّى أنّه لم يقصّر عن الإتيان بأبسط المستحبّات ، وكان ينظر إلى الذين جاءوا بالشرع المبين نظر إعظام وإجلال وتبجيل ، وكان يعترض على بعض الصوفيّة الذين لا يُولون الشرعَ المقدّس من الاهتمام ما هو أهله ، وينتقدهم ويعدّ نهجهم مقروناً بالخطأ ، ويعتبره غير مُنتهٍ بهم إلى المنزل المقصود .

وكان يمتدح كثيراً هذه العبارة في «الرسالة المنسوبة إلى بحر العلوم» (وترجمتها كما يلي) :

وأمّا الأُستاذ العامّ فلا يُعرف إلّا بمصاحبته في الخلاء والملاء وبالمعاشرة الباطنيّة وبكمال إيمان جوارحه ونفسه . وحذارِ من الانخداع بمتابعته لظهور خوارق العادات ، وبيان دقائق النكات ، وإظهار الخفايا الآفاقيّة ، والخبايا الأنفسيّة ، وتبدّل بعض حالاته ؛ لأنَّ الإشراف على الخواطر والاطّلاع على الدقائق والعبور على النار والماء وطيّ الأرض والهواء والإحضار من المستقبل وأمثالها ، إنَّما تحصل في مرتبة المكاشفة الروحيّة ، وما أكثر المنازل والمراحل التي تعقب هذه المرحلة إلى المنزل المقصود ، إذ الطريق بلا نهاية ؛ وما أكثر السالكين الذين اجتازوا هذه المرحلة ثمّ انحرفوا بعد ذلك عن الجادّة ، فدخلوا وادي اللصوص والأبالسة ! وما أكثر الكفّار الذين حصلوا على اقتدار على كثير من الأُمور

١ـ الآية ١٥ ، من السورة ١٩ : مريم .

في هذا السبيل !

وكان كثيراً ما يشرحها لتلاميذه ، ويستند عليها تكراراً ، ويبيّن السبب في عدم إدراك الواقع عند عدم رعاية الشرع المطهّر .

وكان **للأُستاذ العلّامة** تواضع وخضوع جمّ مقابل القرآن الكريم خاصّة ، وكان يحفظ الآيات القرآنيّة إلى حدّ ما ، وقد ولد له إثر الممارسة نوع من التعشّق بالآيات ، فكان يعدّ تلاوة القرآن **فِى ءانَآءِ ٱلَّيْلِ وَأَطْرَافِ ٱلنَّهَارِ** أفضل وأسمى عمل له ، وكان يمرّ على آية فينتقل منها إلى أُخرى ثمّ إلى أُخرى وهكذا ، حيث ينغمر في عالم من البهجة والمسرّة خلال تجواله في هذه الجنّات القرآنيّة .

وكان العلّامة يعيب بشدّة على بعض المتنسّكين من ذوي الظواهر المقدّسة الذين صادروا الشرع ، فانتقدوا ـ بعنوان الحماية للدين والترويج للشرع المبين ـ جميع أصناف أولياء الله المتمسّكين بالمراقبة والمحاسبة ، والذين يقومون أحياناً بسجدات طويلة . وكان أوّل عمل لهم انتقاد وذمّ بعض أعلام العرفان كالخواجة حافظ الشيرازيّ ومولانا محمّد البلخيّ الروميّ صاحب كتاب «المثنوي» .

وكان العلّامة يعدّ هذا النوع من التفكير ناشئاً من الجهل والجمود والنزوع إلى التحجّر ، وهي أُمور تنفر منها روح الشريعة .

وكان يقول بأنَّ التهجّم على الفلسفة والعرفان ـ وهما دعامتان عظيمتان من دعائم الشرع المبين ـ ناشئ عن الجمود الفكريّ والخمود الذهنيّ . ويقول :

يجب الاستعاذة بالله من شرّ هؤلاء الجهّال ، فهم الذين قصموا ظهر رسول الله ، وذلك في قوله : **قَصَمَ ظَهْرِي صِنْفَانِ : عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ وَجَاهِلٌ**

مُتَنَسِّكٌ .[١]

وكذلك كان العلّامة بالنسبة لأصحاب القوّة العقليّة وقرّاء الحكمة والفلسفة الذين هم ضعفاء في الأُمور الشرعيّة ، ولم يكن ليظهر اعتناء بهم ويقول : إنَّ الحكمة التي لا تجلس على عرش الروح فتسوقها إلى اتّباع الشريعة ليست حكمة حقيقيّة .

وهنا حيث ننهي هذه الرسالة الشريفة ، ما أجمل أن نذكر خطبة أمير المؤمنين عليه السلام حين تلا قوله تعالى : **رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ** ، فأشار إلى الرجال الإلهيّين وأولياء الله وصفاتهم وأحوالهم ، حتّى نختم هذه الرسالة ببركة هذه الخطبة العالية العليّة من مولى الموحّدين وقائد الغرّ المحجّلين ، وحتّى يعلم أنَّ جميع هذه الآثار والصفات كانت مجتمعة في الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله تربته الشريفة وأفاض علينا من بركاته المُنيفَة . وكأنَّ مولى الموالي يحكي عنه وعن أمثاله في تلامذة مدرسة التوحيد والولاية والعرفاء بحقّ :

وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ عَزَّتْ آلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ

١ـ وأورد الصدوق في «الخصال» باب الاثنين ، نظير هذا الكلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : **قَطَعَ ظَهْرِي رَجُلَانِ مِنَ الدُّنْيَا : رَجُلٌ عَلِيمُ اللِّسَانِ فَاسِقٌ ، وَرَجُلٌ جَاهِلُ الْقَلْبِ نَاسِكٌ ؛ هَذَا يَصُدُّ بِلِسَانِهِ عَنْ فِسْقِهِ وَهَذَا بِنَسْكِهِ عَنْ جَهلِهِ ؛ فَاتَّقُوا الفَاسِقَ مِنَ العُلَمَاءِ وَالجَاهِلَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ ؛ أُولَئكَ فِتْنَةُ كُلِّ مَفْتُونٍ ؛ فَإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يَا عَلِيُّ ! هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَي [كُلِّ] مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ .**

ويروي المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ١١١ ، الطبعة الحروفيّة ، عن «منية المريد» قال : **قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ : قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ ؛ فَالجَاهِلُ يَغُشُّ النَّاسَ بِتَنَسُّكِهِ وَالعَالِمُ يَغُرُّهُمْ بِتَهَتُّكِهِ** . كما نقل في «بحار الأنوار» ج ١ ، ص ٦٥ ، عن «غوالي اللئالي» أنّه روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : **قَطَعَ ظَهْرِي اثْنَانِ : عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ ؛ هَذَا يَصُدُّ النَّاسَ عَنْ عِلْمِهِ بِتَهَتُّكِهِ وَهَذَا يَصُدُّ النَّاسَ عَنْ نُسْكِهِ بِجَهْلِهِ .**

عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ؛ فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالأَفْئِدَةِ . يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الأَدِلَةِ فِي الفَلَوَاتِ .

مَنْ أَخَذَ القَصْدَ حَمِدُوا إلَيْهِ طَرِيقَهُ ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ ؛ وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الهَلَكَةِ ؛ وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَأَدِلَّةَ تَلْكَ الشُّبُهَاتِ .

وَإنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الحَيَاةِ ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ فِي أَسْمَاعِ الغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ؛ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ .

فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ؛ فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ البَرْزَخِ فِي طُولِ الإقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ القِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا . فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَونَ مَا لا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لَعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ المَحْمُودَةِ ، وَمَجَالِسِهِمُ المَشْهُودَةِ ؛ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَنْ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا ، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا وَحَمَّلُوا ثِقْلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلَالِ بِهَا ، فَنَشَجُوا نَشِيجاً وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً ، يَعِجُّونَ إلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَاوِمِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدىً وَمَصَابِيحَ دُجىً ، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ المَلَائِكَةُ ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الكَرَامَاتِ فِي مَقَامٍ اطَّلَعَ اللَهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ؛ فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ ؛ يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ ؛ رَهَائِنُ فَاقَةٍ إلَى فَضْلِهِ ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ ؛ جَرَحَ طُولُ الأَسَى

قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ.

لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ. يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ؛ وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ. فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ. [١]

لقد كانت حالات الأُستاذ في السنوات الأخيرة من عمره عجيبة جدّاً، كان مستغرقاً في التفكّر ومنطوياً على نفسه، وشديداً في المراقبة وقليلاً ما يتنازل [٢] ممّا هو فيه. وفي السنة الأخيرة كانت تغلب عليه حالة النوم والخلسة، وبمجرّد أن يستيقظ كان يتوضّأ ويجلس مستقبلاً القبلة.

في الثالث من شعبان (يوم ولادة الإمام سيّد الشهداء عليه السلام) سنة ١٤٠١ هـ وبرفقة زوجته المخدّرة المكرّمة وأحد الطلّاب المحترمين من أهل الفلسفة والسلوك الذي قدم لرعايته، تشرّف بزيارة المشهد المقدّس لحضرة ثامن الحجج عليه الصلاة والسلام، وبقي هناك اثنان وعشرين يوماً ثمّ اختار الإقامة في دماوند طهران. بسبب لطافة الجوّ والماء في الصيف. وفي تلك الفترة أُحضر إلى مستشفى طهران للمعالجة؛ وبعدها اشتدّ عليه المرض إلى الدرجة التي لم يعد ينفع معها العلاج الطبّيّ إلى أن رجع إلى بلدة قم الطيّبة، حيث محلّ سكنه، ووضع في الفراش، وكان لا يستقبل غير الخواصّ من تلامذته.

يقول أحد تلامذته [٣]: ذهبت ذات يوم لعيادته، وكانت حالته سيّئة

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢٢٠.

٢ـ ويقصد التنازل من العوالم. (م)

٣ـ وهو سماحة شيخ الفضلاء العظام حجّة الإسلام الحاجّ الشيخ أبو القاسم المرنديّ دامت بركاته، الابن الرشيد لسماحة آية الله المرحوم الحاجّ الشيخ هدايت الله المرنديّ رضوان الله عليه، حيث شرّفنا بالحضور في منزلي في مشهد المقدّسة في اليوم الخامس ⇦

جدّاً ، فرأيت أنَّ جميع المصابيح في الغرفة مضاءة ، وقد لبس كامل ثيابه وعباءته واعتمّ بعمامته في حالة من السرور والابتهاج الزائدين وهو يتمشّى داخل الغرف ، وكأنّه ينتظر حضور أحد .

وينقل عن أحد فضلاء قم ، وهو من أساتذة ابني ، أنّه كان يقول : كنت في الأيّام الأخيرة من حياة العلّامة أذهب إليه كلّ عصر لأرى إذا كان يحتاج إلى شيء فأعدّه له ، إضافة إلى التمشّي معه قليلاً في صحن الدار .

وذات يوم ذهبت إلى منزله كالعادة ، وبعد السلام قلت له : هل تحتاجون إلى شيء ؟

فكرّر قول : إنّني محتاج ! إنّني محتاج ! إنّني محتاج !

⇦ من محرّم الحرام سنة ١٤٠٦ هـ لسوابق المودّة والمحبّة ، وضمن المذاكرات في أحوال المرحوم أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله تربته ، أضاف : ذهبتُ لزيارته في مستشفى آية الله العظمى الكلبايكانيّ في قم يوم عيد الغدير الأخير له ، وكان قد بقي على ارتحاله شهر واحد فكان راقداً على سرير المرض ، وكان واضحاً من القرائن والشواهد أنَّ أحداً لم يكن قد جاء لزيارته ذلك اليوم ، فقد كان جميع الطلبة والفضلاء مشغولين بمراسم العيد ومستلزمات ذلك اليوم . فوقفت في جانب من غرفته وحيداً حتّى جاءت ابنته ، وهي زوجة المرحوم حجّة الإسلام القدّوسيّ فوقفتْ إلى جانب سريره وسلّمتْ عليه ـ وكانت عيناه مغمضتين منذ فترة ـ وقالت : كيف حالك يا أبي العزيز ؟! فأجابها فقط بكلمة : بخير .

فبقيت عنده قليلاً ثمّ انصرفت إلى منزلها لرعاية أطفالها ؛ وكنتُ واقفاً في زاوية الغرفة لمدّة، وقد مرّت عليه عدّة أيّام وعينه مغمضة لا يفتحها ، وكانت تماماً مثل العيون المريضة؛ ففتح عينيه فجأة فإذا هي برّاقة جدّاً في حالة عاديّة بشوشة ، فنظر إليَّ ، فاغتنمتُ الفرصة وقلتُ له مازحاً : أيّها السيّد ! أيحضركم شيء من أشعار حافظ ؟

ردّ يقول : «صرح كار كجا و من خراب كجا» فاقرأ بقيّة البيت (وترجمته : أين استقامت الحال على ما يقول العقل والشرع ، وأين خراب حالي) .

فقلتُ : «ببين تفاوت ره از كجاست تا به كجا !» (وترجمته : فانظر تفاوت الدرب من أين إلى أين) .

فقال : **تا به كجا !** (= إلى أين !) .

ثمّ أغلق عينيه كما كانتا قبلاً ، ولم ينطق بعدُ بشيء .

فتبيّن لي كأنَّ العلّامة يريد شيئاً آخراً ؛ وأنّه يسير في أُفق مختلف . ثمّ أُرشدتُ إلى داخل الغرفة ، ودخل معي ، وكان مشغولاً بقراءة أذكار وعيناه مغمضتان باستمرار ولا يفتحهما ولم أستطع معرفة ما يقوله ، إلى أن حلّ وقت صلاة المغرب ، فرأيت العلّامة يقيم الأذان دون أن يفتح عينيه وينظر إلى السماء ، ثمّ بدأ بصلاة المغرب .

أحضرتُ منديلاً من ورق ووضعتها مقابله لكي يسجد عليها ، فلم يسجد . قلت في نفسي : لعلّه لم يسجد لأنّها منديلاً وما لم تكن مورد اعتماده فلا يسجد ؛ دخلت مرّة أُخرى وأحضرت شيئاً مرتفعاً ووضعت تربة السجود عليه ، فسجد وأنهى صلاته .

كانت حالته تشتدّ سوءاً يوماً بعد يوم ، إلى أن نقل إلى المستشفى في قم ، وعند خروجه من منزله قال لزوجته : لن أعود بعد !

بقي في المستشفى حوالى الأُسبوع ، وفي اليومين الأخيرين فقد وعيه كلّيّاً إلى صباح الأحد في الثامن عشر من شهر محرّم الحرام سنة ألف وأربعمائة واثنين للهجرة ، قبل الظهر بثلاث ساعات ، حيث انتقل إلى المقرّ الأبديّ ، وخلع لباس الجسد القديم ، وتخلّع بخلعة الحياة الأبديّة .[١]

١ـ لأجل نشر الخبر وإعلام الأعلام والأخيار من سائر المدن للمشاركة ، تأجّلت مراسيم الدفن إلى اليوم التالي . ونقل جثمانه في التاسع عشر من محرّم قبل الظهر بساعتين من مسجد حضرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إلى الصحن المطهّر لحضرة المعصومة سلام‌الله عليها بحضور جمع غفير ضمّ مختلف الفئات من الناس وآلاف من الطلّاب الغارقين في الحزن والأسى العميقين . وصلّى عليه حضرة آية الله العظمى الحاجّ السيّد محمّدرضا الكلبايكاني دامت بركاته ، ودفن في القسم الأعلى من جهة الرأس للقبر المطهّر لحضرة المعصومة عليها السلام قرب قبر المرحوم آية الله الحائريّ اليزديّ . وشاءت إرادةالله سبحانه وتعالى أن يكون قبره مجاوراً لقبر المرحوم والد هذا الحقير آية الله الحاجّ السيّد محمّد صادق الطهرانيّ بحيث لا توجد فاصلة بين القبرين ، قبر المرحوم والدي مقدّم عليه من جهة القبلة رحمة الله عليهما رحمة واسعة . ⇦

....

⇦ هذا وقد جرى نصب لوحة رخاميّة عند مزار سماحة أُستاذنا الأكرم آية الله العلّامة الطباطبائيّ ونقشت عليها العبارات التالية وبهذا الترتيب :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ
رَوْضَةٌ من رياضِ الجنَّة ادْخلوها بسَلَام آمِنِينَ
ارتحل إلى مَثوى الكرامة والسّرور فخر الإسلام والمُسلمين
الرّاقي إلى ذُرى الحقايق القرآنيّة مؤسّس نشر أُصول المعارف الإلهيّة
في الحوزة العلميّة الإماميّة بقم
صاحب التفسير العظيم الميزان المرتقي إلى جنَّة الذّات
العلّامة الحاجّ السّيّد محمّد حُسَين الطّباطبائيّ قدّس سرّه
وقد لَبّى نداء يا أيّتها النَّفس المُطمئِنّة إرجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيّةً
صبيحة الثّامن عشر من محرّم ١٤٠٢ ﻫ حشر مع الّذين أنعم الله عليهم

وفوق قبر الأُستاذ العلّامة من جهة الرأس نصبت صورة لشمائله المباركة ، وقد كُتِب أسفلها هذه الجملة للأُستاذ :

«تشيع حقيقت پيروى از سنّت رسول خداكه در ولايت متجلّى است مى‌باشد .»
علّامه سيّد محمّد حسين طباطبائى قدّس سرّه
(اهدائى كانون فرهنگى علّامهٔ طباطبائى ـ تهران : وصفنارد قديم)

وترجمتها :

«إنَّ التشيّع الحقيقيّ هو الاتّباع لسنّة رسول الله المتجلّية في الولاية .»
العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ قدّس سرّه
(إهداء مركز العلّامة الطباطبائيّ الثقافيّ ...)

أمّا بنظر الحقير ، فإنَّ هذه الكتابة ليست معرّفة لشخصيّته وحقيقة سماحته ، وكان الأجدر أن تحرّر بهذه الألفاظ ، وهذا الشكل : ⇦

دادیم بیک جلوهٔ رویت دل و دین را
تسلیم تو کردیم همان را و همین را
ما سیر نخواهیم شد از وصل تو آری
لب تشنه قناعت نکند ماء معین را[١]

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ

رَوْضَةٌ مِن رياضِ الجَنَّة ادْخُلوها بسَلام ءَامِنِين

قَد خَلَع بَدنَه العُنْصريَّ مُحْيِي الإِسلامِ وَمُشَيِّدُ الدِّينِ الرَّاقي إلى ذُرَى الحَقآئِقِ القُرءانيّةِ مُؤسِّسُ نَشرِ أُصولِ المَعارِفِ الإلَهيَّةِ بِقُم في الحَوزةِ المقدَّسةِ العِلميَّةِ

صاحبُ الميزانِ في تَفسيرِ القُرءَانِ

العَلَّامةُ ءايَةُ اللهِ الحَاجُّ السَّيِّدُ محمَّدٌ الحسينُ الطَّباطَبائيُّ التَّبريزيُّ

المرتَقى إلى ذِرْوَةِ الكمالِ الإنسانيِّ بتَتميم أسْفارِه الأربَعةِ العِرفانيِّةِ بعدَ فَنَآئِهِ في ذاتِ اللهِ تعالَى وقَد لَبَّى نِدآءَ المُثيَب واتَّصلَ الحَبيبُ بِالحبيب في صَبيحةِ يَومِ الثّامنَ عَشرَ مِن المُحرَّمِ الحرام سَنةَ ١٤٠٢ الهجريَّة القَمريَّة

وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا

إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا

أَعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي
جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي البَحْرِ اغْتَدَى مِنْ وَقْعِهِ مُتَتَابِعُ الأَزْبَادِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ حَطِّكَ فِي الثَّرَى أَنَّ الثَّرَى تَعْلُوا عَلَى الأَطْوَادِ

هذه الأبيات من قصيدة في ثمانين بيتاً تقريباً كان السيّد الرضيّ شارح «نهج البلاغة» قد أنشدها في رثاء إبراهيم بن ثابت بن قرّة . («روضات الجنّات» ص ١٤٢ ، أحوال ثابت بن قرّة الطبعة الحجريّة) .

١ـ يقول : «بجلوة واحدة من وجهك أعطينا القلب والدين ... وسلّمنا لك هذا وذاك. نعم ، لن نرتوي من وصلك ... فإنَّ الشفاه العطشى لا تقنع بماء المعين» .

مـيديد اگـر چشـم تـرا لعـل سـليمان
مـيداد در اوّل نـظر از دست نگـين را
در دائـــرهٔ تـــاجوران راه نـــدارد
هر سر كه نسائيده بـپاى تـو جـبين را[1]

وَحَـــيَاةِ أَشْـوَاقِــي إلَـيْـ ـكَ وَتُـرْبَةِ الصَّـبْرِ الجَـمِيلِ
مَــا اسْـتَحْسَنَتْ عَـيْنِي سِـوَ اكَ وَمَا صَبَوْتُ إلَـى خَـليلِ[2]

قَــلْبِي يُـحَدِّثُنِي بِأَنَّـكَ مُـتْلِفِي رُوحِي فِدَاكَ عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَعْرِفِ
مَا لِي سِوَى رُوحِي وَبَاذِلُ نَفْسِهِ فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ
يَا مَانِعِي طِيبَ المَـنَامِ وَمَـانِحِي ثَوْبَ السّقَامِ بِهِ وَوَجْدِي المُتْلِفِ
فَالوَجْدُ بَاقٍ وَالوِصَالُ مُـمَاطِلِي وَالصَّـبْرُ فَـانٍ وَاللِّـقَاءُ مُسَـوِّفِي
وَحَيَاتِكُمْ وَحَيَاتِكُمْ قَسَمَاً وَفِـي عُمْرِي بِغَيْرِ حَيَاتِكُمْ لَمْ أَحْـلِفِ
لَوْ أَنَّ رُوحِي فِي يَدِي وَوَهَبْتُهَا لِمُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ لَمْ أُنْـصِفِ[3]

ولم أكن مـوجوداً يـوم ارتـحال هـذا الأُسـتاذ الكـبير فـي بـلدة قـم المقدّسة ، لأنّني منذ سـنتين تـقريباً كـنت مـقيماً فـي المشـهد الرضـويّ المقدّس ، وقد وضعت ترحـالي وأعـباء احـتياجاتي عـلى عـتبة المـلائكة الحافظين لهذا الإمام الهمام عليه السلام .

عشقي وشوقي إلى هذا الأُستاذ دائماً في خاطري وذكري وفكـري

١ـ يقول : «إذ رأى سليمان عينك ، لبهت ... ومـن أوّل نـظرة ، وفـقد حـجر خـاتمه الثمين .
لا مكان له في دائرة أهل التوحيد ... كلّ رأس لم يمسح بين قدميك الجبين» .
٢ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٨٢ .
٣ـ «ديوان ابن الفارض» أبيات منتخبة من ص ١٥١ و ١٥٢ .

لأنَّ له حقّ الحياة على هذا العبد . وفي هذه الأيّام حيث ذكراه لا تفارقني والموضوع المحرّر هو عبارته عن كلّ ما يخطر في بالي كتبته بعنوان **الشمس الساطعة** كرسالة تسطع من نور هذه الشمس المتلألئة بالعلم والمعرفة ، لأُقدّمه لطالبي البصيرة وعاشقي لقاء حضرة الأحديّة حتّى يطالعوه ، وبكلّ سعي وكدّ وجهد من يصلون إلى نهاية الطريق ومعرفة ذات الأحديّة ، والفناء في ذاك الاسم المقصود ويجعلوه هدفهم . وإذا تقبّل الله سبحانه وتعالى هذا العمل أهدي ثوابه إلى الروح المنيرة إلى قاعدة العلم والتقوى . وللَّهِ الحمدُ وله الشُّكر ؛ انتهى **القسم الأوّل** من هذه الرسالة ليلة الأربعين لهذا الفقيد السعيد المصادف بليلة رحلة الرسول الأكرم خاتم النبيّين صلّى الله عليه وآله وسلّم من الثامن والعشرين من صفر الخير سنة ١٤٠٢ هـ. وقد استغرقت كتابته عشرين يوماً . **وَلَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ . وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَعَلَى أَوْلِيَائِهِ المُقَرَّبِينَ .**

اللَهُمَّ أَعْلِ دَرَجَةَ الأُسْتَاذِ الأَكْرَمِ ، وَاحْشُرْهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ المَعْصُومِينَ ، وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكاتِهِ ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

كَتَبَهُ بِيُمْنَاهُ الدَّاثِرَةِ ، العَبْدُ المِسْكِينُ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ الحُسَيْنُ الحُسَيْنيُّ الطِّهْرَانِيُّ ، عَفَا اللَهُ عَنْهُ وَعنْ وَالِدَيْهِ .

محاورات التلميذ والعلّامة

القِسمُ الثَّاني

بسم الله الرحمن الرحيم

أفضل التحيّات الوافرة والصلوات الزاكية لرسول الله **خاتم النَّبيّين محمّد بن عبد الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم ناشر لواء الحمد، والحائز على مقام الشفاعة الكبرى؛ وسيّد الأنبياء الأوّلين والآخرين في مقام القرب من الحضرة الأحديّة؛ وعلى وصيّه الأكرم حضرة خاتم الوصيّين ويعسوب الدين أمير المؤمنين **عليّ بن أبي طالب عليه السلام** وأولاده الأحد عشر الأماجد والمُمَجَّدين؛ وبالأخصّ قطب دائرة الإمكان صاحب العصر والزمان **الحجّة بن الحسن العسكريّ عليه السلام** واسطة الفيض الإلهيّ ومنبع إفاضة أنوار الملكوت على عالم الناسوت عجّل اللهُ تعالى فرجه الشريف؛ حامل أعباء الولاية الكلّيّة الإلهيّة، وجاذب أرواح الصدّيقين والمقرّبين إلى آخر درجة القرب والكمال.

وأفضل الألطاف الخفيّة الإلهيّة والرحمات المُنزَلة القدسيّة، على روح أُستاذنا العظيم الطاهرة آية الله المكرّم؛ الفقيد السعيد المرتحل حديثاً حضرة الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ رحمة الله عليه رحمة واسعة وأسكنه في دار القدس والرفيق الأعلى، وأفاض علينا من بركاته بمحمّد وآله.

من هناك حيث كان مجلس المرحوم أُستاذنا مليئاً بالفيوضات، وحاوياً كلّ أنواع الاستفادات؛ وهذا الحقير كان يغتنم من سابق الأيّام الآثار المترشّحة اعتَبرتُ هذا المجلس مغنماً، وكتبته، بالأخص في مدّة الأربعة أشهر من صفر المظفّر حتّى جمادى الأُولى من سنة ١٤٠٠ هـ ق حيث كان

المخدوم المعظّم يقيم في طهران ، وفي أكثر الأيام كنّا نستفيد من آثار مجلسه ساعة أو ساعتين .

وهذه المواضيع التي هي عبارة عن أسئلة وأجوبة كنت أكتبها ؛ ورأيت أن أضعها بين أيدي الجميع للاستفادة منها ، ولأنّ هذه الأسئلة كانت من هذا الحقير والأجوبة من حضرته فأنى أُقدمها إلى أرباب البصيرة بعنوان **محاورات التلميذ والعلّامة** . **وَبِيَدِهِ أَزِمَّةُ الأُمُورِ وَبِهِ أَسْتَعِينُ** ؛ **وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ** .

الأَبحَاثُ القُرآنِيَة

بسم الله الرحمن الرحيم

العلّامة :كان لحضرة رسول الله صلّى الله عـليه وآله وسـلّم ، أُنس وتعلّق شديد بالقرآن الكريم ؛ بحيث إنّه كلما قُرىء عليه آية منه ،كان يتلو الآية التي تليها ؛ وكان من جهة أُخرى منبعاً للرحمة والمودّة .

وذات يوم قدم أحد الأشخاص الذين حكم رسول الله بـإهدار دمـه (بسبب جريمة ارتكبها) إلى أمير المؤمنين عليه السلام وتوسّل إليه قائلاً : يا عليّ ! ما أفعل ليعفو عنّي رسول الله ؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : اذهب إليه ! واقرأ هذه الآية عنده:

تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ .[1]

ففعل ذلك ؛ فماكان من رسول الله إلّا أن أجابه مباشرة :

لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .[2]

وكانت هذه الآية بمنزلة حكم العفو عن ذلك الشخص .

* * *

التلميذ : لقد جاء في بعض تفاسير العامّة أنّ المقصود من فاعل فعل **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ** هـو رسـول الله ؛ وأن الخـطاب : **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ**

١ـ ذيل الآية ٩١ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٢ـ الآية ٩٢ ، من السورة ١٢ : يوسف .

لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ،[1] موجّه إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضاً ؛ لأنّه يُعلَم من عنوان المؤاخذه أنّ العبس والإعراض قد صدرا عنه .

العلّامة : ليس كذلك ؛ لأنّه :

أوّلاً : أنّ نظير هذا الخطاب موجود بكثرة في القرآن الكريم ، حيث يوجّه الكلام أو المؤاخذة إلى رسول الله في حين أنّه من المسلّم لم يكن هو الفاعل .

كما جاء في الآية ٦٨ ، من السورة ٦ : الأنعام :

إِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

لأنّنا لو قارنّاها وطبّقناها على الآية ١٤٠، من السورة ٤:النساء وهي :

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

يتّضح جيّداً أنّ الآية الثانية ناظرة إلى الأُولى ، وفيها قد تبيّن بشكل صريح أنّ مثل هذا الحكم قد نزل في كتاب الله سابقاً .

ولأنّ الخطاب في الآية الثانية موجّه إلى المؤمنين ، يعلم أيضاً أنّ الخطاب في الآية الأُولى التي أكّدت الآية الثانية على نزولها ، وفيها دلالة على نزول ذلك الحكم ، موجّه إلى المؤمنين ؛ وإن كان ظاهره موجّهاً إلى الرسول الأكرم وبصيغة المخاطب المفرد .

١ـ الآيات ٣ إلى ١٠ ، من السورة ٨٠ : عبس .

ويعلم أيضاً لماذا يكون الحكم مختصّاً بالمؤمنين وعامّة الناس وهو في ظاهره موجّه إلى رسول الله ؛ ذلك لأنـّه صلّى الله عليه وآله وسلّم مأمور بإبلاغ كلّ الأُمّة ، ومن خلال نافذة نفسه يتعرّف الناس على تكليفهم ، ولهذا يتحمّل هو هذه الخطابات والتكاليف .

وهذا المعنى، من الأُمور الشائعة في عرف أهل اللغة ومحاوراتهم ، وهو كثير في البلاغة والفصاحة الأدبيّة ، حيث يقوم السلطان في طريقة خطابه بتوجيه الأمر إلى وزيره ؛ في حين أنّ الأوامر تكون موجّهة إلى الرعيّة .

ولدينا في ذيل الآية ٤٤ ، من السورة ١٦ : النحل :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

ومن الواضح جدّاً في هذه الآية أنّ الأحكام والتكاليف قد نزلت في الواقع للناس ؛ أمّا رسول الله فهو الواسطة والنافذة لأجل إلقاء الأحكام والأوامر على الناس .

أمّا ذلك الشخص الذي كان يكفر بآيات الله ويستهزئ بها فهو **الوَليد بن المُغَيرَة** ، والذي ذكر القرآن قصّته في سورة المدَّثِّر :

ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .[1]

١ـ الآيات ١١ إلى ٣٠ ، من السورة ٧٤ : المُدَّثِّر .

أجل ، فإنّ **الوليد**[١] كان ينطق بمثل كلمات الكفر هذه ويقول : إنّ القرآن سحر قويّ يؤثر .

وكان **الوَليد** و**أبُو جَهْل** ورفقاؤُهم يجلسون ويستهزئون بالقرآن .

وعندما نزلت الآية التي تذكر **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ، قال أبو جهل لقريش مستهزئاً :

ثكلتكم أُمّهاتكم **!** لقد سمعت **ابن أبي كَبْشَة** (ويقصد رسول الله) يقول : إنّ حفظة جهنّم وحرّاسها ، هم تسعة عشر ؛ وأنتم جماعة **!** ألا يوجد فيكم عشر رجال ليحملوا على حرّاس جهنّم ويقضوا عليهم **!** ويخلّصوها من الخزنة التي يتحدّث عنها محمّد **؟!**

فقال **أبو الأسَد بن أُسَيْدِ بْنِ كَلْدة الجَمَحِيّ** : إنّني رجل فارس وشجاع ، أكفيكم سبعة عشر منهم وأنتم تكفّلوا بالاثنين الباقيينِ **!**

وفي سورة الأنعام وسورة النساء ، يأتي الحديث عن كفر واستهزاء الوليد وأصحابه وخوضهم في آيات الله ، وينهى الله سبحانه و تعالى المؤمنين عن مجالستهم والاستماع إليهم .

وفي سورة الأنعام ، جاء الحكم بصورة الخطاب الموجّه إلى رسول الله ؛ ومعلوم أنّ المقصود هم المسلمون .

أمّا في سورة النساء فإنّه موجّه إلى المسلمين ؛ وهو يذكّر بالحكم الوارد في سورة الأنعام ؛ ومن المعروف أنّ سورة النساء قد نزلت بعد سورة الأنعام ؛ فالخطاب الواحد قد جاء في سورة الأنعام موجّهاً إلى المسلمين

١ـ ولا يخفى أنّ **الوليد بن المغيرة** أحد الرجلين العظيمين اللذين كان المشركون يقولون: لماذا لم ينزل القرآن على أحدهما ، وهو **غير الوليد بن عقبة أبي مُعِيط** الذي نزلت آية النبأ فيه .

بصورة الخطاب لرسول الله ، أمّا في سورة النساء فقد ورد بصورة الخطاب لجميع المسلمين .

ثانياً : بعد عدّة آيات يقول الله تعالى :

قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ .[١]

وقد اتّفق جميع المفسّرين من الشيعة والسنّة : على أنّ ظاهر هذا التوبيخ من الله، لذلك الذي عبس وتولّى ؛ أي أنّ ظاهر سياق العبارة ، هو لفاعل **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ** الذي كفر ولم يطع أمر الله أبداً .

ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب موجّهاً إلى رسول الله ؛ فمن مراجعة الخطابات القرآنيّة للرسول تنكشف هذه الحقيقة ؛ ولهذا نجد أنّ نفس مفسّري العامّة الذين نسبوا فعل العبس والتولّي لرسول الله ، أصبحوا هنا مجبورين على رفع اليد عن هذا الظهور ، وقد قالوا إنّ هذه الآيات لا تنطبق على الرسول ؛ بل نزلت في موضع آخر ، ثمَّ جمعها بعد ذلك معاً في هذه السورة .

ومن المعلوم أنّ مثل هذا الادّعاء ليس إلّا إسقاطاً للقرآن من مرتبة البلاغة ؛ وهو ناشئ من إرجاع ضمير **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ** إلى الرسول .

ثالثاً : اتّفق الجميع من الشيعة والعامّة على أنّ سورة **نٓ وَٱلْقَلَمِ** التي هي من السور العَتائق ،[٢] قد نزلت مع باقي العتائق في مكّة المكرّمة ، وأنّ

١ـ الآيات ١٧ إلى ٢٣ ، من السورة ٨٠ : عبس .

٢ـ دُعيت السور التي نزلت في بداية البعثة بالعتائق جمع «العتيقة» ومعناها : السور القديمة.

سورة القلم قد نزلت بعد سور العَلَق والمُدَّثِّر والمُزَّمِّل ؛ وكان ذلك في بداية بعثة رسول الله .

والله سبحانه تعالى يقول في هـذه السـورة **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**[١] مثنياً على رسوله ، ومعرّفاً إيّاه لكلّ العالمين .

كانت هذه أخلاق النبيّ في بداية البعثة ؛ فكيف يـمكن أن نـتصوّر صدور مثل ذلك العمل (العبوس) من الرسول بعد البعثة وبعد مرور الزمـن حيث إنّ الطبيعة والعادة تقتضيان رفعة الأخلاق وسموّها أكثر ؟ وبـمجرّد رؤية ذلك المؤمن الضـرير والتـقيّ وهـو **ابن أُمّ مكْتوم** ، ولأجـل اسـتمالة زعماء قريش ، وجلب قلوب المترفين والمستكبرين من العَرَب ، يـعبس الرسول ويعرض بوجهه **!**

إنّنا لا نجد مثل هذه الأخلاق حتّى في الأنـبياء والأوليـاء ، بـل وفـي مختلف طبقات المؤمنين الأتقياء والملتزمين ، فكيف برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وحسب علمي أنّ فاعل **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ** هو **عثمان بن عفّان** الذي عبس وتولّى وأشاح بوجهه عند دخول ابن أُمُ مَكْتُوم الأعمى على رسـول اللـه . وتشهد على هذا المعنى بعض الروايات التي تقول : **إنَّهُ كَانَ رَجُلًا مِن بَنِي أُمَيَّة** . ـ انتهى كلام العلّامة .

* * *

التلميذ : جاء في كتاب الصلاة في «جواهر الكلام» في باب استحباب قراءة السورة بعد الحمد في النوافل أنـّه قال : **رَوَى الكُلَينِيّ بِسَنَدِهِ إلَى سَعْدِ الإسْكَافِ أَنَـّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ :**

١ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٨ : القلم .

أُعْطِيتُ السُّوَرَ الطِّوَالَ مَكَانَ التَّورَاةِ ، والسُّنَنَ مَكَانَ الْإنْجِيلِ، وَالْمَثَانِيَ مَكَانَ الزَّبُورِ ؛ وَفُصِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ سُورَةً ؛ وَهُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَى سَائِرِ الكُتُبِ .

فما هو المقصود من السور الطِّوال ، والسُّنَن ، وَالمَثَاني ، والمفصّل في هذه الرواية ؟

العلّامة : المراد من السور الطوال ، السور السبع الطويلة في بداية القرآن التي سمّاها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالطوال وهي عبارة عن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس .

بَيدَ أنّ عثمان قدّم سورتي الأنفال والتوبة على سورة يونس ، حين جمع القرآن ؛ لأنّه لم يعتبر سورة التوبة سورة مستقلّة ؛ لأنّها لم تبدأ ب **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ، بل اعتبرها متمّمة لسورة الأنفال ؛ ولهذا ، عدّ هاتين السورتين سورة واحدة ، وجعلهما من السور الطوال .

ولكن عندما اعترض عليه بأنّ رسول الله قد جعل سورة يونس بعد سورة الأعراف ، وهي من السورة الطوال ، لم يملك جواباً ؛ وقال : لم أكن أعلم بما فعله رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم .

وأمَّا السُّنَن التي ورد ذكرها في هذه الرواية ، فلم أجد لها نصّاً ؛إلاّ إنّ ما جاء في بعض الروايات كان بلفظ المِئين ، أي السور التي يقارب عدد آياتها المائة ؛ ولعلّ السنن في هذه الرواية هي المِئين وقد حرّفت حين الكتابة .[1]

١ـ جاءت عبارت **سُنَن** في «الجواهر» طبعة الحاجّ موسى ملفّقة ، ولكن في طبعة النجف الحروفيّة وردت بلفظ **مَئِين** ؛ وبعد مراجعة أصل الرواية في «أُصول الكافي» ⇦

والمشهورُ أنّ القرآن يقسم إلى ثلاثة أقسام : **السور الطوال** ، **السور المئين** ، **والسور المفصَّلات** . غاية الأمر أنـّهم يطلقون على السور التي تبدأ من سورة النبأ «**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ**»[1] إلى آخر القرآن **السور القِصَار** .

و**أمّا المثاني** ، فلا أذكر أنـّها تطلق على بعض السور القرآنـيّة ؛ لأنّ معنى **ثَنَى ويَثْنِي** من الانحناء والرجوع ؛ وبما أنّ العديد من الآيات القرآنيّة ناظر إلى بعضه الآخر ، فكأنّ هذه الآيات قد ذُكرت مـرّتين : مـرّة بـمعنى نفس الآية ، ومرّة بالنظر إلى الآية الأُخرى ؛ وتلك الآية السابقة قد ذكرت مرّتين : مرّة نفس الآية ، ومرّة تلك الآية الأُخرى التي ترجع إليـها ؛ وهـي التي تبيِّن معناها .

ولأنّ جميع آيات القـرآن نـاظرة إلى بـعضها البـعض ؛ وكـلّ آيـة ، تتضمّن في نفسها معنى الآية الأُخرى ؛ فإنّه يمكن القول بأنّ جميع القرآن هو المثاني .[2]

⇦ الطبعة الحروفيّة، ج ٢ ، ص ٦٠١ فكانت هناك بلفظ «المئين» .

١ـ الآية ١ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

٢ـ ورد في تعليقة هامش «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠١ الطبعة الحروفيّة نقلاً عـن «**الوافي**» السور الطُّوَل كصُرَد هي السبع الأُوَل بعد الفاتحة ، على أن تعدّ الأنفال والتوبة واحدة (لنزولها جميعاً في مغازي النبيّ صلّى الله عـليه وآله وسـلّم ، وتـدعيان **قَـرينتين** ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة) أو السابعة سورة **يونس** . و**المثاني** هي السبع التي بعد هذا السبع سمّيت بها ؛ لأنـّها ثنّتها ، واحدهما مثنى مثل معاني ومعنى . وقد تطلق المثاني على سور القرآن كلّها طوالها وقصارها ، وأمّا المئون فهي من السورة ١٧ : بني إسرائيل إلى سبع سور، سمّيت بها لأنّ كلّاً منها على نحو من مائة آية ، كذا في بعض التفاسير ـ انتهى كلام «الوافي».

ولكنّ المعاني التي ذكرها «الوافي» غير تامّة ؛ لأنّ مثنى يَثنى جاءت في اللغة بمعنى التوجّه والعطف كما تفضّل العلّامة ، أنـّه لعطف شيء على شيء قبل الانـحاء أو الالتـواء لا مطلق. ⇦

كما ورد في الآية ٢٣، من السورة ٣٩: الزمر:

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ. [١]

ففي هذه الآية المباركة أُطلق اسم **المثاني** على جميع الكتاب المُنَزَّل وأحسَنُ الحديث وهما القرآن.

⇦ أجل، إذا جمعنا بين علوم صاحب «الوافي» والرواية التي نقلناها عن «الكافي» يمكننا القول بأنّ السور الطِوال أو الطُوال، هي سبع سور بعد فاتحة الكتاب: البقرة، آل عمران، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس. وسور المثاني هي السبع سورٍ بعدها على أساس أنّ الأنفال والتوبة سورة واحدة: الأنفال التوبة، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحِجر، النحل. وسور المائين هي السور السبع التي تليها وهي: الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحجّ، والمؤمنون. والسور المفصّلة هي الثمانية والستّون التي تليها، أي من سورة النور، الرابعة والعشرون من السور إلى سورة الشمس التي هي الحادية والتسعون، وما بقي من السور فتعتبر من السور القصار، والله العالم.

١ـ يمكن أن يكون إحدى الأسباب التي عبّر الله سبحانه تعالى فيها عن القرآن بـ«بأَحْسَنِ الحديث» السبب الذي بيّنهُ العلّامة قدَّس الله نفسه في كتاب «قران در إسلام» «القرآن في الإسلام» ص ٦١، حيث يقول:

أولاً إن القرآن هو الكتاب السماويّ الوحيد الذي: يعتبر أنّ سعادة الحياة الإنسانيّة هي التي تكون على نمط حياة الإنسان الفطريّة «الطبيعيّة» السليمة التي لم تدّنس وتتعادل معها أوّلاً.

وثانياً: وخلافاً لأكثر أو جميع المناهج التي تفصل عبادة الإنسان للّه عن برنامج الحياة. فقد جعل البرنامج الدينيّ هو نفسه برنامجاً للحياة ويتدخّل في جميع الشؤون الفرديّة والاجتماعيّة للإنسان ويصوّر الأحكام التي تطابق الرؤية الواقعيّة (في الرؤية الكونيّة وفي معرفة الله) وفي الحقيقة تربط الأفراد بالكون، والكون بالأفراد وتربطهما معاً بالله سبحانه و تعالى.

وأمّا **المُتَشابه** الذي ذكر في هذه الآية ، فهو بمعنى **يُشبِهُ بَعْضَهُ بَعضاً** ، أي أنّ كلّ الكتاب من سنخ واحد ؛ ويشبه بعضه بعضاً .

وهذا المعنى غير المتشابه الذي جاء مقابل الحكم ؛ في الآية ٧ ، من السورة ٣ : آل عمران :

هُوَ ٱلَّذِىَ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ .

لأنّ **المحكم** هو الذي يكون معناه واضحاً وبيّناً ، **أمّا المُتَشابه** فهو الذي يحتاج إلى التأويل والتفسير .

* * *

التلميذ : تلك الحروف المقطّعة التي وردت في أوائل بعض السور مثل **الٓمٓ** و **حمٓ** وغيرها ، هل عُلم معناها الواقعيّ حتّى الآن ؟ بحيث يمكن للإنسان أن يطمئنّ لتفسيرها ؟!

العلّامة : يمكن القول إجمالاً إنّه لهذه الحروف نوعاً من الارتباط الخاصّ مع المطالب الواردة في تلك السورة ؛ ولهذا ، فإنّ السور التي تشترك في نفس الحروف المقطّعة في أوائلها تبحث وتتحدّث عن سنخ واحد من المطالب . فالسور التي تبدأ بـألف ، لام ، ميم «الٓمٓ» في القرآن هي ستّ :

١ ـ السورة ٢ : البقرة : **الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**.

٢ ـ السورة ٣ : آل عمران : **الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** .

٣ ـ السورة ٢٩ : العنكبوت : **الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** .

٤ ـ السورة ٣٠ : الروم : **الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** .

٥ـ السورة ٣١: لقمان: **الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ** .

٦ـ السورة ٣٢: السجدة: **الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** .

ففي هذه السور الستّ المباركة يلاحظ أنّ سورتي البقرة وآل عمران متتاليتان؛ والسور الأربع الباقيات العنكبوت والروم، ولقمان والسجدة كذلك. وردت متتالية.

أما السور التي تبدأ بـ حا، ميم «حمٓ» ويقال لها **الحواميم**، فهي سبع سور:

١ـ السورة ٤٠: المؤمن: **حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ**.

٢ـ السورة ٤١: السجدة: **حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ** .

٣ـ السورة ٤٢: الشورى: **حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ** .

٤ـ السورة ٤٣: الزخرف: **حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** .

٥ـ السورة ٤٤: الدخان: **حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ** .

٦ـ السورة ٤٥: الجاثية: **حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**.

٧ـ السورة ٤٦: الأحقاف: **حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**.

وجميع هذه السور من سنخ واحد، ذات مضمون ومطلب واحد أيضاً. وقد وردت في القرآن متتالية.

كذلك كانت سور **الٓمٓ**، جميعها من سنخ واحد، وتشترك في وحدة المضمون والمطلب.

أما سور **المُسَبِّحات** التي تبدأ بـ **يُسَبِّحُ** أو **سَبَّحَ** فهي خمس : الحديد ، الحشر ، الصفّ ، الجمعة والتغابن . أما سورة الأعلى التي تبدأ بفعل سَبِّح بصيغة الأمر ، فهي لا تعدّ من المسبّحات ، وإن كانت قد وردت في بعض الروايات ، ولكنّ الروايات المعتبرة قد حدّدت عدد السور المسبّحات بخمس .

وورد في الرواية أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقرأ هذه السور الخمس كلّ ليلة قبل النوم .

ولمّا سئل عن سبب قراءة هذه السور ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : في كل سورة من هذه السور يوجد آية تساوي ألف آية من القرآن .

وفي رواية ، أنّ كلّ من يقرأ **المُسَبّحات** قبل النوم لا يموت إلا ويرى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبل موته ؛ فيُريه مقامه ومحلّه في الجنة :

التلميذ : إنّ هذه القضيّة عجيبة جدّاً ، فرغم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان أميّاً لا يعرف الكتابة ، ولم يكتب الآيات بنفسه ، فقد كان يقرأ هذه السور وغيرها بعد نزولها ، بدون نقصان أو زيادة حرف أو كلمة .

فقد كان معروفاً أنّه بمجرّد نزول الوحي ، كان النبيّ يدعو كُتّاب الوحي ، ليتلوه عليهم ، فيكتبوه . ولم يُرَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم طوال حياته يحمل قلماً أو يكتب .

هل يمكن أن نسمّي هذا الأمر بقوّة الحافظة ؟

وهل شوهد طوال عمر البشريّة مثل هذا الأمر ؟ وهل يمكن لأيّ خطيب ، مهما كان ماهراً ، حتّى لو كان من أمهر خطباء العالم وأقواهم

حفظاً ، أن يكرّر ما قاله لمدّة دقيقتين فقط كما هو تماماً بدون قراءته عن ورقة أو تسجيله دون أن يزيد أو ينقص حرفاً ؟ إنّ هذه معجزة عجيبة جدّاً وغريبة وواضحة .

العلّامة : أجل ، فإنّ الأمر كما تقولون ، رسول الله كان يقرأ آيات القرآن بدون أن يزيد أو ينقص حرفاً واحداً ؛ حتّى أنّه كان كثيراً ما يصحّح للناس الذين يحفظون القرآن .

وناهيك عن القرآن ، نجد أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يكرّر عند الحاجة ما قد قاله قبل سنوات كما هو ؛ وكأنّه قاله لساعته .

وعند لحظات الموت الأخيرة كانت فاطمة سلام الله عليها . في حالة تأثّر شديدة ؛ وهي تبكي وتقول : ووا سَوْأتاه ، ووَا سَوْأة أبي .

فقال لها : لا تقولي هكذا !

بل قولي ما قلتُه عند موت ابني إبراهيم .

القَلْبُ يَحْزَنُ ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ ، وَلَا نَقُولُ إلَّا حَقّاً ؛ وَإنَّا بِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونُونَ ! [1]

فانظر : النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يعاين سكرات

١ـ أخرجه العلّامة آية الله السيّد شرف الدين العامليّ رحمة الله عليه في كتاب «النصّ والاجتهاد» الطبعة الثانية ، ص ٢٣١ . عن «صحيح البخاريّ» في أبواب الجنائز آخر ص ١٠٤ وص ١٥٥ من الجزء الأوّل ، باب قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم «إنَّا بِكَ لَمَحْزَونونَ» عن أنس بن مالك قال فيه : ثمّ دخلنا عليه صلّى الله عليه وآله وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يارسول‌الله! فقال: **يَابْنَ عَوْفٍ ! إنَّهَا رَحْمَةٌ ؛ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى . فَقَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ :**

إنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، والقلْبَ يَحزَنُ ، ولا نَقُولُ إلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وإنّا بِفرَاقِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزونُونَ !

الموت ، وقد غلب عليه المرض من كلّ جانب ، وقد ثقل حاله وانقلب ففي تلك اللحظات ، يكرّر نفس العبارات التي قالها قبل سنوات عندما توفّي ابنه إبراهيم ، فما أعجب هذه المعجزة !

أجل ، هذه هي الإحاطة بالملكوت والسيطرة على عالم المعنى ، ولا علاقة لهذا الأمر بالقوّة الحافظة المادّيّة ؛ التي تتعلّق بالبدن ؛ وإن كان أصل القوّة الحافظة مجرّداً .

التلميذ : شتّان بين هذا التحليل الدقيق الذي تبيّن فيه من متن الواقع الجملة العاديّة التي قالها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو في حالة المرض الشديد ؛ وبين قول عُمَر حين قال : **قَدْ غَلَبَهُ الوَجَعُ ؛ إنَّ الرَّجُلَ لَيَهْجُرُ** .

العلّامة : السور التي تبدأ بألف لام راء «الٓر» في القرآن ستّ سور وهي :

١ ـ السورة ١٠ ، يونس : **الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ** .

٢ ـ السورة ١١ ، هود : **الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** .

٣ ـ السورة ١٢ ، يوسف : **الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ** .

٤ ـ السورة ١٣ ، الرعد : **الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** .

٥ ـ السورة ١٤ ، إبراهيم : **الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ** .

٦ ـ السورة ١٥ ، الحجر : **الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ** .

هذه السور كذلك وردت متتالية ، كلّ واحدة بعد الأُخرى ؛ ولها لحن

خاصّ وأُسلوب معيّن .

والسور التي تبدأ بـ طا سين «طسٓ» ثلاث سور .

١ ـ السورة ٢٦ : الشعراء : **طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ** .

٢ ـ السورة ٢٧ : النمل : **طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ** .

٣ ـ السورة ٢٨ : القصص : **طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ** .

وهذه السور المتتالية ، أيضاً ، لها أُسلوب خاصّ .

والسورة ٧ : الأعراف تبدأ بـ ألف لام ميم صاد «الٓمٓصٓ» ولها لحن وأُسلوب تلك السور التي تبدأ بألف لام ميم ، وكذلك لها لحن أُسلوب سورة صاد «صٓ» ، وعليه فهي تمتلك ميزتهما معاً .

لأنّه كما قلنا ، فالحروف المتقطّعة في أوائل سور القرآن ، أشارت لكلّ تلك المطالب الواردة في تلك السور بنحو الإجمال والرمز ؛ إذاً من ناحية تضمّنها «الٓمٓ» لها مع سور «الٓمٓ» نفس اللحن والأُسلوب ؛ ومن ناحية أُخرى لتضمّنها «صٓ» فلها ، لحن وأُسلوب سورة «صٓ» .

والسورة ١٩ : مريم تبدأ بـ «كاف ها ياء عين صاد» «كٓهيعٓصٓ» ، ولها قالب وأُسلوب خاصّ .

والسورة ٥٠ : قٓ ، لها شكل خاصّ ، وهذا الشكل والأُسلوب واضح في كلّ القرآن ، وكذلك سورة طا . ها «طه» ويا . سين «يسٓ» ؛ وعلى الرغم من أنّ الكثيرين يعتبرون طه حرف واحد ، ومن أسماء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ففي يسٓ قالوا إنّه كلمة واحدة ومن أسماء رسول الله ؛ وشاهد على هذا ، الآية ١٢٠ ، من سورة ٣٧ : الصافات . حيث ورد فيها **سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ** ، إذ إلْ تكون مخفّفة آل ؛ وفي القراءة الشاذّة كذلك قرئت آية آل ياسين .

إذا يمكننا القول إنّه في سورة «يسٓ» ، «يا» حرف نداء و«سين» من

أسماء رسول الله ، وكذلك يمكننا القول كما في سائر حروف القرآن المقطّعة **ى** و **س** حرفان ، وهما إشارة ترمز إلى مطالب مطويّة في هذه السور ، وهذا لا يتنافى بأن يكون إشارة ورمزاً إلى رسول الله ، وهو نوع لاسم أو علامة ؛ وكما أنّ الحرفيّن في سورة طه «الطاء والهاء» هُما بالإضافة للإشارة لمحتوى السورة ، نوع لاسم أو علامة لرسول الله .

والسورة ٤٢ : الشورى التي تبدأ بـحا ميم عين سين قاف «حمٓ عٓسٓق» لها أُسلوب ومزايا الحَوَاميم التي تبدأ بـ «حمٓ» ؛ ومن أُسلوب سورة مريم التي بين حروفها المقطّعة حرف **عين** ، وأُسلوب سورة يسٓ التي فيها **سين** ، ومن أُسلوب سورة قٓ التي تتشابه معها .

وبشكل عامّ ، لأنّ الحروف المقطّعة تخبر عن محتوى السورة كلّها بالإجمال ، يجب أن نحلّل هذه السور بنظر وحساب دقيق ، ومن قياس كلّ سورة مع الأُخرى ، ومع سائر السور ، نستنتج المواضيع ؛ رغم أنّ هذا التحليل مشكل ودقيق ؛ ولكن سنحصل على نتائج مهمّة منه .

ومن جملة إعجاز القرآن الأساليب المختلفة الموجودة فيه ، وربط هذه الحروف بالمواضيع التي سيتضمّنها القرآن الكريم . والحمد للّه ربّ العالمين .

* * *

التلميذ : ما المقصود من الأحقاف في هذه الآية المباركة في السورة ٤٦ : الأحقاف ؟

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.[١]

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

العلّامة : تقع بين أرض العراق وأرض اليمن ، ومن هناك دعا النـبيّ هود قومه عاد ، فلم يستجيبوا له . فأرسل الله سبحانه و تـعالى عـليهم ريـح سَموم فاهلكتهم ، وقد فنيت تلك الديار وتلاشت بأجـمعها ولم يـبق مـنها شيء حاليّاً .

* * *

التلميذ : لقد ورد في الآية الأخيرة من سورة الطلاق قوله تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا .[1]

فما هو المراد من قوله **وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ؟ وكيف خلق من الأرض بعدد السماوات السبع ؟

العلّامة : في تفسير أنّ الله قد خلق من الأرض سبعاً بعدد السماوات رأيان :

الأول : أنّ عدد الأراضي التي خلقها الله تـعالى هـو سبع مـثل عـدد السماوات ، وعلى هذا فإنّه يوجد سبع سماوات وسبع أراض .

والثاني : أنّ الله قد خلق من الأرض موجوداً مثل السماوات السبع ، وهو الإنسان ، وينسب هذا التفسير إلى ابن عبّاس في الظاهر .

ولأنـّه قد قيل : إنّ في الإنسان **سَبع شِدَاد** موجودة مع جـميع قـواه ؛ وهي تحت تسخير الإنسان وسلطته ، لهذا يمكن القول بأنّ الإنسان الذي له سبع سَماوات ، وكلّها منطوية في وجوده ؛ قد خلق من الأرض .

وقد يبدو هذا التفسير على الظاهر بعيداً ؛ وإن كان التعبير عن الإنسان

١ـ الآية ١٢ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

بأنّه **وَمِنَ ٱلْأَرْضِ** ليس بعيداً ؛ لأنّ أصل خلقة الإنسان من الأرض ، وهو بعد نباته منها يحصل على الرشد والنمو حتّى يصل إلى مقام التجرّد الروحيّ والنفسيّ .

وَٱللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا .[1]

وعلى كلّ حال ، يبقى التفسير الأوّل هو الأقرب ؛ وتدلّ عليه روايات وأدعية عديدة .

* * *

التلميذ : في رسالة «المعاد» «الإنسان بعد الدنيا» قد ذكرتم : في قوله تعالى :

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .[2]

جاء في «تفسير القمّيّ» عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال : **يَعْني: بأرْضٍ لَمْ تُكْتَسَبْ عَلَيْهَا الذُّنُوبُ ، بَارِزَةً لَيْسَ عَلَيْهَا جِبالٌ وَلا نَبَاتٌ كَمَا دَحَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ . وَيُعِيدُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءُ كَمَا كَانَ أَوَّلَ مَرَّةٍ مُسْتَقِلّاً بِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ .**

وبعد بيان هذا المطلب ، ذكرتم في الحاشية : **قَوْلُهُ : مُسْتَقِلّاً بِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، تَفْسيرٌ لِكَوْنِ عَرْشِهِ عَلَى الْمَاءِ ؛ وَلَهُ شَواهِدُ مِنَ الْكِتَابِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَاءَ إشَارَةً إلَى مَنْبَعِ كُلِّ حَيَاةٍ وَقُدْرَةٍ وَعَظمةٍ ؛ إنْ تُحْمَلِ نُقُوشُ الْخِلْقَةِ ، ظَهَرَتِ الْمَوْجُوداتُ ، وَإذَا انْمَحَتْ عَادَ الْعَرشُ عَلَى الْمَاءِ .**

فهل المراد من الماء الوجود المنبسط ؟

١ـ الآية ١٧ ، من السورة ٧١ : نوح .

٢ـ الاية ٤٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

العلّامة : جاء ذلك في القرآن ولا يمكن قول شيء على نحو الجزم ؛ بحسب ظاهر الآية فإنّ ما يمثّل القدرة الإلهيّة والعرش الإلهيّ ويحكم اليوم ،نفسه الحاكم في ذلك اليوم مكان الموجودات الحاليّة المُقوَّمة بالماء الذي هو القدرة والحياة ، ولكنّنا لا نعلم ، ما هي صورة حقيقة تلك القدرة والحياة .

على كلّ حال ، فإنّ سياق الآية يعطي هذا المعنى وهو أنـّه في الوهلة الأُولى قد كانت في الوجود واقعيّة عظيمة الوسع بدل العالم ، وكانت تحت حكومة عرش الله ؛ وبعد ذلك ، ظهرت هذه النقوش من صقعها ؛ وسوف تعود هذه النقوش للمحو والزوال ، ليرجع العالم مرّة أُخرى إلى ما كان عليه بدون صور ونقوش .

فهل تكون هذه الحقيقة الواسعة ، هي النفس الرحمانيّة أم الفيض المقدّس أم الوجود المنبسط أم نور نبيّك يا جابر ؟ هناك احتمالات متعدّدة .

* * *

التلميذ : أهي احتمالات مختلفة ، أم عبارات مختلفة ذات واقعيّة واحدة ؟

العلّامة : بالنسبة لنا ، احتمالات مختلفة ؛ وللمتكلّم ، عبارات .

قائل العبارات وحده يعلم ما الخبر ، ما الذي نعرفه نحن المساكين ! وما الذي نعلمه عن الكتاب ؟!

التلميذ : في تفسير الآية الشريفة :

فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ

ٱلْعَذَابُ.[١]

ذكرتم في رسالة «المعاد» أنّ هذا الحجاب وهذا الباب هو أمر واحد، له ظاهر وباطن، غاية الأمر أنّ رحمة الله للذين استقرّوا في باطنه بالفوز والفلاح ؛ وعذاب الله بالنسبة للذين هلكوا في ظاهره. فلو عبرت أبصارهم من مقام الظاهر إلى الباطن. لوصلوا إلى نعمة الله ونعيمه ؛ ولشملتهم الرحمة الإلهيّة تحت ردائها.

وكأنّه لا يوجد بين المؤمنين والكفّار أكثر من شيء واحد، والاختلاف فقط من نحو إدراكهم ؛كما أنّ هذا الأمر في الدنيا على هذا النحو.

وهذا الشي الواحد هو السبيل الذي يطوونه للوصول إلى الله ؛ لكنّ المؤمنين يقطعونه في الدنيا، وهذا هو الصراط المستقيم، وغيرهم ينحرفون عنه. ولهذا نجد أنّ الله تعالى قد قال قبل آية الأعراف :

وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُم كَـٰفِرُونَ.[٢]

فالسبيل إلى الله واحد وليس اثنين وهو للّه ونحو الله. فالسالك إلى الله هو الذي يقطع هذا الطريق بالاستقامة والصدق ؛ وغيرالسالك بالانحراف والاعوجاج. وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم بالتصريح والتلميح مرّات عديدة :

١ـ الآية ١٣، من السورة ٥٧ : الحديد.

٢ـ الآيتان ٤٤ و ٤٥، من السورة : الأعراف.

يقول الله تعالى :

يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ. [١]

ويقول تعالى :

أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى . [٢]

إلى أن يقول ومن أبلغ الآيات التي وردت في هذا الباب ، قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَار . [٣]

فقد جاء فيما سبق أنّ المراد من النعمة ، هو الولاية ؛ والولاية هي الطريق إلى الله ، وفي مقابله ، يقف الكفر الذي هو دار البوار والهلاك ونار جهنّم والقرار المشين والاستقرار في ذلك المكان ...

فغاية سير الكفّار ، البوار والهلاك وهو جمودهم في الظاهر وإعراضهم عن الباطن . ومن المعلوم أنّ الظاهر ، زائل ومضمحلّ ؛ وأنّ الباطن ثابت ودائم .

فلماذا اعتبرتم أنّ هذه الآية من أبلغ الآيات الواردة في هذا الباب ؟

العلّامة : لقد وردت عدّة آيات في القرآن الكريم تدور حول كلمة **النعمة** ؛ ومن هذه الآيات يستفاد أنّ المراد من النعمة ، هو **الولاية** : ولاية أهل البيت ؛ وهي الطريق الذي سلكه أهل البيت إلى الله تعالى ، وهو

١ـ الآية ٧ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ـ الآية ٨ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٣ـ الآيتان ٢٨ و ٢٩ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

سبيلهم إليه ، الذي هو مقام العبوديّة المحضة .

إحدى هذه الآيات هي الآية المذكورة التي تبيّن تبديل النعمة إلى الكفر والورود إلى جهنّم والاستقرار في النار ، فحقيقة النعمة هي الصراط المستقيم ، والمسافة الأقصر التي يسلكها العبد إلى ربّه ، ليصل إلى مقام العبوديّة المطلقة والمحضة ؛ أمّا تبديل هذه النعمة إلى الكفر ، فهو تبديل الصراط المستقيم من خلال السير في الطرق المعوجّة والمنحرفة التي تبعده عن المقصد وتوصله إلى جهنّم .

ولعلّه يوجد آية أُخرى أشدّ صراحة وأبلغ معنى في سورة التكاثر حيث يقول تعالى : **ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ** .[١] التي تدعو بطريقة مذهلة وعجيبة مع الوضوح التامّ إلى طيّ عالم الكثرة والوصول إلى عالم الوحدة ؛ وهي تسأل عن النعيم الذي هو الولاية وتؤاخذ الإنسان على تركه :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ .[٢]

وقد نقل في ذيل تفسير هذه السورة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : ليس المراد من النعيم ما نقصده نحن من الخبز والماء وأمثالهما ؛ بل المراد منه مراحل العبوديّة والإخلاص في التوحيد وطريق الولاية .

وفي أحد المجالس التي حضرها أبو حنيفة وكان يسأله الإمام الصادق عليه السلام عن النعيم الذي يُسأل الإنسان عنه ؟

١ـ الآية ٨ ، من السورة ١٠٢ : التكاثر .

٢ـ السورة ١٠٢ : التكاثر .

فيقول أبو حنيفة : هو الأغذية والفواكه وأمثالها . فيجيب الإمام قائلاً :
أليس بعيداً على الكريم ، أن يعطي كلّ هذه النعم للناس ليأكلوا ويشربوا ويشبعوا ويؤاخذهم عليه ؟ يسألهم عن ذلك ، ماذا أكلتم وماذا شربتم ؟! ويجيبون أكلنا خبزاً أو تمراً وشربنا ماءً !

بل المراد من **النعيم ولايتنا** أهل البيت . يعنى يُسأل الناس لأيّ مدى طوى طريق السلوك إلى الله وطبّقوه على سيرة ومنهاج أئـمّتهم ؟ وإلى أيّ مقدار وصلوا إلى مقام العبوديّة المحضة والمطلقة ؟

أما المراد من **جَنَّةُ النَّعِيم** التي ورد ذكرها في القرآن فهي كذلك جنّة الولاية التي هي مقام المُخلَصين والمقرَّبين من أولياء الله والواصلين إلى مقام التوحيد الذاتيّ والفانين في العوالم الربوبيّة وصفات الجمال والجلال الإلهيّة ؛ هي جنّة أُولئك الذين أودعوا كلّ شوائب وجودهم في وادي النسيان وأسلموا كلّ وجودهم للحقّ .

فمن خلال هذه الشواهد والقرائن الحقّة الحقيقيّة الداخليّة والعارضة الخارجيّة اعتبرنا أنّ النعمة كناية عن الولاية ؛ وإن كان بحسب الظاهر ، أنّ المراد هو مطلق النعمة ؛ لكن في الحقيقة ينبغي أن يكون المراد هو **نعمة الولاية** .

وفي هذا التفسير ـ أي تفسير النعمة بالولاية ـ لم نكن نريد أن نستدلّ على هذا المعنى من خلال الروايات ، بل أردنا أن نحصل على هذا المعنى من نفس الآيات .

لاحظوا أنـّه بعد الإشارة إلى أنّ التكاثر بشكل عامّ هو المُلهِي وأنـّه في حال ظهور اليقين وعين اليقين فسوف يشاهد بصورة الجحيم والنار المحرقة ، فبقرينة التقابل بين التكاثر والنعيم نستفيد أنّ المراد من النعيم الذي هو نفس مقام التوحيد المتجلّي في العبد ، وهو ما يعبّر عنه بالعبوديّة

المحضة ، وهذا المعنى من النعيم أعظم رأسمال يمكن أن يُسأل عنه ويؤاخذ عليه ولابدّ من غضّ النظر عن التكاثر أي رؤية التكثّرات ، والتوجّه إلى النعيم أي التوحيد .

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ .

فمن نفس الآية يستفاد أنّ النعيم أمر في غاية الأهمّيّة ، بل هو أنفس المهمّات وأعظم أهداف عالم الخلقة .

وكما قال الإمام عليه السلام فإنّ السؤال من حقيقة وجود الإنسان عن جميع النعم الإلهيّة التي رأها واستخدمها من أوّل عمره إلى آخره يبدو بعيداً جدّاً بحسب ظاهر الآية .

فعلى الإنسان في الدنيا أن يسعى بجدٍّ وكدح للبحث عن تلك النعمة الحقيقيّة والواقعيّة وعن تلك المواهب التي مَنَّ الله بها وهي الولاية التي تمثّل الارتباط بين عالم الخلقة وذات الحقّ ، بين المخلوق والخالق ، بين الحادث والقديم ، بين ممكن الوجود وواجب الوجود . والحصول عليها .

فإذا حصل عليها فهو **الأَهْدَى سَبِيلاً** ، وإلّا فهو في **ضلال** مبين .

جميع الناس يعيشون في هذه الدنيا فيعاشرون ويتزوّجون ويأكلون ويشربون ويستريحون وينامون ويعملون في التجارة والزراعة والصناعة إلّا أنّ منهم لا ينظرون إلّا إلى ظاهر هذه الأُمور ويعرضون عن الباطن فهؤلاء هم الذين **بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَهِ كُفْرًا** . ويوجد فئة تبحث بين هذه الأُمور المتكاثرة والكثيرة عن تلك الحقيقة الواحدة ، وهذا هو **النعيم** .

* * *

التلميذ : قد جاء في سورة **عَبَسَ** قوله تعالى :

وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ.[1]

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ جملة **مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ** هي جملة تفسيريّة للجملة السابقة: **وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا**؛ وبناء عليه يتّضح معنى الأبّ وهو علف الدوابّ من الأنعام.[2]

ونظير هذه الجملة ما جاء في السورة ٧٠: النازعات:

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ.[3]

مع العلم بأنّه ليس من الصحيح أن تكون جملة **مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ** تفسيراً لجملة **وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا**؛ ألا يمنع هذا عن التفسير السابق في الجملة الواقعة في سورة عبس؟

العلّامة: بالنسبة للآية التي وردت في سورة عبس، جاء في الروايات أنّ أبا بكر سئل عن معنى الأبّ، فلم يستطع الإجابة. وقد عدّ هذا الأمر من جملة الاعتراضات على أبي بكر رغم أنّه كان من العرب الأقحاح فكيف لم يفهم معنى الأبّ؟

١ـ الآيتان ٣١ و ٣٢، من السورة ٨٠: عبس.

٢ـ تفسير «الميزان» ج ٢، ص ٣١٩، روي عن «الإرشاد» للمفيد أنّ أبا بكر سئل عن قوله الله تعالى: **وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا**؛ فلم يعرف معنى الأبّ من القرآن الكريم فقال: أيّ سماء تظلّني أم أيّ أرض تقلّني أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ أمّا الفاكهة فنعرفها وأمّا الأبّ فالله أعلم.

فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله في ذلك فقال: سبحان الله أما علم أنّ الأبّ هو الكلاء والمرعى؟ وأنّ قوله تعالى: **وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا** اعتداد من الله بأنعامه على خلقه فيما غذّاهم به وخلقه لهم ولأنعامهم ممّا يُحيي به أنفسهم وتقوم به أجسادهم.

٣ـ الآيات ٣١ إلى ٣٣، من السورة ٧٩: النازعات.

فالأبّ هو العلف الذي يقدّم للحيوانات كالبرسيم وأمثاله ممّا يلائم الحيوانات غالباً ، أو يمكن أن نأخذ المعنى بمقدار أشمل ، أي بمعنى غذاء الإنسان والحيوان الذي غالباً ما يستعمل بالعلف .

وفي سورة عبس من الواضح جدّاً أنّ جملة **مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ** تعدّ تفسيراً لجملة **وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا** من خلال اللفّ والنشر المرتّب . لأنّ معنى الفاكهة واضح . ومن جانب آخر نعلم أنّ الفاكهة ليست متاعاً للأنعام ، بل هي متاع مختصّ بالإنسان ، وعلى هذا **مَتَٰعًا لَّكُمْ** سيصبح تفسير **وَفَٰكِهَةً** وطبعاً جملة **وَلِأَنْعَٰمِكُمْ** ستصبح تفسيرلـ : **وَأَبًّا** ؛ ومن هنا يعلم أنّ الأبّ هو علف الحيوانات ومرعاها .

أمّا في سورة النازعات فإنّ جملة **مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ** هي تفسير لجملة **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَىٰهَا** لا بنحو اللفّ والنشر المرتب ولا المشوش ، وإنّما هي بالإجمال تعني أنّ الله تعالى قد جعل من الماء والنبات الذي يخرج من الأرض متاعاً لكم ولأنعامكم .

لأنّ **المَرْعَى** في اللغة بمعنى الرِّعْي بالكسرة ، وهو النبات ، ولا يختصّ بعلف الحيوانات . وإذا كان بالمصدر الميميّ فإنّه يعطي نفس المعنى . أمّا جملة **وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا** فهي جملة استطراديّة جاءت بين الجملة المفسِّرة والمفسَّرة لأجل بيان استحكام الأرض من التمايل والتراخي من خلال ثبات الجبال . وبالتالي لتتمكّن الأرض من إخراج الماء والنبات ليكون متاعاً للناس والأنعام . هذا ما يبدو بنظري والله أعلم .

* * *

التلميذ : في العديد من آيات القرآن نجد أوامر موجّهة لرسول الله

صلّى الله عليه وآله مصدّرة بلفظ **قُلْ** مثل : **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** [١] ، **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** [٢] ، **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ** [٣] ، **قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ** [٤]

قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْأَخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [٥] ، **قُلْ إِنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** [٦] ، **قُلْ أَطِيعُوا ٱللَهَ وَٱلرَّسُولَ** [٧] ، **قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا** [٨] ، **قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّـمَنِ ٱتَّقَىٰ** . [٩]

والعديد من الآيات القرآنيّة التي تشكّل قائمة كبيرة ، ومن المعلوم ما كان أمر الله في هذه الخطابات، والرسول مؤتمر عليه ليس نفس القول ، بل مقول القول ، فإذا جاء : **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ؛ فالرسول مأمور بالقول : **هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ، وليس **قُلْ هُوَ اللَه أَحَدٌ** ، وإلّا لم يعمل بأمر الله ، ولم يؤدّ المأمور به الذي هو مقول القول .

ولا يوجد في هذا المطلب مكان للشبهة والترديد . فإذا أمرنا أحدٌ ما بأن نذهب إلى الناس ونقول لهم الله واحد . فيجب علينا أن نذهب ونقول الله واحد لا أن نقول : قل الله واحد .

لأنّ القول هنا واسطة ويحكي عن نفس المأمور به ومتعلّقه . لا أنّه

١ـ الآية ١ ، من السورة ١١٢ : الإخلاص .
٢ـ الآية ١ ، من السورة ١١٤ : الناس .
٣ـ الآية ١ ، من السورة ١١٣ : الفلق .
٤ـ الآية ١ ، من السورة ٩ : الكافرون .
٥ـ الآيتان ٤٩ و ٥٠ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .
٦ـ صدر الآية ١١٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .
٧ـ صدر الآية ٣٢ ، من السورة ٣ : آل عمران .
٨ـ صدر الآية ٩٥ ، من السورة ٣ : آل عمران .
٩ـ قسم من الآية ٧٧ ، من السورة ٤ : النساء .

قد أُخذ على نحو الاستقلال . فإذا قال الإنسان : الله واحد ، فقد أدّى متعلّق الأمر ، وإذا قال : قل الله واحد ، يكون قد خرج عن أداء الأمر .

وبناءً على ما قيل ، يجب على الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يقول للناس : **هُوَ اللَهُ أَحَدٌ** . وكذلك في سائر الآيات يجب أن يقول للناس ما هو متعلّق الأمر . في حين أنّنا نرى في القرآن الكريم كلّه أنّ لفظ **قُلْ** قد ورد كما هو موجّه في خطاب الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم .

العلّامة : إنّ البحث يقع في موردين :

الأوّل : في مسألة أمر الله للرسول ، وكونه مأموراً وتنفيذه للمأموريّة في الخارج ، فمن المعلوم الواضح في هذه المسألة أنّ رسول الله كان مؤتمراً بأمر الله سبحانه و تعالى ، وكان يؤدّي الأوامر كما هي . ففي المورد الذي يأتي فيه الأمر بصيغة **قُلْ** كان النبيّ يؤدّي متعلّق الأمر نفسه . مثل سائر الأوامر التي كانت تصدر إلى الرسول وإن لم ترد بلفظ قُلْ ، كقوله تعالى :

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ. [١]

فطبق هذا الأمر الإلهيّ أعلن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم التوحيد جهراً ، وأعرض عن المشركين . أو في قوله تعالى : **قُلْ هُوَ ٱللَهُ أَحَدٌ** . كان يقول للناس هو الله أحد ، هو الواحد الأحد .

الثاني : في حكاية القرآن عن الأوامر الإلهيّة ، وهذه المسألة أمر آخر فإنّنا نعلم أنّ القرآن وحي سماويّ ، وعلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يتلوه كما هو بدون زيادة ولا نقصان .

ولذلك فإنّ القرآن يُبيّن عين ما كان يُخاطب به الرسول ، وهذا هو معنى القرآنيّة .

١ـ الآيتان ٩٤ و ٩٥ ، من السورة ١٥ : الحجر .

فإذا جرى حذف لفظ قل في قوله : **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ، أو : **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ، فقيل : هو الله أحد ، وأعوذ برب الناس . فلن يكون هذا هو القرآن ولا كلام الله . بل كلام النبيّ الذي يقول للناس هو الله أحد .

ولأنّ القرآن المجيد هو نفس الوحي ، فلا يمكن أن يكون بدون لفظ **قُلْ** ،كما هي الحال في جميع الأوامر الإلهيّة . التي لم تصدّر بلفظ قُلْ كما في الآية المذكورة : **فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ** ، فقد جاء الأمر كما هو وذكره القرآن الكريم .

وإذا تجاوزنا هذا ، نجد أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم يمثّل في الخطاب الإلهيّ والمطالب القرآنيّة عنوان المرآة لخطاب الأُمّة جميعاً ، بل لكلّ العالمين . ويكون الخطاب متوجّهاً إلى الناس ولكن عبر مرآة نفس الرسول التي لها إحاطة وجوديّة وعلميّة وإدراكيّة والتي اكتنفت ـ لسعتها وشمولها ـ جميع أفراد الأُمّة ، بل جميع البشر .

والآية المباركة : **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** .[1]

توضّح حقيقة الأمر جيّداً ، وهي أنّ نفس رسول الله هي المبيّنة لمسائل الوحي الإلهيّ الذي نزل للناس .

* * *

التلميذ : هل آية الكرسي التي حازت على عنوان العَلَم بالغلبة هي التي تنتهي بقوله تعالى : **وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ**[2] ، أم أنّها تشمل الآيتين التاليتين وتنتهي عند قوله تعالى : **أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ** ؟!

١ـ الآية ٤٤ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ الآية ٢٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

العلّامة : تنتهي بقوله **وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ** ، ولأنـّها قد اشتملت على لفظ الكرسي سمّيت بآية الكرسي . أمّا الفقرات الأُخرى فليست جزءاً من الآية . وفي الأدعية والصلوات المستحبّة التي ورد فيها استحبابيّة قراءة الآية يكتفى بهذا المقدار فقط .

* * *

التلميذ : **وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا**.[١]

هذه الآية تبيّن حالتين للإنسان : الأُولى شاكلته وقالبه الأوّلي ، فهو مغرور وغافل ، إذا مسّه الخير والنعمة والرخاء فاستكباره وأنانيّته تدفعه إلى الإعراض ، وإذا مسّه شرّ كضيق في المعيشة وفقر وبلاء يئس وقنط وطأطأ رأسَه .

الثانية تلك الهداية التي يحصل عليها البعض في السير إلى الله ، ويخرجون بها عن تلك الشاكلة ، وقد تزداد عند البعض ليصبح طريقاً أوضح وأشدّ استقامة .

هل هذه الآية تريدنا أن نعرف أنّ جبلّة وشاكلة كلّ الناس تكون في تلك الحالة الأُولى ، وهي الإعراض والانحراف في النعمة ، واليأس من الرحمة في الشرّ والسوء ، وأنّ الذين يحصلون على الهداية ويسلكون سبيل السعادة هم الذين خرجوا من تلك الفطرة الأوّليّة ؟ أم أنـّهم لا يخرجون عن فطرتهم وشاكلتهم الأوّليّة ، وأنّ هذه الهداية قد أُودعت في أعماقهم على أساس الفطرة ؟

١ـ الآيتان ٨٣ و ٨٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

فإذا قلنا : إنّهم قد خرجوا عن الفطرة الأوليّة ، كما هو ظاهر الآية والاستثناء منقطع . فما هو معنى الخروج عن الفطرة ! فهل يمكن أن يخرج الإنسان أو الموجود عن نظامه الأساسيّ وقالبه الوجوديّ بشكل عامّ ؟ ثمّ يحصل على نظام وفطرة أُخرى ! إضافة إلى أنّنا نعلم أنّ فطرة الإنسان بنيت على أساس التوحيد والسعادة وليس الشقاء .

وإذا قلنا : إنّ الاهتداء إلى ذلك السبيل يكون على أساس الفطرة وموازينها . وإنّ هناك حالتين تحيطان بالإنسان : الحالة الأوّليّه وهي الإعراض والتمرّد واليأس والقنوط ؛ والحالة الثانويّة وهي الخروج من هذه المرحلة ونشوء البصيرة والاهتداء إلى الصراط المستقيم ، والاستثناء هنا متّصل . هذا خلاف ظاهر الآية التي تقول : **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ** ، وذلك الإعراض واليأس وفق الشاكلة .

بناء عليه ، ينبغي أن يكون ذلك الاهتداء خارجاً عن الشاكلة ، أي النظام الوجوديّ للإنسان ؟

العلّامة : في الظاهر أنّ المراد من الشاكلة هو الشاكلة الأوّليّة التي وجدت قبل خضوع الإنسان للتربية ، وقبل بروز وظهور القابليّات الكامنة إلى مرحلة الفعليّة . لأنّ الإنسان موجود متحرّك وقابل للترقّي والكمال ، ولهذا فإنّ فطرته الأوّليّة هي ذلك الاستعداد المحض والقابلية الصرفة التي إذا تركت على حالها في عالم الطبيعة والكثرة أصبح : **أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ** ، **ويَؤوس وكَفُور** ، وإذا قام بتربيتها وتهذيبها وإرشادها تعبر من الضعف والوهن إلى مقام عزّ الإنسانيّة . ففي فطرة الإنسان تكمن هذه القابليّة وهذا الاستعداد وتختفي هذه القدرة والقوّة . وإن كان الإنسان بحسب الظاهر يؤوساً وكفوراً ، ولكن في أعماقه تموج بحار من أنوار الحقيقة لم تكن خارجة عن فطرته أبداً . غاية الأمر أن عليه أن يوصل هذه الأنوار بواسطة

الرياضة والتربية إلى منصّة الظهور .

الإنسان موجود ذو أعماق منطوية داخله ، وله مراحل مختلفة كلّها كامنة ومنطوية في وجوده ، ولا يمكنه أن يحصل على مقام خارج فطرته .

وليس المراد من الإنسان في هذه الآية الشريفة تلك النفس القدسيّة والروح الناطقة فيه ، والتي هي من المراحل الكامنة في وجوده ، والتي لا يمكنه الوصول إليها إلّا بطيّ الطريق والاهتداء بالهداية الإلهيّة .

بل المراد من الإنسان ذلك الإنسان العاديّ بأفكاره العامّيّة وحالاته العاديّة ، وبالطبع تبعاً لهذه الشاكلة يعرض وييأس ويكفر .

فإذا أدركته الهداية الربّانيّة وأخرجته عن هذه الشاكلة ، وهذه الخلقة ، وهذه الدرجة من الفطرة ، وليس من مطلق الفطرة والخلقة .

وما أشبه هذه الآية بالآيات الواردة في سورة المعارج .

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ * فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ .[1]

١ـ الآيات ١٩ إلى ٣٨ وصدر الآية ٣٩ ، من السورة ٧٠ : المعارج .

فهذه الآيات المباركات تريد بحسب الظاهر أن توصل نفس المعنى وهو أنَّ خلقة الإنسان الأوّليّة هي **الهلوعيّة** (بمعنى عدم الصبر والثبات) والعجلة التي يلازمها في حال الخير **المنع** ، وفي حال الشرّ عندما يصبح غنيّاً أو صاحب قدرة وجاه ، وعند المصيبة أو فقدان المال وغيره **الجزع** .

والمصلّون هم فقط ممّن استثني من هذه القاعدة الكلّيّة والخلقة الأوّليّة للإنسان .

أيّ مصلّين ؟ أُولئك الذين يهتمّون بالصلاة والزكاة ، ويخافون عذاب الله ويصدّقون بيوم القيامة والحساب ، ويحفظون أنفسهم من الوقوع في الزنا والأعمال الشنيعة ، ويحفظون الأمانات ويرعون العهود ولا يشهدون الزور أبداً .

فقد عدّ جميع الأعمال الحسنة ، ولم يترك شيئاً منها .

ثمّ يقول : إنّ هؤلاء الكفّار الذين يحيطون بك والذين لا علاقه لهم بالأعمال الحسنة والفضائل الأخلاقيّة والأعمال الروحيّة الحقيقيّة ، ماذا يقولون ؟ وماذا يريدون ؟ هل يتصوّرون أنّهم بدون الصلاة التي لها تلك الآثار والخصائص يستطيعون الوصول إلى مقام الإنسانيّة ويدخلون جنّة النعيم ؟

فالأمر ليس كذلك ؛ لن ينالوا فعل هذا المقام أبداً .

ففي هذه الآيات استثني المصلّون من قاعدة الخلقة الأوّليّة للإنسان التي هي الهلع ولوازمه من المنع والجزع . وبناء عليه ، غرست الصلاة بخصائصها المذكورة في ذات الإنسان وفطرته ، وعليه أن يقوم بإبرازها وإيصالها إلى مقام الظهور الفعليّ ، وعليه أن يوقظ هذا الشعور الإلهيّ الكامن فيه .

وبناء عليه ، فالمراد من خلقة الإنسان بحالة الهلع ، خلقة إحدى الحالات والمقامات الإنسانيّة ، وليس لُب الفطرة الأصليّة للإنسان . والآية تبيّن خلقة الحالات العاديّة والعامّة للإنسان ، وليس أصل النفس الناطقة والروح القدسيّة .

* * *

التلميذ : الآية المباركة **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**[1] ، لها دلالة على الارتضاء المطلق ، أي ينبغي أن تكون جميع مراتب الإنسان الوجوديّة حتّى ذاته وسرّه مورد الرضا حتّى تنال الشفاعة وهذه هي درجة المقرّبين والمخلصين .

العلّامة : في مثل هذه الحالة لا حاجة للشفاعة ، بل المقصود الارتضاء في الدين ، وإطلاق الآية يجب أن يكون في هذا الحدّ المحدود .

أي أنّ من يرتضى منه دينه وعقيدته ومنهجه في مقابل التقييد بالارتضاء في العمل الذي ليس مقصوداً بالطبع ، لأنّ الشفاعة مختصّة بأهل المعاصي ، أي بأهل الكبائر ؛ لأنّ الذي يجتنب الكبائر ، يحصل بهذا الاجتناب على تكفير لذنوبه الصغيرة وهنا لن تبقى معصية لتكون مورد الشفاعة .

إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ .[2]

ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ .[3]

فهذه الآيات تدلّ على غفران الذنوب والمعاصي الصغيرة تلقائيّاً عند

١ـ ذيل الآية ٢٨ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ صدر الآية ٣١ ، من السورة ٤ : النساء .

٣ـ صدر الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

الاجتناب عن الكبائر ، وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال : **إدَّخَرْتُ شَفَاعَتِي لِاهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي ، فَأَمَّا المُحسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .**[1]

وعن الإمام الرضا عليه السلام ، وفي روايات عديدة ، أنّه قال :

وَلَا يَشفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتُضِيَ دِينُهُ .

والمراد من الدين الاعتقاد بالتوحيد ونفي الشرك . أمّا الذي يرتكب الكبيرة ولا يتوب فقد قال الإمام **موسى بن جعفر** عليهما السلام عنه بأنّه ليس **مرضي الدين** .

* * *

التلميذ : الآيــة المــباركة : **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ .**

فى الجزء الثاني عشر من «بحار الأنوار» الطبعة الحروفيّة ، صفحة ٢٧ ينقل المجلسيّ عن تفسير «مجمع البيان» قوله : **إلَّا قَوْلَ إبراهيم ـ أي اقْتَدُوا بإبراهيم في كلِّ أُمورِهِ إلّا في هذا القولِ فَلَا تقتَدوا به فِيهِ فَإِنَّهُ عَلَيهِ السَّلَامُ إنَّما استَغْفَرَ لِأَبيهِ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ بالإيمَانِ فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبرَّأَ مِنْهُ .**

١ـ «الميزان» ج ١ ، ص ١٧٧ ، عن «أمالي الصدوق» وفي ج ١٤ ، ص ٣٠٨ عن «عيون أخبار الرضا» بلفظ إنّما شفاعتي .

ويستفاد من هذا الكلام وجود منقصة وحزازة في كلام إبراهيم عليه السلام بشأن وعده لعمّه آزر بالاستغفار حيث استثنى القرآن الكريم هذا العمل من كونه **الأُسوة الحسنة** في إبراهيم .

العلّامة : يستفاد من الآية المذكورة في سورة مريم أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام قد سلّم على عمّه آزر ـ وكان آنذاك مشركاً وكان يتوعّد إبراهيم لتعرّضه لآلهته ، وقد وعده بأن يستغفر له :

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا .[1]

و ورد في سورة الشعراء وضمن الأدعية التي نقلت عن النبيّ إبراهيم عليه السلام طلبه للاستغفار لأبيه :

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ * وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْأَخِرِينَ * وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ[2]

ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الطلب للمغفرة من إبراهيم لآزر كان في الوقت الذي لم يكن فيه واضحاً أنّه من أهل الجحيم . ففي هذه الحالة يحتمل أن يهتدى ويرشد ، ولهذا طلب المغفرة له على أساس الوعد الذي وعده إيّاه . «**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى**» .

ولكن بعد أن تبيّن لإبراهيم عليه السلام أن لا أمل بنجاة آزر ، وأنّه عدوّ للّه ، لم يستغفر له ، بل تبرّأ منه :

١ـ الآيات ٤٥ إلى ٤٧ ، من السورة ١٩ : مريم .

٢ـ الآيات ٨٣ إلى ٨٦ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ .[1]

ولهذا ، فإنّ الآية الكريمة لا تجيز للرسول وللمؤمنين أن يستغفروا للمشركين إذا اتّضح لهم أنّهم من أهل الجحيم . وهكذا كان الأمر بالنسبة لإبراهيم ، فبعد أن تبيّن له أنّ آزر عدوّ الله تبرّأ منه ، وقد كان استغفاره له قبل هذه المرحلة .

ولهذا نجد في سورة التوبة أنّ الله يحذّر رسوله من الدعاء لهم والقيام على قبورهم .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ .

وفي نفس السورة يقول تعالى :

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

أمّا الآية المذكورة في السورة ٦٠ ، الممتحنة : **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُۥ** ، والاستثناء فيها : **إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ** .

فإنّه يستفاد منها أنّ الوعد بالاستغفار وإن كان قبل وضوح عداوة آزر للّه ، ولكن في الوقت نفسه فإنّ قطع الوعد للكافر ـ حال كفره ـ بالاستغفار له ليس أمراً حسناً أبداً . ولهذا تحذّر هذه الآية المؤمنين من هذا

١ـ الآيتان ١١٣ و ١١٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

النوع من الاستغفار الخاصّ الحاصل لوعيد سابق وقبل اتّضاح كون الكافر من أصحاب الجحيم .

وعدّت جميع أقسام التبعيّة لإبراهيم والذين معه من إظهار التبرّي والعداوة من المشركين أُسوة حسنة . أمّا اتّباعهم في مثل هذا الاستغفار فلم يُعَدّ أُسوة حسنة .

تبصرة : من المسلّم أنّ آذر لم يكن والد النبيّ إبراهيم ، لأنّ القرآن يصرّح بأنّ إبراهيم عندما علم بأنّ آذر عدوّ للّه لم يستغفر له بل تبرّأ منه .

ومن جهة أُخرى وطبق الآية ٤١ ، من السورة ١٤ : إبراهيم يطلب النبيّ إبراهيم عليه السلام المغفرة لوالديه حيث يقول :

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ .

فيتبيّن أنّ آذر لم يكن والد النبيّ إبراهيم ، ويوجد فرق بين الوالد والأب . لأنّ الوالد لا يقال إلّا للأب . أما كلمة الأب فإنّها تقال للعمّ وخصوصاً إذا كان متكفّلاً للصبي بعد وفاة والده .

* * *

التلميذ : ما هو أشدّ تعبير عن العذاب الذي يحلّ على الظالمين في الدنيا في القرآن المجيد حسب رأيكم ؟

العلّامة : هناك موردان في القرآن الكريم يشير الله سبحانه فيهما بتعبير مذهل إلى نزول العذاب . ومفادهما أنّ الله يبيد الظالمين بحيث لا يبقي لهم أيّ أثر وكأنّهم لم يكونوا .

الأوّل : في السورة ١١ : هود ، وقد جاء في موردين أيضاً : الأوّل في شأن قوم ثمود الذين عقروا ناقة صالح عليه السلام :

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَّمُودَ .[١]

غَني يغنى بالمكان وفي المكان ، بمعنى **أقَامَ فيهِ** ، **وجاثمين** بمعنى **متلبّدين** . أي أنّ الصيحة قد أخذتهم ولم تترك على الأرض شيئاً يدلّ عليهم فكأنـّهم لم يسكنوها ولم يقيموا فيها أبداً .

والآخــر بشأن أصـحاب مـدين الذيـن كـانوا يـؤذون نـبيّهم شـعيباً ويتوعّدونه بالرجم :

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ .[٢]

الثاني : في سورة المؤمنون ، وهنا نأتي على تعبير أعجب ، حيث يقول تعالى : **وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** . أي أنـّهم أصبحوا قصصاً وحكايات من الماضي فلم يبق لهم أثر أبداً .

ويبيّن القرآن هذه القصّة بعد ذكره لقـصّة قـوم نـوح الذيـن غـرقوا بالطوفان فخلق الله قوماً آخرين ، وأرسل إليهم نبيّاً فكذّبوه فيقول :

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ .[٣]

١ـ الآيات ٦٦ إلى ٦٨ ، من السورة ١١ : هود .

٢ـ الآيتان ٩٤ و ٩٥ ، من السورة ١١ : هود .

٣ـ الآيات ٤١ إلى ٤٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

الأَبحَاثُ الفَلسَفيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

التلميذ : إنّ إحدى الأُمور التي تميّز دين الإسلام المقدّس عن دين المسيحيّين هي مسألة التثليث . بل إنّ هذا الوجه الخلافيّ أمر أُصوليّ ، وهو من أهمّ وجوه الاختلاف الأُصوليّة .

إنّ دين الإسلام يدعو الناس إلى **التوحيد** ، يعتبر الأصل القديم واحداً ويرجع كافّة جهات الكثرة من أيّ قسم أو نوع كانت إلى ذلك الوجود الواحد . أمّا دين النصارى فرغم تصريح الإنجيل بأنّ الله واحد ، ولكنّه يقول بالأُصول الثلاثة للعالم ، ويجعل هذا الأمر أحد الأُصول الاعتقاديّة بحيث إنّ دين المسيح والاعتقاد **بالتثليث** (كون أصل نشء العوالم ثلاثاً) أصبح عندهم من الأُمور المتلازمة .

ولقد نهض القرآن الكريم لمواجهة التثليث بشكل صريح ، واعتبره باطلاً بناءً على الأُصول العقليّة وليس بناءً على التعبّد . وهاجم كلّ مَن يقول بالتثليث إلى درجة أن جعله مرادفاً للشرك . وقد كان نهج النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم واحتجاجاته على المسيحيّين ، ونهج الأئمّة الأطهار عليهم السلام وأصحابهم والتابعين لهم وعلماء الإسلام منذ صدر الإسلام وحتّى يومنا هذا على هذا المنوال وقد ملأوا الكتب والرسائل في الردّ على التثليث وعدّوه مذهباً باطلاً بالأدّلة العقليّة المتقنة . وأظهروا بطلانه هذا بالبراهين العقليّة .

ومن جانب آخر نعلم أنّ نفس التثليث لا موضوعيّة له في البطلان ،

بل إنّ تعدّد الآلهة والقدماء الذين يعتبرون أُصول نشوء العالم لا يمكن أن يكون أكثر من واحد ، وبناءً على هذا ، فإنّ مذهب التثليث والتربيع والتخميس وأمثالها كلّ هذه لا تفاوت بينها . وكلّ من يقول بتعدّد أُصول العالم بأيّ شكل أو نحو سواء كانت مركّبةً من مائة جزء أو ألف جزء فهو باطل .

والأدلّة التي تستخدم في دحض التثليث في القرآن الكريم وغيره تبطلها جميعاً ، وتجعلها مساوية للشرك .

ومن جانب آخر ، فإنّ القول بعينيّة صفات وأسماء الحقّ سبحانه وتعالى سوف يؤدّي إلى التجزئة والتركيب والتعدّد في ذات واجب الوجود . لأنّ مفهوم العلم والقدرة والحياة ، أو مفهوم العالِم والقادر والحي لا تحمل فقط وفقط على ذات الحقّ سبحانه ، بل إنَّ ما تنطبق عليه هذه المفاهيم التي هي المصاديق الحقيقيّة للعلم والقدرة والحياة ، وينبغي أن يكون له وجود خارجيّ وتحقّق واقعيّ في ذات الحقّ . وهذا ما يستلزم تجزئة الذات المقدّسة للحضرة الأحديّة على هذه المصاديق العينيّة . ولازمه تركّب الذات الأحديّة من هذه الصفات والأسماء العينيّة الخارجيّة .

وهنا يصبح مذهب تثليث النصارى بعينه لازماً ، غاية الأمر أنّه لا يسمّى تثليثاً ، بل تجزئة لذات الحقّ بعدد الصفات والأسماء الموضوعة لها . ويكون كلّ واحد منها منفصلاً عن الآخر ومتميّزاً عنه ويتحقّق في ذات الحقّ . وهذا أشنع من التثليث وأقبح . ففي التثليث تكون ذات الحقّ مركّبة من ثلاثة أجزاء ممّا يلزم تلك التوالي الفاسدة ، أمّا هنا فإنّ ذات الحقّ متركّبة من ألف اسم أو صفة .

العلّامة : إنّ آيات القرآن الكريم توبّخ المسيحيّين بطرق ولهجات عديدة مختلفة :

الأُولى : **يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَـٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا** .[1]

وكما يلاحظ من هذه الآية المباركة ، فقد نَـفَتْ التـثليث ، فـي قـوله تعالى : **وَلَا تَقُولُوا ثَلَـٰثَةٌ** ونزّهت الخالق سبحانه تعالى من أن يكون له ولد .

الثـــانية : **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَيٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** .[2]

وفي هاتين الآيتين تمّ دحض هـذين المـطلبين : الأوّل أنّ اللـه هـو المسيح ابن مريم . والثاني أنّ الله ثالث ثلاثة . لأنّ النـصارى يـقولون بأنّ الله ثالث ثلاثة : الأب ، الابن والروح القدس .

فالأب عندهم هو عالَم **ذات** الله سبحانه وتعالى .

والابن عبارة عن عالم **عِلم** الحضرة الأحديّة سبحانه وتعالى .

والروح القُدُس يعني عندهم جبرائيل ، والروح وهو عبارة عن عالَم **حياة** الله عزّ وجلّ .

وهذه هي الأُصول الثلاثة التي يتّفق عليها النصارى ، ويـقولون : إنّ

١ـ الآية ١٧١ ، من السورة ٤ : النساء .

٢ـ الآيتان ٧٢ و ٧٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

كلّ واحد منها هو الربّ، أي أنّ هذه الأُصول الثلاثة كيف عددناها، فإنّ الله هو ثالثها، فإذا قلنا : الأب الابن روح القدس . فإنّ **روح القُدُس** هو الربّ . وإذا قلنا : روح القدس الأب الابن ، **فالابن** هو الربّ . وإذا قلنا : الابن روح القدس الأب . **فالأب** هو الربّ . وفي هاتين الآيتين اعتبر الاعتقاد بأنّ الله هو المسيح ابن مريم أو أنّ الله ثالث ثلاثة في حدّ الكفر .

الثالثة : **وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ** .[1]

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ .[2]

ويستفاد من هذه الآيات أنّ النصارى كافّة تقول بأنّ المسيح هو ابن الله : **سُبْحَانَهُ عَمَّا يَقُولُونَ** .

الرابعة : **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ** .[3]

ويستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ النصارى كانوا يقولون بأُلوهيّة مريم إضافة إلى أُلوهيّة المسيح .

وهناك كنيسة باسم مريم المعبودة ، ولها طقوس خاصّة في عبادتها .

فمن مجموع ما ذكر ، يستفاد أنّ المسيحيّين يقولون بأُلوهيّة النبيّ عيسى عليه السلام ، ويعتبرون هذا الاعتقاد من أُصولهم . وجميع النصارى متّفقون على التثليث رغم وجود الاختلافات الشديدة بينهم في كيفيّة أُلوهيّة المسيح ؛ يقال إنّهم انقسموا إلى سبعين فرقة ، كلّ واحدة اتّخذت طريقاً خاصّاً إلّا أنّهم يتّفقون بالتثليث ، سواء اعتبروا أنّ الأركان الأساسيّة

١ـ قسم من الآية ٣٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢ـ صدر الآية ٢٦ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٣ـ صدر الآية ١١٦ ، من السورة ٥ : المائدة .

هي الأب والابن والأُمّ ، أو الأب والابن وروح القدس .

وعلى كلّ حال فإنّهم يعتبرون أنّ الأب هو عنوان للذات ، والمسيح عنوان النبوّة والولادة الذي انشعب عن ذلك الأصل تحت عنوان العلم ، والأصل الثالث هو الحياة . ومن المعلوم أنّ تركّب الذات من هذه الأُمور الثلاثة ، سواء أعتبروا أنّ هذه الأُصول الثلاثة لها مدخليّة في التحقّق ، أم قالوا بأنّ الذات تدور بينها وهي ثالث ثلاثة ، فإنّ هذا اعتقاد خاطئ فاسد وتبطله البراهين الفلسفيّة .

التلميذ : إنّ سبب بطلان التثليث على أساس قواعد البرهان رغم أنّ النصارى يقولون بوحدة ذات الحقّ ، والإنجيل يصرّح بالتوحيد واتّفاق الجميع على أنّ المسيح دعا إلى التوحيد هو التناقض بين الوحدة والكثرة أي أنّ المسيحيّين يقولون : بأنّ ذات حضرة الحقّ جلّ وعزّ واحدة وهو في نفس الوقت ثلاثة ! فإذا كانت وحدة حقيقيّة وكثرة اعتباريّة فلا يلزم الإشكال . ولو كانت كثرة حقيقيّة ووحدة اعتباريّة ، فبمعزل عن إشكال تعدّد الآلهة فإنّها لن تستلزم تناقضاً . ولكن فرضنا أنّها كثرة حقيقيّة ووحدة حقيقيّة . فإنّ هذا الأمر يستلزم التناقض وهو محال ، بلحاظ التناقض هذا . وأفضل الأدلّة في الردّ على القائلين بالتثليث هو أن نقول إنّ معنى الوحدة مغاير لمعنى الكثرة ومباين له . والجمع بين هذين المفهومين في مصداق واحد بالنظر إلى شروط التناقض يستلزم التناقض .

ويلزم في صورة فرض عينيّة الصفات والأسماء لذات الحقّ جلّ وعلا نفس هذا الإشكال ، لأنّ الصفة إن لم تكن غير الموصوف ، فإنّه في افتراض العينيّة والوحدة بين الصفة والموصوف ينبغي أن تكون ذات الحقّ واحدة باعتبار الذات ، وكثيرة باعتبار الأسماء والصفات التي هي عين الذات ؛ وهذا ما يستلزم التناقض .

ولهذا ، لا يوجد مناص من اعتبار الأسماء والصفات مرتبة نازلة ومتعيّنة للذات . ففي هذه الصورة (التنزّل والتعيّن) فإنّ الكثرة في المراتب لا تنافي وحدة الذات . وإلّا فإنّ جميع الإشكالات التي ترد على التثليث في جمعه للوحدة والكثرة تعود لترد هنا أيضاً .

واختلاف الآيتين : سيّد العارفين المرحوم السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ وشيخ السالكين المرحوم الحاجّ الشيخ محمّد حسين الكمبانيّ الإصفهانيّ رضوان الله عليهما يدور حول هذا الموضوع . فالشيخ كان يريد أن يثبت أنّ الجمع بعينيّة الأسماء والصفات مع ذات الحقّ عزّ وجلّ لا يستلزم الإشكال .

أمّا المرحوم السيّد فقد كان مخالفاً جدّاً ومنكراً لهذا المعنى ، واعتبر أنّ الجمع بين الوحدة والكثرة الحقيقيّة محال ، ولهذا فهو يقول بتنزّل وتعيّن مراتب الأسماء والصفات .

العلّامة : إنّ الإشكال في دين المسيحيّين هو أنّهم يقولون في نفس الوقت إنّ الله واحد وإنّ الأصل القديم ثلاثة . والجمع بين الوحدة الحقيقيّة والكثرة الحقيقيّة من المحالات إذا كان جنس كلّ منهما واحداً . كأنّ يكون كلّ قسم من الوحدة شخصيّاً أو نوعيّاً أو جنسيّاً . ونحن هنا نقدّم مثلاً على كلّ قسم .

فبالنسبة للوحدة الشخصيّة : كأن نقول مثلاً إنّ زيداً واحد وهو في نفس الوقت ثلاثة . أو إنّ زيداً وعمراً وبكراً في الوقت الذي هم فيه ثلاثة من أفراد الإنسان لكن حقيقةً لهم وجود وتشخّص واحد .

وبالنسبة للوحدة النوعيّة : كأن نقول إنّ ماهيّة الإنسان في عين كونها نوع واحد فإنّها ثلاثة أنواع ، فهي مثلاً إنسان وفرس وشاة ، أو أن نقول بأنّ ماهيّة الإنسان والفرس والشاة في الوقت التي هي ثلاث حقيقيّة ، هي

واحدة حقيقةً .

وأمّا بالنسبة للوحدة الجنسيّة :كأن نقول إنّ ماهيّة الحيوان في الوقت الذي هي جنس واحد هي ثلاثة أجناس ، فهي مثلاً حيوان وشجرة وحجر . أو إن ماهيّة الحيوان والشجرة والحجر هي واحدة في عين التعدّد . وهذه الأُمور كلّها من المستحيلات .

أمّا الجمع بين الوحدة الجنسيّة أو النوعيّة وبين الكثرة الشخصيّة ، كالجمع بين وحدة الحيوان أو الإنسان وبين أفرادهما من زيد وعمرو وبكر فليس فيه إشكال . وكذلك الجمع بين الوحدة الجنسيّة والكثرة النوعيّة مثل الجمع بين وحدة الحيوان وكثرة أنواعه من الطيور والخيل والأبقار فليس فيه أدنى إشكال أيضاً .

وبمعزل عن هذا ، لو كان في الجمع بين الوحدة الشخصيّة والكثرة الشخصيّة إحداهما واحدة بالوحدة الحقيقيّة ، والأُخرى متكثرة بالكثرة الاعتباريّة فلا إشكال فيه أيضاً .

كأن نقول مثلاً : إنّ زيداً شخص واحد حقيقة ومركّب من عدّة أجزاء ونقسّم جسمه إلى عدّة أقسام باعتبارات مختلفة . ففي هذه الحالة يكون هذا التقسيم وحصول الكثرة على أساس الاعتبار دون الواقعيّة ولن يؤدّي إلى أيّ محذور . أو أن نقول مثلاً : إنّ زيداً وعمراً وبكراً مع أنّهم في الحقيقة ثلاثة فهم واحد ، باعتبار أنّهم إخوة أو شركاء أو أهل مدينة واحدة . وهذه الوحدة بدورها اعتباريّة .

أمّا بالنسبة لمقولة المسيحيّين ، فهم يعتقدون بالكثرة الحقيقيّة . والتثليث والأقانيم الثلاثة من أُصولهم الاعتقاديّة . وفي هذه الحالة إذا قالوا إنّ الله واحد ووحدته اعتباريّة ، فقد نفوا حقيقة الوحدة وأسقطوا أصل التوحيد بالكامل . وإذا قالوا بأنّ وحدته حقيقيّة سيكون لازماً من ذلك

القول الجمع بين الوحدة والكثرة الحقيقيّتين ، وهذا محال .

والظاهر أنّ النصارى يسيرون على هذا الاعتقاد ، ويعتبرون أنّ الأقانيم الثلاثة صفات وتجلّيات الله ،[١] وهي ليست غير الموصوف وذات الله ويقولون : لدينا **ثلاث أقانيم** : أُقنوم الوجود ، أُقنوم العلم وأُقنوم الحياة .

وأُقنوم العلم هو كلمة المسيح ، أمّا أُقنوم الحياة فهو الروح . وهنا فرضيّة التثليث تستتبع إشكاليّة الاستحالة . وهذا بالطبع في حال كانت للأقانيم وهي تعني تجلّيات وظهورات الله عينيّة، هو ذاته .

وببيان آخر : لو قلنا «الأب والابن» لثبت لدينا العدد ضرورةً

١ـ وفي «الميزان» ج ٣ ، ص ٣١٤ و ٣١٥ : ومحصّل ما قالوا به ـ كلام المسيحيّين: (وإن كان لا يرجع إلى محصّل معقول) : إنّ الذات جوهر واحد له أقانيم ثلاث ، والمراد بالأُقنوم هو الصفة التي هي نحو ظهور الشيء وبروزه وتجلّيه لغيره وليست الصفة غير الموصوف، والأقانيم الثلاث هي أُقنوم الوجود وأُقنوم العلم وهو الكلمة ، وأُقنوم الحياة وهو الروح .

وهذه الأقانيم الثلاث هي : الأب والابن وروح القدس : والأوّل أُقنوم الوجود ، والثاني أُقنوم العلم والكلمة ، والثالث أُقنوم الحياة ، فالابن وهو الكلمة وأُقنوم العلم نزل من عند أبيه وهو أُقنوم الوجود بمصاحبة روح القدس وهو أُقنوم الحياة التي بها تستنير الأشياء.

ثمّ اختلفوا في تفسير هذا الإجمال اختلافاً عظيماً أوجب تشتّتهم وانشعابهم شعباً ومذاهب كثيرة تجاوز السبعين ، وسيأتيك نبأها على قدر ما يلائم حال هذا الكتاب.

إذا تأمّلت ما قدّمناه عرفت : أنّ ما يحكيه القرآن عنهم ، أو ينسبه إليهم بقوله : **وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَهِ** ـ الآية . وقوله : **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ** ـ الآية . وقوله : **وَلَا تَقُولُوا ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُواْ** ـ الآية . كلّ ذلك يرجع إلى معنى واحد (وهو تثليث الوحدة) هو المشترك بين جميع المذاهب المستحدثة في النصرانيّة ، وهو الذي قدّمناه في معنى تثليث الوحدة . وإنّما اقتصر فيه على هذا المعنى المشترك، لأنّ الذي يرد على أقوالهم في خصوص المسيح عليه السلام على كثرتها وتشتّتها ممّا يحتجّ به القرآن ، أمر واحد يرد على وتيرة واحدة لما سيتّضح.

وليس هذا التعدّد شيئاً غير الكثرة الحقيقيّة . فإذا افترضنا وحدة نوعيّة بين الأب والابن ، كالأب والابن من أفراد الإنسان حيث إنّهما في حقيقة الإنسانيّة واحد ، ومن جهة أفراد الإنسان هما كثير ، فهنا لا يمكن أن نقول إنّ الله واحد ، لأنّ هذه الكثرة العدديّة مانعة من وحدة الله .

فبناءً على فرض وحدة الله فإنَّ كلّ ما سوى الله ـ ومنهم الابن المفترض ـ سيكون مملوكاً ومحتاجاً إلى الله ، وهكذا لن يكون الابن المفترض إلهاً أبداً .

وهذا الاستدلال هو نفس البيان القرآنيّ : **وَلَا تَقُولُوا ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا** .[1]

والخلاصة ، فإنّ الإشكال الذي يرد على النصارى ولا مفرّ لهم منه هو قولهم بالأُصول الثلاثة مستقلّة وهو ما لا ينسجم مع الوحدة .

فالمسيحيّون ـ مع وجود الاختلاف الكبير في دينهم ـ قد انقسموا في قضيّة البنوّة (بنوّة المسيح) إلى ثلاثة أقسام :

الأول : **مذهب المَلْكانيّة** ، الذين يقولون بأنّ عيسى ابن حقيقيّ للّه .

الثاني : **مذهب النَّسْطوريّة** ، الذين يقولون إنّ بنوّة عيسى للّه كإشراق النور على الجسم الشفّاف (مثل البلّور) ، وهذا في الواقع القول بالحلول .

الثالث : **مذهب اليعقوبيّة** ، وهم يقولون بالانقلاب ، أي أنّ الله المعبود المجرّد قد انقلب إلى عيسى ذي اللحم والدم .

وهذه المذاهب تختلف فيما بينها في كيفيّة اشتمال المسيح ابن مريم على جوهرة الأُلوهيّة الذي يعود إلى الاختلاف في أُقنوم المسيح وهو أُقنوم

١ـ ذيل الآية ١٧١ ، من السورة ٤ : النساء .

العلم الذي انفصل عن أُقنوم الربّ ، فهل هذا الانفصال مثل الاشتقاق أم مثل الانقلاب أم الحلول ؟ فكلّ النصارى متّفقون على أصل الانفصال والغيريّة والبينونة العدديّة ، ومشتركون في هذا القول :

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ .

ولا يختصّ هذا القول بمذهب الانقلاب فقط ، بل يشترك فيه الجميع.[١]

١ـ ذيل الآية ١٧١ ، من السورة ٤ : النساء . وقد بحث العلّامة الطباطبائيّ هذه الأُمور في تفسير «الميزان» ج ٣ ، ص ٣١٢ وفي ج ٦ ، فقال : إنّ قول مسيحيّين كان يقال إنّ زيداً بن عمرو وإنسان ، فهناك أُمور ثلاثة هي :

زيد وابن عمرو والإنسان ، وهناك أمرٌ واحد وهو المنعوت بهذه النعوت . وقد غفلوا عن أنّ هذه الكثرة إن كانت حقيقيّة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتباريّة غير حقيقيّة فالجمع بين هذه الكثرة العدديّة والوحدة العدديّة في زيد المنعوت بحسب الحقيقة ممّا يستنكف العقل عن تعقّله .

ولذا ربّما ذكر بعض الدعاة من النصارى أنّ مسألة التثليث من المسائل المأثورة من مذاهب الأسلاف التي لا تقبل الحلّ بحسب الموازين العلميّة ، ولم يتنبّه أنّ عليه أن يطالب الدليل على كلّ دعوى يقرع سمعه ، سواء كان من دعاوي الأسلاف أو من دعاوي الأخلاف.

نعم ، يجب أن نعلم أنّ قول المسيحيّة في التثليث جعليّ ووضعيّ ، ومع تحريف الإنجيل والتثليث هي جزء أُصول عقائد المسيحيّة .

والسيّد المسيح عليه السلام بريء من هذه التهمة ، وكان يدعو الناس دائماً إلى الحقّ والآيات القرآنيّة شاهدة على هذا المعنى .

ومن ثمّ تفضّل العلّامة قائلاً إنّ الآيات الأخيرة في سورة المائدة تبيّن أدب عيسى عليه الصلاة والسلام بطريقة عجيبة حين تظهره عبداً مطيعاً .

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ⇦

ويستفاد ممّا قيل أنّ الجمع بين الكثرة الحقيقيّة والوحدة الحقيقيّة محال . وبالتالي فإنّ دين النصارى لا يمكن أن ينطبق مع الموازين العقليّة والفلسفيّة إطلاقاً .

ولهذا نجد أنّ **بولس** وغيره من زعماء المسيحيّة قد قبّحوا الفلسفة ، لأنّ فكرة ولادة عيسى وبنوّته الإلهيّة لا يمكن أن توافق الأحكام العقليّة الضروريّة .[1]

التلميذ : بناء على ذلك ، فإن يرد من إشكال على المسيحيّة يرد أيضاً على أُولئك الذين يقولون بعينيّة الصفات والأسماء مع ذات الحقّ ، لأنّ فرض وحدة الحقّ سبحانه وتعالى مع تكثّر الصفات والأسماء باعتبارها قديمة أيضاً يعدّ جمعاً بين الوحدة الشخصيّة والكثرة الشخصيّة ، وكلا

⇦ **ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .**

لاحظ كيف النبيّ عيسى ابن مريم عليه السلام يجيب ببيان راقٍ ومنطق بليغ على كلّ كلمة من الكلمات .

تجد عالم من المنطق والحكمة ومراعاة حقّ ربوبيّة حضرة الباري تعالى.

وكذلك الرعاية العالية لأعلى درجة مقام أدبه وعبوديّته :

أوّلاً يقول : إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، على أساس الإحاطة العلميّة التي لك بالموجودات.

ثانياً : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى . وفقط دعوت بتوحيدك ولم أتخطّها ولم أتجاوز هذا الحدّ .

ثالثاً : وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ .

رابعاً : إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ .

من الإنصاف أن نقول إنّه لا يمكننا فرض كلام أعلى وأرقى من هذا .

١ـ تفسير «الميزان» ج ٣ ، ص ٣٢٦ .

حقيقيّان أيضاً .

وبطلان هذا الأمر من الوضوح بالدرجة التي ينبغي عدّه من الأُمور الضروريّة للدين ومساوياً لبطلان التثليث ، ويجب القول إنّ العرفاء بالله الذين تابعوا مفسِّر القرآن الكريم الإمام **عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام** هم الذين جعلوا وحدة الحقّ في مقامها العظيم والسامي ، وعرفوا أنّ الصفات غير الموصوف ، وأنـّها مرتّبة نازلة ومتعيّنة من الذات ، وأدركوا بدقّة معنى قوله عليه السلام :

شَهَادَةُ كُلِّ صِفَةٍ أَنـَّهَا غَيْرُ المَوْصُوفِ . فساروا على أساس التوحيد الخالص . وكان الباقون في توحيدهم مشوبين بشوائب الكثرة في ذات الله ، ينحون منحى النصارى القائلين بالتثليث . ولعلّ السبب الذي جعل الكثيرين من المتكلّمين يستقبحون الفلسفة أيضاً ويحرّمون الدخول في المسائل العقليّة ، على أساس مناط حديث بولس ، هو خوفهم من أن تظهر لهم الفلسفة ما أخفوه في باطن أيديهم ، وتقوم بإلغاء التوحيد المتلازم مع الكثرة الذي فيه الشيء الكافي والوافي من الشرك .

وعلى هذا الأساس كان المرحوم السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ هذا العارف الجليل ذو الضمير البصير يصرُّ على الوحدة ويحذّر ويمنع ويردع من القول بعينيّة الأسماء والصفات مع الذات . وكما جاء في الرواية الصحيحة من تقييد الأسماء وتحديدها بكونها مخلوقه وبكونها مظهراً لذات الحيّ القيّوم في حدود تعيّنها ومفهومها ، في حين أنّ وجود ذات الحقّ بسيط وعارٍ من كلّ شوائب الكثرات .

ولم أكن هنا بصدد إبطال دين النصارى ، لأنّ بطلانه واضح ومُبرهن من وجوه عديدة ،كما أنّ أصل التثليث يحمل وجوهاً من الإشكالات .

ولكن فقط أردت أن أقول بالنظر إلى امتناع الجمع بين وحدة الحقّ

مع تثليث صفاته وتجلّياته التي يسمّونها بالأقانيم ، فإنّ عين هذا الامتناع وارد أيضاً في القول بوحدة ذات الحقّ وعينيّة الأسماء والصفات مع الذات بحمل هو هو ، ولا مفر ولا منجى إلّا في مسلك توحيد العرفاء في مدرسة التوحيد .

مسألة توحيد الذات الأبديّة هى تنزيهٌ عن جميع شوائب الكثرات ، سواء كانت خارجيّة أم داخليّة ، عينيّة أم ذهنيّة أم نفسيّة . **وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الحَقِّ وَحَقُّ القَوْلِ .**

العلّامة : كان المرحوم الشيخ محمّد حسين الإصفهانيّ الكمبانيّ يقول في تلك المراسلات بالتشكيك في الوجود ، ويسير على منهج الفلاسفة كصدر المتألّهين والحكيم السبزواريّ وغيرهما .

وهذا التوحيد لا يستلزم إشكالاً ، لأنّ التشكيك في الوجود الذي يقول به الفهلويون :

الفَهْلَوِيُّونَ الوُجُودُ عِنْدَهُمْ حَقِيقَةٌ ذَاتُ تَشَكُّكٍ تَعُمْ
مَرَاتِبَاً غِنَىً وَفَقْرَاً تَخْتَلِفْ كَالنُّورِ حَيْثُمَا تَقَوَّى وَضَعِفْ[1]

ويجعل وصل الوجود درجات ومراتب ، تختلف كلّ درجة ومرتبة أعلى عن المرتبة الأدنى في الشدّة والضعف والكثرة والقلّة والقوّة والضعف وأمثالها .

أي أنّ الوجود في عين كونه واحداً وبسيطاً له مراتب ، تتدرّج من أعلى المراتب من جهة ، ومن جهة أُخرى تتنزّل حتّى تصل إلى أدناها ، وما بينهما تتوزّع باقي المراتب ، الأعلى والأدنى على حسب اختلاف درجاتها بحيث كلّما ارتفعنا أصبح الوجود أقوى وأشدّ وأوسع ، وبالعكس كلّما نزلنا

١ـ «منظومة السبزواريّ» في الفلسفة . (م)

أصبح الوجود أضعف وأضيق بحيث إنّ كلّ مرتبة من المراتب العليا تكون واجدة لكمال الدرجات التي هي أسفل منها ولا عكس .كالنور الذي في عين مفهومه الواحد وحقيقته البسيطة ذو سلسلة ممتدّة ومتطاولة بحيث إنّ أعلى درجاته هي الشمس وأدناها ظلمات الأرض ، وبين هاتين الدرجتين مراتب مختلفة من النور في هذا العمود النورانيّ ،كما هو الحال في الشمس حيث النور الأعلى وفي الدرجة الأدنى منها نور أضعف وأبعد وأقلّ سطوعاً وأبهت إشراقاً ، وهكذا في الدرجة الأدنى أضعف وأضعف حتّى يصل إلى المرحلة الأضعف والأنقص .

وبشكل عامّ يمكن وصف هذا الاختلاف بين هذه المراتب **بالكمال والنقص** . فكل مرتبة أعلى واجدة لكمال الدرجة الأدنى ، إلى أن نصل إلى معدن النور حيث يكون النور موجوداً على النحو الأكمل ، ولا عكس . فإنّ كلّ مرتبة أدنى لا تحتوي مراتب الأعلى منها وليست واجدة لكمال تلك الدرجة . حتّى نصل إلى أدنى درجات النور الذي هو ظلّ ضعيف باهت والحدّ الأخير من مراتب النور .

ومع أنّ مفهوم النور الحسّيّ أيضاً واحد ، والنور الحسّيّ أيضاً بسيط ، ولكن بما أنّ ما به التفاوت هو عين ما به الاشتراك ، وكلّ درجة في هذه السلسلة الطويلة في عمود النور هذا تتمايز عن سائر الدرجات بحقيقة نفس النور لا بشيء آخر ، لهذا يجب القول إنّ للنور حقيقة مشكّكة ، أي أنّه في عين الوحدة في الذات ، ذو مراتب مختلفة بالنورانيّة في نفس الذات .

وفي النور المعنويّ والوجود ، فإنّ أعلى المراتب هي وجود حضرة الباري تعالى شأنه ، الواجب واللامتناهي في الشدّة والقدرة والقوّة والسعة والتقدّم والكمال .

وإذا تجاوزنا هذا ، فإنّنا كلّما تنزّلنا في المراتب المختلفة للموجودات

العقليّة النورانيّة والنفوس القويّة حتّى نصل إلى عالم الأمثال والصور وعالم المادّة والطبيعة الذي هو أضعف العوالم والمراتب الوجوديّة، خصوصاً الهيوليّ والمادّة الأوّليّة التي هي نفس القابليّة المحضة والتي هي في أدنى مراتب الكمالات.

وبما أنّ صفات حضرة الواجب تعالى وأسماءه لا نهاية لها، فإنّه يمكن عدّها في الدرجة العليا من هذه السلسلة وافتراض أنّ لها العينيّة مع ذات الواجب القدسيّة، وهي موجودة في أعلى درجة من القوّة والسعة والشدّة والكمال بنحو العينيّة والبساطة والوحدة.

وهذا هو مضمون كلام المرحوم الشيخ محمّد حسين وصدر المتألّهين وشيخ الإشراق شهاب الدين السهرورديّ ونظائرهم من أجلّةِ الأعلام.

التلميذ: إنّ الوقوف عند مسألة التشكيك في الوجود لا يحلّ المشكلة، **أوّلاً**: لأنّ القول بالدرجة العليا على أنّها ذات الواجب يستلزم التركيب في الذات، وذلك بسبب خصوصيّة تلك الدرجة، إن كانت لها عينيّة مع الأسماء والصفات الإلهيّة ـ ومن المعلوم أنّ كلّاً من الأسماء والصفات ليس صرف المفهوم بما هو مفهوم، بل له ما ينطبق عليه في الخارج ـ وفي هذه الحالة فإنّ جميع هذه الأسماء والصفات بحدودها ينبغي أن يتحقّق في الذات، وهذا ما يستلزم التركيب، وهو نفس إشكال التثليث أيضاً.

ثانياً: إنّ أصل فرضيّة التشكيك في الوجود يحتاج إلى تأمّل وموضع إشكال. ففي هذه الفرضيّة إن جعلت ذات الواجب تعالى شأنه في المرتبة العليا واعتبرت بقيّة المراتب مراتب ودرجات الممكنات حسب اختلاف درجتها في القرب والبعد أصبحت في هذه الحالة ذات الواجب محدودة بحدود الممكنات، وبالطبع متعيّنة ومتقيّدة في الوجود إلى حدود

الممكنات . لأنّه بناء على الفرض المذكور ، فإنّ ذات الواجب وجميع الممكنات مشتركون في أصل حقيقة الوجود . أمّا ما يميّزها عن بعضها البعض فهو الإنّيّة والماهيّة . وهنا تصبح ذات واجب الوجود التي تكون ماهيّتها عين إنّيّتها محدودة بالحدّ الأعلى لدرجة الممكنات ، ويمكن أن تجعل إلى جانب تلك الممكنات أيضاً ، إنمّا غاية الأمر يتميّز ويتشخّص هذا الوجود الواجب بالشدّة والضعف والوجوب والإمكان ، وهذا لا يرفع معنى التحديد ، بل ينتهي بنا إلى أنّ وجود الواجب محدود بوجود الممكن ويقف معه على حدود معيّنة .

ونحن نعلم أنّ لذات الواجب ، أي وجود واجب الوجود ، صرافة ومحضيّة محضة . فوحدته وحدة بالصرافة ، وليست وحدة عدديّة . وهنا فإنّ **كُلَّ مَا فَرَضْتَهُ فِي الوُجُودِ كَانَ دَاخِلاً فِيهِ** ، وإلّا خرج عن الصرافة الصرفة والمحضيّة المحضة . وفي هذه الصورة ، يعني مع فرض صرافة وجود الحقّ ،كيف يمكن اعتبار نفس وجود الحقّ ذا مرتبة ودرجة مع القول بصرافة وجوده ؟ أو عدّه في الدرجة العليا ؟ في حين أنّ تصوّر محضيّة تلك الدرجة يستوعب كلّ المراتب والدرجات ، ويجعل الجميع مندكّاً فيه .

فكيف يمكن تصوّر وجود آخر بفرض صرافة وجود الحقّ ؟ وهذا هو أساس مفاد برهان الصدّيقين .

العلّامة : إنّ سلسلة الموجودات في مراتب الوجود ، بناءً على افتراض مسألة التشكيك في الوجود ، ليست عرضيّة حتّى تكون كلّ مرتبة منها في عرض وحدّ المرتبة الأُخرى ، أو في جوارها ، وتكون بالتالي كلّ مرتبة عليا بالنسبة للمرتبة الأدنى محدودة ومتعيّنة ؛ بل إنّ سلسلة المراتب طوليّة ، وكلّ واحدة بالنسبة لغيرها قائمة في سلسلة العلل والمعلولات .

فكلّ مرتبة ما فوق علّة للمرتبة ما دونها ، وكلّ مرتبة ما دون معلولة لمرتبة ما فوقها . وبناءً عليه ، بما أنّ العلّة واجدة لجميع كمالات معلولها ولا عكس ، فإنّ جميع مراتب السلسلة التشكيكيّة للوجود لها جميع كمالات المراتب ما دونها ، ولا عكس .

ولهذا ، فإن أخذنا كلّ حلقة من حلقات هذه السلسلة الطوليّة نجدها واجدة لكمالات الدرجة ما دونها . وتلك الحلقة الدنيا تكون أيضاً واجدة لكمالات الحلقة الأدنى حتّى نصل إلى آخر حلقة وجوديّة في مراتب النزول .

فلو افترضنا أنّ السلسلة التشكيكيّة عشر درجات ، فإنّ الدرجة الأُولى التي هي أدنى الدرجات لها درجة واحدة من الكمال ، والدرجة الثانية الأعلى منها لها درجتان ، وفي هذه الصورة يعلم أنّ العدد اثنان يحتوي على كمال العدد واحد ، ولا عكس ؛ والدرجة الثالثة تحتوي على كمال العدد اثنان ، أي أنّ كلّ ما يحتوي العدد اثنان من الشدّة والكثرة والقرب والقوّة وغيرها ،كلّ هذه موجودة بتمام المعنى في العدد ثلاثة .

وبناء عليه ، مع فرض أيّة حلقة من حلقات هذه السلسلة ، فإنّ جميع المراتب الأدنى منها موجودة فيها بالفعل . وعندها في هذه الصورة لا معنى لمحدوديّتها بحدود ما دونها .

ولأنّ ذات الواجب جلّ وعزّ في أعلى درجة من سلسلة المراتب ، فإنّ جميع كمالات الدرجات ما دون موجودة فيه بالفعل . فلا كمال إذاً في أيّة مرتبة من المراتب إلّا وهو موجود في ذات الواجب .

أمّا **الوحدة التي يقول بها العرفاء** فإنّها لا تتنافى مع التشكيك في الوجود ، بل إنّها نظرة أعمق وأدقّ إلى الوجود .

ففي التشكيك الذي يقول به الفلاسفة تكون الموجودات الإمكانيّة

ذات وجود حقيقيّ ، غاية الأمر أنـّه وجود إمكانيّ افتقاريّ بحيث يكون كلّ واحد فيه معلولاً لوجود أعلى منه إلى أن يصل الأمر إلى ذات الواجب جلّ وعزّ .

وبناء عليه ، فإنّ جميع الموجودات معلولات ذات الحقّ ، ومتدلّيات بعظمته وكبريائه .

أمّا العرفاء فإنّهم يقولون إنّ الوجود مختصّ بذات الحقّ ، وجميع الموجودات الإمكانيّة ظلّ وفَيْء لوجود الحقّ ، وهي نفس الظهور فقط لا غير . أمّا نسبة الوجود إليها فهي نسبة مجازيّة ، ويقال لها موجودة بالاعتبار .

ولكن هذا الرأي لا يتنافى مع كلام الفلاسفة . بل إنّه ينظر إلى الموجودات بمنظار أدقّ وأعمق . ويمكن القول في الواقع إنّ رأي العرفاء يهيمن على رأي الفلاسفة .

التلميذ : صحيح أنّ للموجود صرافة ، وأنّ جميع مراتب الوجود في المراتب التشكيكيّة في هذه السلسلة داخلة ومندكّة في مصداق الوجود الصرف . ولكنّ وجود ذات الحقّ جلّ وعزّ له صرافة ، ولا يمكن تعريته من الصرافة والمحضيّة . وبناءً عليه ، فإنّ الصرافة في ذات الواجب تتباين مع التشكيك .

لأنّ نفس تصوّر صرافة الوجود في ذات الواجب ينفي كلّ شكل من الوجود عن الغير ، حتّى وإن كان بنحو المعلوليّة . وبالأصل فإنّ الصرافة لا تنسجم مع الغيريّة . أمّا امتلاك ذات الحقّ لجميع كمالات المعلولات لا يتنافى مع التغاير في الجملة ولو بنحو الشدّة والضعف . والتغيّر يتباين مع الصرافة في وجود الحقّ .

أمّا الرأي الدقيق للعرفاء فإنّه يتنافى مع صحّة رأي الفلاسفة . لأنّ

رأي الفيلسوف في مرحلة خاصّة من الدقّة ، ورأي العارف يتخطّى هذه المرحلة ليبطله فيما بعد .

فالعارف برؤيته لوحدة الحقّ وملاحظة الصرافة في وجوده لا يمكنه أن يرى غيره ، ففرض الغير بالنسبة له غير صحيح ، وهو يشاهد جميع الموجودات أنواراً وظلالاً ونسباً واعتبارات لذات الحقّ .

وبالطبع ، ففي هذا الرأي العرفانيّ حيث التوحيد المحض ، فإنّ حقيقة الوجود تختصّ بذات الحقّ . ولا تستلزم مشكلة تعدّد القدماء ، ولا إشكال منافاة صرافة الوجود مع وجود الغير ، أي وجود الممكنات .

والآية المباركة : **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا.** [١]

والآية المباركة : **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.** [٢]

توضّحان هذا المعنى . ففي صورة فرض وحدة العرفاء فإنّ معيّة الحقّ مع جميع الموجودات هي معيّة حقيقيّة كمعيّة الشاخص والظلّ ، ومعيّة القائم وما يقوم به ، ولا تستلزم إطلاقاً الوحدة العدديّة لذات الحقّ ، لأنّ ذات الحقّ ، الذي وحدته بالصرافة وليست وحدة عدديّة ، تكون معيّة لجميع الموجودات ، فمع الثلاثة والأربعة والخمسة وأكثر من ذلك بدون أن يزاد إلى عددهم رقم واحد . أمّا في صورة التثليث فإنّ الحقّ سوف يؤخذ حتماً كعدد واحد . وبناء على التغاير الوجوديّ للأسماء والصفات مع ذات الحقّ

١ـ قسم من الآية ٧ ، من السورة ٥٨ : المجادلة .

٢ـ ذيل الآية ٤ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

توجد آيات أُخرى في القرآن الكريم لها دلالة على معيّة ذات الحقّ سبحانه تعالى مثل الآية ١٢ من سورة المائدة : **وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ** ، والآية ٣٥ من السورة ٤٧ محمّد : **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوَا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ** ؛ إلّا أنّه قد يُقال بعدم صراحتها في المعيّة.

على نحو التغاير العلّيّ والمعلوليّ ، فإنّ التغيّر العدديّ لابدّ أن يرد أيضاً .

فإذا أردنا أن ننفي أيّة وحدة عدديّة عن ذات الحقّ لابدّ أن نعتبر أن وحدته وحدة صرفة ، وعندها لن يتصوّر أيّ غير ، ولو بنحو الوجود المعلوليّ، بل إنّ جميع الموجودات هي مظاهره وأسماؤه طرّاً ، وهي تجلّيات ذاته المقدّسة . أمّا نسبة وجودها فهي نسبة مجازيّة واعتباريّة محضة .

العلّامة : إنّ استدلالكم هذا سيكون تامّاً ويعطي نتيجة مثمرة إذا أُضيفت إلى مقدّماته مقدّمة أُخرى ، وهي إذا اعتبرنا أنّ الوجود واحدٌ بالشخص .

فهنا يصبح ذلك الوجود بالصرافة الذي هو الواحد بالتشخّص مختصّاً بذات الحقّ ، أمّا جميع الموجودات من الأرض والسماء وعالم الملك والملكوت فهي مظاهره وتجلّياته ، ليس لها من ثمَّ وجود من نفسها ، ونسبة الوجود إليها بالعرض والمجاز .

فما لم يثبت تشخّص الوجود ، لن يكفي نفس كونه واحداً بالصرافة لأجل إثبات هذا الأمر المهمّ . وذلك لأنّ الوجود الواحد بالصرافة إذا كان ممكناً لكان له في التحقيق تعدّد التحقّقات ، مثل التحقّق الواجب والتحقّق الممكن ، فهنا يصبح إثبات الوحدة له مشكلاً ، إلّا إذا أُضيف له أمر خارجيّ وهو أنّ كلّ وجود واحد بالصرافة ينبغي وأن يكون حتماً في التشخّص واحداً .

فعندها يمكن إثبات الوحدة وآثارها للوجود على أساس التشخّص الواحد .

وكنت قد ألّفت في سابق الأيّام رسالة باللغة العربيّة حول **الولاية** أثبتُّ فيها تشخّص الوجود ، وأنّ الوجود مساوق للتشخّص ، ففي الخارج

لا يوجد شيء إلّا شخص واحد فقط للوجود. ويستحيل أن يتحقّق أكثر من تشخص واحد.

لأنّنا إذا قلنا بالتشكيك، فلن يكون لدينا في الحقيقة إلّا وجود مشكّك واحد. وفي هذه الصورة يحصل الوجود على مراتب مختلفة، تتناسب كلّ مرتبة فيه مع المراتب الأُخرى، ولكن بأيّ كيفيّة ستكون مع المراحل الأُخرى؟

علينا القول في النهاية إنّ وجود واجب الوجود هو ذلك الوجود الشديد العلويّ الغنيّ الذي يتمايز عن بقيّة الموجودات بالغنى والشدّة والقوّة، لكنّ مجرّد قولنا إنّه متمايز فقد أخرجناه عن الصرافة والتشخّص.

وعندما قلنا إنّ وجود الله وجود بالصرافة، فإنّه لا يترك حدّاً لموجود آخر ولا وجوداً لموجود آخر، وهذا المعنى هو الذي يستلزم التشخّص. أي أنّه لا يوجد في عالم الوجود إلّا شخص واحد من الوجود، لا أكثر.

والوحدة الشخصيّة بمعنى الشخص لا تنسجم مع الكثرة بأي نحو افترضناها (الوحدة الشخصيّة بحساب خصوصيّة الشخص).

أمّا الكثرة، فإنّها تنسجم مع أنواع الوحدة الأُخرى كالوحدات النوعيّة أو لعلّ مع الوحدة التشكيكيّة ونظائرها، لكنّها لا تنسجم مع الوحدة بمعنى الشخص الواحد.

فإذا كانت حقيقة الحقّ تبارك وتعالى شخصاً واحداً، وموجوداً واحداً شخصيّ وقائم بالشخص، فلا تصوّر بعد لوجود الكثرة.

ومع هذا القول يتمّ الكلام. لأنّ الوجود وهو عين التشخّص، والله تعالى ليس واحد بالوحدة الجنسيّة أو النوعيّة أو الصنفيّة وأمثالها، بل هو شخص **لَيسَ فِي الدَّارِ غَيْرَهُ دَيَّارٌ**.

وقد قام القرآن على أساس هذا البرهان للردّ على التثليث، فلماذا

يا ترى يقول :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ . ولماذا يقول : **وَلَا تَقُولُوا ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ** .

فالقرآن يهدّد جميع النصارى ويعتبرهم كفّاراً على أساس المنطق الذي يقول إنّ ذات الواحد الشخصيّ للباري تعالى لا تتمايز ولا تتعيّن مع أيّة مرتبة من الكثرة .

أجل ، فالوجود واحد شخصيّ ، وعلى أساس قول العرفاء بالله : تشخّص واحد . وهنا فإنّ الوجود الذي يشاهد في الموجودات ليس إلّا مشاهدة وجود الحقّ ، ولا وجود هذه الأرض ، وهذه السماء والإنسان والحيوان ، وجميع الكثرات التي تلاحظ في حقيقة وجودها هي الحقّ الذي هو واحد . وليس وجود الأشياء الذي يظهر الكثرات . لا يوجد إلّا وجود واحد شخصيّ في الواقع ولا كثرات في البين . أمّا نسبة الوجود للكثرات فهي نسبة مجازيّة وواسطة في مقام العروض .

التلميذ : ما أجلى بيان آيات القرآن الكريم مسألة التوحيد ، وكأنّ كلّ القرآن قد نزل لمعرفة الله تعالى وشؤونه ، وهو بالحقّ كتاب في دروس التوحيد .

وما يثيرُ العجب كثيراً أُولئك الذين انحرفوا عن جادّة توحيد الحقّ تعالى ومحاولتهم قدر المستطاع جعل الله عرضة لعالم الكثرات وتدنيس ساحته بغبار الكثرة ، **سبحانه وتعالى** .

فبعدوا عن وحدة الحقّ تعالى وهجروه ، وكلّما جاءهم ذكر في هذا المعنى شمّروا عن سواعدهم للمواجهة ، فعشقوا عالم الكثرة ، وأرادوا أن يجعلوا للّه نصيباً ممّا هم فيه وإضفاء تلك الصبغة عليه .

هل لأنّهم من سنخ واحد مع عالم الكثرة الذي هو موطنهم

المألوف ؟

وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا .[1]

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ .[2]

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ .[3]

العلّامة : والأعجب من هذه الآيات ماورد في سورة التكاثر :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ .[4]

في بعض المراحل يتجاوز القرآن الصراحة ، أمّا في نفس الوقت فإنّ حالاتنا القلبيّة لا ترضخ ولا تقرّ وتؤوّل المطلب على نحوٍ آخر .

إنّ تكاثركم (طلب الكثرة ورؤيتها) قد جعلكم في غفلة عن رؤية جمال الحقّ والوحدة المطلقة ، وصرفكم عنها حتّى هويتم في المقابر . كلّا ستعلمون قريباً ، ثمّ كلّا ستعلمون بأنّ الأمر ليس كذلك بأنّ للكثرات حقيقة وحكاية عن الأصالة .

فلو علمتم علم اليقين (ووقفتم على حقيقة الأمر) لرأيتم كلّ كثرة جحيماً وناراً . ثمّ ستعرفون النار بحقيقة اليقين . ثمّ لتسألنّ عن النعيم الذي هو الولاية وطريق القرب بين العبد والمولى ولتسألنّ إلى أيّ حدّ خرجتم من حجاب الكثرة ، وكم خطوتم في وادي التوحيد .

وقد فسّرت هذه الآيات على نحوين : الأوّل : أنّ الأعراب والعشائر

١ـ ذيل الآية ٤٦ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ صدر الآية ٤٥ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٣ـ صدر الآية ١٢ ، من السورة ٤ : غافر .

٤ـ السورة ١٠٢ : التكاثر .

كانوا في أيّام الجاهليّة وما تبعها في الإسلام يتفاخرون على بعضهم . فكلّ قبيلة يكثر عدد شجعانها تغلب الأُخرى في التفاخر ، حتّى وصلوا إلى درجة بدأوا يعدّون الأموات (أي أنـّهم كانوا يذهبون إلى القبور ويعدّون الأموات بأسمائهم ويضيفون عددهم إلى الأحياء ، فيقولون مثلاً إنّ عدد أبطالنا أربعون ، ثلاثون من الأحياء وعشرة من الأموات) .

الثاني : أنّ هذه الكثرات ، وطلبها والنظر إليها قد شغلتكم بأنفسكم ومنعتكم من لقاء الحقّ ورؤيته إلى أن جاء أجلكم بما معناه أنـّكم ما دمتم أحياء فمشغولون بطلب الكثرات ، ودائماً الكثرة تطلبون حتّى يأتي أجلكم .

التلميذ : إنّ هذا التكاثر ورد على نحو الإطلاق ، ولا يقتصر على الأموال والأولاد ، بل يشمل التكاثر في الخيرات والعلم ، في علم الفقه والأُصول والحديث وسائر الفنون والعلوم ، وبشكل عامّ ،كلّ تكاثر يحجب الإنسان عن لقاء الحقّ وعن وحدة حضرة عزّه وجلاله ، وصرفه عن الله سيعدّ تكاثراً بأجمعه ، وباعثاً على انشغال الإنسان به ، فهذه الكثرات هي التي تمنع الإنسان من السعي للوصول إلى وحدة الحقّ .

الإنسان يسعي دائماً لطلب العلم ، وقبل أن يعرف نفسه يريد أن يعرف الغير ، يريد أن يعرف العالم والجماعات والأرض والسماء والنجوم والكواكب والقارّات فيقرأ هذا الكتاب وذاك ولا يشبع : **حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ** ويغفل عن النعيم ، وما أدراك ما في لقاء الله ! ويضيّع رأسماله في حجاب الكثرات وأي رأسمال يضيع ...؟! ويضلّ عن الحقيقة ، سائراً وراء جمع المجاز بعيداً عن الوحدة وميلاً إلى الكثرة . إلى أن يشرف على الموت ويودع القبر ويطوي بساط الحياة . فهذا الحسّ لطلب الكثرة والمعرفة والاستطلاع موجود في الإنسان .

العلّامة : نعم ، لهذه الآية إطلاق ، وهي تشير إلى أنّ كلّ طلب للكثرة يحجب ويمنع الإنسان من الوصول إلى مقام طلب الوحدة والبحث عن الله . هذا التفسير أفضل من التفسير الأوّل الذي لا يُقبل كثيراً .

أمّا ما جاء في المراسلات التي جرت بين العالِمَينِ الكبيرينِ السيّد أحمد الكربلائيّ والشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ رضوان الله عليهما حول التشكيك في الوجود والوحدة في الوجود ، والتي لم يقتنع فيها الشيخ بالمطالب العرفانيّة التوحيديّة التي طرحها السيّد المرحوم فتصدّى أحد تلامذة المرحوم القاضي ، ويدعى السيّد حسن الكشميريّ (وهو من زملاء الحاجّ الشيخ علي محمّد البروجرديّ والسيّد حسن المسقطيّ ، وهما من تلامذة القاضي) وأعاد فتح موضوع المباحثة مع الشيخ الأصفهانيّ ، واستمرّ بطرح الاستدلالات والبراهين التي بدأها المرحوم السيّد أحمد حتّى ألزمه بالقبول .

وفي الفترة التي كنّا نتزوّد ونكتسب الفيوضات من علم المرحوم القاضي رضوان الله عليه في النجف الأشرف ، تشرّفت يوماً وأنا في حالة الخلسة بزيارة **عليّ بن جعفر** رضوان الله عليه ، واقترب منّي إلى الدرجة التي أحسستُ فيها بالهواء الملاصق لبدنه ، وكنت أسمع صوت أنفاسه ، فقال لي : إنّ قضيّة الوحدة من الأُصول المسلّمة والأوّليّة عندنا أهل البيت .

التلميذ : في نهاية الأمر ، ينبغي أن تتّضح هذه المسألة ، هل قضيّة التشكيك في الوجود وقضيّة الوحدة في الوجود متضادّتان ، أم لكلّ واحدة حقيقة ، لكنّ الثانية أعلى وأكمل ؟

فأهل التوحيد يقولون : إنّ الذات القدسيّة لواجب الوجود لا اسم لها ولا رسم ، وليس فيها أيّ تعيّن . أمّا وجودها وجود بالصرافة ، لا طريق فيها للوحدة العدديّة . وبناء عليه ، لو جعلناه متعيّناً بأيّ نحو من التعيّن لأدّى ذلك

إلى التمييز ، وإخرجه عن الصرافة .

أمّا أهل التشكيك فإنّهم يقولون : إنّ ذات الواجب هي الدرجة العليا من الوجود ، وما يميّزها عن بقيّة الموجودات علوّها وشرافتها وقوّتها وشدّتها ، وذلك لأنّه بعد أن قلنا إنّ وجود الواجب ووجود الممكن كلاهما من سنخ الوجود البسيط البحت ، وما يميّزهما هو عين الوجود ، لا يوجد فيهما شيء من خارج الوجود ، وهكذا ، فإنّ انفعال واثنينيّة كلّ مرتبة من مراتب سلسلة الوجود ـ سواء أخذنا الواجب مع الممكنات أم الممكن الأقوى مع الأضعف ـ إنّما هو على كلّ حال بواسطة نفس الوجود ، وهو من خواصّ الحقائق المشكّكة ، وفي نفس الوقت الذي يتفاوت فيه بعض الأفراد مع بعضه الآخر ، فإنّ هذا التفاوت إنّما وجد بواسطه تلك الحقيقة المشكّكة ، وليس من ضمّ أمر عدميّ أو ما هوِّيّ أو خارجيّ .

وعلى هذا الأساس تنفصل حقيقة الواجب عن بقيّة المراتب ، ويصبح لها حدّ وتميّز وانفصال . فعندما نقول كبير وصغير وغني وضعيف ومرتبة عليا ودنيا و ... فكلّ هذه حدود تفصّل وتميّز وجود الواجب بهذه العناوين التي هي مفاهيم لا شكّ أنّ لها مصاديقاً خارجيّة تنطبق عليها عن كافّة سلسلة الممكنات . ولأنّ هذا التمايز والفصل يرجع إلى جهة الوجود ، فإنّ وجود الواجب يصبح متعيّناً ومحدوداً .

ويعلم أنّ المراتب العليا كلّما ارتفعنا فيها كانت واجدة على نحوٍ أفضل لكمالات الدرجات والمراتب التي ما دونها من الوجود ، ولكنّ هذا الحصول الكماليّ لا يؤدّي إلى العينيّة مع سائر المراتب ، وبالتالي لا يمنع من التشخّص في الوجود . ونفس هذا المقدار من التمييز والفصل يؤدّي إلى التحديد والتعيّن ، وبالتالي يخرج المرتبة العليا من الصرافة .

بل يلبس حضرة الحقّ جلّ وعلا لباس العدد ، بينما قد ثبت أنّ

وجوده بالصرافة ، وأنّ سعته وإحاطته الوجوديّة تجعل كلّ الوجودات مضمحلّة ومندكّة وفانية . وكما ورد في الدعاء وما تدلّ عليه الروايات أيضاً : **وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ ؛ قَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ** .

العلّامة : في قضيّة التشكيك في الوجود ، فإنّ الدرجة العليا من الوجود تفوق جميع المراتب من جميع الجهات في القوّة والشدّة والكثرة ، وهي العلّة وما عداها معلولاتها ، وهذا لا يتنافى مع الصرافة في الوجود ، بل جائز على نفس معنى الصرافة .

لجهة أنّ هذه السلسلة المشكّكة من الوجود ، بناء على الفرض المذكور ، تفسير من الضعف إلى الكمال . وكلّ درجة سفلى معلولة لما فوقها ، وكلّ درجة عليا علّة لما دونها . وبما أنّه قد ثبت أنّ المعلول حاضر بكلّ وجوده في العلّة ـ بدون جهات نقصانه من الحدود العدميّة والماهويّة ـ والعلّة لها علم حضوريّ بمعلولها . ولهذا فإنّ واجب الوجود الذي هو غاية الغايات ومبدأ المبادئ يكون علّة فاعلة وعلّة غائيّة لجميع المراتب من سلسلة الوجود . وفي هذه الحالة يكون واجداً لجميع الكمالات والإنّيّات والتحقّقات للمراتب الأدنى منه . وبناء عليه ، لا يوجد من الكمال في أيّ مرتبة من المراتب إلّا وهو موجود في ذات واجب الوجود بالفعل ، وهذا هو معنى الصرافة في الوجود .

فالدرجة العليا من الوجود على النحو الذي قيل لا تتنافى مع الصرافة في الوجود ولا ينبغي ذلك .

لأنّنا لو نظرنا إلى مراحل الوجود كلّ على حِدَة لوجدنا أنّ كلّ كمال سفليّ موجود في العلويّ . والكمال العلويّ ليس موجوداً في السفليّ ، وهكذا بالنسبة للكمال العالي فإنّه موجود في الأعلى منه ولا عكس .

والأعلى منه كذلك ، حاصل على كمال العلويّ الأدنى منه ولا عكس .

وهكذا ترتفع هذه السلسلة على هذا الترتيب ، فكلّ درجة عليا لها كمال ما دونها ولا عكس ، وصولاً إلى الدرجة العليا التي لا يوجد فوقها شيء . لأنّ هذه السلسلة لا يمكن أن ترتفع غير متناهية ، فالتسلسل محال ، ولابدّ أن ينتهي إلى الدرجة التي ليس فوقها شيء . وهنا تكون هذه الدرجة واجدة لجميع الكمال وتحقّقات درجات ما دونها ، ولكنّ جميع الدرجات السفلى مع كثرتها وتعدادها ليست واجدة لكمال تلك الدرجة العليا .

وهذا التحقّق لجميع الكمالات في تلك المرتبة هو نفس معنى الصرافة في الوجود .

لأنّ كلّ ما نفرضه من الوجود والكمال والشدّة والغنى والقوّة وسائر أنحاء الكمالات موجود هناك ، لأنّه بناء على الفرض علّة ، والعلّة تكون واجدة لجميع كمالات المعلول .

ولا ينبغي القول إنّ تلك الدرجة العليا من الكمال ، وإن كانت واجدة لكمال ما دونها ، ولكنّها غير واجدة عين ما دونها ، ولهذا فهي ستكون محدودة بهذا الحدّ ، لأنّه لا يوجد في الأدنى إلّا الكمال . لأنّنا نعلم أنّ الحدود العدميّة والماهوّيّة للدرجات السفلى ليست شيئاً وليست وجوداً . فهي أُمور عدميّة ، وكلّ ما يضمّه الأدنى في نطاقه من نفس التحقّق والوجود ، والآثار الوجوديّة كلّها ، فهو موجود بأجمعه في الأعلى .

إذاً فالأسفل هو مرتبة من الكمال الوجوديّ ، الذي نطلق عليه الغنيّ والشديد والكثير والقريب والمقدّم وغيرها من التعابير المختلفة . وجميعها موجودة لا بحدودها العدميّة والماهوّيّة في المرتبة العليا بالفعل . والمرتبة العليا لديها علم حضوريّ بها . فهي واقعة ضمن إطار قدرتها وسيطرتها وقبضتها .

ومثال النور الذي استعمل في هذا المجال يوضّح المطلب تقريباً ،

لأن هذه السلسلة من نور الشمس التي فصل منها إلى الأرض ، إذا افترضناها مائة درجة ، فسيكون لدينا في هذه الحالة نور على الأرض بدرجة واحدة ، وأعلى منها درجتين ، وأعلى ثلاث درجات ، وأعلى أربع درجات ، وخمس وستّ وهكذا ... كلّما ارتفعنا أدركنا درجة حتّى نصل إلى نور الشمس التي افترضناها مائة درجة .

فكلّ واحدة من هذه الطبقات النوريّة في الوسط واجدة لنور الدرجات السفلى ، ولا عكس .

وفي الدرجة المائة التي هي آخر الدرجات وأعلاها ، فلن يكون من نورٍ إلّا وكان موجوداً فيها ، حيث هناك منبع النور وكماله . فهي سلسلة من المراتب بعضها فوق بعض تشكّل مراتب النور .

وكلّ طبقة عليا تكون علّة لوجود الطبقة السفلى ، والطبقة السفلى الأدنى من الجميع تكون فاقدة لجميع كمالات الدرجات العليا ؛ أمّا الطبقة العليا التي تعلو الجميع فإنّها واجدة لجميع كمالات ما دونها .

فالدرجة الواحدة تعني درجة من الكمال . ومعنى الاثنين هو الدرجتان من الكمال وهكذا إلى المائة ، ومعنى المائة : مائة درجة من الكمال ، وهي الواجدة لجميع كمالات المراتب المائة المنطوية فيها ، وهذا هو معنى الصرافة .

معنى الصرافة هو أن لا يكون للحيثيّة تقييداً ، ولأنّنا نرى أنّ الدرجة الأخيرة التي هي الدرجة المائة لا يوجد أيّة تقييد للحيثيّة بأيّ وجه من الوجوه ، عندها لن تتنافى مع الصرافة . بل هي الصرافة بعينها .

إنّ هذا المثل حول مراتب النور الحسّيّ مثل جيّد جدّاً ، وهو يقرّب المطلب إلى الذهن ، وهذا المثل للنور الحسّيّ يعطي صورة واضحة حول النور الواقعيّ الحقيقيّ الذي هو حقيقة الوجود .

التلميذ : في قضيّة تشكيك الوجود ، نجد أنّ المراتب الكثيرة للوجود لها وجود واقعيّ وأصيل وقد أوجب الوجودالواحد حقيقة مع نفس الوجود الذي ما به الاشتراك بين جميع المراتب اختلاف المراتب . وبناء على هذا ، فإنّ حقيقة الوجود اكتسبت اختلافاً حقيقيّاً بالشدّة والضعف والتقدّم والتأخّر وغيرها . ولهذا ، يكون الوجود الواحد المشكّك ذا أفرادٍ هم أشخاصٍ مختلفين من الوجود ، ويصدق على كلّ واحدٍ منهم مفهوم الوجود والموجود .

وأصل طبيعة الوجود الخارجيّ الذي هو واحد وبسيط ، ويشكّل هذه السلسلة من الوجود ، فهو بدون شكّ يمتلك وحدة بالصرافة ، لأنّه لا يوجد شيء آخر مقابله حتّى يعنون بعنوان العدد من هذه الجهة . وهذه الطبيعة الخارجيّة هي بحيث **كُلُّ مَا فَرَضْتَ لَهُ ثَانِيَاً عَادَ أَوَّلاً وَكُلَّمَا فَرَضْتَهُ خَارِجَاً عَنْهُ كَانَ دَاخِلاً فِيهِ** . لأنّه صرف ، وهذا هو معنى الصرافة .

أمّا الدرجة العليا من الوجود التي افترضناها واجبة ، فهي وإن كانت بدون شكّ واجدة لجميع الكمالات الأسفل منها ، وفيهاكافّة المراتب مع إسقاط الحدود العدميّة والماهوّيّة بالفعل . لكن ، بدون شكّ ، يوجد أمر في البين ، هو الذي أعطى امتيازاً للدرجة العليا عن سائر الدرجات السفلى ، وليس هو شيئاً غير اسم وعنوان الغيريّة ، وقد صار سبباً لتمايز الدرجة العليا عن الدرجات من الوجود بحيث إنّ الوجودات السافلة وإن كانت موجودة فيه بدون الحدود ، ولكن مع وجود هذه الحدود تصبح خارجة عنه ، ونفس هذا الخروج يستلزم الحدّ والفصل بين الأمرين ، وهذا ما يتنافى مع الصرافه . لهذا لا يمكن فرض عدد مقابل الصرافة ، بينما نحن قد أوردنا عنوان العدد هنا .

وحتّى لو جعلنا هذا الوجود في المرتبة العليا وأعطيناه صفة العلّيّة ،

ولكن في آخر الأمر فإنّ بين العلّة والمعلول يوجد العدد ، ونفس انطواء المعلول في العلّة مع إسقاط الحدود لا يوجب اتّحاد المعلول مع العلّة أو وحدتهما .

وحيث لابدّ من اعتبار ذات الواجب واحدة بالصرافة ، فلا مفرّ إذَن من أن نعتبر موجوداً ينطبق عليه عنوان الوجود ، وهو حاصل على الصرافة وهو شخص واحد يتضمّن جميع الموجودات والممكنات .

وبعبارة أوضح : يكون وجوداً شخصيّاً واحداً هو عين الوجوب وجميع الممكنات مظاهر ومجالي ومرائي له ، لا أنّها بنفسها لها وجود .

وأمّا بناءً على قضيّة الوحدة ، فهذا الأمر محقّق ، لأنّه أوّلاً : قد ثبت أنّ الوجود مساوق للتشخّص ، ولأنّ الوجود واحد فهو شخص واحد وهو الله تعالى شأنه العزيز .

ولهذا الوجود الشخصيّ صرافة ، لأنّه لا يوجد شيء خارج عنه حتّى يطلق عليه عنوان العدد ، فجميع الموجودات مرائيه وآياته ، ليس لها وجود من نفسها ، بل نسبة الوجود والموجود إليها نسبة مجازيّة واعتباريّة ، وقد وسمت ناصيتها بالفقر والعدم والاحتياج .

وبناء على هذا ، لن تكون عقيدة التشكيك الوجوديّ معرّفة للتوحيد الخالص ، بل إنّها تستلزم في نهاية الأمر الحدّ والعدد في ذات الواجب ، حتّى وإن كان هذا الحدّ أو العدد خفيّاً ودقيقاً .

وأمّا تبعاً لوحدة العرفاء بالله وتلامذة مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة» وغيره ، ودقائق كلام حضرة الصادقين عليهما السلام مفسّري القرآن الكريم في التوحيد ، فإنّ مذهب التشكيك في الوجود لا مجال له ، بل تهدم أُصوله وأُسسه وتسيِّره تبعاً للتوحيد .

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا

أَحَدٌ.[١]

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ.[٢]

فغيّرته لم تبق غيراً في العالم :

كُلُّ مَا فِي الكَوْنِ وَهْمٌ أَو خيال
أو عُكُوسٌ فيالمَرَايَا أَو ظِلَال

نشـــانی دادهانـــد اهـل خـرابـات
كـــه التـــوحيدُ إسـقاطُ الإضــافات
وجود اندر كمال خـويش سـاری است
تـــعيّنها امـــور اعـــتباری است[٣]

العلّامة : ما زلتُ أذكر هذه الأشعار ! ولكن للأسف لا يـمكن حـلّ الموضوع بالشعر .

فبالطبع لا يمكن القول إنّ في الوجـود أشـخاص مـتعدّدون ، فـتعدّد الأشخاص في الوجود ، ووجود كلّ شخص من أشخاص الوجود لا يمكن قبوله في الهوّيّة المطلقة للوجود ، وإذا ماكان قبول القول بتشكيك الوجـود يستلزم قبول الأشخاص المتعدّدين للوجود فهذا الأمر ليس مقبولاً .

وفي ذلك التقريب الذي ذكرته في «رسالة الولاية» ،كأنّ الصرافة في الوجود لا تتنافى مع فرض الدرجة العليا للوجود .

١ـ السورة ١١٢ : الإخلاص .

٢ـ الآية ٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٣ـ يقول : «لقد أشاروا في الخربات* ، بأنَّ التوحيد إسقاط الإضافات .
فالوجود في كماله سارٍ في جميع الأشياء ، وليست التعيّنات إلّا أُموراً اعتباريّة» .

* الخربات : في اصطلاح العرفاء مقام ومرتبة انعدام العادات النفسانيّة والملكات الحيوانيّة، ومحلّ كسب الأخلاق الملكوتيّة .(م)

وهذا الكلام الذي ذكرناه حول المراتب كان لأجل إثبات تشكيك الوجود ، وكأنّ الموضوع هو أنّنا إذا ما فرضنا وجوداً ، وأردنا أن نفترض وجوداً آخراً فإنّ الوجود الأوّل أدنى من الثاني ومشمول فيه . وكلّ ما لديه منه ، وفي المرحلة الثانية وغيرها فإنّ الأمر سيدور ما بين الفرض الثاني وما بين الفرض الثالث ويتكرّر الكلام ، مع مرتبة من المراتب التي هي فوق المرتبة الأُولى . عندها ، كلّما ارتفعت المراتب شيئاً فشيئاً على هذا المنوال إلى أن تصل إلى مرتبة ليس فوقها شيء ، فيجب أن تكون تلك المرتبة هي واجب الوجود .

وفي النتيجة سوف تفرض مراتب من الوجود حيث إنّ تلك المرتبة العليا ـ أعلى المراتب ـ هي مرتبة الواجب ، وإذا فرضنا الصرافة فيجب أن نفترضها هناك .

وهذا هو قول القائلين بالتشكيك في الوجود ، وبالتأكيد لا يكفي هذا المعنى وحده لإثبات تشكيك الوجود وإثبات الصرافة ، فهذه نظريّة ، ولكنّ أعلى المراتب التي ذكرناها قد جعلت في الصفّ وهو صفّ من الوجود ترتقي درجاته درجة درجة إلى الأعلى حتّى تصل آخر الأمر إلى مكان يكون فيه أعلى هذه المراتب حتماً وقهراً ، ولا يوجد بعد ذلك أعلى منه .

فهذه طبيعة المسألة . وبالطبع سوف تكون الدرجة الأعلى للصرافة ، لأنّها حائزة على جميع الكمالات .

وَلَا يَشُذُّ عَنْ حِيطَةِ كَيْنُونَتِهِ وَتَحَقُّقِهِ وُجُودٌ ؛ وَكُلُّ مَا فَرَضْتَهُ مِمَّا فِيهِ شَائِبَةُ الوُجُودِ وَالكَمَالِ مَوْجُودٌ تَحْتَ عُنْوَانِ تَشَخُّصِهِ وَتَحَقُّقِهِ .

وهذا ، مسألة دقيقة تحتاج إلى تأمّل وافر ، وسأفكّر فيها . إن شاء الله .

التلميذ : هل يمكن انتزاع مفاهيم متكثّرة من ذات الحقّ جلّ وعلا ؟ وإذا كان ممكناً فبأيّ اعتبار ولحاظ ؟ وإذا لم يكن كذلك فكيف نشأت

أسماء وصفات الحقّ جلّ وعزّ ؟ وهل للأسماء والصفات ـ التي هي مفاهيم لها بلا شكّ ما تنطبق عليه في الخارج ـ معيّة وعينيّة مع ذات الحقّ القدسيّة ، أم هي مرتبة متأخّرة عن الذات وهي من تعيّناتها ؟

ولأنّنا نعلم أنّ انتزاع المفاهيم الكثيرة من الذات الواحدة البسيطة من جميع الجهات محال ، لأنّ المصداق هو هوّيّة ، وخارجيّة المفهوم ، وبناء على هذا ، فإنّ تعدّد المفاهيم يوجب تعدّد المصاديق الملازمة ، فكيف يتصوّر إذَن أن ينتزع من مصداق واحد مفاهيم كثيرة ، والحال أنّ المصداق هو الهوّيّة الخارجيّة للمفهوم ؟

وهذه هي الطريقة التي اتّبعها المرحوم صدر المتألّهين والمرحوم الحاجّ السبزواريّ رحمة الله عليهما .

وبناء على هذا ، فإنّ أساس انتزاع ، العالِم والقادر وسائر الصفات والأسماء الإلهيّة هو باعتبار تعلّقها بأفعال الحقّ تعالى ، إذَن فلأنّ في فعل الله يوجد جهة العلم والقدرة ، أو لأنّ الفعل معلوم ومقدّر ، فيجب إذَن القول بالملازمة : إنّ الله عالم وقادر .

وكان المرحوم السيّد أحمد الطهرانيّ الكربلائيّ يصرّ على عدم عينيّة الأسماء والصفات مع ذات الحقّ تعالى ، في حين أنّ الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ أصرّ على العينيّة ، ولم يعتبر أن انتزاع المفاهيم الكثيرة من الذات الواحد محال بالاعتبارات المختلفة .

العلّامة : لا يوجد أدنى شكّ في أنّ انتزاع المفاهيم الكثيرة من ذات الواحد البسيط من جميع الجهات أمر لا يمكن تصوّره .

ومن المسلّم أنّ النزاع حول العينيّة وعدم عينيّة الصفات والأسماء مع ذات الحضرة الأحديّة لا يشمل جميع الأسماء والصفات ، وهو ليس في الصفات والأسماء الفعليّة كالرازق والحاكم والخالق والغافر وأمثالها .

بل ينحصر في الأسماء والصفات الذاتيّة، كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر.

ومن ثَّمّ فإنّ الصفات الفعليّة ستتنحّى جانباً، والصفات الذاتيّة مرجعها جميعاً إلى الصفات الخمس المذكورة. ولأنّنا نعلم أنّ السمع والبصر يرجعان إلى العلم، يبقى عندئذٍ ثلاث صفات ذاتيّة فقط: الحياة والعلم والقدرة.

وهنا يأتي الحديث عن العلم الذاتيّ والقدرة الذاتيّة، لأنّهما بدون شكّ كالحياة التي هي صفة ذاتيّة، ترجعان إلى الذات.

إنّ المفاهيم بشكل عامّ مثار للكثرة، وكلّ مفهوم ذاتاً، بالضرورة هو غير المفهوم الآخر ومنفصل عنه، فانطباق كلّ مفهوم على المصداق لا يخلو من شائبة التحديد. وهذا الأمر ضروريّ للمتأهّل. وبناء على هذا، سيكون عكس هذه القضيّة أنّ انطباق المفهوم على المصداق الذي هو ذاته غير محدود لابدّ أن يكون متأخّراً عن مرحلة ذاته، ومن جانب آخر نعلم أيضاً أنّ مرتبة المحمول تكون متأخّرة عن مرتبة الموضوع.

لهذا، باعتبار أنّ رتبة ذات واجب الوجود بلحاظ أنّ وجودها وجود بالصرافة، أي أنّه غير محدود، فإنّ هذا الوجود الصرف سيكون أعلى من كلّ تعيّن اسميّ ووصفيّ، ومن كلّ تقييد مفهوميّ وحتّى من نفس هذا الحكم.

لأنّنا عندما نقول أعلى، فهذا سيكون حكماً نجعله على ذلك الموضوع، وتلك الذات البحتة البسيطة أعلى وأرقى من أن تكون موضوعاً لحكمنا هذا وحملنا عليها.

فهذه الحقيقة المقدّسة إذَن مطلقة من كلّ تعيّن مفترض، حتّى من تعيّن هذا الحكم الذي جعلناه، أو الإطلاق الذي حملنا عليه.

ومن هنا يُعلم أنّ تلك العينيّة التي أثبت بالبرهان وجودها بين الذات والصفات هي عينيّة من جانب واحد فقط . أي أنّ الذات هي عين الصفات ولكنّ الصفات ليست عين الذات .

بهذا المعنى أنّ الذات ثابتة بذاتها ، أمّا الصفات فثابتة بالذات .

التلميذ : هل يمكن إثبات أنّ الذات البحتة البسيطة الواحدة لا يمكن الانتزاع منها إلّا مفهوم واحد عن طريق الدليل القائل : **الوَاحِدُ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ إلَّا الوَاحِدُ** الذي هو دليل برهانيّ بالطبع ، وأنّ انتزاع المفاهيم الكثيرة من الذات البسيطة محال .

العلّامة : بالطبع ، إنّ هذا الدليل يستعمل في باب العلّة والمعلول ، وليس في باب الانتزاعيّات ، ولكن ربما أمكننا أن نجري ملاك ذلك الاستدلال ومقدّماته هنا أيضاً ، وإن لم يُستدل به من قبل .

* * *

التلميذ : هناك موضوع يطرح كثيراً في الكتب العرفانيّة ، وقد ورد في كتب الفلاسفة أيضاً وهو أن **لَا تَكْرَارَ فِي التَّجَلِّي** ، فما المقصود بالتجلّي في هذه العبارة ؟

العلّامة : المقصود هو التجلّي الوجوديّ ، أي أنّ الوجود في التحقّق الخارجيّ هو وجود واحد . فلا يمكن أن يتحقّق موجود في مرتبتين . فوجود زيد واحد ، وله تحقّق واحد . فلا يصحّ أن يتحقّق زيد مرّتين . فأن يكون زيد واحد ويتحقّق مرّتين فهذا لا معنى له . فليس لدينا زيدان أو أمير المؤمنين اثنين . وليس معناه أنّه لا يصحّ أن يتحقّق وجود شخص متعيّن باثنين من **الأين** أو **المتى** (مكانين وزمانين) ، فلهذا دليل آخر ولا يقال له التكرار في التجلّي .

وإذا كان لجوهر ما عرضين لا يقال : تكرارٌ في التجلّي ،كأن يكون

زيد في الوقت الواحد في زمانين أو مكانين .

أي أنّ الجوهر الواحد لا يمكن أن يكون جوهرين ، والتحقّق الوجوديّ لا يمكن أن يكون تحقّقين . فالتحقّق الوجوديّ واحد ليس أكثر ولا تكرار فيه .

فالعدد واحد لا يكون اثنين . والوجود والتحقّق واحد . التحقّق الواحد لا يكون اثنين .

وعليه فمجموع عالم الكون تجلٍّ واحد ، من أوّل عالم الخلقة حتّى انتهائه . فكلّ تحقّق هو تحقّق واحد ، لا تكرار فيه وهو واحد مستقلّ وهوّيّة واحدة . فإذا نظرنا إلى كلّ العالم فإنّ له هوّيّة واحدة وتحقّقاً واحداً . وإذا نظرنا إلى بعضه فإنّ له هوّيّة واحدة وتحقّقاً واحداً .

این همه عکس می ونقش مخالف که نمود
یک فروغ رخ ساقی است که در جام افتاد[1]

* * *

التلميذ : بالنسبة لهذا المطلب ، **النَّفْسُ جِسْمَانِيَّةُ الحُدُوثِ رَوحَانِيَّةُ البَقَاءِ** الذي هو مطلب نفيس جدّاً ومتين وراسخ ومحكم ، والذي أسّس قواعده وشيّد بناءه المرحوم الآخوند رضوان الله عليه على أساس الحركة الجوهريّة ، وتدلّ عليه الآيات القرآنيّة . فما هي أفضل وأوضح الآيات للوصول إلى هذا المعنى[2] ؟

١ـ شعر حافظ الشيرازيّ :

يقول : «وجميع هذه الصور التي بدت في انعكاس الخمر وصورة الحبيب ... ما هي إلّا شعاع واحد من طلعة الساقي بدأ في الكأس» .

٢ـ لقد كان قدماء الفلاسفة المتألّهين اليونانيّين والمسلمين مثل ابن سينا يعتقدون بأنّ النفس خُلقت منذ الأزل ، فهي تتعلّق بالبدن للقيام بأفعالها . وأنّ البدن ليس في ⇦

العلّامة :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّـن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَـوْنَا ٱلْعِظَـٰـمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَـأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَـرَ فَتَبَـارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَـنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ . [١]

يقول الله سبحانه و تعالى في هذه الآيات : لقد خلقنا الإنسان من الطين الخالص ، فأصل خلقة الإنسان إذاً من سلالة الطين ، ومعلوم أنّ الطين جسم ، فحدوث الإنسان بدأ من الطين الجسمانيّ .

ثمّ بعد خلقه من الطين جعلناه (أي ذلك الإنسان الطينيّ) نطفة . فعلى أساس الحركة الجوهريّة تحوّل الطين إلى نطفة ، ويُلاحظ هنا تبديله إلى جسم ، أي أنّ جسماً قد تبدّل إلى جسم آخر .

ثمّ خلقنا النطفة علقة ، أي على هيئة قطعة دم متخثّر . وهنا تبديل

⇦ الحقيقة إلّا آلة لأعمال النفس . بَيدَ أنّ صدر المتألّهين أثبت ـ بواسطة الحركة الجوهريّة ـ أنّ النفس تحتاج إلى البدن في أصل ماهيّتها الوجوديّة ، وأنّها تتحقّق بالبدن أُصولاً ، وأنّ الإنسان عبارة عن موجود تدريجيّ أوّله مادّة وآخره عقل . فنفس الآدميّ تبدأ من نطفة هي خليّة أُحاديّة، ثمّ تصل ـ بعد تكوّنها وعبورها لمراحل الحسّ والخيال والوهم ـ إلى مرتبة العقل فتصبح مجرّدة وتبقى على الدوام .

إنّ نفس الإنسان كمثل الفراشة في الشرنقة ، وكالجنين في الرحم ، وكَلُبّ اللوز والجوز الذي يكون بدء تكوّنه ممزوجاً بالقشر ؛ فهو يتكوّن ويتحقّق بالبدن ، ثمّ يتحرّك في مسيرته التكامليّة فيبقى مدّة مع البدن ، ثمّ إنّه يصبح بعد البدن قائماً بنفسه بواسطة استكمال الجوهر فيستغني عن البدن وينفصل كمثل زيت اللوز وزيت الجوز ، أو كالفراشة التي تخرج من الشرنقة، أو كالحيوان الذي يبدّل جلده ؛ فيخلع البدن ويعيش دون مادّة ، أي بدون البدن، ويصبح مجرّداً .

١ـ الآيات ١٢ إلى ١٤ : من السورة ٢٣ : المؤمنون .

جسم بجسم آخر .

فخلقنا العلقة مُضغة ، أي مثل قطعة من اللحم ممضوغة . وهنا أيضاً تبديل جسم بجسم آخر .

فخلقنا المضغة عظاماً ، وهنا أيضاً تبديل جسم بجسم آخر .

ثمّ كسا الله سبحانه و تعالى تلك العظام لحماً . ثمّ أنشأناهُ خلقاً آخر ، أي أنّنا جعلنا هذا الإنسان الجمسانيّ روحانيّاً . فتبدّلت حقيقة وروح هذه الأجسام إلى النفس الإنسانيّة الناطقة .

وفي **ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** تنحّت المادّة جانباً ، وتبدّلت إلى النفس المجرّدة .

وبناء على ما جاء في الآية فإنّ ما قاله الحكماء القدماء من أنّ الإنسان حين خلقته يبدأ أوّلاً بالوجود الجنينيّ حتّى يصل إلى المرحلة التي يصبح فيها مستعدّاً لولوج الروح ونفخها ، وهناك ودفعة واحدة يوجد الله النفس **مُتَعَلِّقَةً بِالمَادَّةِ** ، فهذا الأمر مخالف للآية المباركة .

الحكماء القدماء كانوا يقولون بأنّ الإنسان مركّب من الروح والبدن ، ولكنّ الآية لا تعطي هذا المعنى (أي التركيب) ، بل تتحدّث بصراحة عن التبديل .

فهي تقول : بأنّ الإنسان من سلالة من طين ، ثمّ يصبح كذا ، ثمّ كذا ... ثمّ تسير الخلقة الإلهيّة على أساس المسار المادّيّ خطوة خطوة ، حتّى تصل إلى أن تترك المادّة **ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** ، إذ تتبدّل المادّة إلى خلقة أُخرى . فعلى أثر الحركة الجوهريّة تتبدّل المادّة إلى موجود مجرّد ، ويتحوّل الجسم إلى نفس ناطقة .

فهذه الآية واضحة جدّاً . ولكن في نفس الوقت لدينا آيات أُخرى من القرآن الكريم تعطي نفس المعنى ، منها قوله تعالى :

مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ.[١]

وفي هذه الآية تصريح بأن الإنسان قد خلق من الأرض ؛ وعليه ، فبدء خلقة الإنسان من الجسم . ومنها أيضاً :

وَٱللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا.[٢]

فإنبات الإنسان من الأرض يدلّ على جسمانيّة أصل خلقته ومادّيّته . وهناك أربعة تعابير وردت في القرآن المجيد حول أصل الخلقة :

١ ـ **مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** .[٣]

٢ ـ **مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ** .[٤]

٣ ـ **مِن سُلَـٰلَةٍ مِّـن طِينٍ** .[٥] **وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ** .[٦]

٤ ـ **مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ** .[٧]

أمّا **حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ، فهو عبارة عن الوحل المتعفّن ، لأنّ الحمأ بـمعنى الطين الأسود ، و**مَسْنُون** المسنون بمعنى الرائحة الكريهة أو الطعم الكريه ، وفي كلّ الأحوال فإنّ أصل خلقة الإنسان من طين متعفّن ذي رائحة كريهة أو طعم كريه .

وأمّا **صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ** ، فالصلصال هو الطين المتيبّس المتشقّق الذي إذا سير عليه سُمع له صلصلة ، و**فَخَّار** بمعنى الطين المطبوخ بالنار ، أي أنتّنا

١ـ الآية ٥٥ ، من السورة ٢٠ : طه .

٢ـ الآية ١٧ ، من السورة ٧١ : نوح .

٣ـ ذيل الآية ٢٦ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٤ـ ذيل الآية ١٤ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٥ـ ذيل الآية ١٢ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٦ـ ذيل الآية ٧ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٧ـ ذيل الآية ٨ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

خلقنا الإنسان من طين يابس له صلصلة كالفخّار .

وهناك ستّ آيات في القرآن المجيد تدلّ على أنّ أصل خلقة الإنسان من التراب . منها قوله تعالى : **وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا** .[١]

وقوله تعالى : **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ** [٢]

وخلاصة القول أنّ مجموع هذه الآيات بدون أيّ شكّ أو تردّد يبيّن أنّ أصل خلقة النفس الإنسانيّة من الجسم والمادّة . هذه المادّة التي كانت بصورة الصلصال أو الحمأ المسنون أو غيرهما . ثمّ تحوّلت على أثر التطوّرات والتبدّلات الحاصلة في جوهرها إلى نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة . أو أنّ آدم أبا البشر قد أُلبس رداء الوجود بعد خلقه من التراب بكلمة **كُنْ** التي هي نفس المشيئة الإلهيّة ، وكان هذا بواسطة الحركة في الجوهر .

أي أنّ نفس الجوهر في كينونتة متحرّك ، ففي البداية كان الجوهر في ماهيّة سُلالة من طين ـ مثلاً ـ ثمّ تحوّل من خلال الحركة في جوهره وذاته إلى عالم النطفة ، فتبدّل إلى ماهيّة النطفة . ثمّ تحرّكت النطفة في جوهرها وذاتها إلى عالم العلقة ، فصارت علقة وتبدّل إلى ماهيّة العلقة ، ثمّ تبدّلت العلقة إثر الحركة الجوهريّة إلى ماهيّة المضغة ، ثمّ تحرّكت المضغة في جوهرها وتبدّلت إلى عظام .

وبعد نبات اللحم على العظم تبدّلت دفعة واحدة إلى النفس المجرّدة : **ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** . فصارت المادّة نفساً ناطقة وروحاً متعلّقة بالمادّة ؛ روحاً في قالب الجسد .

وعندما تخرج من هذا العالم ، تترك هذه الروح المجرّدة المادّة دفعة

١ـ صدر الآية ١١ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٢ـ صدر الآية ٥٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

واحدة وتلقي بها فتبقى المادّة في الأرض لوحدها دون تعلّق النفس ؛ فتحقّق **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ** .

ثمّ تستمرّ النفس الناطقة بعد تجرّدها عن المادّة ، وبعد الموت بالسير التكامليّ من خلال الحركة في جوهرها . وبعد عبور عالم البرزخ تصل إلى التجرّد القياماتيّ ، وترتدي حلّة القيامة : **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ** . كلّ هذا يحدث بسبب الحركة في الجوهر . ومادام الإنسان مادّة محضة ، كانت الحركة في المادّة ، وعندما أصبح نفساً ناطقة كانت حركته الجوهريّة في النفس الناطقة .

ويمكن تشبيه هذه التحوّلات في الإنسان على إثر الحركة الجوهريّة بنور المصباح الذي يخرج من الفتيل . فأصل هذا النور كان زيتاً ، أو بذور صغيرة من زيت الخروع ، أو حطب ووقود .

على إثر صفاء الاحتراق ، يتبدّل الزيت والوقود وغيرها إلى شعلة نورانيّة . وتتبدّل الشعلة إلى غاز ويخرج شعاعها لينير المحيط .

التلميذ : وفي هذه الحالة ماذا يحدث بقوس النزول والصعود ؟ يوجد روايات تقول إنّ الله تعالى خلق الأرواح قبل ألفي سنة من أجسادها ، وكذلك هناك روايات مختلفة بمضامين أُخرى تدلّ إجمالاً على أنّ الأرواح قد خلقت قبل الأجساد . وبشكل عامّ تدلّ الروايات على وجود عوالم قبل عوالم الطبع والمادّة . وكان الإنسان فيها وكانت له محادثات . ثمّ تنزّل من تلك العوالم واحداً بعد الآخر حتّى وصل إلى هذا العالم .

العلّامة : تلك المجموعة من الروايات لا تتنافى أبداً مع القول بكون بدء خلق الإنسان من الأصل الجسمانيّ . فليس الإنسان وحده له روح وملكوت ، بل جميع موجودات عالم المادّة . وحقيقة الروح والملكوت ليست من عالم الجسم والمادّة ، بل من العوالم العليا التي وجدت لها نوع

من التعلّق بالمادّة .

وللنطفة ملكوت وكذلك للعلقة ، ولكلٍّ من الحجر والشجر والماء والأرض ملكوت ، فالحيوانات والطيور والكواكب والنجوم لها نفوس مختصّة بها وملكوت .

جميع هذه النفوس والملكوت ليست من عالم الجسم والجسمانيّة ، بل من العوالم العليا وقد تنزّل كلّ واحد بحسب ذاته من نقطة خاصّة ، ووجد نوعاً من التعلّق بالمادّة .

ومن جملتها نفس الإنسان التي هي من العوالم المجرّدة العليا ،ولأنّها لا تستطيع أن تكتسب عدّة جهات من الكمال بسبب تجرّدها ، وتلك الجهات موجودة في عالم الكثرات والعوالم السفلى ، لهذا تنزّلت للحصول على كمالات الكثرات . وبعد الحصول عليها ترتفع صاعدة مرّة أُخرى إلى أن تنال الحضور لدى حضرة الحقّ تعالى ، فهي في الواقع كانت في الأعلى ثمّ تنزّلت إلى الأسفل ثمّ ارتفعت مجدّداً .

وبيان ذلك : أنّ هذه الروح المسكينة بحسب الظاهر كانت في المرحلة الأُولى في الأعلى ، ثمّ تنزّلت درجة درجة ، وكانت وجهة سيرها نحو النزول . وفي طيّ هذه المراحل النزوليّة لم تكن هادفة إلّا إلى الحصول على الكثرات التي تعلّقت بالمادّة عن طريق المادّيّة ، وكان هذا هو توجّهها وهدفها الوحيد ، لأنّه إذا كان للإنسان هذه الإنسانيّة ، ولم يكن له شيء ممّا وراء الإنسانيّة لما استفاد من هذه الكثرات شيئاً (أي الكثرات التي تصدر من الإنسان في هذه النشأة) ولما امتلكت الروح المجرّدة الخارجيّة أنواع وأقسام الأعمال والأفعال والأوصاف .

لقد نزلت الروح إلى عالم الكثرات لكي تجمعها وترتفع بها إلى العالم العلويّ ، ثمّ إذا أرادت الهبوط من الأعلى إلى الأسفل فإنّها تجمعها

وتنزّلها معها ، وتنهي الأمر .

وأثناء نزولها إلى هذا العالم تتّخذ في مسيرها صبغة كلّ عالم تعبر منه . وكلّما عبرت مرحلة تتحوّل إلى فرد من تلك المرحلة . وعند الوصول إلى عالم المثال في قوس النزول تصبح تماماً كواحدة من الموجودات المثاليّة ، لها صورة مثاليّة وفرداً منها .

وعندما تصل إلى عالم الطبع والمادّة تصبح تماماً فرداً مادّيّاً ، ومادّة محضة حقيقتها النطفة . وقد تنزّلت تلك الروح المجرّدة إلى الدرجة التي أضحت فيها مجرّد روح لنطفة . وقد تبدّلت ـ روح النطفة هذه ـ على إثر الحركة الجوهريّة إلى صور وماهيّات مختلفة . لتعبر مرّة أُخرى من المادّة وتصبح مجرّدة . فهناك وعلى إثر الحركة تحصل على الاختيار ، وتوجد الروح .

إذاً ، فعندما يكون الإنسان نطفة تكون حقيقته قد تنزّلت إلى هذا الحدّ وأصبحت نطفة حقيقيّة ، وبعد التبدّلات والتحوّلات الصوريّة تصل إلى : **أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** . وتتبدّل حقيقة العظم واللحم الذي نبت عليه إلى النفس الناطقة المجرّدة التي تعبر المراحل اللاحقة أيضاً . ولا يعني هذا أنّ الجسم منفصل والروح تنفخ فيه فيجتمعان لأيّام معدودة ثمّ ينفصلان .

فكمالات الإنسان تحصل بواسطة نشأة الكثرة إذا لم يتنزّل وليصبح مادّة محضة ، ثمّ يشرع مجدّداً في سيره إلى العوالم العليا لما كان له كمال .

هذه الروح التي تنزّلت من الأعلى إلى الأسفل لم تكن إلّا واحداً . فعندما تنزّلت شرعت باكتساب الفعليّات وأخذ الخصوصيّات وتحصيل الكثرات .

فجمعتها كلّها وحملتها معها مرتفعة بها إلى الأعلى فارتفعت وارتفعت .

التلميذ :كيف تأخذ روح الإنسان هذه المكتسبات من الكثرات معها إلى الأعلى ؟ فالعالم العلويّ ليس عالم الكثرات ، لأنّ الكثرة ولوازمها وآثارها من خصائص عالم الكثرة ؛ أمّا عالم الفناء فلا وجود للكثرة فيه . فهناك لا وجود لزيد وعمرو وبكر ، لأنّ هذه تكون قبل مقام الفناء في الله . أمّا عند الفناء فلا يوجد شيء منها ؛ وأمّا بعد الفناء في عالم البقاء بالله فيمكن تصوّر هذه الكثرات ، فهناك يحفظ زيد وعمرو وبكر وآثار ولوازم الكثرة كلّ في مكانه في عالم البقاء بعد الفناء ، فإن جميع الكمالات تكون موجودة ، وشؤون الجميع وآثار الكلّ مشخّصة ومحدودة ومحفوظة في مواضعها .

أمّا في عالم الفناء ، فإنّ الكمال يختصّ بالله ، فهناك لا يوجد شيء إلّا الله صاحب الكمال .

وفي الأصل ، لا يمكن لأيّ شيء الدخول في عالم الفناء ، لأنّه عالم الفناء وخاصّ بالذات الأحديّة المقدّسة . فكيف يمكن لزيد أن يَرِدَ ؟ ويحمل معه آثار الكثرات المكتسبة من العلوم والمعارف والفنون ؟

ومن المعلوم أنّ الكمال منذ البدء هو للّه وسوف يبقى للّه ؛ ولا أحد يمتلك حقّ الكمال . أمّا في عالم الكثرة فإنّ الناس ينسبونه لأنفسهم مجازاً لأنّ ستار الغفلة والأوهام قد أعماهم عن مشاهد جمال الحقّ . وبعد كشف الغطاء ورفع الحجاب يتّضح أنّ الكمال مختصّ حقيقةً بذات الحقّ ، ونسبته إلى الغير مطلقاً نسبة مجازيّة . وفي نفس الكمال الذي هو الوصول إلى مقام **الفناء في الله** ، لا يوجد أيّ نوع من شوائب الكثرة . فالكلّ فانٍ ومندكّ ومضمحلّ . ونسبة الكمال المطلق مختصّة بذات حضرة الأحديّة ،فقط .

في حالة الفناء لن يبقى بعد أيّ فاصلة أو حجاب . فكلّ الحجب تنعدم وتزول حتّى حجاب الإنّيّة :

بَيْنِي وبَيْنَكَ إنِّي يُنَازِعُنِي فَارْفَعْ بِلُطْفِكَ إنِّي مِنَ البَيْنِ

العلّامة : في نشأة الدنيا هذه يحصل الإنسان على كمالات . فالإنسان بما أنّه إنسان عندما أدرك الكمال فقد أدركه في هذه النشأة . وعندما حصل على التعيّن من العالم العلويّ وتنزّل إلى الأسفل لم يكن له جسم وجسمانيّة ، ولهذا لم يكن له خصوصيّات الاسم والموقع والموضع . أمّا عندما جاء إلى بُعد الكثرات وحلّ في نشأة المادّة والجسمانيّة وارتدى لباس البدن ، حصل على هذه الآثار والخصوصيّات وأخذ هذا الاسم .

هَذا إنْسانٌ ، هَذا زَيْدٌ ، هَذا عَمْرٌو . وبهذه الكثرات أكمل الطريق واكتسب الكمال . وعندما يرجع إلى الله ، ويفنى في المقام الأخير فإنّ عينه الثابتة ستبقى في النهاية ، فالأعيان الثابتة لزيد وعمرو وبكر لا تضمحلّ ولا تصبح واحدة .

إنّ الفناء في ذات الله ليس متلازماً مع زوال العين الثابتة ،بل لن تزول العين الثابتة بأيّ وجه من الوجوه . فزيديّة زيد وعمرويّة عمرو لا تزول ، ولا تفسد ولا تبطل هويّتها .

إذاكان الأمر في النهاية على أساس زوال العين الثابتة حين الوصول إلى الكمال ، وهو مقام الفناء في الله ، وبطلان الهويّة . فلماذا إذَن كلّ هذه المتاعب والآلام والمساعي والجهد والعبادات والمجاهدات ؟

إذا لم يكن ليبقى اسم ولا رسم ولا أنا ولا نحن ولا إنّيّة ، فلماذا الدعوة إذَن ؟

وعلى أيّ أساس وإلام يدعو الأنبياءُ والأولياءُ البشرَ ؟ ويطلبون منهم أن يضحّوا ويجاهدوا ويتحمّلوا الصعوبات ، ألِأجل الفناء والعدم ؟! فإذا كانت نتيجة اكتساب الكمالات هي العدم واللا شيء ، فالدعوة إذَن عبث ، ولا أحد يقبل ويستجيب لهذا الأمر ولا معنى للاستجابة أيضاً .

منذ البدء كانت جميع الكمالات مختصّة بذات الحقّ جلّ وعلا، وهي اليوم كذلك. والدعوة هي إلى الكمال المطلق، أي إلى الفناء في ذات حضرة الأحديّة، أي أن يفنى زيد في الكمال المطلق. ـ إذَن ـ يجب أن يبقى زيد، وأن يبقى تعيّن وعين ثابتة، ويجب أن تبقى كذلك الهويّة، حتّى نقول إنّ زيداً ذاك بهويّته تلك قد وصل إلى كماله وفني في ذات الحقّ.

إنّ هذا الكلام يصبح صحيحاً حين نقول: زيد فني في ذات الحقّ. وهذا منتهى كمال زيد. أمّا أن نقول إنّ أصل زيد يفنى بواسطة الفناء فلا يبقى منه شيء ولا عين ثابتة في الفناء، فهذا كلام لا أساس له، ولا يمكن أن يقال.

إذا كان الأمر على أن لا يبقى شيء لا زيد ولا اسم ولا رسم، فهذا يعني محضاً السير نحو العدم واللا شيء، بينما بالغريزة يجد كلّ فرد من أفراد البشر في أعماقه شوقاً للوصول إلى الكمال المطلق وليس إلى العدم.

أمّا بالنسبة للشعر الذي تنشدونه: * **بَيْنِي وبَيْنَكَ إنِّي يُنَازِعُنِي** * فهنا يوجد عدّة أُمور: الأوّل: **بَيْنِي**. الثاني: **بَيْنَكَ**. الثالث: **إنِّي**. الرابع: **يُنَازِعُنِي**، فهذه أربعة أُمور واقعيّة موجودة.

فلا يمكن القول إنّ القائل يطلب بكلامه هذا زوالها جميعاً. ليفنى كلّ شيء، ويصبح عدماً في عدم.

ألا يوجد أيّ أثر للإنسان والإنسانيّة في الجنّة والعالم العلويّ؟! إن كان الأمر قائماً في الجنّة على الفناء ولا يوجد شيء، فما هي هذه الجنّة؟!

التلميذ: في عالم الفناء لا يوجد شيء إلّا ذات حضرة الأحديّة. لأنّ المفترض هو الفناء في الذات. وإذا قلنا بأنّ الكثرة تدخل في ذات الحضرة الأحديّة فإنّ إشكالات لا حصر لها سترد هنا، فالزيديّة والعمرويّة والأسماء والرسوم والتعيّنات والأعيان الثابتة كلّها من مثار الكثرة وشؤونها،

ولا طريق لها إلى اعتاب ذلك الحرم .

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا .[١]

لذا لا يمكن لشيء أن يكون ثابتاً في عالم الفناء ، ولأنّه لا يمكن لأيّ شيء الدخول في عالم الذات .

نعم ، جميع الكثرات بحدودها وشؤونها وآثارها باقية في عالم البقاء ، أي بعد حال الفناء ، حيث تعود النفس إلى الكثرات ويبدأ السَّيرُ **إلَى الحَقِّ بِالحَقِّ** ، فتبقى جميع آثار الكثرة قائمةً دون ذرّة نقصان أو زيادة كلّاً في موضعه ومحلّه . أمّا جميع الكمالات المكتسبة في هذه العوالم والتي تلتذّ بها النفس وتبتهج من العلوم والفنون والمعارف ، فموجودة بأجمعها في عالم البقاء .

لكنّ في نفس الفناء فلا يوجد أيّ شيء ، ولا يصحّ أن يكون شيء . فهناك يكون الكمال منوطاً بالعدم ، وهذا الكمال من أعظم الكمالات . فمَن ذا الذي يستطيع أن يرى لنفسه كمالاً مقابل ذات الأحديّة ؟ فلأنّه سبحانه صاحب الكمال ، لا يبقى مجالٌ لكمال غيره . وهذه أعلى درجة لمنزلة ومقام الإنسان والإنسانية ، حيث يرى الإنسان نفسه فانية ومعدومة ، ويرى الوجود المطلق منحصراً بذات الله تعالى .

وحيث ما يكون الوجود وحقيقة الكمال من مختصّات ذات الله ، لا يصحّ أن يدّعي أحد الوجود والكمال . ولا يليق مع وجوده سبحانه تعالى الحديث عن امتلاك الهويّة والعينيّة والأعيان الثابتة ونسبتها إلى النفس وحملها معها إلى هناك ، فهناك مقام **ال هو هو** ، فماذا تفعل الأعيان الثابتة هناك ...؟**!**

١ـ الآية ١١١ ، من السورة ٢٠ : طه .

لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .[١]

إنّ الفناء والزوال والبطلان للعين الثابتة في عالم الفناء هو إقرار واعتراف بوحدانيّة الله ، والاعتراف بالولاية ؛ أي بحقّ العبوديّة المحضة للعبد ، وليس معناه العدم واللاشيئيّة .

أي أنّ الإنسان يكون مدّعياً للربوبيّة في عالم الكثرة ... وكلّ واحدة من التعلّقات تجذب قلبه إليها . ولكن إذا وصل إلى عالم الفناء واعترف أمام الحضرة الأحديّة بعدمه المحض وفنائه الصرف ، وترك أخيراً وجوده في المرحلة الأخيرة ، وأصبح فانياً وصدق عليه الفناء ؛ هناك لن يبقى وجود لذاتٍ أو إنّيّة ، يرى نفسه أو يرى الله ، لأنّه لا يمكن أن نجد الإنّيّة في الله ولا طريق لزيد وعمرو .

إلى هناك ، بل هناك الحقّ الذي يرى نفسه ، والحقّ يدرك الحقّ ، لأنّه لا وجود لشيء إلّا الحقّ . **لَا إلَهَ إلَّا هُوَ و لَا هُوَ إلَّا هُوَ** .

إنّ الجنّة ولذّاتها تابعة بأجمعها لعالم الكثرة . وهذا ما يتحقّق في البقاء بعد الفناء .كما أنّه لدينا ثماني جنّات . ففي جنّة اللقاء وجنّة الذات ، حيث الدرجة العليا منها مقام الفناء ، لا يوجد شيء إلّا حضرة الحقّ . وهذا العدم والفناء أقوى من كلّ الوجودات ، والروح فداء لهذا العدم الذي هو حقيقة الوجود وأصله .

أمّا في البيت الشعريّ * **بَيْنِي وبَيْنَكَ إنِّيِ يُنَازِعُنِي** * وإن كان هناك أربعة أشياء موجودة ، ولكنّ الشاعر قد تعب منها ويرجو رفعها وإحالتها عَدَما ، ويقول : * **فَارْفَعْ بِلُطْفِكَ إنِّيِ مِنَ البَيْنِ** * أي ارفع إنّيّي واعدمني وافنني في ذاتك وأوصلني إلى الفناء المحض ؛ فهو يطلب الفناء في ذات

١ـ ذيل الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

الحقّ .

فإذا زالت الإنّيّة من البين تتبعها الأشياء الثلاثة الأُخرى في الزوال فلن تبقى منازعة ولا بَيْنِي ، ولا بَيْنَكَ ، لأنّ جميع هذه الإفاضات والمنازعة تتبع الإنّيّة .

هناك في عالم التوحيد وحدة محضة . وإلّا لم يكن توحيداً . وهناك لا شيء إلّا الله . فهو الذي يشاهد نفسه ، ومستغرق في ذاته . وتبقى كلّ الإنّيّات والأعيان الثابتة في الخارج ، ولا حقّ لها بالدخول .

يقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

إنَّ سَعْداً [١] **لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَهُ تَعَالَى أَغْيَرُ مِنِّي وَمِنْ غِيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .**

فلازم الغيرة أن لا يدع الغير يدخل ، وإلّا لم تكن غيرة ؛ وقد حرّمت الفواحش والسيّئات على هذا الأساس . فأصل الاعتماد على الوجود الشخصيّ والإنّيّة في مقابل الله هي الفرعونيّة بعينها . فأين يمكن لهذه الإنّيّة أن تجد طريقاً إلى ذات الحقّ ؟ لكلمة واحدة «ابتعدي» تقذفها إلى الجزر الخالدة حتّى لا يبقى منها أيّ أثرٍ ... وبقاء العين الثابتة في حال الفناء إنكار للفناء .

وعليه ، ألا يوجد عندنا فناء في ذات الله ؟ فماذا يصبح آنذاك معنى **وَإِلَى ٱللَهِ ٱلْمَصِيرُ** ، و **أَلَآ إِلَى ٱللَهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ** ، و **إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ** .

فما هي الإشكالات العقليّة أو النقليّة التي ترد علينا إذا قبلنا أصل الفناء في ذات الله ، بحيث نصبح ملزمين بقبول بقاء الأعيان الثابتة ؟

العلّامة : إذا كانت الكمالات مختصّة بعالم البقاء . وفي الفناء يكون

١ـ والمراد منه سعد بن عبادة .

العدم المحض هو الحاكم بشكل مطلق وكلّيّ. وتضمحلّ العين الثابتة وتهلك ولا يبقى لها أيّ أثر، فبماذا سيتحقّق الرجوع في عالم البقاء؟

لأنّه بناء على الافتراض المذكور لا شيء في عالم الفناء، وزيديّة زيد تبطل وتندكّ فلا يبقى منها شيء. إذاً، فبماذا يرجع إلى البقاء؟ فزيد معدوم، ولا تعيّن له، ولا عين ثابتة، وجميع الكثرات في هذه الحالة على حدّ سواء، والرجوع إلى جميع الموجودات والماهيّات والإنّيّات يكون متساوياً بالنسبة إليها، فإذا أراد الرجوع فإلى أين يرجع، وبأي شيء يرجع؟ أيّ معنى للبقاء في مثل هذه الحالة؟ وإذا تجاوزنا هذه النقطة، إذَن ففي الفناء حيث لا يوجد شيء.

ولأنّه لا يوجد شيء، فمن أيّ هويّة وإنّيّة يتحقّق عنوان الرجوع من الفناء إلى البقاء.

وعلى هذا، سوف يأخذ البقاء معه صورة الحدوث والخلقة الجديدة. كان زيد، تحرّك وأصبح فانياً ومندكّاً في الذات البحت البسيطة ـ وصار اللا شيء ـ ولم يعد له أيّ أثر. ثمّ يخلق الله إنّيّة وعيناً ثابتة ثانية، وفيها يخلق الوجود ويتجلّى. فهذا حدوث وخلق جديد وليس بقاءً بعد الفناء.

وبناء عليه يبقى عالم الكثرات محفوظاً في مكانه. وتكون الكثرات في العالم حقائق موجودة ومتحقّقة. وهذه الحقائق كلّ واحد منها لها كمال في أقصى نقطة من مسيرها. ونحن ندعوها نسبة إلى هذا الكمال. ولا يمكن تعقّل هذا الكمال بدون بقاء العين الثابتة. أمّا إذا قلنا: عند العود في الفناء وفي المعاد لا شيء إلّا الفناء، لا شيء غير الفناء في الله، لا وجود للكثرات. فهذا ممّا لا يمكن قبوله.

وفي حالة الخلقة الجديدة التي أطلقنا عليها اسم البقاء، فلا اختصاص لها بذلك الموجود الفاني. بل بناءً على الفرض هذه الخلقة الجديدة لا ربط

لها ولا تعلّق بذلك الموجود الفـاني . ولا بـقاء للـعين الثـابتة حـتّى تـوجب الارتباط والحمل بـهو هو . بناء عليه ،كلّ خلق جديد يمكن أخذه على أنّـه بقاءكلّ موجود فانٍ .

فهل يصحّ أن نعتبر أنَّ زيداً في حال البقاء بعد الفناء هو بقاء عـمرو الفاني ، وأنَّ عمرو الباقي بعد الفناء هو بقاء زيد ، وهكذا ؟كلّ شيء بقاءكلّ شيء . فبطلان هذا الأمر واضح .

وبقراءة **إنَّ سعداً لغيور** ، وأمـثال هـذه الروايـات لا يـمكن إخـراج الكلام عن مداره ، والآيات القرآنـيّة **إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ** وأمـثالهاكـلّها صحيحة . ولكنَّ المشكلة في معناها هي ، فهل فناء الموجودات يعني زوال أعيانها الثابتة أو لا ؟ الفناء بصورة بقاء الأعيان الثـابتة . وهـذا هـو المـعنى المراد المطلوب ، لأنـّه يقول : **تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ** فلابدّ إذَن من بقاء أُمـور حـتّى تصدق عليها الصيرورة إلى الله .

وقد ثبت في البحث الفلسفيّ عن أنواع المجرّدات مثل الملائكة أنَّ كلّ نوع منها منحصر بالفرد ، ففي الملائكة لا يوجد عنوان النـوع وأفـراد النوع ، لأنـّها مجرّدة غير مادّيّة ، فلا جنس لها ولا فصل ، ولهذا فإنَّ كلّ نوع من المجرّدات ينحصر بفرد . وهنا يطرح هـذا الإشكـال ، وهـو : أنَّ هـذه الأنواع المتفرّدة أي المنحصرة كلّ منها بفرد مع أنـّه لاكثرة فـيها ،كـيف نزلت إلى هذا العالم ... ؟ وكيف تحقّقت فيها تلك الكثرات ؟ ليس لدينا في تلك النشأة إلّا جبرائيل واحد ، وميكائيل واحد لا أكثر ، فكيف تحقّقت فيها تلك الكثرات والآثار الكثيرة التي هي آثارهما الوجوديّة ؟

فأُجيب : بواسطة التعيّن الاسميّ الذي لها . فبواسطة هذا التعيّن تظهر الكثرات في الخارج ، ولا تزول خصوصيّة الكثرة من البـين . وعـليه فـإنَّ الواحد لدينا ليس بواحد ، بل آحاد مختلفة وكثرات متباينة ، وعلى كلّ حال

لا يمكن إثبات الكثرة الواقعيّة لها بعد .

فجبرائيل واحد ، وهو واحد من نـوع المـجرّد يأتـي إلى هـذا العـالم فيوجد بواسطة اتّصاله بهذا العالم نوعاً من الكثرة .

ولأنَّ جبرائيل له تـعيّن اسـميّ ووحـدة عـدديّة ، فـهو يـقف مـقابل ميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، ولكن بما أنَّ له تعيّناً اسـميّاً فـهو مـن هـذه الناحية كالشمس التي تنشر ضياءها في كلّ أرجاء الدنيا وتوجد الكثرات .

فالشمس واحدة ، نورها الذي هو الشمس واحد ، ولكنَّ هذه الشمس الواحدة بما أنـّها تنتشر في أماكن مـتعدّدة فـإنَّها تـحصل عـلى خـصائص الكثرة ، وهي تسطع على آلاف الأمكنة ، وفي كلّ مكان تأخـذ اسـم ذلك المكان ، وتوجد آلاف الوحدات .

لا يوجد لدينا طريق لجبرائيل الكثير بحيث تكون حـقيقته مـتعدّدة ويكون له أفراد كثيرون ، ولكن مع وجود وحدته فإنَّه من جهة تعيّنه يوجد الكثرات في عالم الكثرات ، هو ليس متكثّراً بنفسه لكـنّه يـوجد الكـثرات **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** [1]

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ .[2]

والمقصود أنَّ جبرائيل قد أوجد نوعاً من الكثرة من جهة النزول إلى هذا العالم ، وبواسطة هذه الكثرة التي أوجدها ارتبط بالكثرات واتّصل بها ، فهو كان يأتي إلى النبيّ وإلى هذا الإمام وذاك الإمام .

ولقد قيل هذا الكلام حول الأنواع المـجرّدة المـنحصرة بـالفرد قـبل

١ـ الآية ٩٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآيات ٩٣ إلى ٩٥ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

جبرائيل .

أمّا بالنسبة للأرواح الفانية ، إذا قلنا إنَّ العين الثابتة تزول في حال الفناء ، ولا يبقى منها أيّ أثر ، فبأيّ نحو عندئذٍ تتنزّل ؟ وكيف ستأتي إلى عالم البقاء ؟ فهناك حيث لا تعيّن لزيد ، ولا بقاء لهويّته ، فبأيّ نحو ؟ وكيف يكون ارتباطه بعالم الكثرة ؟

من البديهيّ أنّه لا يمكنه أن يوجد أيّ ارتباط ، لأنّه لا يملك بأيّ وجه من الوجوه تعيّن .

التلميذ : عندما نقول إنَّ زيداً في حال الفناء (لا يرى ولا يسمع ولا يمشي) فما هو هذا الحال ؟ إذا سئل : من أنت ؟ وأين أنت ؟ وماكنت وكيف ستكون ؟ فماذا سيجيب ؟

فهو لا يمتلك لساناً ولا شعوراً ولا عقلاً ولا إدراكاً ، بل مستغرق في أنوار التجلّيات الإلهيّة ، لقد فقد نفسه وتخلّى عن الوجود ونفض عنه التعيّن وأزاله وأغرق الوجود في أنوار عظمة حضرة الحقّ جلّ وعلا ، فليس له في الواقع ذاتاً ، ولا إنّيّة ولا اسم ولا رسم ، فلا يفهم ما نقول ، ولا يمكنه أن يجيب ، فلا شيء موجود حتّى يجيب .

إنَّ حضرة الحقّ جلّ وعلا موجود ،كان موجوداً وما زال وسيبقى ، فإذا أجاب يقول : الحقّ هو الحقّ ، أزليّ وأبديّ .

فزيد فانٍ في المفني فيه ، أي في الله سبحانه وتعالى ، في أنوار الرحمة والعظمة والجلال والجمال .

إنَّ جميع العبادات والمجاهدات والمساعي هي لأجل تحصيل هذه الدرجة من الكمال ، لأنّها الكمال المطلق والوجود المطلق . لقد كان وجود زيد حتّى الآن محدوداً ومتحقّقاً بالوجود المتعيّن والمقيّد .

وكان هذا الحدّ والقيد والتعيّن يؤلمه ، فرفع تعيّنه وضحّى بوجوده

ليجعله بسعة وجود الحقّ ، وبعبارة أُخرى كان الوجود مختصّاً بذات الحقّ ، وكان زيد في غفلة ، ومع تمزيق حجب الأوهام اتّضح أنَّ الوجود منحصر بالحقّ وفقط بالحقّ .

إنَّ العبادات والمجاهدات هي لأجل الحصول على هذه الدرجة ، وهذا الفناء المحض مساوق للوجود المحض .

وهذا هو معنى ومفاد **عَبْدِى أَطِعْنِي حَتَّى أَجْعَلَكَ مِثْلِي** .

تلك الفراشة التي تحوم حول الشمعة فتشتعل فيها النار فتحترق ، ماذا تريد وما هو هدفها من هذا العمل ؟ هل تريد أن تحفظ لنفسها الإنّيّة والهويّة والعين الثابتة ؟ هل تريد أن تصل إلى درجة الكمال الصوريّ ؟ وهل تريد أن تضيف إلى تعيّناتها شيئاً آخر ... ؟ أو تريد أن تفنى وتُمحى وتصبح شمعاً ونوراً .

عندما تحترق لا يبقى لها تعيّن أو عين ثابتة ، فهناك شمعة لا غير ، والفراشة لم تصبح شمعة ، بل الشمعة شمعة ، والنور نور ،كانت هناك فراشة والآن لا وجود لها ، بل الآن الشمعة هي الموجودة .

إنَّ ما يؤلم الإنسان هو لباس التعيّن هذا ، أمّا الطبع الإنسانيّ فإنَّه يتّجه نحو عالم التجرّد ، وهذه الحركة هي حركة فطريّة وإلهيّة وغريزيّة ، فهناك سعة وفسحة .

ولا شيء هناك ، أي في نفس الفناء ، لا ضحك ولا بكاء ولا غمّ ولا حزن ولا غصّة ولا سرور ، ولا إنسان ولا زيد ، وكلّ جهد الإنسان للّه لا لنفسه ، فإنَّ نفسه وذاتيّته ليست إلّا ستاراً للوهم ؛ أمّا الآن وقد تحقّق وزال الوهم ، وأشرقت شمس الحقيقة ، فلا يكون شيء إلّا الله ، فعندها يزول الاسم والرسم فيتجلّى الحقّ .

طَلَعَ الشَّمْسُ أَيُّهَا العُشَّاق   فَاسْتَنَارَتْ بِنُورِهِ الآفَاق

فعندما نفنى نصبح فداءً وقرابين له .

وماذا يعني **وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ** ؟ يعني أنَّ عملي فداء له وفكري ووجهي له .

بأبي أنت وأُمّي ما تعني ؟ روحي لك الفداء ولأجلك أفنى ، ماذا تعني ؟ ماذا يعني **بأبي أنت وأُمّي يا رسولَ اللهِ** ؟ معناه أنّني أفنى وأُعدم لأجلك وفيك فلا يبقى لي اسم ولا رسم .

لو كان المقصود من الفداء بقاء الإنّيّة وتقوية الهويّة ، فليس هذا فداء ولا محبّة لرسول الله ، لأنَّ معنى الفداء هو أن أفنى لأجل تثبيت وجودك ولا يبقي لي عين ولا أثر .

الأُمّ التي ترمي نفسها في النار لنجاة ابنها ، وتفديه بنفسها ، ماذا تريد وما هدفها ؟ هل تريد تثبيت إنّيّتها وهويّتها ؟ أو تريد الفناء والمحو ليبقى ابنها ويكتسب الوجود ولا يزول ويهلك ؟

وفي نهاية الأمر لابدّ لأجل إثبات بقاء العين الثابتة في حال الفناء في إثبات أحد أمرين :

إمَّا أن نثبت أنَّ الفناء في الذات مستحيل .

وإمَّا أن نجعل للفناء معنى آخر غير المعنى المتبادر للذهن .

ثمّ ، هل يعتبر الفناء حقيقة واقعيّة ما أو لا ؟ إنَّ حقيقة الفناء مشهودة بالاضطرار غير قابلة للإنكار .

إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا.[١]

لقد كان الفناء الاختياريّ نهج الأنبياء والمرسلين والأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ، وهو نهج أولياء الله والمخلَصين . هذه هي حقيقة

١ـ الآية ٩٣ ، من السورة ١٩ : مريم .

معنى الفناء ، وإذا كان البناء على عدم وجود المفني فيه أي الفناء في ذات الله ، أو أنَّ معنى الفناء شيء آخر ، فإنَّ هذه الحقيقة والمسألة الواقعيّة التي هي نهاية السير التكامليّ سوف تتزلزل ، فإذا بقي للعبد شيء من الأنانيّة والشخصيّة في سيره وسلوكه إلى الله ، فإنَّ سلوكه سوف لن يكون كاملاً وبنفس المقدار الذي لم يحصل الفناء فيه سيكون محتاجاً إلى التصحيح والاستدراك .

تا یک سر موی از تو هستی باقیست
آئین دکان خودپرستی باقی است
گفتی بتِ پندار شکستم رستم
این بت که ز پندار برستم باقی است[١]

إنَّ أساس حفظ الشخصيّة والإنّيّة باق في جميع المقاصد والأهداف إلّا في الفناء ، فإنَّ هذا الأساس يتحطّم . والشخص الذي يريد الفناء فإنَّه يضع أصل وجوده وتحقّقه على طبق الإخلاص ويقدّمه .

ولهذا فإنَّ هذا المقام أعلى ، والوصول إليه صعب ، ولا يوجد أحد يكون مستعدّاً ليفتدي نفسه بهذه السرعة ، ويتجاوز وجوده في سبيل حضرة الحقّ جلّ وعلا ، ليحصل على الوجود الحقيقيّ الحاصل عن طريق الفناء من خلال فقدان الوجود التعيّنيّ والاعتباريّ .

العاشق الذي يعشق بكلّ وجوده معشوقه يكون مستعدّاً ليفتدي نفسه في سبيله ، ولا يرى لنفسه وجوداً مقابل وجود معشوقه ، وهذا هو

١ـ يقول : «مادام فيك رأس شعرة من الأنا ، فإنَّ حانوت عبادة النفس فيك لا يزال يسود.

قلت لقد حطّمت الصنم الوهميّ للتكبّر وحبّ النفس من الذات ... وما دمت تقول فقولك هذا هو الدليل على وجود التكبّر وحبّ النفس في الأنا فيك» .

معنى العشق الحقيقيّ ، فالعاشق لا يرى ولا يسمع ولا يكلّم أحداً سوى معشوقه ، وإلّا لم يكن عشقاً بل ادّعاء ، وإذا علم المعشوق أنَّ العاشق يريد حفظ إنّيّته وعينه الثابتة ، وأنّه قد جعل هذا العشق وسيلة للإبقاء على هويّته وشخصيّته ويريد كسب كمالٍ لنفسه ، فإنَّه سوف يضربه ضربة لا يبقى معها أيّ أثر له .

ما هو معنى **لا هو إلّا هو** ؟ إذا كانت الإنّيّة والهويّة وحقيقة الوجود مختصّة بحضرة الحقّ سبحانه وتعالى ، وكان أصل وجود الموجودات هو الظهور لا وجود حقيقيّ ، فهو ظهور تجلّ لا وجود بالأصالة والحقيقة ، فما أفضل إذَن من إزالة حجاب الأوهام الذي ينسب الوجود لنفسه ، وإعادة الوجود إلى صاحب الوجود ، لتبرز حقيقة **لا هو إلّا هو** من حقيقة السرّ والروح ، ويتبيّن بوضوح التوحيد المحض المساوق لفناء جميع الموجودات والكائنات في ذات الحقّ .

العلّامة : إذا لم يكن لنا أيّ ربط بالفناء ، ولا يبقى فيه شيئاً ، فماذا يعني أنا وأنت ؟ وإلامَ تعود هذه المحاورات وكلّ هذا النفي والإثبات وما علاقتنا به ؟ ولأجل أيّ شيء نسعى للحقّ ونبحث عنه ؟

لأيّ شيء يعبد الإنسان ؟ إن لم تكن العبادة لنيل اللذّة ورفع العذاب والألم نهائيّاً .

إنَّ عبارة **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ** حقيقة ، وتتضمّن معنى معقولاً في تضاعيفها .

إنَّ هذه العبارة تتطلّب مُوجِّهاً ، وإلّا لم يكن شيء ولا تعطي أيّ معنى معقول ، إذ لا وجود لنحن ولا وجه ولا ذات ولا إدراك .

إنَّ الفناء في الذات ليس غير مستحيل فحسب ، بل هو أيضاً واجب ، ومعنى الفناء هو المتبادر إلى الذهن ، ولا معنى آخر له ، ولكن ينبغي أن

نجد طريقاً لإثباته .

جملة **بأبي أنت وأُمّي** صحيحة ، ونفسي فداك صحيحة ، أي أنَّ تلك الحقائق والأُمور الواقعيّة التي أدركتها فيك ، مستعدّ أن أفديها بنفسي إلى حدّ الفناء في سبيل حفظها .

نحن لا ننكر هذه المعاني ، ولكنَّ سرّ المطلب هو أنَّ الفناء إذا كان مستلزماً لزوال الهويّة فهذا يعني أنّنا لم ندرك المعنى الصحيح للدعوة ، وبمجرّد أن لا يُدرك المعنى فلن يكون لنا طريق إلى **المدعو إليه** ، وعندها تصبح كلّ جهات **الدعوة** و**الداعي** و**المَدعوّ** و**المَدعوٌّ إليه** و**المَدعو به** باطلة.

إذَن ، ينبغي علينا أن نوجّه الفناء ، ولا يوجد طريق للتوجيه ، وهنا يكمن روح المطلب ولبّ الكلام .

أمّا هذه الأشعار العرفانيّة والعشقيّة ، فإلى حدٍّ ما أعرف بعضاً منها ، ولكنّي أتعمّد عدم قراءة الشعر ، ولكن يجب علينا إمَّا إثبات أنَّ الفناء حقيقة واقعيّة تفوق كلّ الحقائق ، ولا يوجد فيها ـ بأيّ وجه من الوجوه ـ أيّة كثرة وخصوصيّة وسمو وأمثالها .

أو نأتي من هذه الجهة لإثبات أنّه حقيقة ثابتة ولكن لا يوجد في هذه الحقيقة الثابتة اسم ورسم ،كما ذكرنا بالنسبة للأنواع المجرّدة .

ففي الأنواع المجرّدة ، في نفس الوقت الذي لا يتحقّق أكثر من فرد واحد ، إلّا أنَّ العديد من الكثرات تحدث من خلال التعلّق بمرحلة المادّيّة ، وهي مجرّدة ولكنّها في نفس الوقت تحفظ الخصائص الفرديّة والاسميّة . إنَّ هذه المسألة دقيقة جدّاً ، ولا يمكن أن نتجاوزها بسهولة ونحكم عليها .

إنَّ أساس هذا الكلام ، أي الفناء في ذات الله ، صحيح ولا يقبل الإنكار ، ولكن ينبغي أن نجد طريقاً له ، ومن خلال إزالة العين الثابتة لا يصحّ المطلب ولن تحلّ هذه المسألة .

كان **محيي الدين** يقول ببقاء الأعيان الثابتة ويصرّ على قوله هذا ويؤكّد عليه ، مع أنّه كان يؤمن بالفناء في ذات الله .

وشبيه هذا المطلب ما يقال في حشر الأحياء وحظورها ، فبما أنَّ وجودها مجرّد ، وبواسطة ذلك التجرّد أصبح لها كثرات ـ وقد قالوا بهذه الكثرات أيضاً ـ ولكن لا يصحّ بسبب هذه الكثرات تجرّد الشرّ بالنسبة لها . أي لا يمكن القول إنّها ستعذّب يوم القيامة ولن تنعم ، بل هي معذّبة وتحت دائرة العذاب . أجل لقد قيل هذا الكلام ويوجد حوله كلام كثير آخر ، ولكن ينبغي حلّ المسألة .

نحن لا ننكر هذا الكلام المبارك **لا هو إلّا هو** حيث تنحصر جميع الهويّات بالذات القدسيّة للحضرة الأحديّة . وإنّما كلامنا هو على أيّ ميزان يمكننا تطبيق هذا الكلام من جهة صحّته .

لأنّنا في عالم الفناء لا نملك هويّات أو موجودات ، ولا شيء عن السماوات والأرض ، وحين ننفي كلّ هويّة في ذكر **لا هو إلّا هو** ، عندها لا يوجد هويّة بحيث نحصرها في ذات الله ، فلا شيء لدينا ، ليس لدينا «ما سوى» أي الغير ، لا شيء سوى الله .

إنَّ هذا الكلام كلام صحيح ، ولكن ينبغي أن نحصل على مفتاحه ، وبمعرفة ما الذي يجب قوله . الفناء في ذات الله صحيح ، ولكن لابدّ أن نجد طريقة وفنّ إثباته .

وقولكم : إنَّ العبد لا يدخل في عالم الوحدة ، ولا يوجد عالم ولا وحدة ولا كلّ ما يقال ، لأنَّ كلّ ما يفرض لا يصل إليه إدراكنا ، لأنّه فناء وانعدام هويّة ، فعن أيّ شيء نتحدّث إذاً ؟

إنَّ قصّة الفراشة واحتراقها وصيرورتها نوراً ، وقصّة دخول الأُمّ النار للاحتفاظ بابنها ، وقصّة عشق العشّاق إلى حدّ الفداء والفناء ، كلّ هذه

صحيحة . ولكن ينبغي أن نعثر على طريق لها ، ونفهم أين يكمن مفتاحها وإلّا وقعنا في الحيرة .

كلّ هذه البيانات حقّ ، ولكنّنا لا نعلم عنها شيئاً لا عن ظاهرها ولا عن خصوصيّاتها ، أمّا أساس الكلام فهو حقّ ، ولكن ليست هذه طريقة إثباته ولا يمكن تجاوز هذه المسألة ، ونحن لا ندّعي خطأها .

التلميذ : إنَّ طريقة إثباته هو ذلك الإلهام الذي يجريه الله على لسان الإنسان وقلبه ، هنا حيث تنشدون :

من خَسی بی سر و پایم که به سیل افتادم
او که می‌رفت مرا هم به دل دریا برد
من به سرچشمهٔ خورشید نه خود بردم راه
ذرّه‌ای بودم و مِهر تو مرا بالا برد
خَم ابروی تو بود و کف مینوی تو بود
که به یک جلوه ز من نام و نشان یکجا برد [1]

آخر الأمر أنَّ هذه حقيقة واقعيّة ، وتحقّق خارجيّ ، حيث ألهمه الله على قلب السالك الملتهب فجرى على لسانه .

إضافة إلى أنّنا ندرك بفطرتنا وغريزتنا أنّنا نُفني أنفسنا ، وفي كثير

١ـ الأشعار من إنشاد العلّامة ، لذا فقد ذُكرت في المحاضرات بعنوان شاهد .
يقول : «قشّة لا قيمة لها كنت حين سقطت في جريان السيل ... فأخذني معه إلى أعماق البحر .
وحدي لم أكن لأستطيع الوصول إلى الشمس ... ذرّة صغيرة كنت وعشقك أوصلني الأعالي .
بتجلٍّ واحد من تجلّيات صفات جمالك صعقتني ولم أعد أنا أنا وصرت أنت وبك اتّصلت، وسلبتني الاسم والعنوان .»

من الأُمور على استعدادٍ للفناء . عندما نلقي أنفسنا في النار أو نغرقها في البحر فذلك لأجل نجاة أبنائنا وعزيزنا ، فهل نقدم بهذا العمل حتّى نثبت وجودنا أو لأجل فنائنا ؟

أنتم تقولون : ليس لدينا «من أجل» ، لا إثبات ولا عدم .

فليكن ، لا إشكال إذ ليس لدينا ! وهذه التعبيرات من ضيق العبارة ، ولكنَّ حقيقة المسألة باقية في محلّها .

أمّا طريقة إثباتها فهي أنَّ الإنسان في الحقيقة متحقّقاً بإنّيّة وشخصيّة الله ، وموجوداً بوجود حضرة الحقّ ، ولكنّه قبل الفناء يتصوّر أنّه يمتلك بنفسه شيئاً ، أو وجوداً ، أو إنّيّة . وعندما يسير نحو الفناء ، أي حين يرفع يده عن هذه الإنّيّة والشخصيّة والتعيّن المحدود ، ويتّجه نحو الإطلاق فمن الواضح مدى لذّة هذا السفر .

الفناء هو عبور وتخطّي الحدود ، وليس فقدان الوجود . الفناء هو تمزيق وَهْم ضيق الوجود والوصول إلى الوجود المطلق ، فأين تكون العين الثابتة هنا ؟

وما أجمل ما عبّر به الشاعر ، على ما يبدو أنّه محيي الدين ، عن هذا المعنى ، وقد أورده الملّا صدرا في أسفاره :

أُعَانِقُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ ... إلَيها وَهَلْ بَعْدَ العِنَاقِ تَدَانِي
وَأَلْثَمُ فَاهَا كَي تَزُولَ حَرَارَتِي ... فَيَزْدادُ مَا أَلْقَى مِنَ الهَيَجانِ
كأَنَّ فُؤادي ليس يُشْفَى غَليلُهُ ... سِوَى أَن يُرى الرُّوحَانِ يَتَّحِدانِ[1]

فعندما تتّحد الروحان معاً فأين يمكن بعد تصوّر أثر للعين الثابتة ؟

١ـ «الأسفار» ج ٧ ، ص ١٧٩ ، الطبعة الحروفيّة ؛ يقول : **كما قال قائلهم** ؛ ويبدو أنَّ مراده من هذا القائل محيي الدين .

وكما استشهد في نفس بحث العشق هذا بهذين البيتين :

أَنا مَنْ أَهْوَى ومَنْ أَهْوَى أَنا نحنُ رُوحانِ حَلَلْنَا بَدَنا
فإذا أَبْصَرْتَني أَبْصَرتَهُ وإذا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنا [١]

فما أبدع وأبلغ هذه الأبيات ! وبالحقّ ، فإنَّ العشق المجازيّ هو قنطرة إلى العشق الحقيقيّ . وتلك التشبيهات والاستعارات والكنايات التي تستعمل في العشق المجازيّ أو في المظاهر والتجلّيات من المحبوب الحقيقيّ ، يمكنها أن تكون إلى حدٍّ كبير خير مبين لذلك العشق الحقيقيّ . نحن نرى الفناء والفداء في العشق المبتلى بالمظاهر في هذه الدنيا ، وهذا ما يشاهد بوضوح الشمس ، نفس هذا المعنى هو ما نقوله بشأن الفناء في ذات حضرة الأحديّة ، ونحن هنا نقبل بزوال الهويّة والإنّيّة والعين الثابتة ؛ فلماذا لا نقبل هناك بهذا الفناء ؟

وقد تقدّم : أنَّ الأُمّ التي تضحّي بنفسها من أجل ابنها ، هل يكون لها شعور وعقل في تلك اللحظات ؟ وهل تدرك ماذا تفعل ؟ هل تريد أن تحفظ عينها الثابتة عندما تلقي بنفسها في لهيب النيران ؟

أم إذا اطّلعنا على ما في ذهنها آنذاك لما قرأنا إلّا شيئاً واحداً وهو الفناء المحض والزوال المحض ولا غير .

فهي تقول : أحرقوني ! وأفنوني وأزيلوني ! وألقوا بي في حفرة وضعوا فوقي الصخر ليتكسّر عظمي ، وألقوا على رأسي جبل أبي قبيس ، ولا تبقوا منّي شيئاً ولكن ليبقى ولدي حيّاً .

فهذا الفناء الذي نشاهده هنا بالنسبة للأُمّ هو ما يحدث للسالك في عالم الفناء .

١ـ «الأسفار» ج ٧ ، ص ١٧٨ ، الطبعة الحروفيّة .

غاية الأمر أنّه بعد أن يعود إلى وعيه مرّة أُخرى ويرجع إلى عالم البقاء تكون كلّ هذه الكثرات ولوازمها وآثارها موجودة معه ؛ الزوجة موجودة والولد موجود والأب موجود والأُمّ موجودة والجنّة والنار ، وكلّ شيء سيكون موجوداً .

وطريق إثباتها أيضاً أن نقول : إنَّ قوس النزول الذي هو عبارة عن إرادة الله ومشيئته الذي يبدأ من الذات المقدّسة ومن عالم **هُوَ هُو** ثمّ يهبط ويتنزّل ، لابدّ وأن يرجع مرّة أُخرى إلى حيث كان ، فيصدق آنذاك .

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .[1]

كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .[2]

وإذا كان البناء على أنَّ الموجودات التي تتنزّل من هناك وتصل إلى عوالم الكثرات سوف لن ترجع إلى نفس المكان ، فإنَّ هذا الأمر لن يكون سيراً **إلى الله** ، ولن تتمّ الدائرة .

وقد وردت في الأدعية المأثورة إشارات إلى حقيقة هذا المعنى من الفناء وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقرأ في سجدة ليلة النصف من شعبان وقد ابتلّت الأرض من دموعه :

اللَهُمَّ لَكَ سَجَدَ سَوَادِي وَخَيَالِي وَبَيَاضِي .[3]

ومن المعلوم أنَّ المراد من السواد والخيال والبياض هو العوالم الثلاثة الطبع والمثال والنفس التي سجدت بأجمعها ، أي وصلت إلى مقام الفناء .

وفي قصائد ابن الفارض وخصوصاً في «نظم السلوك» (التائيّة

١ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآية ١٠٤ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٣ـ «مصباح المتهجّد» ص ٥٨٣ .

الكبرى) يوجد العديد من الأبيات التي تشير بشكل واضح إلى الفناء المطلق .

وإذا تجاوزنا كلّ هذه ، فكيف تقولون في الأبحاث الفلسفيّة بأصالة الوجود ، وتثبتون هذه الفكرة بآلاف الأدلة المحكمة ؟ وتسدّون كلّ ثغور وأبواب الشبهات ولا تعطون للماهيّة إلّاعنوان الحدود والاعتبار ، أمّا هنا فإنّكم تأخذون **الأعيان الثابتة** على أنّها أصل مسلّم ؟ فما هو معنى الأعيان الثابتة في الأصل ؟ فليس لدينا شيء **ثابت** إلّا الوجود والموجود . ولا توجد مسافة بين العدم والوجود ومع ذلك نقول إنَّه في حال الفناء يفنى الوجود وتبقى الهويّة ثابتة ، فما الذي سيعنيه هذا إلّا الالتزام بوجود فاصلة بين الوجود والعدم ؟**!**

فهنا يقول : إنَّ الأصل هو الوجود ، والماهيّة ليست إلّا حدّاً للوجود واعتبار آلة . وإنَّ الوجود سارٍ في كماله حتّى يصل إلى أن يُمحى ويفنى في ذات حضرة الأحديّة المقدّسة ، ولن يكون للماهيّة بعد انعدام الوجود أيّ معنى وتحقّق . ولن يبقى لها إلّا عنوان المفهوم ، ولا واقعيّة لها في الخارج . فما معنى أن نقول ـ من ثَمَّ ـ إنَّ **العين الثابتة** ستبقى ؟

ألَا يرجع هذا القول إلى التناقض والتضادّ ؟ بل إنّنا سنكون منكرين للأعيان الثابتة كلّيّاً .

أمّا **محيي الدين** وأتباع منهجه الذين يصرّون على الأعيان الثابتة ، فإنَّ دليلهم لا ينطبق مع القول بأصالة الوجود .

العلّامة : بالنسبة لكلام محيي الدين فإنّنا لم نذكره كسند . فإنَّ محيي الدين وغير محيي الدين متساوون عندنا في ناحية الاستدلال . ففي بداية أبحاثه ذكر عدّة أبيات شعريّة غير ذوقيّة ، ولكن للإنصاف نقول إنَّه

قد ذكر أبحاثاً بعد ذلك جذّابة وجميلة جدّاً ومدهشة . أمّا **ابن الفارض** فإنَّه في الدرجة من الرقي والعلو وإيصال المطالب العرفانيّة بحيث لا نظير له ، ويمكن القول إنَّ **ابن الفارض** في العرفان والشعر العربيّ **كحافظ الشيرازيّ** في العرفان والشعر الفارسيّ . وكلاهما قد حصلا على الفرادة وعدم المضاهاة .

ولقد كتب تائيّته الكبرى بين سبعمائة إلى ألف بيت[١] جمع فيها إنصافاً مطالب عالية وراقية .

كان **أُستاذنا المرحوم الحاجّ الميرزا علي القاضي** رضوان الله عليه يقول :

كان ابن الفارض تلميذ **محيي الدين** ، فطلب منه أُستاذه ذات يوم أن يكتب شرحاً على **قصيدته التائيّة** ، فأجابه ابن الفارض قائلاً :

شيخنا إنَّ فتوحاتكم المكّيّة شرح لتائيّة ابن الفارض .

لقد كان **محيي الدين** قريباً جدّاً إلى التشيّع .[٢] وكانت لمسألة التشيّع صورة أُخرى في الصدر الأوّل والأزمنة السابقة . وكان أغلب الأعلام من العلماء والعرفاء من الشيعة ، بَيدَ أنّهم كانوا مُجبرين للضرورة على التقيّة وإخفاء الأمر . وكانوا يسعون إلى حفظ تلك الحقيقة بحيث لا تصطدم مع الموانع الخارجيّة ، فكانوا يكتمونها ليحفظوا أنفسهم ، ولا يعبّرون عنها إلّا بالرمز والإشارة والكناية .

ولابن الفارض بيتين من الشعر يبيّن فيهما بوضوح اتّصاله بعقد

١ـ عدد أبيات تائيّة ابن الفارض دقيقاً سبعمائة وسبعين بيتاً .

٢ـ بالنسبة لتشيّع محيي الدين ذكر المرحوم الملّا محمّد صالح الخلخاليّ في مقدّمة كتاب «مناقب محيي الدين» التي شرحها ، دلائل كثيرة على تشيّعه .

الولاية لأهل البيت عليهم السلام ، حيث يقول :

ذَهَبَ العُمرُضَياعاً وانْقضَى باطِلاً إذ لَمْ أَفُزْ منكم بِشَيْ
غَيرَ مَا أَولَيتُ من عِقْدِي ولا عِترَةِ المَبْعُوثِ مِن آلِ قُصَيْ[١]

فما يرجع إلى ما ذكرناه ، فإنَّ الآية الكريمة **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** وأمثالها تدلّ على أنَّ الإنسان يعود إلى حيث بدأ ، وهذا أمر مسلّم . أمّا بدؤه فهو تلك النقطة الأُولى لتحقّق مشيئة إيجاده في عوالم الملكوت ، وهذه هي عينه الثابتة ولا تدلّ الآية على أكثر من ذلك .

أمّا بالنسبة لقصّة اشتعال الأُمّ بالنار واحتراق الفراشة وغيرها ، فأنتم تقولون إنَّ الأُمّ قد فنيت والفراشة قد احترقت ، إذَن يوجد ضمير في هذه الجملة يرجع إلى الأُمّ والفراشة ، وهذا الضمير هو نفس العين الثابتة .

ففي جملة صارت الأُمّ فانية ، إذا لم يكن لدينا ضمير «صارت» ففي هذه الحالة لن يكون لدينا جملة ولا حمل ولا أُمّ ولا فناء . فهذه الجملة تكون عندما يكون الرابط محفوظاً فيها ، ويكون لها معنى معقولاً عندما يكون فيها ضميراً رابطاً ، وهذا هو العين الثابتة .

التلميذ : بشكل عامّ إذا قلنا إنَّ العين الثابتة تبقى في حال الفناء ، فيلزم من ذلك وجود تعيّن في ذات حضرة الأحديّة القدسيّة التي هي مقام **الهوهويّة** سبحانه وتعالى .

أو يلزم أن نقول إنَّ معنى الفناء ليس فناء ، وليس معنى الاضمحلال والاندكاك .

١ـ البيتان الأخيران من قصيدة يائيّة ابن الفارض ، ومطلعها :

سائِقَ الأظْعَانِ يَطْوِي البَيْدَ طَيْ مُنْعِماً عَرِّجْ علی كُثْبانِ طَيْ*

*ـ «ديوان ابن الفارض» ص ٣٥ .

أو نقول إنَّ الفناء في ذات الله محال أساساً ، وإنَّ ما يتحقّق من الفناء هو الفناء في الأسماء والصفات .

فسماحتكم تقولون : إنّنا إذا قلنا بالفناء في الذات للزم من ذلك محذوراً ، وهو أنَّ كلّ العالم يكون مدعوّاً إلى الفناء ، والكمال منوط بالعدم ، ولا يوجد موجود يجب أن يتخلّى عن وجوده ليفنى ، لذا فالدعوة إلى الفناء المطلق والاندكاك هي دعوة إلى زوال أصل الهويّة والإنّيّة والتعيّن ، ومآلها إلى زوال **العين الثابتة** .

وغريزة الإنسان لا تسمح له أن يرمي بنفسه في الفناء والعدم .

فهذا إشكال .

والإشكال الآخر هو أنّنا إذا قلنا إنَّ الفناء هو العدم المطلق وعدم بقاء للعين الثابتة بعد ، ففي هذه الصورة وعند حال البقاء وزوال الفناء ، أيّ موجود سوف يتعيّن ؟ فبعد الفناء لا يوجد موجود حتّى يرجع عند البقاء بتلك الهويّة ؟ وهنا ينبغي أن نلتزم بالقول إنَّ البقاء لن يكون بقاءً ، بل هو حدوث جديد .

وهذا هو محصّل الإشكال ، ورفعه ليس صعباً ، لأنَّ العبور من الوجود إلى العدم هو عبور من التعيّن إلى الإطلاق ، وهو في الحقيقة مبادلة الدرهم بالدينار .

وأمّا في مورد البقاء ، فإنّنا سنلتزم بأنَّ جميع الموجودات الفانية تبقى في الفناء ، ولا بقاء بعد الفناء ، ومن خلال الرجوع إلى الله ينتهي قوس الصعود ، وتكتمل الدائرة ، **مِنَ اللَهِ وَإلَى اللَهِ** . وأمّا بخصوص الأفراد من الناس الذين لهم بقاء في الحقيقة فلم يحصل لهم فناء بكلّ ما للكلمة من معنى ، وعند حصول الفناء الكامل لن يبقى لهم أيّ عين أو أثر ، وتوجد شواهد كثيرة على هذا الأمر .

العلّامة : إنَّ هذه الكلمات صحيحة ، ولكن إلى من يرجع الضمير في قولكم «صار زيدٌ فانٍ» ؟ فكلّ جملة تحتاج إلى ضمير ، والضمير في «صار زيدٌ فانٍ» يرجع إلى زيد . إذَن فزيديّة زيد التي هي هويّته تكون ثابتة .

التلميذ : هل نريد أن نحصل على زيديّة زيد قبل الفناء أو في حال الفناء ؟

فقبل الفناء زيد هو زيد ، وله عين ثابتة وهويّة وإنّيّة . أمّا بعد الفناء فلا يوجد زيد بعد ، وفي تلك الحالة لا اسم ولا رسم ولا ضمير ولا عين ولا أثر له .

عندما نقول إنَّ زيداً صار فانياً ، فلا يبقى هناك زيد ، فهناك عالم الوحدة ، وفي عالم الوحدة لا يوجد اسم . فزيد الفاني لا يبقى بعد زيد في حال الفناء ، فهناك الحقّ وفقط الحقّ .

وبالنسبة للضمير فذكره على نحو الاستفهام ، فالمعنى في قولنا زيد صار فانياً ، فهو يعني أنَّ تلك الهويّة التي كانت حاوية لهويّة زيد قبل الفناء كانت «الزيديّة» عينها الثابتة ، فإذا فنيت أصبحت عينها الثابتة معدومة ، وتبدّل تعيّنها إلى الإطلاق ، أي عبرت حجاب التعيّن وغرقت في إطلاق الوجود ، أي أنـّها محيت وفنيت .

أمّا في حال الفناء فلا يوجد ضمير ، فـ«صار» تشير إلى زيد الذي كان زيداً في السابق ، أمّا الآن فلا ضمير .

نحن نقول : ألقينا حبّة السكّر في الماء فذابت ، وعندما ذابت لم يعد هناك حبّة سكّر ، فعندها إلى أيّ شيء يرجع الضمير في قولنا ذابت ؟ أي أنَّ حبّة السكّر التي كانت كذلك قبل وضعها في الماء قد ذابت .

ولكن عندما تذوب لن تكون بعد ذلك حبّة سكّر ، ولن يعود لها أيّ أثر أو عين من كونها حبّة ، وبالطبع فإنَّ أصل المادّة موجود وهو الحلاوة ،

ولكن في هذه الجملة يوجد لدينا حبّة سكّر ، ومن المعلوم أنّها قد عدمت وصارت فانية .

فحبّة السكّر كانت حبّة سكّر قبل ذوبانها ، والآن الماء هو ماء ، لقد كان زيد قبل فنائه يرى الحقّ ، ولكن بعد الفناء لم يعد زيد يرى الحقّ ، بل الحقّ يرى الحقّ .

ولا شبهة في أنَّ لا أحد غير ذات الحقّ يمكنه إدراك ذاته ، وزيد لا يمكنه إدراك ذات الحقّ . فإذا كان زيد في حال فنائه لا يزال زيداً فهذا يعني أنّه لم يصل إلى مقام الفناء . والذي يلاحظ جمال الحقّ هو زيد ، فإذا تحقّق الفناء بكلّ ما للكلمة من معنى فلن يكون زيد آنذاك ، فقد انتهى أمره ولم يبق له اسم ولا أثر . ففي ذات الحقّ المقدّسة الحقّ حقّ ودائماً هو الحقّ .

فهل نشكّ نحن في هذه الجملة أنَّ حبّة السكّر قد ذابت وعدمت وضاعت في الماء ؟

لو وضعنا قطرة في الماء ، وفقدت هذه القطرة شكلها ، ثمّ قلنا : إنَّ القطرة أصبحت ماءً ، فهل يوجد خطأ في هذا التعبير ؟

فكيف يمكننا القول «صارت القطرة ماءً» ولم تعد قطرة حين تحوّلت ماءً ،كذلك نقول إنَّ زيداً قد فنى في ذات الحضرة الأحديّة ، وفي حال الفناء لا يوجد زيد .

فاستعمال اللفظ وصياغة الجملة في هاتين الصورتين متشابهان .

عندما نقول «صار زيد فان» كأنّنا نقول «صارت القطرة ماءً» ، وهذا بالطبع بنحو الاستخدام ، أي أنَّ تلك الكميّة من الماء المسمّاة بالقطرة وحقيقتها ذات حجم كرويّ وشكل خاصّ قد فقدت كرويّتها واسمها ، ومن خلال سقوطها في الماء رفع عنها اسم القطرة ولم تعد قطرة . فهناك ماء

وليس إلّا الماء ، ولا معنى للقطرة في وعاء الماء .

واستعمال الضمائر بنحو الاستخدام شائع جدّاً في الأدب .

العلّامة : من أيّ طريق دخلتم ، وفي أيّ مثال ضربتم نجد أنّنا آخر الأمر أمام ضمير ، وينبغي أن نحدّد مرجع الضمير ومحلّه !

نحن نقول : إنَّ زيداً فني في الحقّ ، وضمير الفعل يرجع إلى زيد . ونحن نريد مرجعاً للضمير ، فكيف يمكن تصوّر خلافه ؟ عندما نقول : إنَّ زيداً فني في الحقّ تبارك وتعالى ، أوَ ليس هو زيد الذي أصبح فانياً ؟ فإذا لم يكن لزيد وجود في حال الفناء ، فما هو معنى : زيد أصبح فانياً إذَن ...؟

فقولنا : زيد أصبح لا شيء ، وفني ، والقطرة صارت ماءً ، وحبّة السكّر قد ذابت ،كلّ هذه الجمل تحتوي على ضمائر . ففي فرضيّة انعدام العين الثابتة إلى أيّ شيء ترجع هذه الضمائر .

إنَّ هذه الأمثال لا تحلّ المشكلة ، فعندما لا يكون للضمير مرجعاً ، فلن يكون لدينا مشار إليه ، فماذا يفيدنا المثل ؟

يمكنك أن تقول : حبّة السكّر قد ذابت ، والقطرة صارت ماءً ، لكنَّ هذا القيد يتضمّن هذا المعنى وهو أنَّ هذه العين ثابتة ومحفوظة .

وفي حال انعدام الهويّة لا يكون لديكم حبّة سكّر حتّى تتحدّثوا عنها ! وقولكم إنَّ حبّة السكّر انعدمت صحيح ، وإنَّ زيداً صار فانياً ، فإلى الوقت الذي لم يكن قد فني كان يرى نفسه ، وعندما صار فانياً لم يعد يرى إلّا الحقّ ، يمكن عدّ هذا المعنى صحيحاً ؛ أمّا أن نقول إنَّ زيداً لن يكون موجوداً في حال الفناء ، بل الحقّ يرى الحقّ فقط لا أنَّ زيداً يرى الحقّ ، فهذا أمر لا يمكن عدّه صحيحاً . فإذا كان الحقّ يرى الحقّ فزيد لن يكون فانياً .

وبعبارة أُخرى : إذا صار زيد فانياً ، فهناك زيد موجود وقد فني وهو

يرى الحقّ .

وإذا كان الحقّ يرى الحقّ فما دخل زيد هنا ؟ فزيد إذَن لم يفنَ . وقولنا زيد صار فانياً هو خطأ .

وعليه ، فكيفما تحرّكتم ومن أيّ سبيل سلكتم لابدّ من فرض **زَيدٍ ما** لتصحّ الجملة ويصحّ الكلام والحمل ومرجع الضمير والنسبة ، وتكون في محلّها وهذا الـ **زَيدٌ ما** هو العين الثابتة .

فالإشكال الذي ينشأ من أنَّ أحداً غير ذات الحقّ، لا يدرك ذات الحقّ لا يوجب الالتزام بعدم قبول عين زيد الثابتة في جملة «زيد صار فانياً في ذات الحقّ» .

أجل ، إنَّ هذا الكلام صحيح ، ولكن في قولنا زيد صار فانياً في ذات الحقّ لا ينبغي أن نزيل الضمير ، لأنّه إذا زال سيصبح كلامنا خطأ . فإنَّ جميع البشر يفنون في ذات الحقّ .

وجملة صارت القطرة ماء صحيحة ، لكن لا تقولوا إنَّه لا يوجد قطرة الآن ! بل قولوا كانت قطرة ، وقد فنيت في الحقّ ! وهذه القطرة أصبحت مندكّة في الماء ! فلابدّ أن يكون لدينا قطرة ما وعلينا أن نرى أنَّ قطرة ما ، هي التي فنيت في الحقّ ، ولا معنى لهذا بدون وجود العين الثابتة .

التلميذ : يوجد لدينا جملة وهي : القطرة صارت فانية ، القطرة صارت ماء . فالقطرة قبل وضعها في الماء كانت قطرة ، وبعد ذلك لم تعد قطرة .

وهذا ما نعرفه بالبداهة والوجدان أن لا وجود لقطرة . فأنتم لو أثبتم ألف عين ثابتة فبعد أن تنحلّ القطرة في الماء لن تعود قطرة ! ولن يكون هناك عين ثابتة فلا اسم ولا رسم ولا ضمير ولا إشارة ولا مشار إليه . ولا يمكننا أن ننكر وجداننا فلا يوجد لدينا قطرة .

قد تقدّم : أنَّ هذا ضمير بناء على نحو الاستخدام . أي أنَّ الشيء الذي كان قطرة ، وكان له اسم ورسم وتعيّن صار ماء ، وبالتالي يكون قد فقد اسمه ورسمه وتعيّنه ، فصارت هذه الأشياء فانية ومعدومة .

أنتم تقولون : قد فقدت ، وصارت معدومة وأصبحت فانية . فكلّ هذه الجمل لها ضمائر بحاجة إلى مرجع .

ونحن نقول : إنَّ مرجع جميع هذه الضمائر هو نفس مرجع «القطرة صارت ماءً» بنحو الاستخدام . ولا يوجد أيّ محذور فيه .

فلو بقيت زيديّة زيد لكان «غيراً» ، والغير لا يمكنه أن يدرك ذات الحقّ ، ومن جانب آخر نحن نعلم أنَّ معرفة ذات الحقّ بدون حصول حالة الفناء غير ممكنة . فهاهنا إمَّا أن تقولوا إنَّ معرفة ذات الحقّ غير ممكنة بالفناء ، وإمّا أن تقولوا إنَّ العين الثابتة لا تبقى في حال الفناء ، **وَالثَّاني أَوْلَى عِنْدَ أَهْلِ البَصْرَةِ** .

والدعوة إلى الفناء هي دعوة إلى الوجود ، وهو الوجود المطلق لا إلى العدم . وبناء على مسألة التوحيد في أنّه لا يوجد في العالم إلّا وجود واحد . ففي هذه الصورة لا يوجد دعوة إلى العدم ، بل دعوة إلى الوجود المطلق .

لأنَّ وجود زيد ليس غير الوجود المطلق ، وزيد يرى ذاته في التعيّن . وعندما ندعوه إلى العدم فهذا لا يعني دعوته إلى التخلّي عن وجوده ، بل أن يترك تعيّن وجوده ! «فكن عدماً» تعني الوجود المطلق .

إنَّ قطرة الماء بعد وضعها في الماء لن تكون قطرة . ونفس هذا المعنى هو ما نقصده بحقّ زيد الفاني . ومن المعلوم أنّه لن يكون بعد ذلك زيداً ، وفي الأصل فإنَّ مفهوم الفناء هو غير مفهوم الوجود والتعيّن . فهذان مفهومان متضادّان ، فلو قلنا : «قطرة» ، فهذا يعني أنّها في الماء . وإذا قلنا : «ماء» ، فلا يوجد قطرة . فالقطرة صارت ماءً ، يعني أنّها أضاعت شكلها

وحدودها . أَوَ ليس لدينا مفاهيم متضادّة .

إنَّ مفهوم التعيّن ضدّ مفهوم الإرسال والإطلاق ، ومفهوم الوجود والإنّيّة ضدّ مفهوم الفناء .

وجملة «القطرة صارت ماءً» تعود عند التحليل الذهنيّ إلى جملتين : الأُولى : تلك الهويّة التي كانت قطرة . والثانية : الهويّة التي صارت الآن ماءً . وهما هويّتان مختلفتان ، ولا يمكن أن يجتمعا معاً أبداً . وبناء على الحركة الجوهريّة لذلك الوجود وتلك الذات التي كانت قطرة فقد تحرّكت من كونها قطرة لتتبدّل إلى ماهيّة الماء ، أو أن نقول بواسطة الحركة في الكيف : تبدّل شكل القطرة إلى «لا شكل» ، ومن خلال الامتزاج بالماء تبدّل تعيّنها وكيفها .

إنَّ معنى الفناء هو فقدان التعيّن ـ تعيّن الوجود لا أصل الوجود ـ . فإن تعيّن وحدود الوجود هي التي تزول ، فهذه القطرة التي توضع في الماء وتفنى لن تفقد أصل وجودها ، بل تلحق بوجود الماء لتصبح ماءً مطلقاً وبدون شكل ، ولكن يجب أن تفقد تعيّنها وإلّا لن يصدق عليها الفناء .

لو بقيت العين الثابتة فلن يصدق الفناء . وأساساً ، فليس لدينا عين ثابتة في الأصل . والذي كان هناك وجود من الماهيّة الإنسانيّة تحرّك ووصل إلى الفناء . والآن لا يوجد شيء غير الفناء في ذات الحقّ . وليست الماهيّة إلّا مفهوماً لا أكثر . وبين الماهيّة والوجود لا يوجد مرحلة بعنوان الثبوت والعين والأثر .

لو كانت العين الثابتة موجودة في الذات لأصبحت الذات مثاراً للكثرة وورود الأغيار سبحانه وتعالى .

ولو بقيت العين الثابتة خارج الذات فلن يتحقّق فناء زيد في ذات الحقّ ، هذا حسب قول جنابكم ، لذا يجب أن نقول كان ثبوت عين الثابت

في حال وجود زيد ، وفي حال الفناء ، فلن يكون هناك وجود أو عين أو أثر أو اسم أو رسم لزيد **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** .[١]

فإذا نظرنا إلى الكثرة لشاهدنا النبيّ موجوداً ، ولكان رسول الله هو الذي يرمي ، ولا شكَّ أبداً من أنّه هو الذي رمى ، وإذا نظرنا إلى الوحدة والفناء لشاهدنا الله يرمي ، هنا لا يوجد رسول الله ، ولا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ .[٢]

ففي عالم التوحيد جميع الموجودات مظاهر ، وليس لها من ذاتها وجود ولا أصالة ، فهي مظهرة لغيرها ولا وجود لها ، وهي أسماء . إذا أُزيل الاسم فلن يبقى شيء وحتّى هذه الأسماء أنتم وضعتموها ؛ **سَمَّيْتُمُوهَا** .

وهذه الأرض وهذا السقف وهذا الباب وهذا الجدار والأثاث موجودات إذا نظرنا إلى كثرتها فإنَّها تعيّنات وحدود ومثار للكثرة والتفرّق . وإذا نظرنا إلى وحدتها لتوجّب علينا حتماً أن نرفض الحدود والتعيّن ، وعندها لن يكون لها جانب الكثرة .

فنفس زيد الذي هو في حال الفناء إذا نظرنا إلى تعيّناته فلن يكون في حال الوحدة ، فإنَّ جميع الحدود والتعيّنات تابعة لزيد ، وإذا نظرنا إلى حال فناء زيد فهو صرف الوجود .

وفي كلا الحالين ، إذا قلنا إنَّ زيداً فانٍ ، فإنَّ مرجع الضمير يعود إلى تلك الذات التي كانت خارج الفناء زيداً ، وفي حال الفناء ليست زيداً .

١ـ الآية ١٧ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٢ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٥٣ : النجم .

فعندما كانت خارج الذات كانت زيداً ، وفي حال الفناء لن يكون لها مرجع ، ولا زيد .

وإذا قلتم : إنَّ ضمير زيد في جملة «زيد صار فانياً» ينبغي أن يرجع إلى العين الثابتة حتّى يتحقّق الفناء ، والعين الثابتة موجودة أيضاً ، نقول : بناء على هذا فالفناء في الذات مستحيل ، لأنَّ دخول العين الثابتة في الذات محال .

وإذا تجاوزنا نقطة الفناء في الذات ، لو قلتم بالفناء في الصفات والأسماء الإلهيّة لحضرة الحقّ سبحانه وتعالى ! فإنَّ نفس الأسئلة والأجوبة والإشكالات هذه سترد مرّة أُخرى . لأنّه في حال الفناء في الاسم والصفة لو بقيت العين الثابتة موجودة للزم ورود تعيّن زيد في الصفة والاسم ، وهذا محال . وفي حال ورود التعيّن لن يصدق الفناء ، وفي عدم ورود العين الثابتة فإنّكم سوف تقولون : أين مرجع الضمير ؟ والإشكال هو الإشكال .

وأخيراً هل يمكننا أن ننكر الفناء في الاسم والصفة كالفناء في اسم **القادر والعليم والمحيي** ؟ أو على أقلّ تقدير الفناء في الأسماء الجزئيّة ، كفناء كلّ موجود من الموجودات في موجود آخر ؟ أو كفناء العاشق في المعشوق ، من حيث إنَّ جميع الموجودات مظاهر وآيات الله ، والكلّ أسماؤه ، سواء أكانوا أسماءً كلّيّة أم جزئيّة .

وبشكل عامّ ، ففي جميع هذه الصور والأشكال يكون لازم الفناء زوال الضمير . وبحفظ الضمير لا يتحقّق الفناء لا في الذات ولا في الصفة .

العلّامة : نقول : القطرة أصبحت فانية ، فإذا أخذنا ضمير أصبحت فلن يبقى سوى قطرة وفناء بدون نسبة بينهما . وبتعبير آخر لا يبقى شيء . ومن أيّ جهة أتيت ، فإمّا أن تشير إلى القطرة ، وإمّا أن تسحب يدك من الفناء ! وحيث إنَّه لا يمكن التنازل عن الفناء ، فلابدّ أنَّ القطرة ثابتة .

تقولون : إنَّ تعيّن القطرة قد زال وليس أصل وجود القطرة ! هذا صحيح ، ولكن ماذا نفعل بالضمير ؟!

هذا الضمير أصبح مزعجاً ، ومسألة بقاء العين الثابتة مطروحة في بعض كلمات محيي الدين أيضاً .

في «**الفتوحات المكّيّة**» إشارة ما إلى أنَّ الموجودات التي تفنى في الحقّ لا تزول أعيانها الثابتة ، وأنَّ ما يزول هو وجودهم ، وحقيقة وجودهم الذي تحقّقوا به في الخارج ، وإلّا تبقى العين الثابتة . إنَّ هذا الفاني الذي هو عبارة عن الحقّ هو زيد الذي نقول عنه إنَّه قد ضاع . فهذا يصحّ .

ولا يمكن القول إنَّ العين الثابتة في الحقّ ، ونقول إجمالاً : إنَّ العين الثابتة موجودة وإنَّ زيداً صاحب العين الثابتة الموجودة قد فني في الحقّ .

فلو سلكتم أيّ سبيل ، واتّبعتم أيّ طريق وأنهيتم المسألة ! فهنا يوجد ضمير ولابدّ أن يرجع إلى متعلّقه .

وصحيح أنّه لا ضمير في ذات الحقّ **لَا هُوَ إِلَّا هُوَ** ؛ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ** كلّ هذا صحيح . وإذا قلتم إنَّ في **وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** لا يوجد زيد إذ ليس لدينا «زيد صار فانياً» . فلا زيد حتّى يفنى .

وإذا قلتم :كان لدينا زيد في يوم ما والآن ليس لدينا . فزيد لم يفنى إذاً ، لأنَّ جملة «زيد صار فانياً» تتضمّن ضميراً ، ولابدّ من معالجة هذه المعضلة .

انظروا إلى الكثرة ! وانظروا إلى الوحدة ! واسرحوا ببصركم في أيّ مكان تشاؤون ، فإنَّ هذا الضمير يحتاج في نهاية الأمر إلى مرجع وعليكم أن تشيروا إليه ، ولكنّكم لا تستطيعون أن تشيروا إليه !

لا تقولوا : فليس من فناء إذَن . نعم ، لا فناء بهذا المعنى ، ولكنَّ ذلك الفناء المشار إليه في جملة «زيد صار فانياً» الذي عينه الثابتة محفوظة ، فهو

موجود وحاصل .

فناء الصفات والأسماء لا يختلف مع الفناء في الذات . وعلى كلّ حال فإنَّ الضمير يحتاج إلى مرجع . ولابدّ أن تبقي العين الثابتة . ففي كلّ حال وفي كلّ مرحلة فناء عندما نقول : إنَّ فلاناً الموجود صار فانياً في الحقّ ، فلهذا الموجود ضمير ، ولابدّ أن يُحدّد مرجع هذا الضمير .

وهذا هو المشار إليه بالعين الثابتة الذي كان له سابقاً وجود ومضاف إليه ، والآن قد فقد وجوده بسبب الفناء الذي حصل له ، ولكنَّ عينه الثابتة لا تزول .

التلميذ : إنَّ ما نقوله بأنَّ يرقة الماء حصلت على أجنحة وطارت في السماء صحيح أو لا ؟ فهذه اليرقات التي تتكوّن في المياه الراكدة ثمّ تتحوّل إلى بعوضة وتطير في السماء . هل طارت هذه اليرقة وهي يرقة ؟ أوعندما حصلت على أجنحة وصارت بعوضة ؟

بالطبع طارت حين صارت بعوضة ، ولكنّ في هذه الجملة التي نقول فيها : إنَّ اليرقة حصلت على أجنحة وطارت ، فإنَّ هذا تسامح في التعبير ، لأنَّ اليرقة لا تطير وهي يرقة . «فاليرقة قد طارت» تعني أنَّ الشيء الذي كان في السابق يرقة قد طار الآن ، وتحوّل إلى ماهيّة الطائر فصارت طائراً فطارت .

زيد صار فانياً في الحقّ ، يعني أنّه من كانت له عين ثابتة قبل الفناء ، كانت له زيديّة فزيد هويّة إنسانيّة وقد تغيّر وجوده ، وانتقلت من عالم التعيّن والوجود إلى عالم الإطلاق والعدم ، فصار عدماً وزال .

فذلك الضمير لم يعد راجعاً لزيد ، فالحقّ حقّ ، لا أنَّ زيداً حقّ .

مثلما أنَّ اليرقة يرقة ، والآن البعوضة بعوضة . فلو قلنا إنَّ اليرقة طارت ، فهذا من باب التسامح ، لأنَّ اليرقة لا تستطيع أن تطير ، والكلّ يعلم

أنَّ هذا التعبير هو على نحو التجريد ، أي أنَّ ذلك الموجود الذي كان له تعيّن «اليرقة» قد طار بعد تجريده من ماهيّة اليرقة وتلبّسه بماهيّة الطائر .

لذا فزيد في حال الفناء ليس زيداً ، بل هو الوجود المطلق والبسيط . وذلك الوجود المطلق والبسيط الذي أسميناه زيداً ، وظننّا أنّه متعيّن بهذا الحدّ . وها نحن قد حطّمنا هذا الحدّ ودخلنا في بحر الإطلاق الواسع . وهنا لن يبقى حدّ ندعوه «زيد» ، فلا إنّيّة ولا هويّة ؛ **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ**[1] .

فهناك الأُلوهيّة والإنّيّة والسلطان مختصّة بالله فقط ، الله الواحد القهّار الذي يسحق كلّ إنّيّة ويدكّ كلّ هويّة . فوحدته ملازمة لقهّاريّته .

نحن لا نستطيع أن ننكر الفناء في ذات الله ، وكذلك لا يمكننا أن نغيّر معنى الفناء ، ولا نقدر أن نتصوّر أنَّ زيديّة وعينه الثابتة قد دخلت في ذات الحقّ المقدّسة .

وفي نفس الوقت نقول : زيد صار فانياً في الحقّ لا بأس ، فليكن تحديد مرجع ضمير زيد على عاتقكم ! وتعيين محلّ عينه الثابتة ! أنتم تقولون إنَّ له عين ثابتة ! ونحن نقول : إنَّها تزول بفنائه في الحقّ ، ولن يبقى منه أَيّ عين أو أثر أو اسم أو رسم .

هل معرفة الله بالنسبة للبشر ممكنة أو لا ؟ أجل ، هي ممكنة للمخلَصين من عباده :

سُبْحَٰنَ ٱللَهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .[2]

وهل المعرفة التامّة ممكنة بدون الفناء أو لا ؟ لا يمكن أبداً . لأنّه

١ـ الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٢ـ الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

في حال عدم الفناء توجد الغيريّة والأنانيّة ، وكيف يمكن لغير الله أن يعرف الله ؟

فكلّ درجة أخذناها من درجات دون الفناء تكون المعرفة فيها بذات الحقّ فيها نسبيّة ، وستكون المعرفة الحقّة غير حاصلة .

فإذا سألنا زيداً وهو في حال الفناء : من أنت ؟ فماذا سيجيب ؟ هل يقول : أنا زيد ؟ أم سيقول : أنا الحقّ ؟ أبداً أبداً .

فهو لن يجيب أصلاً ، لأنّنا نسأل زيداً في حال الفناء زيد فان ، ولا وجود لزيد . فهنا الألسن خرساء والآذان صمّاء ، والله يجيب بعزّته وعظمته : **لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** ، ويقول : الحقّ حقّ .

لقد ذكرت لنا ذات مرّة أنَّ درويشاً كان يسير في تبريز ، ويمرّ في الأسواق والأزقّة ويقول : أبحث عنه ، أبحث عنه . وبقي على هذا المنوال مدّة ، ثمّ بعد ذلك عاد يقول : أبحث عن نفسي ، أبحث عن نفسي .

فما الذي يعنيه ؟ ألَا يعني هذا أنّه كان يبحث عن الله ، وبعد أن نال مناه وحصل على الفناء ضيّع نفسه ، وكان يبحث دائماً عنها ليجد لها أثراً أو عيناً . **وَهَيْهاتَ وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ** . فليس ذلك ممكناً حال الفناء ، إلّا إذا عاد ثانية ورجع إلى عالم البقاء .

كان لزيد اسم وماهيّة وحدود شخصيّة ، فزال الحدّ واتّسع وجود زيد شيئاً فشيئاً وعبر الحدّ لا الوجود فأضاع حدوده وأخذ حدّاً أكبر ، ثمّ أضاعه وأخذ حدّاً أكبر إلى أن ضيّع جميع الحدود ، وورد إلى المقام الذي ليس فيها حدّ أبداً ؛ وهناك لا اسم ولا رسم لزيد .

العلّامة : «أصبحت اليرقة طائراً وطارت» فضمير هذه الجملة يحتاج إلى مرجع أيضاً . وآخر الأمر أنّه لا يمكن صياغة جملة بدون مرجع للضمير .

إذاكان معنى الفناء في ذات الحقّ وجود الحقّ ولا غير ، بدون أن يكون لزيد أيّ وجود ، فهذا يعني أنَّ عينه الثابتة قد محيت ، وعندها لا يمكن القول للفناء فناء ، ولا يمكن القول : زيد صار فانياً .

في هذه الصورة هو الحقّ تبارك وتعالى ، ولأنّه حقّ فإنَّ أيّ شيء يفنى فيه لا أعلم أين مكانه ؟

أمّا حاصل معرفة الحقّ تبارك وتعالى سوف يكون بقولنا : إنّ هذا الموجود (زيد)كان منسوباً إلى الحقّ ، وقائماً بالحقّ ، والآن قد زالت تلك الجهة من قيامه بالحقّ ولم يبق إلّا الحقّ . أي يمكن قبول «زيد حقّ» . أمّا أن نقول لم يبق إلّا الحقّ ، وقد زال ضمير زيد فهذا لا يمكن قبوله بحسب الظاهر .

ومعرفة ذات الحقّ في حال الفناء ممكنة للمخلَصين والمقرّبين من عباد الله وهذا لاكلام لنا فيه وهو صحيح تماماً ، ولكن مهما بحثنا ومن أيّ طريق دخلنا فإنَّ ضمير زيد لا يمحى ولا يزول .

فمن جهة أنَّ زيداً صار فانياً ، وصار زيد «هو» ، أي أنَّ هو صار قائماً مقام زيد ، فلا شيء إلّا هو ، ولكن إلى أين ذهب زيد ؟ فهذا لا نستطيع أن نقوله .

وإذا سألنا زيداً : من أنت ؟ فلن يقول : أنا زيد ، ولكنّه يقول : أنا الحقّ . وكان قصد ذلك الدرويش من قوله : أبحث عن نفسي ، أبحث عن الحقّ تبارك وتعالى .

وآنذاك أيّة موقعيّة يمكن فرضها لزيد في حين أنّنا نقول زيد صار فانياً في الحقّ تعالى ؟ ويعبّر القرآن الكريم عن هذا بقوله : **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** .[1]

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

التلميذ : إذا قلنا : معرفة ذات الحقّ ممكنة للبشر ، وإنَّ معنى الفناء هو العدم المطلق ، ومعرفة الله حقّ المعرفة ليست ممكنة بدون الفناء ، وإنَّ مراتب المعرفة ما دون الفناء نسبيّة .

ومن جانب آخر ، نحن نعلم أنَّ في ذات الحقّ لا يمكن أن يدخل أيّ تعيّن ، لأنَّ لازمه تجزئة الذات **وَجَلَّ جَنَابُ الحَقِّ أَنْ يَكُونَ مَثَاراً لِلْكَثْرَةِ وَالتَّعَيُّنِ وَلَا هُوَ إِلَّا هُوَ** .

وفي ذات الحقّ لا يمكن تصوّر إلّا الحقّ حتّى يقال : لا يوجد إلّا الحقّ . فهناكيف يمكن الجمع بين هذه المسائل ؟

فنحن لا يمكننا بأيّ وجه من الوجوه أن نقول : صار زيد حقّاً ، ويكون الضمير هنا راجعاً إلى زيد الذي هو العين الثابتة . لأنَّ زيداً لا يمكن أن يصبح الحقّ ، لأنَّ معنى زيد هو التعيّن وهو خلاف الإطلاق ، والله تعالى مطلق بأعلى درجة من الإطلاق .

فذلك الموجود الفاني في الحقّ عندماكان له تعيّن ، وعندماكان زيد لم يكن فانياً ، ولكن عندما فني لم يعد زيداً ولا ذا تعيّن .

كأن نقول مثلاً : صار زيد عدماً ، هلك . وصحيح أنَّ الضمير في الفعل يحتاج إلى مرجع في كلّ الأحوال ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون مرجعه العين الثابتة .

في القضايا التي لا يكون لموضوعاتها أعيان ثابتة ،كما في قولنا اجتماع النقيضين محال ، أو أنّ شريك الباري معدوم ، ماذا نفعل ؟ وإلى أيّ شيء نرجع الضمير ؟

نرجعه إلى مفهوم اجتماع النقيضين ، ومفهوم شريك الباري ، حيث نتصوّر ونفترض تحقّقهما في الخارج ثمّ نحكم باستحالتهما وعدمهما ،كما نقول هنا :كذلك الفرد من الماهيّة الإنسانيّة الذي كان له تشخيص الزيديّة ،

وذلك المفهوم الذي كان له لباس الزيديّة وتعيّنها صار فانياً . أي أنّه فقد التعيّن وخلع لباس الوجود ، ولم يبق الباقي إلّا مفهوم الصرف . ومن المعلوم أنَّ مجرّد المفاهيم والماهيّات غير متلبّسة بالوجود خصوصاً على مذاق أصالة الوجود فهي ليست إلّا محض الاعتبار والعدم .

ونحن في كلّ واحد من المحمولات فيما قيل : اليرقة طارت ، والفراشة احترقت يوجد لدينا ما يشابهه .

افرضوا كومة من النار ! ناراً مشتعلة ، ثمّ تأتي الفراشة إلى النار وتلقي نفسها فيها وتحترق ، وتصبح ناراً ، تصبح مطلقة ، تصبح نوراً ، فنقول : احترقت الفراشة وصارت ناراً .

فأين الفراشة ؟ وأين عينها الثابتة ؟ لقد كانت الفراشة فراشة قبل أن ترمي نفسها في النار ، وعندما سقطت فيها لم يعد إلّا النار المحضة . فكلّ من ينظر إلى النار يقول : النار هي النار .

فما دامت الفراشة لم تقترب إلى حريم النار كان اسمها فراشة ، ولها عين وأثر وخصوصيّات . كان لها نفس ، وعين ثابتة . وكان لها اسم ورسم ، وكذا وكذا ولكن ، عندما صارت ناراً ، لم يعد بإمكاننا أن نطلق عليها اسم الفراشة ، فلم يعد هناك اسم ولا رسم ، أو عين ولا أثر . فإلى أيّ جهة نظرنا لا نرى إلّا النار ؛ شعلة النار ، ونور النار ، إذاً فالنار نار .

فهنا حيث نقول في العبارة التي نبحثها : إنَّ الفراشة صارت ناراً ، فإنَّما نقول بعنوان تلك المادّة الأوّليّة ومادّة الموادّ وهيوليّتها ، أي تلك المادّة التي كان لها صورة الفراشة ثمّ فقدتها وصارت ناراً .

والآن نسأل : هذه الفراشة التي رمت نفسها في النار وصارت ناراً ، وهنا ليس إلّا النار فقط ، هل توجد في ذات هذه النار عين ثابتة للفراشة ؟ هل يوجد في النار هويّة وإنّيّة للفراشة ؟

فهنا يرى الحقّ حقّاً ، ولا فراشة . ففي ذات الحقّ لا يوجد فراشة . فكيف يمكن القول : العين الثابتة في الحقّ ؟ فهل الحقّ متعيّن ؟ فلازم الفناء في ذات الحقّ مع بقاء العين الثابتة وجود العين الثابتة في الذات ، وهذا ممّا لا يمكن قبوله .

فلو قلنا إنَّ الوجود في جميع عوالم الوجود واحد لا أكثر ، وهو وجود الحقّ تبارك وتعالى . وإنَّ هذه الموجودات ليس لها وجود أصيل وحقيقيّ بل هي عناوين وأسماء وحدود للوجود ، وتعيّنات ومظاهر له .

وهذه الأسماء التي أطلقناها عليها كزيد وعمرو وشجر وحجر وأمثالها تشخّص تعيّن الوجود وحدوده ، وهذه الأسماء ليست أسامي للوجود ، بل لتعيّناته .

فعندما نقول لزيد زيد ، لا نقصد بذلك وجوده بل التعيّن من وجوده .

عندما يصبح زيد فانياً ، يرفع اليد عن التعيّن ، ويعبر الحدود . وإلّا فإنَّ أصل الوجود كان كما هو في البداية على نحو الإطلاق ، والآن كما هو . غاية الأمر أنَّ اسم زيد كان في الوهلة الأُولى بهذا الحدّ من الوجود ، والآن قد ارتفع الحدّ ، ونحن في مثل هذا الحال من الفناء لا ننظر إلى الحدّ ، بل إلى الإطلاق .

فيصبح معنى الفناء أنَّ ذلك الوجود الذي كان محدوداً وينظر إلى نفسه على نحو الاستقلال قد أعاد هذا النظر ، وصار نظراً تبعيّاً واندكاكيّاً ، لأنَّ حقيقة الكثرات أمر اعتباريّ .

فالفارق الذى حصل عليه زيد هو من حيثيّة معرفته . لأنّه في مقام الإدراك قد حصل تفاوت واختلاف في معرفته ، وفي الواقع لم يحدث أيّ تغيير . كان في السابق حقّاً ، والآن هو كذلك .

يوجد الكثير من المفاهيم التي ترد إلى الذهن بنحو التجريد ، وفي

هذه الحالة نحمل عليها أشياء عديدة . فالوجود الذهنيّ مثلاً ، بما أنّه في الذهن يقع موضوعاً لبعض المحمولات ؛ أو من جهة التعيّن الذهنيّ نقوم بخلعه وننظر إلى حاق المفهوم ونحمل عليه أشياء عديدة . فالتجريد أحد النشاطات الذهنيّة .

ونفس هذا العمل نطبّقه على زيد ، أي أنّنا نجرّد زيداً الذي كان له هذا التعيّن من تعيّنه ، ونقول : صار فانياً في ذات الله . وليس في ذات الله أيّ تعيّن بعد ، فالوجود المطلق هو الوجود المطلق . وبعبارة أُخرى ذلك الموجود الذي كنّا ندعوه زيداً كان له اسم زيد ، كان موجوداً له تعيّن ، ونحن هنا قد رفعنا النظر عن التعيّن ، فيصبح آنذاك وجوداً . فالوجود وجود ؛ والوجود المطلق هو وجود الحقّ تبارك وتعالى .

وإذا انتظرنا الحصول على مرجع تامّ وكامل لضمير زيد الفاني ، فعلينا أن نجلس وننتظر طويلاً .

ففي باب **الوصول** مثلاً لدينا نظير هذه الضمائر ، حيث نقول : وصل زيد إلى ذات الحقّ .

ومن المعلوم أنَّ زيداً ما دام زيداً وما برح له عنوان الزيديّة لا يمكنه أن يصل . ومن المسلّم أن الوصول يصدق على زيد الفاني ، لأنَّ المراد في الوصول ليس ضمّ شيء إلى شيء ، أو ملاقاة أحد مع آخر جلّ الله سبحانه وتعالى ، بل المراد من الوصول معرفة الله ، وهذه المعرفة التي هي معرفة التوحيد الذاتيّ والتوحيد الصفاتيّ والتوحيد الأفعاليّ لا تحصل إلّا بواسطة الفناء ، أي الاعتراف بالعجز والعدميّة في جميع مراحل الوجود ، وحصر القدرة والعلم والحياة والذات بالذات ، وتسليم الأُمور كلّها إليه .

فكما نقول في باب الوصول من أنَّ زيداً ما دام زيداً فليس واصلاً ، كذلك في باب الفناء .

وفي القرآن الكريم ماذا تعني هذه الآية : **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** .[١]

وأيضاً قوله تعالى : **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** .[٢]

لست أنت من رميت ، بل الله هو الرامي ، ليس هناك غير الله ، «أنت» عدم .

فهناك ليس إلّا الله . فلماذا نقول : زيد موجود ، وعينه الثابتة موجودة ؟ فزيد قد زال وانتهى أمره .

فهناك لا يبقى إلّا ذات الحقّ ، وإدراك ذات الحقّ لذاته **كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيءٌ وَالآنَ كَمَا كَانَ** .

ای برتر از آنکه عقل گويد   بالاتر از آنکه روح جويد
ای آنکه ورای اين و آنی   كيفيّت خويش را تو دانی
کس واقف تو بهيچ رو نيست   آنکس که ترا شناخت او نيست[٣]

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ٢٩ العنكبوت .

٢ـ الآية ١٧ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٣ـ «مفاتيح الإعجاز» ص ٧٥ .

يقول : «يا من هو أرفع ممّا يقوله العقل ... يا من هو أسمى ممّا تطلبه الروح
يا من هو فوق هذا وذاك ... أنت وحدك الذي تعرف من أنت .
لا يقدر أحد على أن يصل إلى معرفتك ، وبأي وجه من الوجوه ، والذي عرفك... لم يكن هو بل أنت » .

وما أجمل ما ورد في هذا المعنى في «طبقات الأخيار» للشعرانيّ ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، عن العارف المشهور الشيخ إبراهيم الدَّسوقيّ ، ونذكر بعضاً منها :

تَجَلَّى لِيَ المحبوبُ في كلِّ وِجْهَةٍ   فَشاهَدْتُهُ في كلِّ مَعنىً وصُورَةِ
وَخاطَبَنِي مِنِّي بِكَشفِ سَرائري   فقالَ أَتَدْري مَنْ أَنا قُلتُ مُنْيَتِي
فأَنتَ مُناايَ بَلْ أَنا أَنتَ دائماً   إذا كُنتَ أَنتَ اليومَ عَينَ حَقِيقتي
فقالَ كَذاكَ الأَمْرُ لكِنَّهُ إذا   تَعَيَّنَتِ الأَشياءُ كُنتَ كَنُسخَتِي ⇦

العلّامة : إنَّ جملة «زيد صار حقّاً» تعني أنَّ الحقّ صار حاكماً بدلاً من زيد في وجوده ، وأنّه صار يده وعينه وسمعه ؛ ولم يعد زيد زيداً ، بل زيد هو الحقّ . فهذا المطلب صحيح ومقبول .

ومهما بيّنتم هذا الأمر وبأيّ صورة وشكل ، فمع ذلك صار زيد فانياً . ولو لم يكن زيد فمن الذي فني ؟ فالله تبارك وتعالى كان وما زال وسيبقى ، وهو الحقّ دائماً وأبداً . ولكنّ ما حدث الآن هو فناء زيد . فإذا انتزعنا نسبة هذا الفناء عن زيد ، وفصمنا علاقته فلن يبقى أيّ شيء ؛ وكأنَّ الفناء لم يحدث ، لأنَّ النسبة قائمة على زيد ، فإذا لم يكن زيد موجوداً ، ولم تكن عينه الثابتة فلا نسبة إذَن ، وفي حال فقدان النسبة لا يكون وجود للمحمول والموضوع ، ولا يكون لدينا جملة ، في حين أنَّ لدينا هذه القضيّة وهي أنَّ «**زيدٌ صار فانياً**» ولا يمكن إنكارها .

عندما نقول : زيد صار فانياً ، فهذا يعني أنَّ زيداً صار حقّاً ، ويرجع الضمير إلى زيد ، أي إلى التعيّن والعين الثابتة . والذي صار فانياً في عالم الواقع ومتن نفس الأمر هو زيد .

هذا صحيح بحسب الظاهر ، ولا يصحّ خلافه ، ولا أستطيع أن أتعقّله بصورة صحيحة .

وفي قضيّة الفراشة نقول أخيراً : اليرقة طارت ، أو إنّ الفراشة صارت ناراً . فلو لم يكن هناك فراشة ، فالفراشة لم تصبح ناراً ، وبناء عليه لا يبقى لهذه الجملة معنى .

⇦ فأَوصَلْتُ ذاتي باتِّحادِي بِذاتِهِ ... بِغَيرِ حُلولٍ بلْ بِتَحقِيقِ نسبَتِي
فصِرتُ فَناءً في بقاءٍ مُؤَيَّدٍ ... لِذاتٍ بِديمومَةٍ سَرمَدِيَّةِ
وغَيَّبَنِي عَنِّي فأَصبَحْتُ سائلاً ... لذاتِيَ عَن ذاتي لِشُغلِي بِغَيبَتِي
فأَغْدو وأَمرِي بَينَ أَمرَينِ واقِفٌ ... عُلومِيَ تَمحُوني ووَهمِيَ مُثْبِتي

هنا يوجد ضمير ، فتارة يأخذونه إلى هذه الجهة وإلى تلك تارة أُخرى ! وتريدون أن تحفظوا الفراشة ، ومع ذلك تصبح ناراً وتفنى ، ولا يبقى إلّا النار .

فمجدّداً (ما زلنا ندور في نفس الحلقة) في احتراق الفراشة ذهبت المادّة والهيوليّ أدراج الرياح ، ولم يبق إلّا العين الثابتة لها . وهذا الموجود صار الحقّ تبارك وتعالى ، ولا يوجد إلّا الحقّ . فالعين الثابتة ثابتة .

عندما صارت الفراشة ناراً لم يعد بإمكاننا أن نقول إنَّ الفراشة موجودة ، وكلّ ما يأتي لفظ **موجودة** يحفظ وجود الفراشة ، ومع حفظ وجودها لا يمكن القول : صارت فانية .

فبقولنا: «صارت الفراشة فانية» نعني أنَّ للوجود الخارجيّ للفراشة تحقّقاً . فإذا رُفع هذا التحقّق لم يبق إلّا النار فقط . وبناء على هذا ، عندما نقول : صارت الفراشة ناراً ، فذلك لأنَّ ما يبقى للفراشة عينها الثابتة ولا غير .

والواقع الموضوعيّ يحكي أيضاً عن زوال وجود الفراشة ، وتحقّق النار بدلاً منها . وما لم تصبح الفراشة ناراً ، فإنَّها ترى نفسها . والآن عندما ترى النار فلا أثر للفراشة .

فما لم يفنى زيد ، فإنَّه يرى زيداً . والآن هو يرى الحقّ تبارك وتعالى ، ولا أثر لزيد .

ونحن لا نقول : إنَّ العين الثابتة لزيد موجودة في ذات الحقّ ، كذلك لا نقول : العين الثابتة للفراشة موجودة في النار . ففي ذات الحقّ لا شيء إلّا ذات الحقّ ، كما أنّه لا شيء في النار إلّا النار .

ولكنّنا نقول : عندما صار زيداً فانياً وصار حقّاً ، بقيت عينه الثابتة ، كما أنَّ الفراشة عندما صارت ناراً بقيت عينها الثابتة .

وهذا لا يستلزم تعيّن ذات الحقّ ، بل إنَّ الواقعيّة الخارجيّة للحقّ تبارك وتعالى مع الاحتفاظ بالإطلاق قد حلّت مكان زيد ، وأنّها تتجلّى وتظهر مع عينه الثابتة بعد محو الوجود وحصول حالة الفناء .

واختلاف درجة معرفة زيد من المحدوديّة إلى السعة والإطلاق ، يعود أخيراً إلى أنَّ الحقّ قد حلّ مكان زيد ، والحقّ هو الواقع تبارك وتعالى ، ولابدّ أن يكون للضمير مرجع ، ولا شيء غير العين الثابتة لزيد بعد فرض الفناء وضياع الوجود يمكن أن يكون مرجعاً .

عندما نقول : زيد صار فانياً ، فإنّنا نحكي عن فناء زيد ، لذا لابدّ من فرض زيد حتّى نحمل عليه الفناء ، ولأنّنا نمتلك ضميراً يحتاج إلى مرجع ، فهذا المرجع هو العين الثابتة ، ولا غير .

هذا هو منهج تفكيري !

أمّا ما تقولونه في جملة : زيد صار فانياً ولم يبق له أيّ أثر . ففي هذه الجملة يبقى من يفنى بدون ضمير ، فماذا نفعل به ؟

وفي جملة وصال زيد وفناء زيد لا يوجد اختلاف أيضاً . ويحتاج هذا الكلام إلى توضيح ، ولا يصحّ أن يكون زيد موجوداً ومع ذلك يقع الفناء والوصال ، فهذا مقبول .

أمّا عندما نقول : صار زيد فانياً ، فمن هو زيد ؟ أيّ زيد هو الذي التحق برحمة الله ؟

ومن حيث الفناء الخارجيّ لا يوجد إلّا الحقّ . فماذا يبقى حينذاك لزيد ؟ لا أعلم ماذا أقول !

وفي الآية الشريفة **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** يُستدلُّ على بقاء العين الثابتة .

وقد قرأت في كتاب «الإنسان الكامل» **للشيخ عبد الكريم الجيليّ** استدلاله بهذه الآية على الفناء المطلق للموجودات في مقام العود والرجوع

إلى الله عزّ وجلّ .

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ صحيحة ، ولا يوجد في أيّ فرض أيّ شيء غير الله **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** . وفي قولنا زيد صار فانياً ، هل يزول هذا الضمير أيضاً ؟

إنَّ زيداً سيزول ولا يبقى إلّا الفناء المحض . والجملة التي ذكرتموها : «لا يبقى إلّا الحقّ ، والحقّ يدرك ذاته» يجب أن تصحّح .

كيف يكون ذلك إلّا الحقّ ... ؟ كان زيداً ثمّ ذهب ، لم يبق إلّا الفناء بدون أن يكون ضمير يعود إلى موضوع ما ، وكيف يمكن إصلاح ذلك ؟

في جميع هذه الأمثلة ونظائرها ، لو انتزعنا الضمير سنبقى حائرين بلا تكليف ، وستبقى الجملة بدون رابط وضمير .

التلميذ : ليس لدينا أيّ كلام خارج المتعارف والقواعد العربيّة والإسناد وإرجاع الضمير إلى مرجعه ، بل نقول : في جملة صار زيد فانياً أُسند الضمير إلى زيد نفسه .

ولديّ مسألة واحدة أقولها هنا ، وهي أنَّ هذه الجملة «زيد صار فانياً» لا تختلف عن بقيّة الجمل ، وبنفس الطريقة التي تمّ إسناد الضمير في جملة «الفراشة صارت ناراً» ، و «القطرة صارت ماءً» ، و «حبّة السكّر ذابت» ، و «اليرقة طارت» يتمّ إسناده في جملة صار زيد فانياً .

فهل قلنا في تلك الجمل بالأعيان الثابتة للفراشة والقطرة وحبّة السكّر واليرقة في النار والماء والذوبان والبعوضة الطائرة ، حتّى نقول هنا بالعين الثابتة لزيد ؟

ونقول : عندما صارت الفراشة ناراً ، فلم يعد من فراشة فعلاً ، ولا أيّ أثر عنها ، فما هو موجود ليس إلّا النار . كانت الفراشة في السابق ، وأضحى وجودها عدماً ، واتّخذت وجود النار . فلا يوجد أكثر من وجودين : النار

والفراشة . ولا يمكن تصوّر العين الثابتة في قبال الوجود . والماهيّة أمر انتزاعيّ ، وبعد زوال الوجود وتحطّم ذلك النظام لن يبقى إلّا المفهوم ، ولن يكون تحقّق ولا واقعيّة .

كأن نقول : صار تراب الأرض شجرة ، والشجرة صارت خشباً ، والخشب صار فحماً ، والفحم صار رماداً .

ففي هذه الصيرورات ماذا نقصد ؟ وبأيّة طريقة أُسند الضمير إلى الموضوع ؟ بنفس الطريقة نحن نسند الفناء إلى زيد في جملة «صار زيد فانياً» .

إنَّ جملة صار تراب الأرض شجرة تعني أنَّ المادّة الأوّليّة والهيولائيّة للأرض التي كان لها صورة التراب قد تحوّلت إلى صورة الشجرة بعد أن فقدت صورتها ، وأصبح الخشب فحماً يعني أنَّ المادّة الأوّليّة التي كانت لها صورة الخشب تركت صورتها وتحوّلت إلى صورة الفحم وتبدّلت إلى فحم ، وتلك المادّة الأوّليّة تركت التعيّن الأوّل واتّخذت تعيّناً آخر .

وبنفس الطريقة حول جملة «زيد صار فانياً» نقول : كان لزيد تعيّن من الوجود البحت والبسيط الذي شمل العالم ، وكان اسم هذا التعيّن زيداً ، ثمّ شيئاً فشيئاً ومرتبة مرتبة تكامل في طريق العبوديّة ، وعبر الحدود ، حتّى وصل إلى المقام الذي فقد فيه تماماً كلّ تعيّن . فكلّ ما كان حتّى ذلك الحين في زيد هو وجوده ، والآن كان اسم زيد موضوعاً لهذا التعيّن الخاصّ ؛ أمّا في حال الفناء فلا تعيّن .

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ .[1]

ومن المسلّم وفقاً لآيات القرآن الكريم أنَّ نقطة رجوع جميع البشر

١ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠ ، من السورة ٧ : الأعراف .

هي نقطة بدايتهم فقبل تلك النقطة يكون للإنسان وجود وتعيّن ، وما أن يصل إلى ما فوق تلك النقطة يفقد وجوده ، فهناك عالم الفناء .

أي أنَّ الإنسان يمكنه السير إلى حيث كان بدؤه مع حفظ إنّيّته وعينه الثابتة ، أمّا بعد ذلك فعليه أن يفقد وجوده ، إذ ليس من عين ثابتة بعد تلك المرحلة ، فالعين الثابتة تبدأ من نقطة البدء وتُختم بنقطة العود .

فعالم الفناء هو عالم ما فوق عالم الوجود ، وهو عالم العدم والزوال ، ومعنى وجود زيد زوال زيد هو أنَّ ذات الحقّ المقدّسة يشاهد زيداً ، والآن يشاهد نفسه . أو بعبارة أُخرى كانت ذات الحقّ تشاهد التعيّن ، والآن تشاهد وجودها بدون تعيّن . هل هذا الكلام صحيح ؟

وهكذا كما نقول : صار زيد واصلاً ، فهذه النسبة من باب المسامحة ، لأنَّ الوصول يدلّ على التعدّد ، وهناك لا زيد ولا حقّ بنحو الاثنينيّة حتّى يكونا شيئين : واحد واصل وآخر موصول به . كذلك نقول في فناء زيد : «صار زيد فانياً» فالنسبة من باب التسامح ، ومعناه الحقيقيّ أنَّ ذات الحقّ ذلك الوجود البحت والبسيط والمجرّد على الإطلاق كانت إلى هذا الحين ناظرة إلى التعيّن ، ومن الآن فصاعداً فإنَّها ناظرة إلى الإطلاق .

ففي فناء زيد لا يمكننا أن نقول بشكل محقّق : العين الثابتة موجودة في الذات ، فلابدّ إذَن أن تكون من لوازم الأسماء والصفات . وبالنتيجة عندما نقول : «صار زيد فانياً» في الذات ، ينبغي أن تكون الجملة من باب التسامح .

فلابدّ ، آخر الأمر إمَّا إحداث تغيير في معنى الفناء ! أو كما عبَّرت الآن كانت ناظرة إلى الكثرة ، والآن ناظرة إلى الوحدة .

هذا التعبير رفيع جدّاً . فنقول مثلاً : كان زيد حتّى الآن يشاهد خاتمه ، والآن هو يشاهد نفسه . وهنا لن نأتي على ذكر الضمير ، ولا نبحث

في العين الثابتة ، ولا نقول إنَّ صار زيد فانياً تعني أنَّ التعيّن صار فانياً ، بل نقول : حتّى الآن كانت الذات القدسيّة للحقّ تشاهد جمالها في تعيّن زيد وعمرو وبكر ، وفي هذه المرائي والتجلّيات ، والآن فهي تشاهد نفسها بدون حجاب ومرآة .

وهذا هو معنى **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ، أي أنَّ التعيّن سيزال ، ووجود التعيّن سيقلب .

العلّامة : في جملة «الفراشة صارت ناراً» وأمثالها كما في قولنا صار زيداً تراباً ، وفلان ليس موجوداً ، يبقى نفس الكلام وهو أنَّ الضمير أنا انتزع فسوف نتوقّف فلا يمكن أن يكون بدون ضمير ، فلابدّ من ضمير حتماً ليكون صادقاً ، وهذا الضمير هو العين الثابتة .

كان هناك وجود وواقع موضوعيّ ، وهو زيد ، ثمّ فقد زيد تلك الواقعيّة والوجود . لا يبقى بعدها إلّا مسألة العين الثابتة .

هذه مشكلتنا ، أنّنا مهما حاولنا ، ومن أيّ باب دخلنا ، وبأيّة وسيلة تشبّثنا ، لا يمكننا أن ننكر العين الثابتة ، وذلك لوجود الضمير . ففي مسألة فناء زيد الذي كان يقول أنا ، فإنَّ هذا الضمير مختصّ بالله ، فزيد صار فانياً بالله .

هذا صحيح ونهائيّ . أمّا ذلك الزيد الذي كان ضميراً ثمّ صار فانياً فله ارتباط مع ذلك الضمير ، فلا يمكننا أن نطوي عنه صفحاً ، بل يجب أن نقول :كان زيد : محلّ الله المتعال الذي كان موجوداً ثابتاً محلّ زيد . وحتّى الآن ، فإنَّ الشخص الذي كان يقول : أنا ،كان يشاهد زيداً ، ومن الآن فصاعداً من يقول أنا ، هو الله الذي يشاهِد .

هذا المعنى يصحّ بحسب الظاهر .

وما تقولونه :كان الله حتّى الآن يشاهد التعيّن ، ومن الآن فصاعداً

يشاهد نفسه بدون تعيّن كلام جيّد ، ومقبول لدينا ، فليشاهد ، لاكلام لدينا في ذلك .

ولكن عليكم إيضاح هذا الأمر : وهو تلك المشاهدة من الحقّ التي حصلت بواسطة زيد ، الحقّ المتعال كان يشاهد زيد ، والآن يشاهد نفسه بواسطة زيد ، فإذا أُبعد زيد ، فكيف يمكن قبول هذا ... ؟

أنتم تقولون بأنَّ ذات الحقّ المقدّسة ذات الوجود البسيط على الإطلاق كانت حتّى الآن ناظرة إلى هذا التعيّن ، ومن الآن فصاعداً فإنَّها ناظرة إلى الإطلاق .

كلّ هذا صحيح بالكامل . أمّا «زيد صار فانياً» ، نريد أن نجد زيداً من أين نشأ ؟ ما هو زيد ؟ هل يمكن أن يكون شيئاً آخر غير العين الثابتة ؟

والعين الثابتة لا يمكن أن تكون في الذات . نعم ، يمكن أن تكون من لوازم الأسماء والصفات .

ولكن لا يمكن قول هذا ، إنَّ جملة «زيد صار فانياً» جملة فيها تسامح ، وإنَّ النسبة الموجودة من باب التسامح ، لأنَّ مرجع هذا الكلام يصل إلى أنَّ الفناء بيان مجازيّ ، والتفات مجازيّ ، وهذا ممّا لا يصحّ .

من المقبول بأنَّ الله كان قبل الفناء يرى بواسطة التعيّن الزيديّ ، والتعيّن العمريّ والتعيّن البكريّ والتعيّن الخالديّ ، وكذلك بواسطة التعيّنات التي كانت زيداً وعمراً وبكراً وغيرهم ، وأنّهم جميعاً قد فنوا في الحقّ تبارك وتعالى . حين نقول «فنوا» الضمير يعود هنا من جديد .

وإذا كان معنى **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** هو أن لا يبقى لزيد عين ثابتة ، والحقّ يشاهد الحقّ ، فلا تقولوا إذَن : زيد صار فانياً .

إنَّ نظر زيد إلى الخاتم الذي في إصبعه ، وإلى خطّه الجميل ، ونظر الحقّ إلى آثاره . كلّ هذه شؤون ولها ضمائر ، ولابدّ من هذه الضمائر . كما

أنـّه في حال الفناء تبقى هذه الضمائر في مكانها .

التلميذ : عندما نتحدّث عن الوجود المطلق دون أن ننظر إلى التعيّن ، فلماذا نريد ضميراً حين لا يكـون لهـذا الضـمير طـريق إلى عـالم الذات ، ويكون من لوازم الأسماء والصفات ، فهو إذاً في مكانه ، وزيد في مكانه . أمّا معنى الفناء فهو نظر ذات الحقّ إلى نفسه . ولندع هذا الضمير وهذا الزيد في مكانهما مقهورين ومنكوبين لألف سـنة ، مـا الذي يـعنينا مـن زيـد ، فكيف بضميره .

إنَّ إصرار سماحتكم على حفظ العين الثابتة لزيد والضمير ينسجم مع القول بأصالة الماهيّة ، ولكن طبق القول بأصالة الوجود ، فلا شيء إلّا الحقّ تبارك وتعالى . ولا أحد غير الحقّ يمكنه إدراك الحقّ .

زيد هذا العبد قد سعى وتعب ووصل في مسيره الوجوديّ إلى مكان ما ، واتّصل بوجود الحقّ ، وفقد شؤونه . ودخـل إلى الدار **وَلَيسَ فِي الدَّارِ غَيرَهُ دَيَّارٌ** .

فـــي ذلك الدار لا يـوجد غـير صـاحبها ، فكـيف سـيسمح لزيـد أن يدخلها ؟ في حين أنـّنا نقول : زيد ، وهذا العنوان غير عنوان صاحب الدار . هناك حيث يسطع برق غيرته ، لا يبقى زيد ولا عمرو ، ولا وليّ ولا مولى ، ولا اسم ولا رسم .

من الذي يستطيع الورود إلى هناك ؟كيف يرغب زيد بـالذهاب إلى هناك ؟ وكيف يفرش بساطه وزاده ؟

لو أراد زيد أن يـدخل بـذاتـيّته فسـوف يـمنع ، فـما دام زيـد زيـداً لا يمكنه أن يرد . أمّا إذا وصل إلى الفناء فليس هناك زيد ، وهو قد عبر كلّ التعيّنات واحداً تلو الآخـر ، وفـي آخـر مـرحـلة قـدّم وجـوده عـلى طـبق الإخـلاص فـزالت فـي النـتيجة ذاتـه . أي تـبدّلت تـلك المـحدوديّة

باللامحدوديّة ، وذلك الضيق إلى الإطلاق .

وجود اندر كمال خويش سارى است
تعيّنها امور اعتبارى است[1]

فالذي يتحرّك الآن ليست زيديّة زيد ، بل وجود زيد هو المتحرّك . فهو يسير ويسير حتّى يصل إلى الوجود المطلق ، ماذا يعني ذلك ؟ أي أنّه يفتقد تواجده فيكتسب وجوداً أرقى ثمّ يفتقد ذاك التواجد ليحصل على تواجداً أكثر وأعلى .

حتى يحرز وجود الحق حقيقةً ، وتحفظ التعيّنات في مكانها ، ويُصان موطن كلّ واحد في محلّ الأسماء والصفات ، والمدارج والمعارج الكماليّة لزيد الثابت المصون من العدم .

فهناك إذا سئل : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ لأجاب : لست بشيء ، ولست زيداً . إنَّ السؤال «من أين أتيت ؟» يرتبط بعالم الكثرة ، وهنا عالم التوحيد ، فهنا لا زمان ولا مكان ، ولا عمرو ولا زيد .

يقول بايزيد : لم أتحدّث طوال ثلاثين سنة مع غير الحقّ ، وكان كلّ من يسألني هو الحقّ ، وكلّ من يجيبه هو الحقّ . ماذا يعني هذا ؟ يعني أنّه كان طوال تلك المدّة في عالم الفناء ، أمّا «أنا» فهي من عالم الكثرات . وهنا «أنا» هي الحقّ تبارك وتعالى . نعم ، عندما رقّ الزجاج ورقّت الخمر أصبح كلّ من ينظر إليهما يراهما واحداً ، فكيف نتصوّر الفرق والفصل والإنّيّة بينهما ؟

رَقَّ الزُّجاجُ ورَقَّتِ الخَمرُ فَتَشابَها وتَشاكَلَ الأَمرُ
فكأَنَّما خَمرٌ ولا قَدَحٌ وكأَنَّما قَدَحٌ ولا خمرُ[2]

١ـ يقول : «الوجود سارٍ في كماله ... وليست التعيّنات إلّا أُمور اعتباريّة» .

٢ـ استشهد بهذين البيتين الملّا صدر المتألّهين في «الأسفار» في الجزء الثاني .

فهنا ماذا يفعل الضمير بعد ، وما هو نصيب العين الثابتة هنا ؟

لقد زال الضمير ويبقى **الله** ولا غير ، **وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** .

أكــؤوسٌ تَـلَأْلَأَتْ بِــمُــدامْ   أَم شُـمـوسٌ تَـهَـلَّـلَـتْ بِغَـمـامْ

از صـفاى مـى و لطـافت جـام   بهم آميخت رنگ جـام و مُـدام

همه جام است نيست گوئى مى   يا مُدام است نيست گوئى جام[١]

العلّامة : لا يمكن رفع اليد عن زيد ، فإنَّ كلّ الأُمور ترتبط به ، نحن نريد أن نقول إنَّه صار فانياً ، عندما نطرح هذه المسألة ، ونبحث هنا وهناك ، فكيف يضيع زيداً ؟ «صار فانياً» صحيحة ، وهذه الصيرورة لها ضمير لابدّ أن يرجع إلى موضع ما .

وكـلامنا عـلى أسـاس **أصالة الوجود** ، لا أصـالة المـاهيّة ، فـزيد المسكين هذا قد سعى ، وسار في طريق الوجود ، وفني في مسار الوجود .

ولكن لا تقولوا : صار زيد فانياً في الذات ، فـهذه الـ «فـي» مـن أيـن أتت ؟ حتّى نقول : ظهر التعيّن في ذات حضرة الحقّ ، إنَّ «زيد صار فانياً» بالله ، أي أنَّ الله يرى بتعيّن زيد ، ويسمع ويتكلّم .

لقد قضى زيد عمراً في التعيّن ، ومن ثمّ الحقّ المـطلق يـرى بـدون تعيّن ، وفي آخر مرحلة يصبح زيد بحيث يفقد فـيه التـعيّن ، ويـبقى ذلك الضمير في مكانه .

وعندما يجيب زيد : أنا لست أنا ، بل أنـا الحـقّ ، أيـضاً يـبقى هـذا الضمير في مكانه .

١ـ «مفاتيح الإعجاز» في شرح «گلشن راز» ص ٦١ .

يقول : «من صفاء الخمر ولطافة القدح ... اختلط لون القدح والخمر .

فكأنـّما قدح ولا خمر ... وكأنـّما خمر ولا قدح» .

إذا لم يكن زيد حقّاً ، ولم يرتبط بالحقّ ، فكيف يجيب زيد : لماذا تخاطبونني ؟! ولماذا تقولون : زيد ؟! لأنّني لم أعد موجوداً حتّى أُخاطَب ، فلا زيد في البين .

المراد من حديث بايزيد البسطاميّ هو حال الفناء ، وأمّا ما قاله : أنا لم أعد أنا بل الحقّ ، هذا هو الضمير . وما تقولونه من إنَّ زيداً ضيّع ذاته وهو يشاهد بعين الحقّ ويرى ، فكلّ هذه موضوع ومحمول ، وهي بحاجة إلى مرجع .

الأشعار الخمريّة لطيفة جدّاً ، ولكنَّ ما تقولونه من « كأنّما خمر ولا قدح » « كأنّما قدح ولا خمر » ففيه ضمير أيضاً . وعلى كلّ حال ، من أيّ طريق أو أيّ سبيل لا مفرّ من العين الثابتة ، وفي حال الفناء لابدّ من الالتزام بثبوتها .[١]

* * *

ـ ما ظهر لهذا الحقير عند تحرير هذه المقابلات هو أنّه يمكننا القول : إنَّ فناء أفراد الإنسان في ذات الحقّ المقدّسة يتحقّق بشكلين :

الأوّل : أن تكون حياتهم الطبيعيّة والمادّيّة باقية ، وفي هذه الحالة يوفّقون بنيل مقام الفناء، ويحصل هذا الفناء قبل الموت . وفي هذه الحالة يصل إلى الفناء المؤمنون والمخلِصون الذين سلكوا الطريق إلى الله مع بقاء الحياة الدنيويّة . وبناء على هذا، يكون مقام الفناء بالنسبة لهم مثل الحالات المختلفة التي تعرض لهم .

ويمكننا أن نقول : إنَّ زيداً في حال الفناء . كما نقول : زيد ليس في حال الفناء. وفي هذه الحالة يكون الفناء أو عدمه حالتين مختلفتين تعرضان على زيد . وبالطبع لأنّنا نقول: تعرض على زيد يعلم من زيد وتعيّنه أنّه متعيّن وموجود . وفي هذه الحالة تكون العين الثابتة موجودة.

وهذا الحال من الفناء جاء في الروايات :

مَا يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ ⇦

....

⇦ **بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ؛ إنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ .**

وقد ورد هذا الحديث في الكتب الشيعيّة المعتبرة بأسانيد مختلفة ، كما في «المحاسن» للبرقيّ و «الكافي» للكلينيّ ، وقد أورده الغزّاليّ في «إحياء العلوم» في كتاب محبّة‌الله والشوق إليه . وقد قال المرحوم آية الحقّ والعرفان الحاجّ الميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ في كتاب «لقاء الله» : إنَّ هذا الحديث متّفق عليه بين جميع أهل الإسلام .

أجل ، إنَّ هذا الحديث الشريف يبيّن حال فناء المؤمن في ذات الحقّ خلال حياته. وفي هذه الحالة ينظر الحقّ بعين المؤمن ويسمع بإذنه وينطق بلسانه ويبطش بيده ، وهذا ما أشار إليه الملّا الروميّ في أشعاره :

گفت نوح اى سَركشان مَن مَن نيم	من ز جان مُردم به جانان ميزيم
چون ز جان مُردم به جانان زندهام	نيست مرگم تا ابد پايندهام
چون بمردم از حواسات بشر	حقّ مرا شد سَمع و ادراك و بَصر
چونكه من من نيستم اين دَم ز هوست	پيش اين دم هر كه دم زد كافر اوست
هست اندر نقش اين روباه شير	سوى اين روبَه نشايد شد دلير

يقول : «قال نوح لقومه : اعلموا أيّها المتمرّدون أنّي لست أنا ... لقد فنيت نفسي بنفسه، فأنا حيّ بحياته .

ولأنَّ نفسي ماتت ، فأنا حيّ بحياة الحبيب ... فليس هناك من موت لي ، بل نلت حياة البقاء الأبديّة .

ولأن متُّ ولم تعد لي حواسّ البشر ... فقد أصبح الحقّ سمعي وإدراكي وبصري .

ولأنّي لست أنا ، فإنَّ النَّفَس الذي أتنفّسه نَفَسَه هو ... فمن تنفّس قبل نَفَسَه (وأظهر وجوده) كان كافراً .

إنَّ هناك أسد مختفي بوجه هذا الثعلب ... لذا لا يمكن لأيّ شجاع مهاجمة الثعلب».

ومن المسلّم في هذا النوع من الفناء أنَّ تعيّن زيد باقٍ من ناحية أصل الخلقة، لأنَّ الحقّ يرى بعين زيد ، ويسمع بأُذنه . فالفناء إذاً حالة له ، ومن المعلوم أنَّ صاحب هذه الحالة هو زيد الذي ترك وجوده ، ولكنَّ أصل زيديّته باقية في مكانها .

والظاهر أنَّ محيي الدين كان يقصد هذا الفناء في حديثه عن فناء الأشخاص مع ⇦

. . . .

⇦ بقاء أعيانهم الثابتة .

كما أنَّ فناء جميع الموجودات من الجمادات والنباتات كالأشجار والجبال والسماوات والأرض والكواكب والنجوم في ذات الحقّ تعالى من هذا القبيل ، لأنَّ لهم فناء مع بقاء أعيانهم الثابتة وهويّاتهم ، والكلّ في مقام التذلّل والخشوع . والآية الشريفة : **إِنَّ كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا** ، تعود إلى هذا النوع من الفناء ، لأنَّ هذه الدرجة من العبوديّة التي هي الفناء التكوينيّ تتحقّق بالتحقّقات والإنّيّات ، ولهذا يقول : إنَّ الكلّ آتي الرحمن عبداً ، وأنّه أحصاهم وعدّهم، ومعلوم أنَّ الحضور والإحصاء يحدث بالنسبة للموجودات المتعيّنة .

الثاني : فناء الأشخاص الذين فقدوا حياتهم الطبيعيّة والمادّيّة الدنيويّة وطووا العقبات البرزخيّة والقيامة بعد هذه الدنيا ، وقد كانوا من المخلصين والمقرّبين ، الباقين بمقام الفناء في ذات الحقّ . فهؤلاء هم الذين خلعوا أبدانهم ولا جسم لهم ، وعبروا البرزخ والقيامة، ولا صورة ولا نفس لهم ، وقد دخلوا في حرم الحقّ تعالى ، وعبروا كلّ التعيّنات ، فلم يبق لهم أيّة عين ثابتة ، ولا اسم ولا رسم ولا إنّيّة ولا تعيّن ، ولعلّ ما قاله الشيخ ولي الله الدهلويّ في كتاب «الهمعات» إشارة إلى هذا الفناء ، حيث يقول : إنَّ الفناء يحصل بعد خمسمائة سنة من موت الإنسان .

وفي هذه الصورة من الفناء لا وجود للعين الثابتة ، وتبديل زيد وتبدّله إلى مقام الفناء مثل تبديل وتبدّل الفراشة إلى النار ، وحبّة السكّر إلى ماء ، والقطرة إلى بحر ، واليرقة إلى طائر وغيرها ، الذي هو تبدّل ماهويّ ووجوديّ . ففي هذا النوع لا يكون التبدّل من حال إلى حال مع بقاء العين الثابتة والإنّيّة كالنوع الأوّل .

ففي هذا النوع (الثاني) يتحقّق التبدّل والتبديل بشكل ذاتيّ ، وأشبه بكلب استحال إلى ملح في حوض الملح ، فلم يبق له أيّ أثر ولا عين ، ولن يبقى للسالك في طريق الله أيّ عين أو أثر بعد الموت :

هـنيئاً لأربـاب النـعيم نـعيمهم ۝ وللـعاشق المسكـين مـا يـتجرّعُ

والظاهر أنَّ ما كان أُستاذنا آية الله وسند الحقّ والعرفان المرحوم العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه يصرّ عليه في محاوراته مع هذا الحقير الذي كان يقتطف النفائس في بحر علومه الزاخر ، ولا يتنازل عنه بأيّ وجه من الوجوه كما هو ملاحظ ، وكان مُلزماً ببقائه ⇦

التلميذ : في الآية الشريفة من القرآن الكريم يقول الله تعالى :
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ.[1]

حيث إنَّ **فَوَٰكِهُ** في هذه الآيات الشريفة عطف بيان على **رِزْقٌ مَّعْلُومٌ** . و عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ هم الذين فنوا في ذات الله ، فكيف يتصوّر لهم جزاء **رِزْقٌ مَّعْلُومٌ** معيّن ؟ أليس الذي يصل إلى مقام الفناء يحصل على جميع النعم الإلهيّة بدون حساب منه ؟ وكيف ينسجم الخلوص الذاتيّ مع المحدوديّة في الجزاء والمعلوميّة في الثواب ؟

العلّامة : الظاهر أنَّ المراد من الرزق المعلوم تلك الأهمّيّة التي يمنحها الرزق لهم . وهذا بنفسه يملك الأمل بتحقّقه . ولأنَّ عباد الله المخلَصين هم عباد ومخلَصين ، لهذا فإنَّ لهم التقدير والمعلوميّة من الرزق .

وقد صدّق هذا المعنى بعض العرفاء ، وهو تعبير جيّد ، حيث إنَّ هويّة وماهيّة الأشخاص لا تزول في النشأة الآخرة ، بل تبقى أعيانهم الثابتة .

وهذا الأمر هو على النحو الثابت ، فهم وإن كانوا فانين ، ولكنَّ لهم تعيّن وتشخّص من الوجود .

وهذا لا يتنافى مع بقاء العين الثابتة لهم ، مع كونهم في نفس الوقت عباد الله المخلَصين .

* * *

⇦ في كلّ الأحوال بعنوان العين الثابتة وبقاء مرجع الضمير ، قد كان الفناء من النوع الأوّل الذي يحصل للسالك في الدنيا خلال حياته ، والمحسوب كمالات وملكات له . جَزاهُ اللَهُ عَنِ العِلْمِ أَفْضَلَ جَزَاءِ المُعَلِّمِينَ ، وَرَحْمَةُ اللَهِ عَلَيهِ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ . بالرغم من أنّه يمكن الاستفادة من بعض عباراته شمولها لكلا النوعين من الفناء .

١ـ الآيات ٤٠ إلى ٤٣ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

التلميذ : يقول الفلاسفة : **القَسْرُ لا يَكونُ دائميّاً ولا أكثريّاً** .

ألَا يتنافى امتناع القسر مع الخلود في نار جهنّم ؟ وهل عدم جواز القسر أمر يختصّ بالحركات الطبيعيّة أم أنّه يشمل الأُمور المعنويّة أيضاً ؟ وهل امتناع الحركة القسريّة بالنسبة للمتحرّك ، أم بالنسبة للمحرّك كذلك ؟

العلّامة : يقال إنَّ القسر لا ينسجم مع العنايات الإلهيّة ، هذه العنايات الإلهيّة سواء كانت من ناحية التوفيقات والإفاضات أم من ناحية الكمالات أم النعم التي تعطى للبعض ، فلا يمكن أن تكون غير تامّة ، فالله تعالى لا يعطي نعماً مجتزأة أو غير تامّة . فإعطاء النعمة قسراً ، بحيث تسلب بعد فترة لا ينسجم مع العناية الإلهيّة وليس مناسباً . فالنعم الإلهيّة يجب أن تعدّ دائميّة ، فإذا أُعطيت نعمة ما فهي تُعطى دائميّة ، ولا عجب .

أمّا بالنسبة للخلود في جهنّم ، فكما يفسّرون الكلام ، لا يمكن أن تكون النعمة قسريّة مع المخلّدين في نار جهنّم . فالوجود الذي أوجده الحقّ تعالى ، أو الوجود الذي يعطى لموجود ما خصوصيّة وجوديّة ، لا محدوديّة له . فهو لا يعطى له عدّة أيّام ثمّ يسلب منه .

فهذا لا ينسجم مع العناية الإلهيّة ؛ فالنعم الإلهيّة لا تصل إلينا عن طريق القسر ، ولا تعطى لنا لعدّة أيّام ثمّ تنقطع عنّا . لذا فإنَّ المخلّدين في نار جهنّم لم يكن لهم في المرحلة الأُولى نِعَم قسريّة .

أمّا الحركات القسريّة ، فهي قسر بالنسبة للمتحرّك ، وطبيعيّ أنّها ليست كذلك بالنسبة إلى العلّة العاملة ، كما إذا رمى الإنسان مجموعة من الحجارة إلى السماء ، فهي في حركتها الصعوديّة تتحرّك قسراً ؛ أمّا الإنسان الذي يرميها إلى الأعلى فلا قسر له ، وأمثالها .

من الممكن أن تكون قوّة يد الإنسان بالدرجة التي تجعل هذه الحجارة تصعد دائماً ، مثل السفن الفضائيّة التي يطلقونها ، فهي تخرج من

فضاء الأرض حيث تجعل العلل والعوامل ملازمة لها وتسير معها ، إلى أن تنهي هذه العلل عملها ، فتسقط هذه السفن أو تحترق أو تفنى بطريقة أُخرى ، أو تصبح تحت قوّة جاذبيّة أُخرى وتتحرّك في مدارها وتحت سيطرة ذلك العامل .

في الأُمور المعنويّة ، يمكن اعتماد مثل هذا التقريب في عدم دوام القسر ، ففي المعنويّات والرحمات الإلهيّة ، لا تكون الحركة القسريّة دائميّة أو أكثريّة . وأنَّ العوامل المعنويّة لها إفاضة مستمرّة على أساس الحركات النفسيّة الأوّليّة .

الأَبحاثُ العِرفانيَة

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التلميذ : بالنسبة إلى **كيفيّة نزول الوحي** على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، هل كانت حالة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تتغيّر دائماً حين نزول وحي الآيات القرآنيّة والأوامر والنواهي الإلهيّة بحيث كان يخرج عن حالته العاديّة ؟ أم أنَّ هذا كان يحدث في بعض الأحيان ؟

لأنّه قد ورد في النصوص المأثورة أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يصفرّ ويمتقع لونه حين نزول الوحي عليه ويضطرب بدنه ، ويبدو كشخص قد فقد الوعي .

وهل كان يقرأ الآيات الإلهيّة التي كانت تنزل عليه على الناس وعلى كتّاب الوحي وهو على تلك الحالة غير العاديّة أم عند إفاقته ؟ وهل كان كتّاب الوحي يلازمونه دائماً بحيث يكتبونه فور نزوله أم كانوا يكتبونه بعد ذلك ؟ وهل كان نزول الوحي بواسطة جبرائيل ، أم أنَّ الله تعالى كان يتجلّى للرسول بدون واسطة أو حجاب ؟

العلّامة : لا يمكن القول بأنَّ حالة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت تتغيّر دائماً عند نزول الوحي ، فنحن لا نمتلك دليلاً ، فمن أين ندّعي ذلك ؟ في بعض الحالات كان يتغيّر حال الرسول عند نزول الوحي فيبدو كشخص مقضيّ عليه ، ثمّ يفيق بعد ذلك .

أمّا بالنسبة لقراءة الآيات على هذه الحالة غير العاديّة أو بعد الإفاقة ، فليست واضحة تماماً .

فقد يستفاد من بعض الروايات أنّه كان يقرأ الآيات في حالة الإفاقة . فعندما كان يعود من عالم الفناء إلى البقاء كان يسأل :كيف قرأتم ؟ فهذا دليل على أنّه كان يقرأ في حالة الفناء والقبض ، وكان يقرأ أيضاً عندما يرجع إلى حالته العاديّة .

وفي الرواية أنَّ الإمام الصادق عليه السلام سئل : **يَابْنَ رَسُولِ اللَهِ !** أكانت الغشية التي تأخذ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تكون عند هبوط جبرئيل ؟ فقال : لا ، إنَّ جبرئيل عليه السلام إذا أتى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يدخل عليه حتّى يستأذنه ، فإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد ، وإنَّما ذلك عند مخاطبة الله عزّ وجلّ إيّاه بغير ترجمان وواسطة .

ولدينا في شأن نزول سورة المائدة وروايات نزولها ـ مثلاً ـ أنّها نزلت على النبيّ الأكرم حين ورد المدينة ، فثقل عليه الوحي حتّى وقعت بغلته وتدلّت بطنها حتّى كادت سرّتها تمسّ الأرض .

والآيات والروايات التي تبيّن كيفيّة نزول سور القرآن متعدّدة ، فبعضها يدلّ على أنَّ الله تعالى كان يتجلّى ويوحي للنبيّ بدون واسطة ، ويستفاد من البعض الآخر أنَّ الوحي كان يتمّ عبر جبرائيل .

وفي الرواية الواردة في آخر سورة الشورى «حمٓ * عٓسٓقٓ» :

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .[1]

جعل وحي الله قسيماً مع إرسال الرسل ، أي أنَّ الوحي قسيم إلى جانب إرسال الرسول والتكلّم من وراء الحجاب . فكلّما كان هناك وحي ، يكون جبرائيل موجوداً .

١ـ الآية ٥١ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

وتدلّ هذه الآية بوضوح على أنَّ القرآن عندما كان ينزل بطريق الوحي ، فإنَّ ذلك كان يتمّ من قبل الله الحقّ المتعال بدون واسطة وعلى الرسول الأكرم دون وجود جبرائيل . أمّا حين كان ينزل جبرائيل ، فإنَّ تجلّي الحقّ لم يكن بدون واسطة .

هذه المسألة واضحة جدّاً ، لأنَّ الأمر جاء بصورة الحصر المطلق الدائر بين النفي والإثبات (**إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا**) ، فكلّ ما يكون بتوسّط جبرائيل أو أعوانه لا يكون وحيّاً .

والآيات الواردة في أوّل نزول القرآن :

بِسْمِ ٱللَهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .[١]

بحسب الظاهر كانت وحياً من قبل الحقّ المتعال ، ومن المعلوم أنَّ جبرائيل قد أحضرها فيما بعد .

ويوجد في القرآن ثلاث آيات أيضاً تدلّ على أنَّ القرآن قد نزل بواسطة جبرائيل وروح القدس والروح الأمين .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَهِ .[٢]

قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا.[٣]

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ .[٤]

١ـ الآيات ١ إلى ٥ ، من السورة ٩٦ : العلق .

٢ـ صدر الآية ٩٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ صدر الآية ١٠٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

٤ـ الآيات ١٩٣ إلى ١٩٥ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

أجل ، فظاهر هذه الآيات يدلّ على أنَّ جبرائيل هو الذي أنـزل كـلّ القرآن ، ولأجل الوصول إلى حقيقة المطلب والجمع بين آيات القـرآن فكّرتُ بطريقة ما ، ولست أدري هل ستؤدّي المعنى أم لا ، وهي بأن نقول : إنَّ كيفيّة نزول الوحي لها ثلاث مراحل :

المـرحـلة الأُولى : وهـي نـزول الوحـي **مِن الله** سبحانه وتـعالى بلا واسطة .

المرحلة الثانية : وهي أدنى من الأُولى ، حيث تكون من جانب اللـه سبحانه ، ولكن بواسطة جبرائيل الذي يكون حاضراً ، وعن طريقه يوحي الله سبحانه وتعالى .

المرحلة الثالثة : وهي أدنى من سابقتيها ، حيث يكـون الوحـي مـن جانب جبرائيل ، ولكن بـواسـطة أعـوانـه ، فـالله يـوحي عـبر جـبرائـيل ، وجبرائيل عبر وسائطه وأعوانه ، وفي هذه المـرحـلة يكـون اللـه سـبحانه حاضراً وجبرائيل وأعوانه كذلك .

ولدينا آية في القرآن الكريم تدلّ على المرحلة الثالثة التي يتمّ فـيها الوحي بواسطة أعوان جبرائيل ، حيث توضّح أنَّ الآيات الإلهيّة كانت تنزّل في ألواح أو ما شابهها مـن صـحف فـي أيـدي السـفرة الكـرام ويـقرأهـا رسول الله :

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ .[1]

وفي هذه المراحل الثلاث ، يكـون أهـل المـراحـل حـاضرين ، أي حضرة الحقّ وجبرائيل والسفرة الكرام البررة ، ونزول الوحي أيضاً في كلّ

١ـ الآيات ١١ إلى ١٦ ، من السورة ٨٠ : عبس .

مرحلة من المراحل يكون بواسطة الجميع ، أي بتوسّط السفرة الكرام وتوسّط جبرائيل وبتوسّط حضرة الحقّ تعالى ، غاية الأمر أنّه في بعض الموارد يكون النظر الأصليّ إلى ذات الحقّ ، بحيث لا يكون النظر نحو جبرائيل والسفرة . وهذا إنّما كان في الموارد التي تتغيّر فيها حالة رسول الله ، وهو الوحي الوارد في سورة الشورى «وَحْيًا» .

وفي بعض الموارد يكون النظر الأصليّ إلى جبرائيل ، بحيث لا يكون متوجّهاً إلى السفرة ، والنظر إلى ذات الحقّ يكون بمرآة جبرائيل .

وفي بعض الموارد يكون النظر الأصليّ إلى الملائكة وأعوان جبرائيل ، وهم السفرة . ومن خلال وجودهم وتعيّنهم يتوجّه النظر إلى جبرائيل وحضرة الحقّ تعالى . وحول هذا القسم الأخير طبق الآية الكريمة : **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** ؛ غاية الأمر أنّه في بعض الأحيان يكون بتوسّط الرسول جبرائيل ، وفي البعض الآخر بتوسّط السفرة الكرام الذين هم أعوانه .

لأنّه طبق الآية : **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** ، فإنَّ الله تعالى عندما يوحي فإنَّه يتكلّم ، وفي تكلّمه لا يتّخذ واسطة ، فإنَّه يتجلّى مباشرة ويتكلّم ، والرسول الأكرم يدرك هذا التكلّم .

ويوجد شبيه لهذا المعنى فيما جاء حول قبض الروح ، فهنا ثلاث مراحل في القرآن الكريم :

الأُولى : **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا**.[1]

١ـ صدر الآية ٤٢ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

الثالثة : **قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ** .[١]

الثالثة : **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ** .[٢]

ويوجد نظير لهذه الآية في القرآن الكريم أيضاً . وعلى كلّ حال ، يستفاد من هذه الآيات أنّه في إحدى المراتب يقبض الله سبحانه الأرواح مباشرة ، وفي المرتبة الأدنى ينسب القبض إلى ملك الموت ، وفي المرتبة الأخيرة ينسب قبض الأرواح إلى الملائكة والرسل .

وفي جميع هذه المراحل يكون الله تعالى حاضراً إلى جانب ملك الموت والملائكة ، والاختلاف فقط فيما يرتبط بالشخص المحتضر الذي لا يكون متوجّهاً إلى غيره سبحانه و تعالى بأيّ وجه من الوجوه ، فيقبض الله روحه بدون واسطة أُخرى ، فلا يرى المتوفّى عزرائيل أو أيّ ملك آخر حتّى وإن كانوا عاملين في هذا الموقف .

وفي بعض الموارد لا يكون مقام المحتضر بحيث يمكنه من الاستغراق صرفاً في أنوار حضرة الأحديّة ، ولأنَّ فيه مراتب من الخلوص (الإخلاص) ، فإنَّ قبض روحه يتمّ بواسطة عزرائيل .

وفي بعض الموارد يتمّ القبض بواسطة الملائكة الجزئيّة وأعوان عزرائيل . وفي الصورة الثانية لا يشاهد ذات الحقّ ، وفي الصورة الثالثة لا يشاهد ذات الحقّ ولا عزرائيل .

وعلى كلّ حال ، فإنَّ اختلاف هذه المراتب يعود إلى اختلاف الإدراك والدرجات والمقامات عند المحتضرين .

وكما ذكرنا ، فإنَّ اختلاف درجات الوحي ومراتبه في المراحل

١ـ صدر الآية ١١ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٢ـ ذيل الآية ٦١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

الثلاث يعود إلى اختلاف الحالات والمقامات والأوضاع التي تحدّد الوسائط لنزول الوحي ، والله سبحانه و تعالى أنزل الوحي بإحدى هذه الطرق الثلاثة .

* * *

التلميذ : في الآية الكريمة : **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ** .[١] هل مفادها هو أنَّ جميع كلمات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت وحياً ؟ أم أنَّ ظاهرها هو أنَّ الآيات القرآنيّة التي كان يتلوها رسول الله كانت وحيّاً ؟

فقد نجد البعض يستدلّون من خلالها على أنَّ جميع كلمات النبيّ العاديّة كانت وحياً منزلاً أيضاً . مثلاً قضيّة الأمر بحركة **جيش أُسامة** ، أو قضيّة الورقة والدواة عند احتضاره : «آتوني بدواة أكتب لكم ما لا تضلّوا من بعدي أبداً» فإنّهم يستدلّون بالآية الشريفة **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** .

فكلمات الرسول هذه وأوامره ونواهيه في الأُمور الفرديّة والعائليّة أو الأُمور الاجتماعيّة ألم تكن وحياً ؟ ولا شكّ أنَّ كلمات رسول الله العاديّة كانت صحيحة وطبق موازين الحقّ ، ولكن هل يصحّ الاستدلال بآية **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ؟

العلّامة : لهذه الآية ـ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ـ إطلاق ، وهو يشمل وحي آيات القرآن وغيره ، ويمكن القول : إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يتحدّث أبداً حتّى في الأُمور العاديّة متأثّراً بالميل وهوى النفس .

ولكنَّ الآية **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ** ، ترتبط

١ـ الآيات ٣ إلى ٥ ، من السورة ٥٣ : النجم .

بالقرآن الكريم والآيات المنزلة ، ولا ترتبط بالأُمور العاديّة أو الأوامر الشخصيّة التي كان يصدرها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

* * *

التلميذ : البعض لا يستعملون أثناء حديثهم ضمير أنا ، فلا يقولون : أنا فعلت كذا ، وأنا قلت كذا ، وأنا ذهبت ... بل يستعملون بدل ذلك ضمير الغائب هُوَ ، فيقولون : فعل ورحل وقال وأكل ، فهل يقصدون من ذلك رعاية نوع من الأدب ويريدون منها أن لا يعتادوا على لفظ أنا ، وتجنّب الإنّيّة ونسبة الأفعال إلى النفس ؟ أم أنَّ مقصدهم إسناد الأفعال إلى الحقّ ونفي أيّ وجود لهم في مقابله ؟ لو أنَّ هذا المقام ليس بمقام التوحيد الصرف ، وفي ذلك المقام غير وجود الحقّ لا يرى شيئاً ، ونسبة الأفعال إلى النفس في الحقيقة هي نسبتها للحقّ تبارك وتعالى .

العلّامة : لعلّ البعض منهم يهدف من وراء ذلك إلى رعاية الأدب واجتناب التلفّظ بالأنا والإنّيّة لأجل إعداد أرضيّة الوصول إلى المقام التوحيديّ .

وما أذكره في قضيّة التوحيد أنَّ الإمام الصادق عليه السلام كان يلتفت كثيراً ويميل إلى إرجاع لفظ «هو» إلى الله ، الذي يشير إلى مقام الذات . وإذا كان الأمر هكذا ، فلا هو إلّا الله ، وكفى .

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ .[1]

لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ

١ـ الآية ١ ، من السورة ١١٢ : الإخلاص .

ٱلرَّحِيمُ .

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ (الكلام عن «هو» ، ولفظ «هو» يرد في البين) **ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .**[1]

وممّا يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه شاهد في عالم الرؤيا النبيّ الخضر عليه السلام ، وذلك في ليلة غزوة بدر ، فسأله أن يعلّمه ذِكراً يهزم به الأعداء ، فقال له الخضر : قل : **يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ .**

وعندما استيقظ من نومه أخبر رسول الله بما شاهده ؛ فقال له صلّى الله عليه وآله وسلّم : يا عليّ **!** عُلِّمت الاسم الأعظم .[2]

١ـ الآيات ٢١ إلى ٢٣ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

٢ـ وقد ذكرت هذه الرواية في «مجمع البيان» في تفسير سورة الإخلاص : **حَدَّثَنِي (أي قال أبو جعفر عليه السلام) وَحَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ الخِضْرَ فِي المَنَامِ قَبْلَ بَدْرٍ بِلَيْلَةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : عَلِّمْنِي شَيْئاً أَنْتَصِرُ بِهِ عَلَى الأَعْدَاءِ ! فَقَالَ : قُلْ : يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ ! فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .**

فَقَالَ : يَا عَلِيُّ ! عُلِّمْتَ الاسْمَ الأَعْظَمَ ؛ فَكَانَ عَلَى لِسَانِي يَوْمَ بَدْرٍ .

قَالَ : وَقَرَأَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ بَدْرٍ : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ : يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ اغْفِرْ لِي وَانْصُرْنِي عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ . وَكَانَ يَقُولُ ذَلِكَ يَوْمَ صِفِّينَ وَهُوَ يُطَارِدُ ، فَقَالَ لَهُ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! مَا هَذِهِ الكِنَايَاتُ ؟! قَالَ : اسْمُ اللَهِ الأَعْظَمُ وَعِمَادُ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، ثُمَّ قَرَأَ : شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ، وآخِرَ الحَشْرِ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الزَّوَالِ .

وأصل هذه الرواية في «التوحيد» للصدوق ، في باب تفسير قل هو الله أحد ، ص ٨٩ ، يرويها بسنده المتّصل عن أبي البَخْتَريّ وهب بن وهب ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، عن الإمام الباقر عليه السلام ، وضمن التفسير يستشهد الإمام الباقر بهذه الرواية التي رواها عن آبائه ، عن أبيه سيّد الشهداء عليه السلام ، عن أمير المؤمنين عليه السلام .

فـما أعـمق هـذا الذكـر : **يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إلَّا هُوَ** ، وهـذه المسألة وتتّضح جيّداً في قضيّة توحيد الوجود . **يَا هُوَ** ، **يَا مَنْ هُوَ** ، **يَا مَنْ هُوَ هُوَ** ، **يَا مَنْ لَا هُوَ إلَّا هُوَ** .

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقاتل وهو يتلو هذا الذكر .

أجل ، فإنَّ هُوَ من ظهوراته تدلّ على أشياء .

فــهذه كــلّها ظـهورات ، والنـاس يـبصرون بأعـينهم العـمياء ، أمّـا أمير المؤمنين عليه السلام فإنَّه ينظر بعين أُخرى . فهذه كلّها أطوار وأشكال وظهورات الحقّ جلّ وعلا .

* * *

التلميذ : هل كان المرحـوم القـاضي رضـوان الله عـليه يـذكر هـذه المقولات التوحيديّة في مجالسه لأحد من تلامذته وإخوانه الخواصّ ؟

لقد كان المرحوم القاضي رجلاً حقّاً كالطود الشامخ ، وكان حـيويّاً له سعة واسعة وذكاء خارقاً ، ولكنَّ بعض تلامذته الذين كانوا يتردّدون عليه بعد اثنتي عشرة سنة من المراودة والدراسة لا يـعلمون شـيئاً عـن التـوحيد حتّى بقوا في عوالم الكثرات ، ولا أدري هل كان يداريهم ويسايرهم إلى أن رحل آية الحقّ هذا عن الدنيا ؟!

ولكنَّ بعض التلامذة على عكس ذلك ، كانوا يتزوّدون بسـرعة مـن المعارف الإلهيّة والمعرفة بالأسماء والصفات وتوحيد ذات الحقّ .

العلّامة : أجل ، كان المرحوم القاضي يذكر تلك الأُمور لبعض طلّابه الذين يمكن الاعتماد عليهم إلى حدّ ما ، وبالفعل فإنَّه كـان رجـلاً عـجيباً ، يتصرّف مع كلّ واحد من تلامذته حسب استعداداته وحالاته .

فالأشخاص متفاوتون ، فبعضهم أسرع رُشداً والبعض الآخـر بـطيء النمو .

وفي الأحوال العاديّة كان المرحوم القاضي يتواجد معظم أيّام الشهر عشرة أو عشرين يوماً ، ويزوره الرفقاء ويتباحثون معه ، ثمّ يختفي فجأة لعدّة أيّام لا يعلم أين هو ولا يتمكّن من الوصول إليه ، لا في البيت ولا في المدرسة أو المسجد أو الكوفة أو السهلة أو أيّ مكان آخر ، وكانت أُسرته لا تعلم أين هو وإلى أين ذهب .

وكان الرفقاء يبحثون عنه في أيّ مكان يمكن مشاهدته فيه ، ولكن دون جدوى ، ثمّ يعود مجدّداً للظهور ، وكان يقيم الجلسات الخاصّة في منزله وفي المدرسة ، وهكذا كانت له حالات عجيبة وغريبة .

وكان النجفيّون ينقلون عنه حادثة ، لا ينحصر ذلك في واحد أو اثنين منهم ، بل يتعدّى الأمر . وقد سألته عنها بنفسي فصدّقها .

فقد كان المرحوم القاضي مريضاً ، وكان جالساً في أيوان المنزل الذي كان يسكنه ، وكان يشكو آلاماً في رجليه بحيث فقدت رجلاه القابليّة على الحركة والانثناء . وكان هناك في تلك الأثناء حرب دائرة في النجف الأشرف بين طائفتي **الزكرت** و **الشمرت** ؛ وكان أُولئكم قد تحصّنوا فوق سطوح المنازل يترامون من فوقها . فكانت الحرب دائرة بين هذا الطرف من المدينة وطرفها الآخر . ثمّ رجحت كفّة الزكرت ، فأجلوا طائفة الشمرت وردّوهم على أعقابهم ، فكانوا في تقدّمهم يحتلّون المنازل والسطوح الواحد بعد الآخر .

وكانت جماعة من طائفة الشمرت قد تحصّنت فوق سطح داره واستخدمته في رمي الزكرت ، فلمّا تغلّبت طائفة الزكرت جاء رجالها إلى هذا السطح فقتلوا رجلين من الشمرتيّين ؛ وكان المرحوم القاضي جالساً في الأيوان يتفرّج . ولمّا احتلّ الزكرتيّون السطح وتراجع الشمرتيّون عنه ، نزل الزكرتيّون إلى ساحة البيت واحتلّوا البيت وقتلوا اثنين آخرين من

الشمرتيّين في الأيوان ، واثنين آخرين في ساحة البيت ، فصار مجموع قتلاهم ستّة أشخاص .

وكان المرحوم القاضي يقول : حين قتلوا ذينك الشخصين فوق السطح ، فقدكان الدم يتدفّق من الميزاب إلى الأسفل كالمطر ، وكنت جالساً في مكاني دون أن أقوم بحركة . ثمّ إنَّ الكثير من الزگرتيّين تدفّقوا في غرف منزله فجمعوا كلّ ما يصلح للاستفادة منه ونهبوه .

واللطيف في هذا المقام أنَّ المرحوم القاضي كان يقول : لم أتحرّك وبقيت جالساً على حالتي السابقة وأنا أتأمّل .

ويقول :كان الدم يتدفّق من الميزاب ، وكان هناك قتيلان في الأيوان وقتيلان آخران ملقيان في ساحة البيت ، وأنا أتفرّج .

وهذه الحالات يقال لها الفناء في التوحيد ، حيث إنَّ السالك لا يرى حينذاك شيئاً غير الله تعالى ، فهو يشاهد جميع الحركات والأفعال ، يشاهدها تجلٍّ للحقّ .

وقد حصل للمرحوم القاضي حادثة أُخرى حضرتها وشاهدتها بأُمّ عيني ؛ وبيانها كالآتي :كان لأحد أصدقاء المرحوم القاضي حجرة في مدرسة الهنديّ البخارائيّ المعروفة في النجف الأشرف ، وكان قد سافر وأوكل حجرته إلى المرحوم القاضي ليستفيد منها في الجلوس والنوم وسائر احتياجاته .

وكان المرحوم القاضي يأتي إلى تلك الغرفة نهاراً قرب الغروب ، كما كان رفقاؤه يأتون كذلك فيقيمون صلاة الجماعة . وكان مجموع التلامذة يتراوح بين سبعة إلى عشرة أشخاص . ثمّ يجلس المرحوم القاضي إلى ما بعد ساعتين من الليل ، وكانت المذاكرات تقام ، فيطرح التلامذة أسئلتهم ويستفيدون منه .

وحصل أن كنّا في أحد الأيّام جالسين في الحجرة ، وكان المرحوم القاضي جالساً أيضاً ، فشرع بالكلام عن التوحيد الأفعاليّ بحرارة ، وكان منهمكاً بالحديث عن التوحيد الأفعاليّ وبيانه بصورة موجّهة لإثباته ، حين بدا أنَّ السقف قد انهار . وكان في أحد طرفي الغرفة مدخنة للمدفأة ، فبدأ من هناك صوت كمثل القرقعة ، ثمّ حصل انهيار مع جلبة وصخب ، وتصاعد الغبار فملأ فضاء الحجرة . فنهض التلامذة والسادة الحاضرون بأجمعهم وأنا معهم ، واتّجهت إلى باب الحجرة فرأيت التلامذة مزدحمين بأجمعهم وكلّ منهم يدفع الآخر إلى الوراء من أجل أن يخرج من الغرفة .

ثمّ اتّضح في تلك الحال أنَّ الأمر ليس كذلك ، وأنَّ السقف لم يتهدّم فعدنا وجلسنا بأجمعنا كلّاً في مكانه . أمّا المرحوم السيّد (القاضي) فظلّ جالساً في موضعه دون أن يتحرّك قيد أُنملة ولم تصدر منه أدنى حركة مع أنَّ ذلك التصدّع قد بدأ من فوق رأسه .

وعندما جلسنا قال : **تعالوا يا موحّدي التوحيد الأفعاليّ !** نعم ، كان جميع التلامذة مرتبكين لا يحيرون جواباً .

وهكذا جلسنا مدّة ، حتّى أنهى بياناته التي تفضّل بها حول التوحيد الأفعاليّ .

أجل ، لقد امتحنّا في ذلك اليوم بالدرس الذي كنّا نتعلّمه .

وفيما بعد علمنا أنَّ هذه المدرسة كانت متّصلة بمدرسة أُخرى بحيث إنَّ حجرات هذه المدرسة تقابل حجرات المدرسة الأُخرى ، ولا يفصلهما عن بعض إلّا حائط واحد .

وكان سقف الحجرة المقابلة لحجرتنا قد تصدّع وانهدم ، ولأنَّ السقفين كانا متّصلين عن طريق مدخنة المدفأة ، لهذا سمعنا هذا الصوت وامتلأت الحجرة بذلك الغبار الكثيف .

أجل ، هكذا مررنا في الامتحان .

* * *

التلميذ : إذا قدّم شخص لآخر هديّة ، يقول البعض إنَّه على أساس التوحيد الأفعاليّ ينبغي أن يقبلها ، لأنَّ المعطي هو الله ، ولا يليق ردّ الإحسان والهديّة من الله ، إضافة إلى أنّه لا مكان هنا لحفظ ماء الوجه وعزّة النفس . فعلى السالك أن ينسى عزّة نفسه وماء وجهه مقابل هذا الإحسان ، وبقبوله الهديّة بعنوان أنّها من الله يكون قد فتح له طريقاً إلى التوحيد الأفعاليّ .

والبعض يجعلون عنوان عزّة النفس شعاراً ، فلا يقبلون أيّ شيء من أيّ أحد ، والبعض لهم ملاحظات أُخرى ، فماذا يفعل الإنسان السالك إلى الله لأجل الوصول إلى التوحيد ؟ هل يقدّم مقام عزّة النفس ، أم يفديه لأجل التوحيد الأفعاليّ لحضرة الحقّ ؟

وما أكثر ما يكون مقدّم الهديّة قد قدّمها تحت عنوان المساعدة والصدقة وفي نفسه شعور بالشفقة ، أو تحت عنوان الرشوة لكي يمهّد الوصول إلى مآربه المشروعة أو غير المشروعة . وفي معظم الأحيان يكون قبول الهدايا مستلزماً حقّاً وميلاً للمعطي على المتقبّل ، أو على الأقلّ يوجب المنّة ، والخضوع لها ممّا يؤدّي إلى حلول نوع من الضرر على السالك ، ومن جانب آخر فإنَّ الانزواء والتقوقع وعدم المبالاة بخلق الله وطلباتهم يؤدّي إلى ضرر يلحق بالسالك .

العلّامة : إذا لم يستلزم قبول الهديّة عواقب غير مشروعة وذلّة ، فهو ضروريّ ، وردّ الهديّة أمر غير لائق . وفي الظاهر توجد رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها : **لَا يَرُدُّ الإحْسَانَ إلَّا الحِمَارُ** ؛ أو أنّه لا يردّ الإحسان إلّا الحجر الصلد أو الشخص الخشن .

أجل، إذا كان لهذا العمل عواقب أو آثار أخلاقيّة سيّئة، كالذلّة والمنّة وأمثالها، فإنَّ قبولها ليس مطلوباً.

وعلى السالك أن يلاحظ هذه الجهات، وبشكل عامّ ينبغي القول إنَّ قبول الهديّة لازم **وَلَا يَرُدُّ الإحْسَانَ إلَّا الحِمَارُ** حكم كلّيّ مسجّل.

أمّا عندما يستلزم الذلّة والمنّة أو أشياء أُخرى غير صحيحة، ففي هذه الموارد تمنع الأحوال الأخلاقيّة منها، لأنَّ نفس هذا القبول للذلّ والمنّة يسدّ الطريق على السالك.

* * *

التلميذ: ينقل أنَّ المرحوم الآخوند الملّا [1] فتح علي السلطان آباديّ على الرغم من رياضاته ومكاشفاته ومقاماته، لم يكن في مراحل ومنازل توحيد ذات الحقّ المتعال.

العلّامة: نعم، لعلّه كان وارداً في المجاهدات النفسانيّة دون التوحيد.

و مع أنّه كان معاصراً للمرحوم الملّا حسين قلي الهمدانيّ الذي كان نادرة عصره في التوحيد، فلم يكن هناك أيّة علاقة أو مراودة بينهما وإلى حدٍّ ما كانت العلاقة بينهما مكدّرة. لقد كان المرحوم الملّا حسين قلي الهمدانيّ في الواقع ظاهرة فريدة، وقد تتلمذ على يديه أكثر من ثلاثمائة طالب، وبالطبع من طلّابه وطلّاب طلّابه.

في ذلك الوقت كان بين هؤلاء الطلّاب مجموعة من الكافلين إلى حدٍّ ما، كالسيّد أحمد الكربلائيّ والشيخ محمّد البهاريّ والسيّد محمّد سعيد الحبّوبيّ والحاجّ الميرزا جواد التبريزيّ رضوان الله عليهم.

قيل إنَّ جماعة في ذلك الوقت تآمروا على النهج العرفانيّ والإلهيّ

١ـ المُلّا ـ بمعنى العالم ـ رجل الدين. (م)

والتوحيديّ للمرحوم الملّا حسين قلي وكتبوا عريضة انتقاد إلى **آية الله الشَّرَبْيانيّ** ـ الذي كان زعيم المسلمين المطلق في ذلك الزمن ـ وذكروا فيها أنَّ الملّا حسين قلي ينتهج طريقة الصوفيّة .

وعندما اطّلع المرحوم الشربيانيّ على العريضة ، حمل قلمه وكتب :

«**ليت الله يجعلني مثل الملّا حسين قلي الصوفيّ**» .

وبهذه الجملة أنهى كلّ المؤامرة ، ووأد فتنتهم في مهدها .[١]

كان أُستاذنا المرحوم الميرزا علي القاضي ينقل عن أُستاذه المرحوم السيّد أحمد الكربلائيّ رحمة الله عليه قوله : كنّا دائماً بين يدي المرحوم الملّا حسين قلي الهمدانيّ رضوان الله عليه وكان بكلّ وجوده لنا ، ولكن عندما جاء الشيخ محمّد البهاريّ وأصبح بينهما علاقة معرفة ومودّة ، وداوم على خدمته والتردّد عليه حتّى سرق منّا الملّا .

وينقل المرحوم القاضي عن السيّد أحمد الكربلائيّ قصّة حدثت في أحد أسفاره حين التقى بأحد الدراويش المشرقي الضمير ، فقد قال له ذلك الدرويش إنَّه مأمور باطّلاعه على أمرين : الأوّل الكيمياء ، والثاني : على موتي غداً ، وأريد منك أن تجهّزني وتدفنني .

فأجابه السيّد أحمد : أنا لست بحاجة إلى الكيمياء ، ولكنّني سوف أتكفّل تجهيزكم . وبالفعل توفّي الدرويش في اليوم التالي ، وتولّى السيّد

١ـ ذكر أحوال المرحوم الآخوند الملّا حسين قلي الهمدانيّ المرحوم العلّامة آية الله الشيخ آقا بزرك (الكبير) الطهرانيّ في ج ٢ ، ص ٦٧٤ إلى ٦٧٨ من كتابه «نقباء البشر» من «أعلام الشيعة» ، قائلاً : «**وهُوَ في خُصوصِ هَذا العِلم** (يعني علم الأخلاق) **أمرٌ عَظيمٌ لا يحدُّه وَصفٌ ؛ فَقَد مَضَت حُقبةٌ طَويلةٌ لم يجدْ خِلالها الزَّمنُ بِمن ماثلَهُ في علم الأخلاقِ وتهذيبِ النُّفوسِ ؛ وقد خُتمَ به هذا الفنُّ فلم ينبَغ بعدهُ مَن يكونُ لهُ ما كانَ لِلمُترجَم لَهُ بحيثُ يُعدُّ نظيراً له .**» إلى آخره .

تكفينه ودفنه .

لقد أدرك القاضي صحبة وملازمة السيّد مرتضى الكشميريّ لسنوات متمادية ، ولازمه في السفر والحضر

وكان السيّد مرتضى من أوتاد زمانه ومن الزهّاد المشهورين ، وله حالات ومقامات ومكاشفات شتّى ، وكان عظيم الأدب وجليل القدر وحسن الأخلاق ، ولكنَّ منهجه لم يكن منصبّاً على التوحيد والعرفان كمنهج الملّا حسين قلي ، ولكن مع ذلك فإنَّه كان إنساناً جليلاً ذا نفس عظيمة .

ينقل المرحوم القاضي أنّه جاء يوماً إلى محضر السيّد مرتضى الكشميريّ لزيارة مرقد حضرة سيّد الشهداء عليه السلام من النجف الأشرف إلى كربلاء ، ودخل عليه في حجرته في المدرسة الواقعة في سوق ما بين الحرمين .

وكانت الحجرة تقع في نهاية درج مرتفع ، عندما وصلنا إلى باب الغرفة كان المرحوم متقدّماً وأنا في الخلف فوجدناه مقفلاً .

فنظر إليّ السيّد الكشميريّ وقال : يقال إنَّ كلّ من يذكر اسم أُمّ موسى عليه السلام على القفل يفتح له الباب ، وأنا أُمّي ليست أقلّ من أُمّ موسى ثمّ وضع يده على القفل وقال : **يا فاطمة** ، ففتح ودخلنا .

* * *

التلميذ : لقد نقلتم لي قصّة وقد أوردتها في رسالة «لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب» تتضمّن أنَّ شابّاً من أهل الفسق والفجور قد اهتدى وصارت له مكاشفات ببركة إرشاد **سيّد** أخبره بأحواله الباطنيّة ، وجاء فيها أنَّ سيّد الشهداء عليه السلام رحّب بذلك الشابّ عند سفره إلى كربلاء المقدّسة .

وفيما بعد عندما رجعت من النجف الأشرف إلى طهران تعرّفت عليه وهو مهندس مدنيّ ، وحدّثني عن أحواله بالتفصيل . والتقيت به لمرّات عديدة ، وذكر لي قصّة زيارة العتبات المقدّسة وإدراك محضر المرحوم آية الله السيّد جمال الدين الكلبايكانيّ تغمّده الله برحمته ، وهو اليوم من أصدقائنا ، وهو والحمد للّه رجل جدير ومؤدّب بآداب عالية .

يقول : إنَّ ذلك السيّد الذي حضر وأخذ بيدي وأصبحت أتردّد عليه فيما بعد ثمّ اهتديت على يديه كان المرحوم آية الله السيّد محمود الزنجانيّ إمام جمعة زنجان . ثمّ حدّثني عن بعض أحواله وأخلاقه ، فهل كان لكم سابقة معرفة به ؟ وهل هذه المعرفة تمتدّ من النجف الأشرف ؟

العلّامة :كان المرحوم الزنجانيّ رضوان الله عليه رجلاً عظيم الشأن جليل القدر مؤدّباً بالآداب الإلهيّة وحسن السيرة ، وقد أدركت محضره مراراً وتكراراً ، ولكن لم يكن هناك سابق معرفة به عندما كنّا في النجف ، فأوّل لقاء لنا كان في مدينة قم ، وذلك عندما قدم لزيارة السيّدة المعصومة سلام الله عليها ولقاء ابنه الحاجّ عزّ الدين ، ولعلّه كان يميل لرؤيتي ، وكنت مشتاقاً لزيارته ورؤيته لما سمعت عنه من علوّ الفضائل . وصادف يوماً أنّني كنت في الحمّام العموميّ وكان واقفاً ينشّف بدنه بالمنشفة ، وبدون أيّة معرفة سابقة تعرّفنا على بعضنا البعض ، وفيما بعد كانت لنا مجالس عديدة ولقاءات حميمة .

لقد كان رجلاً عظيماً وكريم النفس ومتعبّداً ومن أهل المراقبة ، وقد نهل من نبع تربيته جمع من أهل الفهم والفضل والسلوك في بلدة زنجان وحصلوا على كمالات عديدة ، رحمة الله عليه .[١]

١ـ إنّ ابن المرحوم إمام جمعة زنجان رحمة الله عليه رفيقاً شفيقاً وصديقاً عزيزاً ⇦

* * *

التلميذ : يشاهد في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حالات في الحقيقة تبعث على الحيرة وتدهش الإنسان . فمن جهة نعلم مدى اطّلاع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على الحوادث الداخليّة والخارجيّة والدسائس التي تحاك ضدّه ، أي ماكان يحدث داخل بيته وخارجه . وكان يعلم ما سيحدث من بعده ، والمصائب التي ستنزل ببضعته الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها ، ويعلم وقائع حرب الجمل وصفّين والنهروان ، حتّى لقد قال يوماً لنسائه : **لَيْتَ شِعْرِي أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الجَمَلِ الأَدْبَبِ تَنْبَحُهَا كِلَابُ الحَوْأَبِ** .

وأيضاً إخباره عن المتخلّفين عن جيش أُسامة ، والمظالم التي سوف يتعرّض لها أمير المؤمنين عليه السلام ، وقصّة القلم والدواة التي يكتب بها ما لا تضلّ أُمّته من بعده أبداً ، وما ذكروه من **هذيانه** وكلامه المشوّش .

ومن جهة أُخرى ،كان النبيّ يداريهم إلى تلك الدرجة ، ويتعامل معهم برفق ولين ولا يبدّل أخلاقه ومنهجه معهم ، ولم يقابلهم بالسوء أو

⇐ وهو آيةالله الحاجّ السيّد عزّ الدين الزنجانيّ دامت بركاته الذي حمل أمانة إمامة الجمعة في زنجان بعد أبيه ، وكذلك زعامة الحوزة العلميّة فيها . وهو الآن مقيم في مدينة مشهد المقدّسة على ثاويها آلاف التحيّة والثناء .

وهو من أبرز تلامذة العلّامة الطباطبائيّ القدماء الذي حضر لسنوات مديدة دروسه في «الأسفار» و«الشفاء» ، وسابق معرفتي به يعود إلى تلك الأيّام حيث كنّا ندرس في بلدة قم الطيّبة. . وهو رجل جامع بين العلم والعمل ، وبين المنقول والمعقول ، ومفسّراً للقرآن الكريم، ومتبحّراً في الأبحاث العلميّة والفلسفيّة ومتعبّداً بالعبوديّة الإلهيّة ، ومتخلّقاً بالأخلاق الحسنة . وحقّاً يمكن عدّه أحد النماذج البارزة لمفاخر الإسلام . وقد استفاد جمع كبير من الطلّاب من بركات محضره ، اللهمّ احفظ نعمة وجوده لعالم العلم والفضيلة . اللهمّ طوّل عمره وأيّده وسدّده .

الخشونة ، وإنَّما كان كلّ وجوده نبعاً من التحمّل والصبر والاستقامة .

فهل ما ذكرتموه حول المرحوم القاضي في حادثة الزگرت والشمرت أو قصّة تصدّع سقف الغرفة المجاورة هو نفس ممشى رسول الله على إثر **التوحيد الأفعاليّ** ، بحيث لم يكن يرى هذه الوقائع إلّا من الحقّ المتعال ، ولهذا كان يصبر ويتحمّل ؟

العلّامة : كلّا **!** فحال رسول الله أعلى وأفضل من حالات المرحوم القاضي ، لأنَّ النبيّ كان في مقام البقاء بعد الفناء ، وفي هذا المقام تبقى جميع آثار عالم الكثرة وخصائصه من الآلام والأمراض والغصص الروحيّة محفوظة في مكانها . وفي نفس حالة الوحدة والآثار والعلائم التوحيديّة كانت جهات عالم الكثرة كلّها بجميع خصائصها مشهودة في الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله .

ولهذا بكى عند وفاة ابنه إبراهيم ، واعتبر ذلك من آثار رحمة الله ، ولكن بما أنَّ هذه القضيّة كانت من الله ، فلم يقل إلّا حقّاً وسلّم بقضاء الله وقال : **العَيْنُ تَدْمَعُ وَالقَلْبُ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إلَّا حَقَّاً وَإنَّا بِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ** .

ولهذا كان يزداد ألماً عند اطّلاعه على تلك الحوادث ، وهو يدرك آثار تلك الجهات وخصائصها أكثر ويتحمّلها ، ولكن بما أنّه **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**[1] ، فقد كان يصبر ويتحمّل دون أن يخرج عن استقامته أبداً .

وما أَعلمه من قول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم : **مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ قَطُّ** ، أنّه يقصد المنافقين في الداخل ، وليس الأعداء الخارجيّين من الكفّار والمشركين .

---

١ ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٨ : ن والقلم .

فقد لاقى النبيّ من المنافقين في داخل بيته وخارجه ـ من أُولئك الذين اعتنقوا الإسلام في الظاهر ولكنّهم باطنياً لم يؤمنوا بالله ورسوله قطّ ـ من الأذى ما لم يمكن وصفه.

وإذا وضعنا مسألة المنافقين جانباً، فإنَّ مصائب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لم تكن أكثر من مصائب الأنبياء السابقين، بل بحسب الظاهر كانت مصائبهم أعظم من مصائبه وأشدّ.

فقد حدث لبعضهم أن رُمي في وعاء وطُبخ، وهذا لم يحدث للنبيّ ولكنّه مع ذلك يقول: **مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ قَطُّ!**

وهذا ما يرجع إلى قضيّة المنافقين على الظاهر، وبالفعل نحن لا نستطيع أن نفهم ونصف بحقّ مدى الأذى الذي تعرّض له النبيّ منهم.

* * *

التلميذ: هل كان مقام التوحيد حاصلاً للأئمّة الأطهار عليهم السلام منذ الطفولة، أم أنّهم حصلوا عليه نتيجة المجاهدات والسير التكامليّ والرشد حتّى أوصلوا استعداداتهم إلى الفعليّة.

لأنّه، وكما نعلم بالنسبة للإمام محمّد التقيّ، جواد الأئمّة، عليه السلام، فقد نال منصب الإمامة وهو طفل.

العلّامة: يمكن النظر إليه على أنّه **إرهاص**. والإرهاص حالة خارقة للعادة تحدث قبل موقعها ووقتها، وقبل البلوغ. كما حدث بالنسبة لأمير المؤمنين سلام الله عليه عند ولادته، فبعد خروج أُمّه **فاطمة** من بيت الله الحرام، حمله رسول الله صلّى الله عليه وآله فبدأ أمير المؤمنين بقراءة سورة المؤمنون إلى آخرها [1]، مع أنّه كان طفلاً لم يبلغ عدّة ساعات

١ـ نقل ابن شهرآشوب في مناقبه ج ١، ص ٣٥٩، الطبعة الحجريّة، قصّة قراءة ⇦

من العمر .

فهذا هو الإرهاص ، أمّا باقي خوارق العادات ، فأمّا أن تسمّى كرامة أو معجزة .

أمّا إذا تقدّمت على وقتها فإنَّها تسمّى إرهاصاً . ويمكن إيجاد مثل هذه المعاني في حياة أئمّة الهدى ،كما حدث بالنسبة لفاطمة الزهراء سلام الله عليها عندما تكلّمت وهي في بطن أُمّها . فهذا إرهاص وليس بمعجزة . وكذلك بالنسبة للإمام الجواد عليه السلام ، بل وجميع الأئمّة عليهم السلام إجمالاً .

التلميذ : هل كان أئمّة الهدى سلام الله عليهم أجمعين يلعبون في سنّ الطفولة مثل سائر الأطفال ونفس ألعابهم ؟ وهل وردت هذه المسألة في سيرهم وتواريخهم والروايات الصحيحة ؟

العلّامة : إنَّ مسألة لعبهم لا إشكال فيها . وينقل بشأن حضرة الإمام الجواد عليه السلام قصّتان :

الأُولى : أنّه كان يلعب مع الأطفال في أحد الأزقّة ، فمرّ المأمون عليهم وسأله أسئلة أجاب عنها جميعاً .[1]

الثانية : عن الصوفيّة ، وهي القصّة التي رووها عن بايزيد البسطاميّ الذي كان يلعب مع الإمام الجواد لعبة الاختباء والبحث . فاختبأ الإمام عند

⇦ أميرالمؤمنين لسورة المؤمنون . وكذلك نقلها المجلسيّ في «البحار» ج ٩ ، ص ٥ ، طبعة الكمباني عن «المناقب» و «الأمالي» للشيخ الطوسيّ .

١ـ أورد الشيخ البهائيّ هذه القصّة بالتفصيل في «مفتاح الفلاح» ص ١٧١ ، طبعة سنة ١٣٢٤ هـ ضمن بيان بعض أدعية الإمام الجواد ، وقال : رواها الخاصّة والعامّة ؛ وكذلك رواها الحرّ العامليّ في «إثبات الهداة» ج ٦ ، ص ٢٠٢ ، عن «مفتاح الفلاح» ، وقال : وقد ذكر هذه القصّة محمّد بن طلحة الشافعيّ في كتاب «مطالب السؤل» .

دوره وبدأ بايزيد بالبحث عنه ، ولكنّه مهما بحث وفي أيّ مكان من العالم ، فلم يجده . وينقلون هذه القصّة ككرامة للإمام . وفجأة سمع بايزيد صوت الإمام وكأنـّه ينبعث من قلبه ، قائلاً : أنا هنا ! فأين تبحث ؟!

ولست أذكر الآن أين قرأت هذه القصّة ، ربّما كانت في كتاب «طبائق الحقائق» أو كتاب «نفحات الأُنس» لجامي . ولكنّهم ينقلونها هكذا ، ومن الطبيعيّ عدم استطاعة بايزيد أن يجد الإمام عليه السلام .

وهناك اثنان يدعيان جامي . الأوّل : عبد الرحمن ، والثاني : أحمد . وكتاب «النفحات» لعبد الرحمن ، ولقد كان أنضج من أحمد ، ولعبد الرحمن أشعار جيّدة لها بيانات جيّدة ، وبعض كتب جيّدة .

ولعبد الرحمن : « اللوائح » و « اللمعات » ، وقد طالعت كتاب «اللمعات» ولكنّني لم أر «اللوائح» .

* * *

التلميذ : هل تتذكّرون شيئاً عن المرحوم القاضي رحمة الله عليه حول قائم آل محمّد الإمام الحجّة بن الحسن العسكريّ أرواحنا فداه وكيفيّة ظهوره ؟

العلّامة : في الرواية أنَّ القائم عندما يظهر يبدأ دعوته من مكّة ما بين الركن والمقام ، يسند ظهره إلى الكعبة ويعلن دعوته ، فيجتمع له ثلاثمائة وستّون نفراً من خواصّه .

كان أُستاذنا **القاضي** رحمة الله عليه يقول : وفي هذه الحالة يقول لهم شيئاً فينتشرون في أرجاء العالم ، ولأنَّ الجميع يستطيعون طيّ الأرض ، فإنَّهم يبحثون في كلّ نقطة من العالم ، ويعرفون بعدها أنه لا أحد له مقام الولاية الإلهيّة المطلقة ولا مأمور بالظهور والقيام ولا المعرفة بكلّ الأسرار الإلهيّة إلّا صاحب الأمر عليه السلام .

وعندها يرجعون إلى مكّة ، ويسلّمون له ويبايعونه .

كان المرحوم القاضي رضوان الله عليه يقول : أنا أعلم ما هي الكلمة التي سيقولها لهم الإمام فينتشرون في الأرض .

وقد قرأت في الروايات الشريفة أنَّ الإمام الصادق عليه السلام يقول : وعندي علم تلك الكلمة .

يقول المرحوم القاضي : من المسلّم أنَّ بعض أفراد زماننا قد أدركوا محضر الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف وتشرّفوا بخدمته .

أحدهم كان مشغولاً بالذكر والدعاء في مسجد السهلة في مقام صاحب الزمان ، فرأى فجأة إمام الزمان في نور قويّ جدّاً ، وهو يقترب منه ، فأخذته الأُبّهة والعظمة إلى درجة أشرف على الموت ، وتقطّعت أنفاسه ، فأقسم على الإمام بالأسماء الجلاليّة للّه أن لا يقترب منه أكثر .

وبعد أُسبوعين، كان هذا الشخص مشغولاً بالذكر في مسجد الكوفة فظهر عليه الإمام وأعطاه مراده ، وتشرّف بلقائه .

يقول المرحوم القاضي : إنَّ هذا الشخص هو الشيخ محمّد تقي الآمليّ .[١]

١ـ كان المرحوم الشيخ محمّد تقي الآمليّ من علماء طهران البارزين ، وهو من الطبقة الأُولى من حيث الفقاهة والأخلاق والمعارف . وكان يدرِّس الفقه والفلسفة من «منظومة السبزواريّ» و«الأسفار الأربعة» ، وصاحب حاشية «مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى» وحاشية وشرح «المنظومة» للسبزواريّ . وكانت تربطه صداقة وزمالة علميّة بوالدي .

أدركت محضره المبارك مرّات عديدة فشاهدته عظيم الأدب سليم النفس بعيداً عن الأهواء، ولم يتصدّى للفتوى حتّى آخر عمره ، ولم تُطبع له «رسالة عمليّة» ، وقد استفاد أيّام شبابه في النجف الأشرف من دروس الأُستاذ القاضي رحمة الله عليه في الأُمور العرفانيّة، وكان صاحب كمالات .

الأَبحَاثُ الأَخلاقِيَّة

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العلّامة : جرت حادثة عجيبة في تبريز أيّام طفولتي ؛ حيث كان يعيش في تبريز درويش يسير دائماً وبيده الفأس الخاصّ بالدراويش المسمّى بطبرزين ، وكان رجلاً نحيفاً ، أسمر اللون ، وله إطلالة جذّابة ، ويدعى **بيدارِ عليّ** . وعندما تزوّج ورزق بولد سمّاه **بيدارِ عليّ** أيضاً .

وكان يشارك دائماً في مجالس العزاء والخطابة ، ويقف أمام الناس ويرفع الفأس قائلاً : **لا تغفل عن عليّ** ، وقد شاهدته مرّات عديدة في تلك المجالس .

في إحدى الليالي قدم أحد أصدقائه لزيارته ، ولكنّه لم يكن موجوداً في المنزل ، فتولّت امرأة بيدار عليّ ضيافته ، وبقي إلى أن حان وقت النوم ولكنَّ بيدار عليّ لم يأت .

وتقرّر أن يبيت الضيف في تلك الليلة إلى أن يحضر صاحب المنزل . وبالفعل بات في الغرفة التي كان طفل بيدار عليّ نائماً فيها ، ولم تأخذه أُمّه معها إلى الغرفة الأُخرى حيث نامت وأقفلت الباب على الضيف . ولكنَّ بيدار عليّ لم يحضر في تلك الليلة .

استيقظ الضيف في منتصف الليل يريد قضاء حاجته ، وعندما أراد الخروج وجد باب غرفته مقفلاً ، فطرق الباب ونادى على أهل المنزل ، ولكن دون جدوى .

فاشتدّ عليه الأمر ولم يعد قادراً على الحصر .

قال في نفسه : لأجعل هذا الطفل ينام مكاني وأنام مكانه وأقضي حاجتي وعند الصباح يظنّون أنَّ هذا بول الطفل .

فحمل الطفل ووضعه مكانه ، ولكن بمجرّد أن استلقى الطفل حتّى تغوّط واتّسخ كلّ السرير .

فنام الضيف مكان الطفل ، وبات ليلته تلك ولم يغمض له جفن من شدّة الخجل أن يُرى سريره متّسخاً ، وكان يُحاكي نفسه ، وماذا سيقولون غداً إذا رأوا سريري ، وكيف يمكن أن أشرح لهم هذا الخطأ ، وهذه الخيانة التي أدّت إلى خطأ أعظم و ... ؟

وفي الصباح عندما فتحت المرأة باب الغرفة للضيف كي يخرج لقضاء حاجته والوضوء ، خرج الضيف من الغرفة مطأطىءالرأس ، ثمّ ترك المنزل مباشرة بدون أيّ وداع .

وبعدهاكان الرجل يتجنّب ملاقاة **بيدار عليّ** بأيّة طريقة في مدينة تبريز . وعندماكان يراه من بعيد يهرب من أمامه ، أو يختبئ في أحد الدكاكين حتّى لا يراه بيدار عليّ .

في إحدى المرّات التقيا وجهاً لوجه في السوق ، فأراد ذلك الرجل أن يهرب من أمامه ، ولكنَّ بيدار عليّ ناداه قائلاً : كداكدا (وهي في اللغة التركيّة الآذريّة تستعمل للدلالة على التحقير والذلّة) ، لماذا تغوّطت تلك الليلة كالأطفال ؟

فقال الضيف بخجل : أُقسم بالله إنّني لم أتغوّط ؛ وثمّ شرح قصّة خيانته بالتفصيل .

التلميذ : إنَّ هذه الحكاية معبّرة جدّاً ، وهي تبيّن أنَّ كلّ من يريد أن يلصق خيانته بالآخرين ، فإنَّ الله يبتليه بالفضح الأكبر .

لأنّه كما لكرامة الإنسان من قيمة عنده ،كذلك كرامة الآخرين لها

قيمة ومحترمة ، ولا ينبغي لأحد أن يجعل كرامة غيره فداءً لكرامته وأن يرفع الخطأ عن نفسه ويضعه في رقبة الآخرين ، فهذا العمل في عالم التكوين والواقع ومتن الحقيقة ، عملٌ مذموم وخطأ حتّى لو كان بالنسبة إلى طفل صغير .

وعلى الإنسان أن ينتبه دائماً أنَّ نظام التكوين فاعل ، ولن يبقى عمل الإنسان بدون أثر أو ردّة فعل **إنَّ اللهَ لَبِالْمِرْصَادِ** .[1]

لقد كان عمل هذا الضيف كذباً عمليّاً ، وكما أنَّ الكذب القوليّ خطأ فكذلك العمليّ .

١ـ اقتباس من الآية ١٤ ، من السورة ٨٩ : الفجر : **إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ** .

الأَبْحَاثُ العِلْمِيَّة

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التلميذ : ما هو السبب في أنَّ القرآن الكريم ورغم أنّه نزل متيسّراً لفهم الجميع : **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ،[1] وقد احتوى على آيات في كامل الغموض ، والوصول إلى حقيقة المعنى يعدّ في غاية الصعوبة ،كالآية الشريفة :

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .[2]

إنَّ إدراك حقيقة معناها صعب ، فكيف نربط بين عالم الأمر وعالم الخلق من النزول والصعود في ألف سنة من السنوات المعروفة ؟! إلّا أن يكتفي الناس بالعبارة البسيطة ، ويدركون من خلالها معنى سهلاً بدون التعمّق فيها .

فهناك ألفاظ وردت في القرآن الكريم يحتاج معناها إلى التفسير ، فبدون تفسيرها ماذا يفهم منها الناس ؟كالآيات التي وردت في النازعات :

وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا .[3]

فهل هذه الآيات يفهمها الناس جميعاً ، أم يجب أن يسألوا ويراجعوا

١ـ الآيات ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢ـ الآية ٥ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٣ـ الآيات ١ إلى ٥ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

تفسيرها حتّى يعرفوا أنَّ المراد منها ملائكة خاصّين ؟

جاء في الروايات أنَّ المراد من **الفلق** في قوله تعالى : **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقْ** [١] هو الصبح الذي ينفلق ، أو الوجود الذي يخرج من العدم . فكيف يمكن إدراك هذا المعنى بدون مراجعة التفاسير ؟

أو كما جاء بشأن **الوَيْلُ** من أنّه : **جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ** ، فهل هذا نوع من التسمية ، وهل أماكن القيامة لها أسماء كما في الدنيا ؟ أم أنَّ هذا من باب التمثيل ؟

العلّامة : بحسب الظاهر فإنَّ كلّ القرآن الكريم من حيث المعنى الوارد في الذهن ابتداءً يتلقّاه الجميع بصورة سهلة وبسيطة ويفهمونه ، ولكن يوجد مراحل أُخرى وراء هذه المرحلة يصبح فهمها تدريجيّاً صعباً وشاقّاً وهي المعاني الباطنيّة للقرآن .

من ناحية الظاهر فإنَّ القرآن سهل يسير وقابل للفهم ، ومن ناحية الباطن فإنَّ معانية تشتدّ غموضاً كلّما أوغلنا في درجات بطونه . فكلّما حصلنا على المعاني الأكثر عمقاً يشتدّ الغموض ويصعب فهمها عند العامّة .

إنَّ لِلْقُرْآنِ بَطْنَاً وَلِبَطْنِهِ بَطْنَاً إلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ ، أَو إلَى سَبْعِينَ بَطْنَاً . [٢]

فهذه البطون في الواقع عبارة عن مراحل من معاني القرآن ، كلّ واحدة منها لها بحدّ ذاتها واقعيّة ليست موجودة في غيرها .

فالمراحل المختلفة للقرآن بهذه الكيفيّة ، وليست بالشكل الذي

١ـ الآية ١ ، من السورة ١١٣ : الفلق .

٢ـ أورد الفيض الكاشانيّ هذه الرواية في المقدّمة الرابعة من المقدّمات الاثنى عشر وبحثها بحثاً وافياً في تفسيره «الصافي» .

يقال فيه إنَّ القرآن ليس له إلّا مرحلة واحدة ، بحيث إنَّها إمَّا أن تكون صعبة ولا يصل إليها أحد ، أو تكون سهلة جدّاً .

أمّا في سورة النازعات ، فإنَّ الضمائر الموجودة فيها حين تُضمّ إلى الآيات الأُخرى نعرف أنّها راجعة إلى الملائكة . فمن المدبّرات يستفاد أنَّ المقصود هم الملائكة . فالله تعالى لا يسند تدبير الأُمور بيد كلّ ضعيف وعاجز ، بل ينبغي أن تقوم الملائكة بهذا الأمر وتراقبه وتتابعه .

في سورة المرسلات ، وفي سورة الصافّات وفي عدّة مواضع من القرآن الكريم يوجد هذا النوع من البيان الذي يتحدّث عن إيكال الأُمور إلى الملائكة التي تؤدّيها بطرق مختلفة .

والفَلَق في الآية المباركة **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ** يعني انفلاق الصبح ، ومن هذا المعنى الابتدائيّ نصل إلى المعنى الأوسع والأشمل الذي يدلّ على انفلاق كلّ وجود من العدم .

فمعنى الفلق إذا كان يحتاج إلى تفسير في المرحلة الأُولى فإنَّه سيكون تفسيراً ببيان أسهل يجعل معنى الآية أكثر وضوحاً ، لا أنّه تفسير لرفع الغموض وبيان الحقيقة .

وأمَّا الوَيْل ، فإنَّ حقيقة معناها هو التعاسة والنكبة والهلاك ، وأمّا ما ورد عنها بمعنى بئر في جهنّم فهو من باب التمثيل ، أي إشارة إلى معنى اللفظ بحسب السياق بحيث يكون هذا المعنى تمثيلاً في الحقيقة، وليس من باب التفسير والتمثيل الكذائيّ .

* * *

التلميذ : ما هو المراد من الروح في الآية الكريمة : **تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ**

وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ؟ [١] وما هـو المـراد مـن روح القُـدُس والروح الأمين ؟

وهل للروح صلة مع روح الإنسـان وأرواح البشـر أو لا ؟ ومـا هـي علاقة الملائكة بالروح ؟

العلّامة : المراد من روح القدس والروح الأمين جبرائـيل : **قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ** . [٢] **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ** . [٣]

وأمّا الروح فهي في الظاهر خلق أوسع بكـثير مـن جـبرائـيل وغـير جبرائيل وخلق من مخلوقات الله أفضل من جبرائيل وميكائيل ، ففي سورة النبأ يقول الله تعالى :

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا . [٤]

لأنَّ جبرائيل من المسلّم أنّه من المـلائكة ، وفـي هـذه الآيـة جـعل الروح مقابل الملائكة . فالروح غير الملائكة وجبرائيل .

فالروح مرحلة من مراحل المـوجودات العـالية وخـلق أشـرف مـن الملائكة وأفضل ، والملائكة تستمدّ منها في الأُمور التي تؤدّيها .

توجد آيتان في القرآن الكريم تدلّان على أنَّ الله يـرسل الروح إلى أنبيائه ورسـله الذيـن يـدعون النـاس إلى الحـقّ ، وأنَّ المـلائكة يـتنزّلون بالروح .

١ ـ **يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ**

١ـ الآية ٤ ، من السورة ٩٧ : القدر .

٢ـ صدر الآية ١٠٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ الآية ١٩٣ وصدر الآية ١٩٤ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٤ـ الآية ٣٨ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱتَّقُونِ .[١]

٢ ـ **يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ** .[٢]

فجبرائيل يستمدّ من الروح عند نزوله في الأُمور التي يؤدّيها والتدبيرات التي يقوم بها ، وكأنّها ملازم له ، وبتعبير آخر فهي مُساعد له .

وهذه الآية الثانية مدهشة حقّاً حيث جاء التعبير **بالإلقاء** .

فالمقصود أنَّ الروح أمر واقعيّ وموجود أشرف وأفضل ، ينزل مع الملائكة حين نزولها لتدبير الأُمور ويساعد في مهامها ، وهذه هي هويّة الروح .

فلا علاقة لجبرائيل بالروح ، وهو ليس من أفراد الروح وأنواعه ، وليس للروح فرد ، بل هي نوع بحدّ ذاته منحصر بالفرد . وأمّا جبرائيل فهو من الملائكة ، والروح حقيقة واقعيّة يختلف عن الملائكة .

في كلا الحالتين هناك فئتان : الروح وهي حقيقة واقعيّة ، والملائكة بنحو أنّها تستمدّ من الروح التي تؤيّدها وتذهب معها لإنجاز عملها : **يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ** .

ويمكن الاستفادة من استعمال القرآن لكلمة الروح بالمفرد والملائكة بصيغة الجمع بأنَّ للروح مقام الجامعيّة ، وأنَّ قربها من الله أشدّ من جبرائيل ، وتوجد رواية بهذا الخصوص .

التلميذ : ما هي الرابطة بين روح الإنسان وتلك الروح ؟ ولماذا يقال لروح الإنسان روح ؟ وهل هذا لأجل الصلة بينهما ؟ ثمَّ ألَا يمكننا أن نأخذ

١ـ الآية ٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ ذيل الآية ١٥ ، من السورة ٤٠ : غافر .

تلك الروح بالنسبة لأرواح البشر بمثابة الكلّيّ الطبيعيّ مع أفراده ؟

وهل السؤال الوارد في الآية الكريمة : **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى**[١] متعلّق بتلك الروح أم روح الإنسان ؟

العلّامة : الروح ـ كما ذكرنا ـ خلق أعظم من الملائكة ، ولا علاقة لها بالإنسان وروحه ، واستعمال الروح في مورد تلك الحقيقة والأنفس البشريّة هو من باب الاشتراك اللفظيّ لا الاشتراك المعنويّ .

ولعلّه من هذه الزاوية تكون النفس الناطقة الإنسانيّة قابلة للوصول إلى ذلك المقام الذي تصبح فيه مجاورة لتلك الروح من خلال السير التكامليّ في المجاهدات والعبادات .

وفي الآية الشريفة وقع السؤال عن مطلق الروح ، ولم يكن متوجّهاً إلى النفس الإنسانيّة ، وجاء الجواب **قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ، إنّها من عالم الأمر وليست كالإنسان الذي هو من عالم الخلق .

وفي أسئلتهم لا يوجد أيّ كلام عن روح الإنسان ، والظاهر أنّهم كانوا يسألون عن تلك الروح التي ورد ذكرها في القرآن . والمدهش ما جاء في ذيل الآية قوله تعالى : **وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** .

أي أنَّ فهم حقيقة خلقة الروح خارج عن العلوم البشريّة ، ولا يمكن الوصول إليها بسهولة .

التلميذ : هل يعتبر الروح بلسان الشرع هي **أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَهُ** ، أي الحجاب الأقرب ؟ وما يعبّر عنه بالعقل الأوّل ؟

العلّامة : في الروايات الشريفة أُطلق **أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَهُ** على عدّة أُمور منها : **أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَهُ نُورُ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ** ، أو أوّل ما خلق العقل أو الماء أو

١ـ صدر الآية ٨٥ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

اللوح أو القلم.

وفي سورة الشورى (حمٓ*عٓسٓقٓ) يقول الله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ.[1]

والحاصل أنَّ درايةً الإيمان والكتاب قد تمّت بواسطة وحي الله الروح على الرسول، وذلك من خلال إيصال روحه المباركة بذلك الخلق العظيم الذي هو الروح، وبناء عليه فإنَّ روح النبيّ قد وجدت من هناك وهي **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ**.

وفي لسان الحكمة يمكن اعتبار أنَّ المراد من العقل الأوّل هو الروح، ولكن بشرط أن لا تنتزع خواصّها، أي يبقى على نفس ذلك التجرّد والإطلاق، وإلّا لماكان عقلاً أوّلاً، وكلّ ما يتنزّل ويحصل على مزيد من التعيّن يكون من العقول الأُخرى، وكلّ ما يتنزّل يفقد المزيد من السعة والإطلاق.

وفي مقام قوس الصعود فإنَّ روح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد وصلت إلى المكان الذي وجدت فيه وهبطت منه، وهو الروح. لأنَّ أوّل ما خلق الله هو نور رسول الله، وهو الروح. وفيما بعد في قوس النزول طوى العوالم إلى ما وصل إلى عالم الطبع والمادّة، ثمّ عادت بواسطة في قوس الصعود إلى نفس المقام يستمدّ الأزل والأبد.

فهذه الروح تتنزّل حتّى تصل إلى عالم المادّة (المادّة الجزئيّة) ثمّ تشرع بالحركة الجوهريّة تدريجيّاً وتتقدّم إلى كمالها حتّى تصل شيئاً فشيئاً

١ـ الآية ٥٢، من السورة ٤٢: الشورى.

إلى ذلك المعنى في قوله : **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورُ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ** ، ولم يحدث هناك شيء جديد ، بل نفس ذلك الموجود موجودٌ ، وكلّما وقع أنّه كان له نزولاً وصعوداً .

وفي هذه الحالة فإنَّ إدارة هذا العالم من جهة ، وتدبير الملائكة من جهة أُخرى ، وتدخّل الروح من جهة ثالثة مدهشة جدّاً ، لأنَّ هذه الأعمال لا تضادّ فيها ، ونفس عملها في إيجاد الحوادث في عالم الطبع محيّر جدّاً ومذهل .

ففي أمر جزئيّ واحدكم نحتاج إلى ملائكة ؛ إذا أرادوا أن يصنعوا خليّة في جسم الإنسان (أو ذرّة) أو في غيره ، فإنَّ الأمر يحتاج إلى ملك فتصوّرواكم هو عدد الخلايا في جسم الإنسان والتي ينبغي أن يكون بعددها ملائكة ، فماذا يحدث عندئذٍ ؟

والملائكة بدورهم متعدّدون ، فهناك ملائكة إعطاء القدرة ، وملائكة إفاضة العلم وغيرها ، وهناك الحفظة ، والواقون من البلايا والمحن النازلة لحفظ الإنسان ، وهكذا فإنَّ لكلّ أمر مجموعة مختلفة من الملائكة ، وبما أنَّ جميع هذه الجهات موجودة في الإنسان ، فإنَّ لكلّ أمر يوجد الكثير من الملائكة ، وإذا تجاوزنا جسد الإنسان الواحد إلى جميع أجساد البشر فكم سيصبح العدد ؟ وكيف إذا وصلت إلى النباتات والحيوانات والجمادات ؟ فسبحان الله أيّ عالم هذا !

التلميذ : هل يوجد جامع مشترك بين الملائكة المقرّبين : **جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل** ؟ فهل هناك إلهام من رئيس عليهم غير الروح يأتمرون بأمره ؟

العلّامة : الظاهر عدم وجود هذا الجامع ورئيس على الملائكة الأربعة ، وربّما هناك شيء محدود بالنسبة لجبرائيل كما نُقل ، وفي سورة

النبأ بيان يتعلّق بجبرائيل.[١]

ولكن لا يعدّ هذا أمراً مشتركاً بكيفيّة إحاطة جبرائيل بالملائكة الممثّلين لأوامره، ولا يمكن اعتباره كالجامع والإفراد.

(هدانا الله، فنحن لا نعرف شيئاً. فهذه الأوضاع والأحوال والصعود والنزول كيف يمكن للإنسان أن يصل إليها؟ وبأيّ شيء يعمل العقل؟ وبأيّ نحوٍ يكون عمله؟ لا علم لي والله).

التلميذ: في بعض الأوقات يدعو الإنسان بدعاء فيستجاب له، كأن يدعو مثلاً لتخضرّ هذه الروضة أو لتنبع المياه في بئر أو ليشفى هذا المريض، وأمثال هذه الأدعيّة. وبهذا الدعاء يؤمر الآلاف من الملائكة بإنشائه وتنظيمه وإجابته، فيتحقّق الدعاء في الخارج بإذن الله، أي أنَّ جميع هذه الأعمال تخضع لرقابة مجموعات مختلفة من الملائكة يقومون بإنجازها ومنحها صورة التحقّق الخارجيّ العينيّ. فهل يمكن القول إنَّ الملائكة يأتمرون بأمر الإنسان الداعي؟

العلّامة: التعبير المناسب هو أن نقول: إنَّهم ليسوا مؤتمرين لأمر الإنسان، بل لأمر الله الذي يستجيب دعاء الإنسان.

التلميذ: بحسب البيان الذي تقدّمتم به سابقاً حول كيفيّة ظهور الوحدة في الكثرة، والشاهد الذي تفضلتم به من القرآن الكريم بقوله تعالى: **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**، والآية: **يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ**، والآية: **تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا**؛ ففي الوقت الذي يكون الفعل فعل الله، يؤدّي ملك الموت هذا الفعل بإذن الله وسائر الملائكة بإذن ملك الموت؛ فهل يمكن

١ـ الآية ٣٨، من السورة ٧٨: النبأ: **يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**.

القول ـ بالنظر إلى الوحدة في الكثرة ـ إنَّ الملائكة العاملين إثر دعاء الإنسان لتحقيقه ، إنَّما هم مؤتمرون للإنسان الداعي والمتضرّع للّه ؟

العلّامة : أجل ؛ فهذا أيضاً أحد التعابير ، إذا تمّ فهو كذلك ، لأنّه في نهاية المطاف **لَيْسَ فِي الدَّارِ غَيْرَهُ دَيَّارٌ** .

وعندما يكون عالم الوجود كلّه مختصّ بالله بشكل مطلق ولا مؤثّر في الوجود إلّا بإرادة الله وإذنه ، فكلّ أثر نشاهده من الموجودات يعود إلى الله ومن الله .

التلميذ : في بعض الأحيان يطلب الأنبياء والأولياء شيئاً في باطنهم ، وبدون أن يتلفّظوا بكلمات الدعاء ، نجد أنَّ هذا الفعل يتحقّق في الخارج تلقائيّاً . فبمجرّد الإرادة والميل الباطنيّ عندهم قد سخّرت تلك المجموعات الهائلة من الملائكة في الخارج ، وفي بعض الأحيان نجد أنَّ ما كان في النيّة والميل الباطنيّ ، حتّى ولو اقترن بالدعاء ، لا يكون له أيّ أثر ولا يتحقّق في الخارج من حيث الكميّة والكيفيّة .

فهل يمكن القول إنَّ دعاءهم ومطلبهم في مثل هذه الحالة يكون قد تعارض مع دعاء لإنسان آخر أو نفوس أُخرى هي من ناحية قوّة النفس أشد تأثيراً من الأوّل فيمنع عن تحقّق ذاك المراد في العالم المعني ؟

وهذا لا شكّ فيه ، يشاهد كثيراً في غير الأنبياء والأولياء ، أنّهم يريدون أن يتحقّق عملاً ولكنّه يتعارض مع مائة نفس أقوى لا تريد أن يتحقّق ، وبناء عليه فإنّ المطلبين المتضادّين يحرّكان مجموعتين من الملائكة بإذن الله ، وكلّ من كان أصفى وأقوى يتقدّم على الآخر ، فيتحقّق المطلب الذي أراده أحد الداعين .

العلّامة : أجل ؛ كلّ هذا ممكن ، ويوجد آية في سورة الرعد تدلّ

على هذا المعنى .[١]

التلميذ : في السابق كان حبّكم للفلسفة أكثر من الآن . واليوم اهتمامكم أصبح بالقرآن كثيراً ، ولم تكونوا تتجنّبون كثيراً إظهار بعض الحالات الخاصّة من المكاشفات والواردات القلبيّة ! أمّا اليوم فإنَّ هناك حالة غريبة وعجيبة ؛ فقد أقفلتم بإحكام على كلّ شيء ! فما الخبر ؟

العلّامة : أجل ؛ فقد كسر الكوز ... واندلق ما في الكأس .[٢] وقد تغلّب عَلَيّ النسيان وهو يمنعني من أداء الأعمال ، ولم أعد قادراً على العمل .

الحمد للّه يوجد لديّ إقبال على القرآن المجيد إن تقبّل الله ، ولكنّ قضيّة النسيان التامّ الذي أصابني مؤخّراً يؤثّر علَيّ كثيراً ، لقد كنت أُطالع وأكتب ليلاً ونهاراً إلّا ما شذّ ، ولكن حرمت منها كلّها ، ولم يعد عندي رغبة للمطالعة والكتابة .

التلميذ : جيّد ؛ فهذا كمال من نوع آخر ! فإنَّ التوغّل في الأُمور الكلّيّة (المسائل الكلّيّة) يؤدّي إلى الانصراف عن الجزئيّات مثل عوالم الخلسة وجذبة لتلك الروح الكلّيّة .

العلّامة : نعم ؛ أفهذا إكمال ؟ روحي فداء للكمال الذي يفيضه الله . ماذا أقول ! ولكن ، هل هكذا يكون الكمال ؟ هذا نسيان ، وكلامكم كلّه حقّ ، ولكن ما أفهمه هو النسيان ، وغالباً أشعر بحالة النعاس ، وكأنَّ عيني مثقلة بالنعاس ومليئة بالغبار ، وإذا أردت أن أنام فلا أقدر . **الخَيْرُ فِيمَا وَقَعَ .**

١ـ لعلّ الآية التي يقصدها العلّامة رحمة الله عليه هي الآية ٨١ ، من السورة ١٣ : الرعد وقوله تعالى : **لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ** ، فلفظ «مُعَقِّبَٰتٌ» و «يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ» دلالة على هذا المعنى .

٢ـ مثل إيرانيّ معناه : ما كان قد كان ولا يعود .

وتأكيدي هنا أنَّ هذه الحالة ليست كحالات الخلسة ، بل هو ابتلاء خاصّ ، وبالأخصّ فيما يتعلّق بالنعاس في العين .

إن شاء الله ندعو لرفع هذا الابتلاء بعناية الله ، ولا حول لنا في ذلك .

* * *

شخص ثالث : هل يكون عالم البرزخ لجميع الناس ، أم هو مختصّ بالذين محضوا الإيمان أو الكفر ؟ وإحدى الآيات التي يمكن الاستدلال بها على البرزخ هي :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .[١]

فهل يمكن القول إنَّ اختاص الرزق للشهداء في عالم البرزخ يدلّ على أنَّ البرزخ ليس للجميع ؟

العلّامة : هذا المعنى موجود في بعض الروايات ، في أنَّ البرزخ مختصّ بالكاملين ، وأنّه ـ باختصار ـ مختصّ بأكملهم ، أو حسب التعبير الخاصّ بمن كمل في الإيمان وبمن كمل في الكفر . فالبرزخ لهاتين الطائفتين ، أمّا الطائفة الثالثة الذين ليسوا ممّن **مَحَضَ الكُفْرَ مَحْضَاً وَمَحَضَ الإسلَامَ مَحْضَاً** ، فلا برزخ لهم . وتبعاً لهذه الروايات فإنَّ البرزخ مختصّ بالكاملين من أهل الإسلام ومن أهل الكفر .

كما أنَّ لدينا في بعض الروايات الأُخرى أنَّ البرزخ ليس مختصّاً بهؤلاء ، بل الجميع شركاء في البرزخ ، على جميع الأفراد أن يطووا عالم البرزخ بعد موتهم ، ثمّ يعبرونه باتّجاه القيامة . وآية **وَلَا تَحْسَبَنَّ** لا تمتلك مفهوماً دالّاً على أنَّ غير الشهداء في سبيل الله لا يُرزقون في عالم البرزخ .

١ـ الآية ١٦٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

وذلك **أوّلاً** : لأنَّ تتمّة هذه الآية تقول : **فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** .[١]

وهي دالّة على أنّهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ، ومعلوم أنَّ **ٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ** ليسوا خصوص الشهداء ، بل الآية مطلقة لجميع المؤمنين الذين لا يزالون أحياء .

وثانياً : هناك آيتان في القرآن تدلّان على أنَّ البرزخ للجميع ، وأنَّ الإنسان بمجرّد أن يموت يعبر إليه .

الأُولى : في سورة ياسين من قصّة الرسولين اللذين أرسلهما النبيّ عيسى على نبيّنا وعليه السلام إلى أنطاكية للتبليغ وتكذيب الناس لهما ومجيء الرجل الثالث من أقصى المدينة لمساعدتهما : **وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ**[٢] فدعى الناس ونصحهم ، وقال : **إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ** ،[٣] وحينها قام قومه فقتلوا ذلك الرجل المؤمن . وهنا يقول القرآن الكريم : **قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ** .[٤]

فبمجرّد أن قُتل قيل له ادخل الجنّة ، فقال : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين .

الثانية : في سورة نوح ، وهي تشبه الأُولى ولكنّها تنطبق على الكفّار :

١ـ الآية ١٧٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآية ٢٠ ، من السورة ٣٦ : يس .

٣ـ الآية ٢٥ ، من السورة ٣٦ : يس .

٤ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٣٦ : يس .

مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا .[١]

لقد هلك قوم نوح إثر معاصيهم وفسقهم وفجورهم فدخلوا النار بعد غرقهم مباشرة **فَأُدْخِلُوا نَارًا** ، أي بلا مهلة ولا تأخير .

ويستفاد من الروايات المستفيضة والمشهورة أنَّ البرزخ لجميع الكفّار والمسلمين ، سواء كانوا من أهل الكمال في السعادة أم الشقاء ، أم كانوا متوسّطين .

وهناك روايات أُخرى تخالف ما ذكر ، لكنّها غير معتبرة ، ويعتقد المرحوم الشيخ المفيد أنّه : **لَا يُسْأَلُ فِي القَبْرِ إلَّا مَنْ مَحَضَ الإيمَانَ مَحْضَاً أَوْ مَنْ مَحَضَ الكُفْرَ مَحْضَاً ، وَالآخَرُونَ يُلْهَى عَنْهُمْ**.[٢]

* * *

التلميذ : ألَا يستفاد من كلمة **أُعِدَّتْ** الواردة في الآية :

وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .[٣]

أنَّ الجنّة موجودة الآن ؟

العلّامة : إلى حدّ ما ليست خالية من الدلالة .

التلميذ : في هذه الحالة كيف تنسجم مع تجسّم الأعمال ؟ لأنَّ العمل

١ـ صدر الآية ٢٥ ، من السورة ٧١ : نوح .

٢ـ ورد هنا أربع روايات ، ولأنَّ مضامينها متقاربة ، نكتفي بذكر المضمون الذي ذكره الأُستاذ. وقد وردت هذه الرواية في «فروع الكافي» ج ١ ، ص ٦٤ ، الطبعة الحجريّة.

٣ـ الآية ١٣٣ ، من السورة ٣ : آل عمران ؛ ويوجد نظير لهذه الآية في الآية ٢١ ، من السورة ٥٧ : الحديد ، يقول تعالى : **سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ** .

يجب أن ينجز حتّى ينشئ الجنّة أو النار !

العلّامة : هناك مطلب آخر أيضاً ، ففي القرآن الكريم يقول تعالى : **لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** .[1]

فهذه الآية تثبت أنَّ ما سيُرى يوم القيامة كان موجوداً في الدنيا ومشهوداً ، وغاية الأمر أنّه كان مغفولاً عنه . إذَن ما يسمّى **الجنّة** أو **الجحيم** كان له تحقّق في الدنيا ، وكان الإنسان يشاهده ، ولكنّه غافل في المشاهدة .

لقد كان غافلاً عن الحقيقة والواقعيّة في الخارج ، وبناء على هذا فالجنّة في الدنيا موجودة وكذلك النار ، غاية الأمر أنَّ الناس غافلون عنها ، فهما إذَن ثابتان ـ الجنّة والنار ـ .وفي قصّة مؤمن آل ياسين قيل إنَّه بمجرّد أن قُتل دخل الجنّة ، وقوم نوح بمجرّد أن أُغرقوا أُدخلوا النار .

* * *

التلميذ : فيما يخصّ علامات آخر الزمان ورد : **وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَكَلَّمُ الرُّوَيْبِضَةُ**[2] . فما هو المقصود من الرويبضة والدجّال ؟ وما هي كيفيّته وأحوال يأجوج ومأجوج التي ذكرت ؟

العلّامة : ورد أنَّ من أشراط الساعة ، أي القيامة ، أنَّ الرويبضة يتكلّم عند ذلك ، والظاهر أنَّ المقصود بالرويبضة أُولئك الذين لا قرب ولا منزلة لهم في المجتمع ، والذين لا يؤبه بهم ؛ والتكلّم عبارة عن تقلّد زمام الأُمور

١ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٥٠ : ق .

٢ـ حديث الرويبضة ... في أشراط الساعة ، وهو حديث مفصّل ... كان سلمان قد سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن علائم يوم القيامة ... وأصل هذا الحديث في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ ، ص ٦٢٧ إلى ٦٢٩ ؛ وكذلك نقله العلّامة في تفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٤٣٢ إلى ٤٣٥ ، عن تفسير عليّ بن إبراهيم .

الاجتماعيّة والرئاسة على الناس .

وبالنسبة **للدجّال** وهو الشخص المفتري الكذّاب ، فهناك روايات عديدة تبيّن أنّه يخرج قبل ظهور القائم المهديّ أرواحنا فداه ، ويضلّ الناس عن الحقّ .

ولكن ما ورد حول صفاته فإنّه غير قابل للاعتماد ،كما جاء أنّه رجل يركب على حمار ويمشي فتهتزّ من حوله الجنّة والنار يميناً وشمالاً .

وقد ورد **الدجّال** في أحاديث العامّة أيضاً وذكر مولده ، حتّى أنّهم رووا أنَّ رسول الله قد أخبر بذلك فذهب إليه ، أو أنّه جاء بنفسه إلى الرسول وغير ذلك من الكلام الذي لا يمكن الاستناد إليه .كما جاء من أنَّ طول بغله فرسخ واحد .

أمّا بالنسبة **ليأجوج ومأجوج** ، فالظاهر أنّهما فئتان من الناس تعيشان قرب سدّ جبل القفقاز الذي بناه ذو القرنين حسب الشواهد الموجودة ، بحيث لا يستطيعون الهجوم على هذه البلاد . وذكر البعض أنّهما طائفتان من المغول ، وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أصل يأجوج ومأجوج : **حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**.[1]

أمّا بالنسبة لخلقتهم ، فهناك روايات ذكرت بأنَّ لهم آذان كبيرة يفترشوا واحدة منها ويلتحفون بالأُخرى .

ولكنَّ هذه الروايات منقولة عن العامّة ، ومن المعلوم أنّها مختلفة على الظاهر ولا يمكن الاعتماد عليها .

* * *

١ـ الآية ٩٦ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

التلميذ :كيف يكون بني طوائف الجنّ من نوع الإنسان ؟ فطبق آيات القرآن الكريم لابدّ أن يكون نهي كلّ قوم منهم ، وعلى هذا الأساس يلزم الله تعالى المشركين باتّباع رسول الله لأنّه بشر . وفي الردّ على المشركين الذين استنكروا بشريّته وطلبوا إرسال الملائكة ؛ يقول الله تعالى في سورة الأنعام :

وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ.[١]

ومن جانب آخر نجد آيات أُخرى تصرّح بإيمان الجنّ بالنبيّ الأكرم كالآيتين :

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا.[٢]

والآية :

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا.[٣]

والآيات :

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى

١ـ الآية ٩ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٧٢ : الجنّ .

٣ـ الآية ١٣ ، من السورة ٢٧ : الجنّ .

ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ. [١]

والأوضح من الجميع الآية :

يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ. [٢]

ففي هذه الآية ، وجّه القرآن الكريم الخطاب إلى الجنّ والإنس وآخذهم وحاسبهم ، ولو لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رسولاً للجنّ فلا يصحّ أن يذكر القرآن مؤاخذة النبيّ للجنّ .

العلّامة : أجل ، فالظاهر أنَّ نبيّ الجنّ من الإنس ، وقد حصل أنَّ الجنّ قد سئلوا حين إحضارهم عن هذا الموضوع ، فأجابوا بأنّنا لم يكن لدينا نبيّ من أنفسنا ، بل هو **محمّد بن عبد الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم .

التلميذ : هل يمكن القول إنَّ الإنسان والجنّ بما أنّهما موجودان مادّيّان وغاية الأمر أنَّ الإنسان من التراب والجنّ من الدخان والنار ، ومن شدّة شفّافيّته لا يمكن أن يُرى بالعين المجرّدة أو يلمس ، وأنّهما من سنخ واحد ، والجنّ أضعف من الإنسان ، فلهذا يكون لهما حكم واحد ؟

العلّامة : لحلّ هذه المسألة لا يمكن القول بغير هذا ، لأنَّ نحويّة وجوده بالنسبة للإنسان طفيليّ ولأجل الإنسان ، ولهذا يكون لهما نبيّ واحد ، وقد عُيِّنت التكاليف على أساس قوّة كلّ منهما وضعفه .

والشاهد على هذا الأمر قوله تعالى :

يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا . [٣]

١ـ الآيات ٢٩ إلى ٣٢ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٢ـ الآية ٣٣ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٣ـ صدر الآية ١٣٠ ، من السورة ٦ : الأنعام .

فهذه الآية تخاطب الجنّ والإنس معاً ، وتقول لهما «ألم يأتكم رسل منكم» ، وحيث إنّنا عرفنا أنَّ الجنّ ليس لهم أنبياء من نوعهم ورسولهم من البشر ، يعلم حينها أنَّ المراد من **رُسُلٌ مِّنكُمْ** ليس جنس التراب والنار ، بل إنَّ الجنّ والإنس هما من جنس واحد وهو الشدّة والطبيعة ، وأنَّ الرسول إليهما واحد ، غاية الأمر أنَّ الإنسان أقوى من الجنّ ، والجنّ أضعف من الإنسان .

* * *

التلميذ : أرجو أن تذكروا ما تعرفون عن حروف الأبجد واستنتاجاته واستخراجاته وآثاره ، تبعاً للمطالب الواردة في الكتب ؛ وكذلك حول أقسام الأبجد الكبير والصغير والوسيط ، ومقدار أهميّة كلّ واحد منها وحسابه بطريقة المجمل والمفصّل .

العلّامة : الظاهر أنَّ **الأبجد الكبير** من المسلّمات ، وهو من عدد واحد إلى ألف مقسّمة على ثمانية وعشرين حرفاً من حروف اللغة العربيّة ، وهو أمر لا يطرأ عليه الشكّ لدى المسلمين من الشيعة والسنّة ، وقد بسط علماء الفريقين مثل **الشيخ بهاء الدين العامليّ** و**الشيخ محي الدين بن عربي** القول في هذا الموضوع .

كما أنَّ الأبجد الكبير معروف لدى غير المسلمين أيضاً ، وكان رائجاً لدى طائفة اليهود قبل الإسلام ، ثمّ وردت إلى المسلمين من اللغة العبريّة اليهوديّة ؛ ومع أنَّ العبريّة لا تمتلك أكثر من اثنين وعشرين حرفاً ، إذ ليس فيها حروف (ث خ ذ ض ظ غ) ؛ وحروف التهجّيّ لديهم تنتهي إلى **قَرِشَتْ** ، إلّا أنّهم مع ذلك يعتقدون بالأبجد الكبير ، ويقسّمون عدد الألف على حروفهم .

كنّا يوماً في مجلس ما ، فدار الحديث عن وضع الأعداد من الواحد

إلى الألف في الحروف الأبجديّة العبريّة (وهي **٢٢ حرفاً**)، وكان بعض المطّلعين وأهل الفنّ حاضراً ، فاعترضتُ بأنَّ حروف العبريّة تنتهي إلى **قَرِشَتْ** فقط ، وأنَّ عدد التاء أربعمائة ، فكيف يمكنهم الاعتراف بالأبجد ؟

قالوا : بطريقة خاصّة ، حيث يوردون عند الحساب تلك الأعداد الستّة في حروفهم الأبجديّة ، لتبدأ حساباتهم من الواحد وتنتهي بالألف .

وكان في ذلك المجلس أحد الفلاسفة اليابانيّين ؛ ومع أنَّ العقائد اليابانيّة تعود في أسبابها إلى الصينيّين والوثنيّين ، إلّا أنّني سألته : هل تعتقدون بالحروف وتأثيراتها ؟ أجاب : نعم ، نحن نعتقد بحروف الأبجد الكبير ، ولدينا في هذا المجال كتب من العصور القديمة جديرة بالتأمّل والملاحظة .

والعجيب أنّهم يقولون بأنَّ الحروف الأبجديّة لليابانيّين والصينيّين ثلاثمائة حرف ، فهم يقسّمون بطريقة خاصّة الأعداد من ١ إلى ١٠٠٠ على ثمانية وعشرين عدداً على جميع حروفهم الأبجديّة .

ولابدّ أنّهم يعمدون عند الحساب ـ كما في الفارسيّة التي يحتسب فيها الحرف **چ** معادلاً للحرف **ج** ، والحرف **ژ** معادلاً للحرف **ز** ، والحرف **گ** معادلاً للحرف **ك** ـ إلى احتساب كثير من حروفهم القريبة المخرج حرفاً واحداً . وعلى هذا ، كما نقل ، فإنَّ حساب الأبجد عسير جدّاً في اللغة الصينيّة ، ويحتاج إلى تخصّص وفنّ لتشخيص أعداد الحروف وتعيينها ، حيث إنَّ بعض علمائهم المتبحّرين فقط يمكنهم التصدّي لأمر الحساب بجدارة .

إنَّ تقسيم الآية **بِسْمِ ٱللَهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** في مربّع حروف الأبجد مفيد لدفع الجنّ ، وللأفراد المبتلين بالجنّ .

وكيفيّة **الأبجد الكبير** هو أنَّ كلّ حرف من الحروف العربيّة الثمانية

والعشرين له عدد خاصّ من الواحد إلى الألف ، بهذا الترتيب :

أَبْجَد ، هَوَّز ، حُطِّي ، كَلِمَن ، سَعْفَص ، قَرِشَت ، ثَخِّذ ، ضَظِّغ ، لَا .

أ ١	ب ٢	ج ٣	د ٤	هـ ٥	و ٦	ز ٧	ح ٨	ط ٩	ي ١٠
ك ٢٠	ل ٣٠	م ٤٠	ن ٥٠	س ٦٠	ع ٧٠	ف ٨٠	ص ٩٠	ق ١٠٠	ر ٢٠٠
ش ٣٠٠	ت ٤٠٠	ث ٥٠٠	خ ٦٠٠	ذ ٧٠٠	ض ٨٠٠	ظ ٩٠٠	غ ١٠٠٠	ا ١	

وبالطبع فإنَّ الهمزة (أ)والألف (ا) يحسبان كلاهما بعدد واحد «١» ، كما تحسب الحروف المكرّرة بالتشديد حرفاً واحداً . فلفظ **عليّ** مثلاً يحسب ١١٠ ؛ لأنَّ العين ٧٠ ، واللام ٣٠ ، والياء ١٠ ، ومجموعهما ١١٠ .

وكلمة **قدّوس** تحسب ١٧٠ ؛ لأنَّ القاف ١٠٠ ، والدال ٤ ، والواو ٦ ، والسين ٦٠ ، والدال المكرّرة في التلفّظ لا تحسب .

وتحسب كلمة **فعّال** ١٨١ ، لأنَّ الفاء ٨٠ ، والعين ٧٠ ، والألف ١ ، واللام ٣٠ .

أمّا كلمة **الله** ، فمع أنَّ اللام مشدّدة فيها ، إلّا أنّها تحسب حرفين استثناءً ، وألف **الله** لا تحسب . لذا فإنَّ كلمة **الله** تصبح ٦٦ ؛ لأنَّ الألف ١ ، واللام ٣٠ ، واللام ٣٠ ، والهاء ٥ . ولهذا السبب منهم يكتبون كلمة **الله** بدون تشديد ، إذ يكرّرون لفظ اللام ، فليس فيها تشديد من ثَمَّ . كما لا تكتب الألف أيضاً ، فهم يكتبون لامين مكرّرين دونما ألف بهذه الصورة **الله** ، بينما كان ينبغي كتابتها وفق قواعد رسم الخطّ العاديّة بهذه الهيئة **ألّاه** . ولكن باعتبار أنَّ الخطّ العربيّ تابع لحساب الأبجد ، لذا يجب كتابة **ألّاه** في

هيئة **الله** .

وعلى هذا الأساس ، فلأنَّ الحروف المشدّدة تكتب حرفاً واحداً ، فإنَّها تحتسب حرفاً واحداً كذلك . وبنفس القاعدة فباعتبار أنَّ ألف **إلاه** لا تحتسب ، فإنَّها في الكتابة تكتب **إله** (بدون ألف) ، وهي لذلك تعادل ٣٦ .

كما أنّهم لا يحسبون ألف **رَحْمان** ، لأنّها **رَحْمَن** دونما ألف ، وستكون لذلك ٢٩٨ . هذا في شأن **الأبجد الكبير** .

أمّا **الأبجد الصغير** فيطلق على عدد الحروف الأبجديّة عند طرح ٩ ، ٩ منها ؛ فحرف **ي** مثلاً عدده واحد ، لأنّه في الأبجد الكبير يعادل ١٠ ؛ فعند طرح ٩ منها سيبقى واحد .

وحرف **ن** عدده خمسة ، لأنّه عند طرح خمس تسعات من الخمسين يتبقّى خمسة ؛ ولذا فإنَّ حرف **ط** وحرف **ص** وحرف **ظ** لا تمتلك عدداً أصلاً ، إذ حينما يطرح منها تسعة تسعة فإنَّه لا يبقى منها شيء .

أمّا **الأبجد الوسيط** فيطلق على حروف الأبجد الكبير بعد طرح ١٢ ، ١٢ منها بنفس الطريقة التي ذُكرت في الأبجد الصغير .

وأمّا **الأبجد الأكبر** فيطلق على الحروف الأبجديّة بمضاعفتها عشر أضعاف ؛ فحرف الياء ـ مثلاً ـ سيكون عدده في الأبجد الكبير مائة ؛ وحرف الغين سيكون عدده ١٠٠٠٠ (عشر أضعاف) ، وهكذا في سائر الحروف .

وينبغي العلم بعد بيان هذه المطالب أنَّ كلّ كلمة تحسب بحساب الأبجد ، فإنَّها تحسب إمّا بالحساب المجمل أو بالحساب المفصّل .

فالمجمل هو أنَّ عدد حروف الكلمة يجب أن يحسب كما تكتب ؛ فكلمة **قدّوس** مثلاً لها أربعة حروف : القاف ١٠٠ ، الدال ٤ ، الواو ٦ ،

والسين ٦٠ ؛ وكلمة **فعّال** لها أربعة حروف : ف ٨٠ ، ع ٧٠ ، ا ١ ، ل ٣٠ .

ويا أحد يا صمد لها عشر حروف : ي ١٠ ، ا ١ ، أ ١ ، ح ٨ ، د ٤ ، ي ١٠ ، ا ١ ، ص ٩٠ ، م ٤٠ ، د ٤ ؛ وتبعاً لذلك فستكون كلمة **قدّوس** ١٧٠ ؛ وكلمة **فعّال** ١٨١ ؛ و **يا أحد يا صمد** ١٦٩ .

أمّا **المفصّل** فهو أنَّ تعداد حروف الكلمة يجب أن تحسب كما تلفظ . وباعتبار أنَّ كلّ حرف يلفظ بعدّة حروف ، فإنَّه يجب حساب جميع الحروف .

فكلمة **قدّوس** مثلاً لها أربعة حروف : **ق د و س** ؛ فحرف **ق** يلفظ **قاف** ، لذا يجب أن يحسب ثلاثة حروف ق ١٠٠ ، ا ١ ، ف ٨٠ ، وسيكون عدد **قاف** تبعاً لذلك ١٨١ .

وحرف **د** يلفظ **دال** ؛ لذا يجب أن يحسب ثلاثة حروف **د ٤ ، ا ١ ، ل ٣٠** ، فيكون عدد دال تبعاً لذلك ٣٥ .

وحرف **و** يلفظ **واو** ؛ لذا يجب أن يحسب ثلاثة حروف **و ٦ ، ا ١ ، و ٦** .

وحرف **س** يلفظ **سين** ؛ ويحسب ثلاثة حروف كذلك **س ٦٠ ، ى ١٠ ، ن ٥٠** ؛ وهكذا ستكون كلمة **قدّوس** بالحساب المفصّل ٣٤٩ ، بينما في الحساب المجمل ١٧٠ .

مثال آخر : **يا أحد يا صمد** تلفظ هكذا : **ي ١٠ ، ا ١ ، أ ١ ، ح ٨ ، د ٤ ، ي ١٠ ، ا ١ ، ص ٩٠ ، م ٤٠ ، د ٤** ؛ وحين نبسطه فإنَّه يلفظ هكذا : يا ، ألف ، ألف ، حا ، دال ، يا ، ألف ، صاد ، ميم ، دال .

لذا يجب أن يحسب كلّ واحد من هذه الحروف مفصّلاً ، بهذه الكيفيّة :

ي ١٠ ا ١ أ ١ ل ٣٠ ف ٨٠ أ ١ ل ٣٠ ف ٨٠ ح ٨ ا ١ د ٤ ا ١ ل ٣٠ ي ١٠ ا ١

أ[١] ل[٣٠] ف[٨٠] ص[٩٠] ا[١] د[٤] م[٤٠] ي[١٠] م[٤٠] د[٤] ا[١] ل[٣٠] ؛ وسيكون مجموعها ٦١٩ [١] ، بينما كانت نفس هذه الكلمة المباركة بالحساب المجمل ١٦٩ .

* * *

التلميذ : ما حقيقة طيّ الأرض ؟ وكيف تنطبق هذه المسألة مع موازين الفلسفة ؟

العلّامة : حقيقته هي طيّ الأرض تحت أقدام الماشي .

وكان أخي المرحوم السيّد محمّد حسن الإلهيّ القاضي قد استفسر من روح المرحوم الحاجّ الميرزا علي آقاي القاضي رضوان الله عليه عن طيّ الأرض ، وذلك بواسطة تلميذ له كان يحضّر الأرواح (ليس بواسطة المرآة ، ولا بالمنضدة المثلّثة ،بل كان يمسح بيده على عينيه فيُحضر الروح فوراً) فأجاب المرحوم القاضي رحمة الله عليه بأنَّ طيّ الأرض الآيات الستّ من أوّل سورة طه :

طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ . [٢]

التلميذ : ما هو المراد من هذه الآيات ؟ هل كان المرحوم القاضي يقصد من وراء هذا الكلام الحديث بطريق الإشارة والرمز ، وهو يريد أن

١ـ الهمزة والواو التي فوقها همزة ساقطتان في الأبجد ولا تحتسبان . (م)

٢ـ الآيات ١ إلى ٨ ، من السورة ٢٠ : طه .

يقول إنَّ طيّ الأرض يحصل من خلال الاتّصاف بالصفات الإلهيّة ؟

العلّامة : كلّا ، لقد كان أخي رجلاً ذكيّاً وحاذقاً ؛ فكان يذكر الأمر بحيث كأنّه فهم بنفسه من هذه الآيات تعليمات طيّ الأرض .

وهذه الآيات عجيبة حقّاً ، وخاصّة آية : **ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** ، لأنّها تجمع جميع الأسماء في الوجود المقدّس للحقّ تعالى ، وليس لدينا آية جامعة مثلها في القرآن الكريم .

لقد كان المرحوم القاضي يتشرّف بالذهاب إلى كربلاء أيّام الزيارة ؛ ولم يره أحد يركب السيّارة أبداً ، ولم يطّلع أحد على هذا السرّ إلّا أحد التجّار في سوق الساعة (السوق الكبير) حيث تشرّف بالذهاب إلى مدينة مشهد المقدّسة ، فشاهد المرحوم القاضي في مشهد وطلب منه إصلاح جواز سفره ، فقام المرحوم القاضي بذلك . ثمّ عاد ذلك الرجل إلى النجف فباح بأمر رؤيته للسيّد القاضي فغضب المرحوم القاضي بشدّة وقال : إنَّ الجميع يعلمون أنّني كنت في النجف ولم أُسافر .[1]

١ـ نقل لي صديقي المعظّم حجّة الإسلام الحاجّ السيّد محمّد رضا الخلخاليّ دامت بركاته الذي هو من علماء النجف اليوم هذه القصّة (والسيّد الخلخاليّ ابن المرحوم حجّة الإسلام السيّد الخلخاليّ وهو ابن أُخت السيّد محمّد الخلخاليّ المقيم في النجف الأشرف والمعروف بالزهد والعبادة والمشهور في زمانه) ونضيف ممّا رواه التالي :

عندما رجع ذلك التاجر من مشهد إلى النجف ، قال لأصدقائه إنَّ جواز سفره كان غير صالح ولم يتمكّن من ترتيبه في دائرة الشرطة ، فذهب إلى القاضي ورجاه أن يحلّ له المشكلة وأعطاه الجواز ؛ فقال له القاضي : ارجع غداً إلى مركز الشرطة وخذها من هناك!

يقول : فذهبت في اليوم التالي وبالفعل حلّت المشكلة ، ورجعت إلى النجف فقال له أصدقاؤه: إنَّ السيّد القاضي كان في النجف ولم يسافر ، فأسرع الرجل إلى القاضي وأخبره ما جرى معه بالتفصيل ، ولكنَّ السيّد القاضي أنكر ذلك وقال له : إنَّ الجميع يعلمون أنّني لم أُسافر . أخبر التاجر بعض الفضلاء كالشيخ محمّد تقي الآمليّ والشيخ علي محمّد ⇦

....

⇦ البروجرديّ والسيّد علي الخلخاليّ وغيرهم هذه القصّة . فجاؤوا إلى السيّد وأخبروه بدورهم، ولكنّه أنكر مجدّداً، وهناك أصرّوا عليه أن يعيّن لهم درساً في الأخلاق.

وفي ذلك الوقت كان المرحوم القاضي مجهولاً جدّاً ، ولم يكن أحد يعلم عن حاله شيئاً، وفي النهاية وافق على تعيين درس الأخلاق ؛ وفي المرحلة الأُولى انضمّ إليهم السيّد حسن المسقطيّ وغيره .

وفيما بعد انضمّ حضرة العلّامة الطباطبائيّ والسيّد أحمد الكشميريّ والميرزا إبراهيم السيستانيّ وأخو العلّامة السيّد الإلهيّ وغيرهم .

وفي المرحلة الثالثة انضمّ الشيخ عبّاس القوچانيّ والشيخ محمّد تقي بهجت الفومنيّ الرشتيّ وغيرهم من فضلاء النجف الأشرف .

وسماحة آية الله الشيخ عبّاس القوچانيّ هو وصيّ المرحوم القاضي في المعارف والأخلاق، وهو مقيم في النجف الأشرف حاليّاً ، حيث يستفيد من محضره جماعة من الطلّاب والأهالي وغيرهم .

وهناك شاهدان آخران على امتلاك المرحوم القاضي لطيّ الأرض ، الأوّل : أنَّ سماحة العلّامة الطباطبائيّ وسماحة الشيخ القوچانيّ نقلا كلاهما أنَّ المرحوم القاضي اعتاد أن يستقبل رفقاءه في منزله خلال شهر رمضان المبارك بعد حلول الليل بأربع ساعات ، فيستمرّ مجلسه في الأخلاق والوعظ ساعتين ، وكان الأمر على هذا المنوال في العشرة الأُولى والثانية من الشهر ؛ لكنّه كان يعطّل المجلس في العشرة الأواخر فلا يراه أحد إلى آخر شهر رمضان. ولم يكن مكانه معلوماً لأحد ؛ وكان له أربع زوجات ، إلّا أنـّه لم يكن يتواجد في بيت إحداهنّ ، كما لم يكن يتواجد في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة اللذين كان يُكثر المبيت فيهما. وقد نقل سماحة العلّامة الطباطبائيّ أمر اختفاء المرحوم القاضي في أوقات أُخرى علاوة على شهر رمضان .

الثاني : ما رواه الشيخ القوچانيّ ، حيث يقول : كان (المرحوم القاضي) قد جاء إلى كربلاء في سفر للزيارة ، ثمّ حان وقت العودة ، فقدمنا سويّاً إلى موقف السيّارات . وكان ازدحام الناس بركوب السيّارات الذاهبة إلى النجف شديداً ، بحيث كانوا يتسلّقون على رؤوس ومناكب بعضهم البعض لركوب السيّارة . فلمّا شاهد المرحوم القاضي الأمر ، توجّه إلى جانب الموقف (الكراج) بمنتهى البرود . وجلس على الأرض مُسنداً ظهره إلى الجدار ⇦

لقد سأل أخي حضرة القاضي رضوان الله عليه بواسطة تلميذه عن بساط حضرة النبيّ سليمان الذي كان يجلس عليه، ويسافر به إلى مغرب العالم ومشرقه، هل كان من وسائل ظاهريّة مصنوعة، أم أنّه من الإبداعات الإلهيّة التي لا علاقة لها بالأسباب الظاهريّة ؟

فأجاب المرحوم القاضي رحمة الله عليه، ليس لدي الآن أيّ فكرة، ولكنّ أحد الموجودين الذين كانوا في زمن النبيّ سليمان وقد تصدّى لهذا العمل موجود الآن، فلأذهب وأسأله.

فذهب القاضي، وما أن خطا عدّة خطوات حتّى ظهر مشهد جبل، فما أن وصل إلى سفحه حتّى ظهر شيء يشبه الإنسان. فسأله السيّد القاضي وتحدّث معه قليلاً، ولكنَّ ذلك التلميذ لم يفهم شيئاً، وعندما رجع السيّد قال : إنَّه يقول إنَّه من الإبداعات الإلهيّة ولا دخل له بالأسباب الظاهريّة.

التلميذ : ها قد بقيت مسألة طيّ الأرض مجهولة ومعضلة. لأنَّ الإنسان السائر لا يطوي الأرض بمعنى زيادة سرعته بحيث يصل إلى مقصده بشكل أسرع، فهو لا يعدم (يفني) المادّة البدنيّة عند الانطلاق ثمّ يخلقها عند الوصول، بل إنَّ الأرض تطوى تحت قدميه، وبهذا الطيّ يصل إلى المقصد بزمن قصير جدّاً. وهنا يوجد إشكال واضح.

أوّلاً : لأنّنا لا نشاهد وضع الأرض قد تغيّر، بل يبقى كلّ شيء في مكانه، ويُرى الناس في أماكنهم. ولا يحدث هذا الطيّ إلّا بالقياس إلى الشخص السائر.

⇦ وانهمك بتدخين سيجارة. أمّا نحن فصبرنا مدّة جنب السيّارات التي تأتي فتحمل المسافرين حتّى حشرنا أنفسنا في إحداها بمنتهى المشقّة وجئنا إلى النجف، ولم يكن لدينا علم بالمرحوم القاضي. وبالطبع فإنَّ جميع هذه الأُمور احتمالات لامتلاك المرحوم القاضي طيّ الأرض، إلّا أنَّ ذلك لم يُنقل عنه ولا عن غيره صراحةً.

ولو فــرضنا أنّــه أمـر واقـعيّ وحـقيقيّ ، وليس وهـماً أو خـيالاً ، فليس من المـعقول أن يـتحرّك الجسـم والمـادّة دون أن تـتغيّر النسـبة أو الإضافة الموجودة بينه وبين ما حوله من الناس وباقي الموجوادت .

إضافة إلى أنّـه من الممكن أن تحدث حالتان مـن طـيّ الأرض فـي جهتين متعاكستين ، ويلزم هنا تحرّك المادّة في جهتين مختلفتين ممّا يؤدّي إلى تــغيّر الأوضــاع والنسب بشكـل مـتعاكس ، **وَهَذِهِ مِنَ المُسْتَحِيلَاتِ العَقْلِيَّةِ** .

ثانياً : قد ذكرتم في تفسير «الميزان» فـي بـحث إعـجاز الأنـبياء أنَّ الإعجاز لا يخالف الطـبيعة وقـوانـين المـادّة ، ولا يـبطل السـنن أو العـلل والمعلولات ، بل إنَّه يسبب تسريع تأثير العلل في نشوء المعلولات ، ولكي تكتسب عصا النبيّ موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام الحياةَ وتصبح أفعى فهي تحتاج إلى آلاف السنوات ضمن سلسلة من العلل الطبيعيّة ، ولكن على أثر الإعجاز فإنَّ هـذه العـلل تـتحقّق فـوراً بـإرادة اللـه أو رسـوله ، فـتوجّه المعلول في الخارج . ولكنَّ هذا الأمر لا يمكن تصوّره في طيّ الأرض ، لأنَّ الموجودات لا يمكن أن تحفظ أوضاعها الأوّليّة مع الشخص السائر .

أجاب **العلّامة** (بعد أن أطرق برأسه مليّاً وهو يفكّر) : أنَّ طيّ الأرض من خوارق العادات .

التلميذ : إنَّ خرق العـادة فـي طـيّ الأرض مسـلّم وصـحيح ، ولكـنَّ الإشكال هو في الاستحالة العقليّة .

مثل عبور الإنسان ببدنه المادّيّ والجسم الطـبيعيّ لحـائط أو لسـقف غرفة دون أن يحدث شقّاً فيهما (أي عدم تحقّق الخرق والالتئام) رغم أنَّ كبار أهل المعرفة يقولون إنَّه لا إشكال في تحقّقه .

العلّامة : أجل ، لا إشكال فيه ، والشاهد على ذلك أنّـهم فـي مـجلسٍ

وضعوا صرّة من الألبسة في صندوق وأقفلوه بإحكام وأجلسوا فوقه رجلاً ضخماً ، ليثبتوا أنَّ الجنّ يقدرون على الدخول فيه ويأخذون الأشياء التي يريدون أخذها . وبالفعل عندما فتحوا الصندوق وجدوا صرّة الثياب خارج الصندوق والصندوق فارغ ... وهذه القضيّة لم تكن سحراً ، بل الأجانين أخرجوا الألبسة .

التلميذ : في النهاية لم نقدّم جواباً لحلّ المسألة ، وبقيت بكلّ إشكالاتها كما هي .

العلّامة : هي خرق للعادة .

التلميذ : هل حقّق ابن سينا في مسألة طيّ الأرض ؟ باعتباره من الحكماء الذين بحثوا كثيراً في العلل المادّيّة ، وله تحقيقات جيّدة .

العلّامة : لم أجد بحثاً حقّق فيه ابن سينا في موضوع طيّ الأرض ، ولكنّه يؤمن بخرق العادة ويصدّق بمعجزات الأنبياء .

يقول الله سبحانه وتعالى في مسألة عرش بلقيس :

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى.[1]

إنَّ المراد من ارتداد الطرف ليس إغماض العين ، بل أسرع من ذلك بألف مرّة . فالطرف ليس جفن العين ، ولو كان ذلك لوجب أن يقول : **فَلَمَّا لَمْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ** .

بل الطرف هو النظر باللحظ ، والمراد من ارتداد الطرف هذا أنّه قبل ارتداد النظر ، أي شعاع البصر الخارج من العين ووقوعه على الأشياء وحسب قانون الانعكاس يرتدّ النور ، ومنه تنعكس على العين ويتحقّق

١ـ الآية ٤٠ ، من السورة ٢٧ : النمل .

الإبصار .

أي أنـّك قبل أن ترى الشيء الذي تـنظر إليـه سـوف تـرى عـرش بلقيس ، وهذا أسرع من سرعة النور التي تبلغ ثلاثمائة ألف كيلو مـتر فـي الثانية .

ولهذا لا يقول القرآن الكريم أنـّه أحـضر العـرش ، بـل «لمـا رآه» . فبمجرّد أن تحدّث مع الذي عنده علم من الكتاب رأى العرش عنده .

وهذا يعود إلى طيّ الأرض .

التلميذ : هل طيّ الأرض هو عبارة عـن إعـدام الجسـم والبـدن فـي المكان الأوّل وإحضاره وإيجاده فـي المكـان المـقصود ؟ أليس هـذا طـيّ الأرض ، بحيث إنَّ صاحب طيّ الأرض يستطيع بالإرادة الإلهيّة والملكوتيّة التي تفاض عليه أن يوجد نفسه في آن واحد في المكان المقصود ؟

العلّامة :كأنـّه هكذا .

التلميذ :كأنـّه ، أم هو في الواقع هكذا ؟

العلّامة : هو هكذا في الواقع .

التلميذ : بناء عليه فإنَّ عدّة مسائل تطرح هنا :

١ ـ ينبغي أن يختصّ طـيّ الأرض بـالنفوس القـدسيّة الإلهـيّة ، ومـا لم يصل الإنسان إلى معرفة النفس الملازمة لمعرفة الربّ ، ويتصرّف بموادّ الكائنات فإنَّه لن يتمكّن من طيّ الأرض .

فبماذا نفسّر ما ينقل عن طيّ الأرض عند الأفراد غير الكاملين ؟

العلّامة : لم ينقل عن غير الكاملين ، بل إنَّ المباشرين به هـم حـتماً من الأصفياء الواصلين .[1]

١ـ من الممكن كما قال العلّامة أنَّ طيّ الأرض عند غير الكاملين يـحصل بـاتّباع ⇦

التلميذ : ٢ ـ كثيراً ما يشاهد (كما في الروايات ، وما تدلّ عليه الشواهد التأريخيّة) أنَّ بعض الواصلين يأخذ من غيرهم معهم من خلال طيّ الأرض .

ففي هذه الحالة ينبغي أن نقول إنَّ نفوسهم الملكوتيّة والخلّاقة قادرة على إيجاد أجسام غيرهم في المكان المقصود .

العلّامة : أجل هكذا .

التلميذ : ٣ ـ أُولئك الذين يستغرق طيّهم للأرض خمس دقائق أو عشر أو أكثر ،كيف يتمّ لهم طيّ الأرض ؟

العلّامة : لأنّهم لم يصلوا إلى مقام الكمال ، فإنَّ طيّهم للأرض يكون ناقصاً ، ولهذا فإنَّهم يحتاجون إلى قوّة أكثر ووقت أطول لخلق الأبدان في المحلّ المقصود ، مثل طيّ الأرض للأجانين الذي يطول عادة .

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى حاكياً عن إحضار عرش بلقيس :

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ.[١]

وهذا يستلزم زماناً وإن كان قصيراً نسبيّاً .

التلميذ : بناء على هذه الفرضيّة ، فما هي الحاجة بعد للالتزام بترتيب سلسلة العلل والمعلولات الطبيعيّة ،كإعجاز الأنبياء وخوارق العادات ؟

بل يمكن القول إنَّه بإرادة إلهيّة **كُنْ** ، **فَيَكُون** بدون عبور ذرّات الجسم بالحركة الجوهريّة السريعة لسلسلة المراتب اللازمة له . فيكون الجسم

⇦ الكاملين بحيث إنَّهم كلّما أرادوا أن يطووا الأرض ينبغي أن يأخذوا الإذن الكامل، وهناك يحضر الإنسان الكامل فيصحبهم معه ، أو بمجرّد إرادته ومشيئته دون حضوره .

١ـ صدر الآية ٣٩ ، من السورة ٢٧ : النمل .

الأوّل جسماً ثانياً في ذلك الزمان والمكان وبنفس الخصائص كما هو ، وهكذا بالنسبة للمعجزات وخوارق العادات .

العلّامة : أجل ، يمكن القول هكذا .

* * *

التلميذ : في الجزء الثاني عشر ، ص ٢٩ من «بحار الأنوار» ، الطبعة الحجريّة من تفسير عليّ بن إبراهيم ، بإسناده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام ، روى أنـّه قال :

لِيُهْنِئَنَّكُمُ الاسْمُ ! قُلْتُ : مَا هُوَ جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟ قَالَ : قَوْلُهُ: «وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ» ، وَقَوْلُهُ : فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ؛ فَلْيُهْنِئَنَّكُمُ الاسْمُ .

فما معنى هذين في الرواية ؟ لأنَّ المراد من **شِيعَتِهِ** في الآية الأُولى شيعة النبيّ نوح ، والمراد من **شِيعَتِهِ** في الآية الثانية شيعة النبيّ موسى على نبيّنا وآله وعليهما السلام .

العلّامة : الظاهر أنَّ المراد هو أنَّ لفظ التشيّع قد ورد في القرآن الكريم ونسب إلى النبيّ نوح والنبيّ موسى عليهما السلام ، فلهذا هو اسم مبارك وعلى **الشيعة** أن يسمّوا أنفسهم به .

ولهذا فالمسألة تعود إلى الشبه الموجود من الناحية الاسميّة ، حيث إنّكم شيعة عليّ بن أبي طالب وللنبيّين شيعة أيضاً ، وهذا الاسم المبارك لكم على أمل الفوز والفلاح ، وهذا بلحاظ التشريف والتكريم .

* * *

التلميذ : ذكر الشيخ الحرّ العامليّ في مقدّمة كتاب «إثبات الهداة» ص ٢٣ ، السطر الرابع : **وَأَيضاً فَإِنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَ أَنَّ عِلْمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ**

وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ بَعْضَهُ أَوْ أَكْثَرَهُ ، وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْصِيَاءِ السَّابِقِينَ .

فهل لهذا الكلام وجه ما ؟ فالرسول لم يلتق بأيّ نبيّ من الأنبياء السابقين ولم يحادثهم أو يتكلّم معهم في الظاهر .

العلّامة : في الظاهر لا وجه في الكلام ، بسبب عدم التقاء رسول الله بأحد ، أجل في عالم الباطن يمكن تصوّر هذا المعنى أنّه قد أخذ بعض علومه من السابقين من خلال المحادثة والسؤال .

والشاهد على هذا المعنى قوله تعالى :

وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ .[1]

حيث يستفاد منها أنَّ طريق التكلّم والسؤال كان مفتوحاً على رسول الله مع الأنبياء عليهم السلام في عالم الملكوت .

* * *

التلميذ : بالنسبة لعموميّة دعوة الرسول الأكرم **محمّد بن عبد الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم وشمولها لجميع البشر إلى يوم القيامة ، هناك آيات عديدة وردت في القرآن الكريم كقوله تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .[2]

وأيضاً قوله تعالى : **وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ .**[3]

وأيضاً : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ**

١ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .
٢ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٣٤ : سبأ .
٣ـ الآية ١٠٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

ٱلْأُمِّىِ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.[1]

وأيضاً : **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا**.[2]

وكذلك يصبح هذا المعنى واضحاً كالشمس في رابعة النهار من خلال التأمّل في نهج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ودعوته لكلّ العالمين وكتابة الرسائل لملك الروم والشام والحبشة وجميع البلدان وسائر الملل والطوائف .

وهناك آيات في قبال هذا المعنى توهم اختصاص الدعوة ؛كقوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ.[3]

ومثل : **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**.[4]

ومثل : **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** .[5]

ولكنَّ النصوص الواردة حول عموم الدعوة تدفع هذا التوهّم الحاصل .

وبالنسبة لحضرة موسى وعيسى على نبيّنا وآله وعليهما السلام هناك آيات قرآنيّة تبيّن اختصاص دعوتهما ببني إسرائيل ،كقوله تعالى :

١ـ الآية ١٥٨ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآية ٤١ ، من السورة ٤ : النساء .

٣ـ صدر الآية ٢ ، من السورة ٦٢ : الجمعة .

٤ـ الآية ٤٧ ، من السورة ١٠ : يونس .

٥ـ الآية ٤ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.[1]

وكـــقوله تـــعالى : **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم.**[2]

والأصرح من هذه الآية ما نقله القرآن الكريم عن لسان مريم عـليها السلام : **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ.**[3]

وكذلك ما نقل على لسان موسى وعيسى في خطابهم لبني إسرائيل .

وفي شريعتهما لم يشرّع الحجّ ، فلوكانت شـريعتهما عـالميّة لكـان ينبغي أن تتّبع شريعة **إبراهيم** عليه السلام العالميّة التي كانت توجب الحجّ .

ولو طالع المرء في شـريعة هـذين النـبيّين العـظيمين فـإنّه يـجد إلى جانب الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى هناك أحكاماً خاصّة لا تناسب بينها وبين شريعة الإسلام وشريعة إبراهيم .

العلّامة : في مقابل ما ذكرتموه من مسائل (وهي صحيحة في مقامها) يوجد آيات وروايات تبيّن عموميّة دعوتهما ، إضـافة إلى سـيرة الرسـول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم .

١ـ الآية ٥ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٢ـ الآيتان ٥ و ٦ ، من السورة ٦١ : الصفّ .

٣ـ الآيات ٤٧ إلى ٤٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

منها ما ورد في القرآن الكريم : **إِذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ** .[1]

فقد دعا النبي موسى عليه السلام فرعون والأقباط في مصر إلى شريعته ، ومن المسلّم أنّهم لم يكونوا من بني إسرائيل الأسباط ، بل إنَّ الأقباط هم في مقابل الأسباط وبني إسرائيل .

ومنها أنَّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم قد عرّف دين اليهود والنصارى الذين كانوا من عرب الجزيرة في مكّة والمدينة والحبشة على أنّه الدين الرسميّ ، وعاملهم معاملة أهل الكتاب ، فلو كانت شريعة موسى وعيسى عليهما السلام مختصّة ببني إسرائيل لما كان اعتناق العرب قبل الإسلام لدين اليهود والنصارى صحيحاً ، ولما اعترف به رسول الله .

وأيضاً ، مباهلة الرسول لنصارى نجران وإعلان المواجهة العرفانيّة ، ومن المعلوم أنَّ نصارى نجران كانوا عرباً .

أمّا بالنسبة للحجّ فهو وإن كان من سنن إبراهيم النبيّ عليه السلام ، ولكنَّ إبراهيم فرضه على العرب فقط دون سائر الأُمم ، ولم يفرضه على القاطنين في فلسطين ، وإلّا لكنّا نجد **إسحاق** و **يعقوب** والأنبياء الآخرون من بني إسرائيل يؤدّونه .

ولكنّ هذه السنّة بقيت في **إسماعيل** وبنيه من الذين يسكنون شبه الجزيرة العربيّة ، وليس لدينا ثبوتاً أو إثباتاً دليل على وجوب عموميّة الحجّ في عصر إبراهيم عليه السلام .

ويمكن الإجابة على الأدلّة التي ذكرتموها في الآيات بأنَّ الرسالة لبني إسرائيل مغايرة لاختصاص الدعوة بهم ، والآية المباركة : **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ** لا تدلّ على أكثر من كون النبيّ المرسل إلى قومه

١ـ الآية ٤٣ ، من السورة ٢٠ : طه .

يتكلّم بلسانهم ، فكيف يستفاد من هذا النصّ اختصاص الدعوة بقومه ؟

* * *

التلميذ : هناك آيات كريمة تسند الأفعال إلى الذات الأحديّة المقدّسة وبعضها مدهش جدّاً ، كقوله تعالى :

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا.[1]

فالله تعالى ينسب تولّي المخالفين لرسول الله والذين لا يتّبعون المؤمنين إلى نفسه ؛ ويقول أيضاً :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا .[2]

وإنّني كلّما تذكرتُ مفاد هذه الآية الشريفة أزداد حيرة وتعجّباً من معانيها الدقيقة ومضامينها العميقة وشمول مفادها .

فكيف ينهي الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن تولّي الكفّار والتودّد إليهم وجعلهم أولياءهم وتركهم المؤمنين ، ثمّ يبيّن أنَّ تلك القدرة والسلطة التي حصل عليها الكفّار من خلال هذا التولّي هي قدرة وقهّاريّة الله عليهم !

أي أنَّ غلبة الكفّار وتسلّطهم على المسلمين هو تغلّب إلهيّ ، فيا أيّها المسلمون لا تتولّوا الكفّار لكي لا يفعل الله ذلك بكم . فهنا قد جعل الله قدرة وتسلّط الكفّار نفس قدرته وتسلّطه على المسلمين .

العلّامة : إنَّ منطق القرآن في التوحيد الأفعاليّ ، وإرجاعه جميع الأفعال إلى الله تعالى منطق رفيع جدّاً ، ففي الآية ١٢ ، من السورة ١٨ :

١ـ الآية ١١٥ ، من السورة ٤ : النساء .

٢ـ الآية ١٤٤ ، من السورة ٤ : النساء .

الكهف يقول : **ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا.**

فمن المعلوم أنَّ المراد هنا من العلم هو العلم الفعليّ ، وهو عبارة عن وجود الأشياء وظهورها بوجودها الخاصّ عند الربّ المتعال ، وقد ورد هذا القسم من استعمال العلم الذي يراد به نفس أفعال الموجودات في القرآن المجيد كثيراً كالآية الشريفة : **لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ .**[1]

وقوله : **لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ .**[2]

وقد فسّر البعض هذا الكلام بطريقة جيّدة ، وقالوا إنَّ معناه هو : «**لِيُظْهِرَ مَعْلُومَنَا عَلَى مَا عَلَّمْنَاهُ**» .

وكذلك الآية الشريفة : **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ** [3] تدلّ على أنَّ نفس الفعل الذي يؤدّيه الإنسان هو مورد المشيئة والإرادة الإلهيّة .

ومثل الآية ٩ ، من السورة ٦ : الأنعام : **وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ .**

وبشكل عامّ فإنَّ ما يعلّمه القرآن هو أنَّ كلّ ما في عالم الوجود من ذات أو فعل أو أثر هو ملك الله **وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ** ولله ما يريد فعله في مماليكه .

ولا أحد يملك اختياراً أو قدرة غير الله إلّا بقدر ما يُملّكه الله . والله تعالى المالك المطلق لكلّ الموجودات وللإنسان وما يملكه الإنسان .

والآيات القرآنيّة الدالّة على هذه الحقيقة كثيرة جدّاً .

١ـ الآية ٢٥ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٢ـ صدر الآية ٢٨ ، من السورة ٧٢ : الجنّ .

٣ـ الآيتان ٢٣ و ٢٤ ، من السورة ١٨ : الكهف .

وكلّ ما نشاهده في عالم التكوين من الموجودات الفاعلة أو المؤثّرة ـ كما نسمّيها أحياناً عللاً وأسباباً ـ لا استقلال لها في سببيّتها ، ولا تستغني في فعلها وتأثيرها عن الله المتعال . فهذه الموجودات لا يمكنها القيام بعمل ولا يمكنها أن تؤثّر بنفسها ، إلاّ إذا شاء الله . فالله هو الذي يعطيها القدرة على الفعل والتأثير ، وهي لا يمكنها أن تخالف الإرادة الإلهيّة . والله لا يسلب عنها القدرة من خلال إرادة خلافها .

وبعبارة أُخرى : إنَّ جميع سلسلة العلل والأسباب الموجودة في عالم التكوين لا أثر لها من ذاتها ، بل بواسطة القدرة المعطاة لها من قبل الله يتحقّق الفعل والأثر الموجود فيها ، والله لا يفعل عندها ما يخالف هذه الإرادة .

وبتعبير آخر : الله تعالى يسهّل طريق الوصول إلى ذلك المعلول ويجيز ذلك ، وإجازة الله هي إعطاء القدرة ورفع المانع .

وقد وردت الآيات والروايات المستفيضة والمتواترة التي تؤكّد على أنَّ عمل كلّ عامل متعلّق بإذن الله ، ولا يمكن صدور أيّ فعل من أيّ فاعل إلّا أن يشاء الله .[1]

يقول الله تعالى : **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** .[2]

١ـ تفضّل العلّامة ببيان عدّة جمل قصيرة مستدلّة في تفسير «الميزان» ج ٨، ص ٣٤ في وجوب الامتثال لأمر الله ، لجهة الله وأمر الله ، لا لجهة أُخرى ؛ وهي تحوي كتاباً من الحكمة، حيث يقول :

«فَقَولُهُ الحَقُّ ؛ والواجبُ في امتثال أمرِه أَن يُمتثلَ لأنـَّهُ مشتَمِلٌ علَى مصلحَةٍ أو جهةٍ مِن جِهاتِ الخَيرِ والنَّفعِ حتَّى يُعزَل عَن رُبوبيّته ومَولَويّته ، ويَعودَ زِمامُ الأمرِ والتَّأثيرِ إلَى المصالحِ والجهاتِ ، وهي التي تَنتهي إلَى خَلقِه وجعلِه كسائرِ الأشياءِ مِن غَيرِ فرقٍ».

٢ـ صدر الآية ١١ ، من السورة ٦٤ : التغابن .

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِ .[١]
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ .[٢]
مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ .[٣]
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ .[٤]

ولهذا ينبغي لكلّ من يريد معرفة ربّه أن لا يرَ نفسه مستقلّاً في الفعل الصادر منه ، أو مستغنياً عن الله ، بل أن يرى نفسه مالكاً للفعل بتمليك الله وقادراً على فعله بقدرة الله تعالى : **أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .**[٥]

وكلّ مؤمن يريد أن يؤدّي عملاً عليه أن يقدم عليه بالتوكّل على الله والاعتماد عليه ، والاتّكاء عليه :

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ .[٦]

فإذا أراد أن يَعِدَ أحداً ، أو يخبر عن المستقبل فليقيّده بمشيئة الله إذَن .

نعم ، ومع أنَّ للإنسان ما يفعله ، والله ذكر نسبة الأفعال إلى النبيّ والناس في العديد من مواضع القرآن ؛ حيث يقول :

فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .[٧]
أو يقول : **لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ .**[٨]

١ـ صدر الآية ٥٨ ، من السورة ٧ : الأعراف .
٢ـ صدر الآية ١٤٥ ، من السورة ٣ : آل عمران .
٣ـ صدر الآية ٥ ، من السورة ٥٩ : الحشر .
٤ـ صدر الآية ٦٤ ، من السورة ٤ : النساء .
٥ـ قسم من الآية ١٦٥ ، من السورة ٢ : البقرة .
٦ـ قسم من الآية ١٥٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .
٧ـ قسم من الآية ٤١ ، من السورة ١٠ : يونس .
٨ـ قسم من الآية ١٥ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

في نفس الوقت أنكر استقلال الإنسان واستغناءه عن مشيئته وعـدّه باطلاً . ويستفاد من الاستثناء الموجود في الآية الكريمة : **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ** هــو استثناء مـفرّغ ، وأنَّ تـقدير المستثنى منه يشمل جميع الأحوال أو تمام الأزمنة ، ولابدّ من تقدير «باء» الملابسة في الجملة المستثناة فيصبح المعنى :

«**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ : إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ، فِي زَمَانٍ مِنَ الأَزْمِنَةِ أَوْ فِي حالٍ مِنَ الأَحْوَالِ إلَّا أَنْ يُلَابِسَ قَوْلَكَ بِأَنْ تَقُولَ : إِنْ شَاءَ اللهُ**» .

الأَبحَاثُ التّأرِيخيَّة

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التلميذ : يعتقد البعض بعدم وجود نسخ في القرآن الكريم ، فلا آيات ناسخة ولا منسوخة ، مع أنّنا نرى بوضوح في بعض الآيات أنَّ لها عنوان النسخ لبعضها الآخر ،كالآية الشريفة : **أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ** .

وأساساً ، ما الذي يوجب علينا هذا الإصرار والإلحاح المبرم على عدم النسخ ؟ وهل يستوجب عنوان النسخ محذوراً ما ؟ حتّى اعتقدوا بعدمه ... ؟

العلّامة : نعم ، يعتقد البعض بعدم وجود نسخ في القرآن ؛ وظاهر كلامهم عدم وجود آيات ناسخة ومنسوخة . ولكن على ما يبدو فإنَّ بعض أقسام الآيات لا يمكن إنكار كونها ناسخة أو منسوخة ، مثل آية الصدقة في النجوى ، فهي واضحة جدّاً ، وذلك في حُكمٍ أَبلغ للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بأنّه من الآن وصاعداً يجب أن لا يناجيك أحد من الأصحاب إلّا بعد التصدّق ، فلم يعمل بذلك أحد غير أمير المؤمنين سلام الله عليه دون سواه ، أمّا الآخرون فلم يتوجّه أحد منهم للعمل بهذا الأمر .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[١]

١ـ الآية ١٢ ، من السورة ٥٨ : المجادلة .

أو في شأن الإرث ونزول آية **أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ** ؛ فقد كان المؤمنون يتوارثون في بداية الإسلام تبعاً للروابط الدينيّة ، وكانت أحكام الإرث تجري وفق المؤاخاة التي أقرّها رسول الله بين الصحابة ؛ حتّى نزلت آية **أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ** فنسخت ذلك الحكم ، وأصبح التوارث مبنيّاً على أساس القرابة في الرحم دون المؤاخاة الدينيّة .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .[1]

وهذه الآية تبيّن أنَّ الورثة يجب أن يكونوا من أُولي الأرحام ؛ وبهذا نسخت الحكم السابق .

كما أنَّ الآية المباركة : **مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ،[2] لها دلالة واضحة جدّاً على وقوع النسخ دون أيّ محذور .

وربّما كان أجلى منها وأكثر وضوحاً ، الآية القائلة : **وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** .[3]

حيث يبيّن في هذه الآية بوضوح أنَّ الآيات تُنسخ وتتبدلّ مواضعها ، وإنَّ التغيير والتبديل يحصل فيها . ومعلوم أنَّ المراد بالآيات هنا آيات القرآن الكريم .

١ـ الآية ٧٥ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٢ـ الآية ١٠٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآيتان ١٠١ و ١٠٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

ولأنَّ المعاندين يقولون بأنَّ هذا التبديل والتغيير من جانب **محمّد** صلّى الله عليه وآله وسلّم لا من جانب الله ، وبأنَّ النبيّ مفترٍ ؛ فهو يقول في الآية اللاحقة : قل إنَّ هذه الآيات ، ناسخها ومنسوخها نزل بها روح القدس جبرائيل لتثبيت قلوب المؤمنين وهدى وبشرى للمسلمين .

ومرجع النسخ إلى أمر تحديد زمن وأجل مدّة الحكم المنسوخ ، أي مدّة الحكم السابق لم تكن دائميّة ، بل كانت إلى زمن مجيء الحكم الناسخ . ولا إشكال فيه أبداً ، بل لابدّ من وجود النسخ في الشرائع والأحكام الإلهيّة بشكل حتميّ ، إذ كثيراً ما لا يكون تشريع الأحكام بصورة دائمة ، فمصلحتها وأساسها يقتضيان أن يكون الحكم لفترة من الزمن ، والمصلحة أيضاً اقتضت أن لا يكون بيانها بصورة مؤقّتة ، أي أنَّ بيان المدّة خلاف المصلحة ، وفي هذه الحالة شرّع الحكم بشكل مطلق ثمّ نسخ بعد استيفاء المصالح والقضايا المندرجة تحته .

وعليه ، فإنَّ مرجع النسخ هو أنّه : بواسطة الآية الناسخة يتبيّن أنَّ الآية المنسوخة لا حكم لها خارج أجلها المحدّد لها ، ولا تتمكّن من أن يكون لها حكم أبعد من وقتها وزمنها ، ولا يوجد تناقض وتضادّ في هذه المسألة . بل بيان حكم ، ومفاده بشكل أو بآخر .

ولو تضادّ حكمان في الظاهر ، فمن الواضح أنّه ليس تضادّ حقيقيّ ؛ بل ورد حكم ما تبعاً لاقتضاء المصلحة ، ثمّ ورد حكم آخر . ولقد تغيّرت المواطن والمقتضيات فتغيّر الحكم بدوره .

والعلّة في إصرار البعض على عدم وجود النسخ في القرآن الكريم تعود إلى تصوّرهم بأنَّ مسألة النسخ هذه توجب مسألة تضادّ ، بينما ينبغي ألّا يكون هناك تضادّ في الأحكام .

أمّا حين اتّضح بأنَّ مرجع النسخ إلى أنَّ **إحدى الآيتين** تبيّن زمن

الأُخرى ، وتظهر مدّة مفعولها ، فإنَّ مسألة التضادّ تفقد معناها . وشتّان بين مسألة التضادّ وبين مسألة النسخ !

التلميذ : ما الدليل على أنَّ القرآن الكريم ناسخ للتوراة والإنجيل ؟

العلّامة : وردت آيات في القرآن الكريم لها دلالة على أنَّ شريعة الإسلام شريعة جديدة ، وأنَّ تشريعه كان بتشريع جديد ، كالآية الشريفة :

شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .[١]

وهذه الآية في غاية الوضوح ما وصّينا به نوحاً ، وما أوحينا إليك ، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أي شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وما ... ، جعلناه بأجمعه شريعة لك . وهذا الجعل للشريعة ـ إن كان نفس الشرائع السابقة ـ يمثّل نسخاً ، أي تجاهلاً للحكم السابق وإنشاءً لحكم جديد ، بإنشاء وتشريع جديد .

لذا يمكن القول بأنَّ كلّ شريعة لاحقة ناسخة للشريعة السابقة ، لأنّها تجيء بعنوان تشريع جديد .

التلميذ : لماذا لا يعتبر اليهود النسخ أمراً جائزاً ؟

العلّامة : الظاهر أنَّ ذلك يعود إلى أنّهم لا يريدون الاعتراف بكتاب سماويّ آخر بعد نزول التوراة (التي هي كتاب سماويّ) ، ولا يريدون أن يكون لهم حكم سماويّ آخر . فهم يقولون : كلّ ما هو موجود قد خُتم بالتوراة ، فليس بعدها من حكم سماويّ آخر .

١ـ الآية ١٣ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

وآية النسخ تُبطل هذا المعنى ، فتبيّن بأن ليس من قدرة يمكنها تقييد الله سبحانه وتحديده بالالتزام بعدم تغيير الحكم ، فدأبه تعالى أن ينسخ الآيات أو يُنسها ، وهو على كلّ شيء قدير .

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ .[1]

بَيدَ أنَّ اليهود يقولون بأنَّ الله لا يمكنه أن ينسخ حكماً بعد نزوله ، وإنَّ النسخ ليس من شؤون القدرة الإلهيّة ، ولا من مقتضيات العلم الإلهيّ ، لذا فإنَّ يد الله مغلولة عن أمثال هذه الأُمور :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ .[2]

فهم يقولون بأنَّ الله خلق السماوات والأرض وجعل الأحكام في الأيّام الستّة الأُولى ، فانتهى الأمر ولن يحصل ثمّة تغيير أو تبديل فيه . وبالطبع فإنَّ مفاد هذا المرام هو نفس غلّ يد الخالق ؛ بل يداه مبسوطتان يغيّر ويبدّل في عالم الخلق ما يشاء ، ويضع أحكاماً وفقاً للمصالح المستحدثة .

* * *

التلميذ : ما هو الوضع الذي كان فيه كتّاب الوحي الإلهيّ (القرآن) ؟ أكان رسول الله يستدعي كاتب الوحي بعد نزوله ليكتبه ؟

ولقد كان أحد كتّاب الوحي الوجود المقدّس لأمير المؤمنين عليه

١ـ الآيتان ١٠٦ و ١٠٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٦٤ ، من السورة ٥ : المائدة .

السلام ؛ ومعلوم أنّه لم يكن ملازماً لرسول الله على الدوام ، فقد كان رسول الله يرسله كثيراً في الحروب والغزوات ، أو يبعثه لإنجاز مهمّات أُخرى .

فكيف كان وضع وطريقة عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت ؟ ومن أين نشأت هذه القراءات والاختلافات بينهم ؟

العلّامة : لم أُشاهد في رواية ما أنَّ رسول الله كان عند نزول الوحي يستدعي أحد الصحابة أو أحد كتّاب الوحي ليجيء فيكتبه ، إلّا أنّه ورد أنّهم كانوا يكتبون وحي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وكان الكتّاب عبارة عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وآخرون .

وقد تصدّى زيد بن ثابت لاحقاً لمسألة جمع القرآن في المرّة الأُولى بأمر أبي بكر ، وكذلك في جمعه للمرّة الثانية بأمر عثمان وفي عهده ، فقام بجمع القرآن وتأليفه .

أمّا اختلاف القراءات فيُسند إلى الرواية ؛ أي أنَّ القرّاء رووها عن رسول الله بهذه الكيفيّة ، وهو ما ينطق على قراءة **عاصم** التي عليها مدار قراءة القرآن ، حيث يروي عن أمير المؤمنين بواسطة واحدة .

وكلٌّ من هؤلاء القرّاء يقرأ القرآن على نمط خاصّ ، فهم يختلفون فيما بينهم في كيفيّة القراءة . مثلاً قراءة **أُبي بن كعب** هي غير قراءة **عاصم** .

إنَّ مسألة اختلاف القراءة في تأريخ القرآن ، هي مسألة مرحليّة في حدّ ذاتها . وعليه ، فلا يبدو أنَّ القرّاء كانوا يروون ويقرأون عن نفس رسول الله ما يسمعونه منه ، فهذا أمر لا يتبادر إلى الذهن ، أي لا يمكن استنتاجه ، بل ما يستنتج هو أنّه في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يوجد عدداً كبيراً يتراوح بين سبعين إلى ثمانين شخصاً أو أكثر

من حملة القرآن ، وكانوا يتلون القرآن ويحفظونه ثمّ ينشرونه بين الناس ، فإذا واجههم إشكال ما ، كانوا يسألون الرسول الأكرم فيرفعه لهم . هذا ما يمكن أن يستنتج .

فخلاصة ما نحصل عليه هو ، أنَّ قراءات القرّاء هذه لا تعني أنّهم قد سمعوا نفس هذه القراءة من رسول الله ليتبعوها ويقرأوا بها ، كما أنّها لم تكن إبداعاً منهم .

بل لأنَّ المسلمين قد شاهدوا حملة القرآن يقرأونه بهذه الطريقة وأنّهم قد أخذوا عن الرسول الأكرم ، فتكون النتيجة الحاصلة أنَّ هذه القراءات المأخوذة عن القارئ الفلاني أو الصحابيّ الفلاني عائدة إلى الرسول الأكرم .

وحسب قول المؤرّخين فإنَّ الرسول الأكرم نفسه كان يقرأ القرآن بكيفيّتين أو أكثر ، لذا فإنَّ اختلاف القراءات يعود إلى اختلاف كيفيّة قراءة رسول الله نفسه .

لقد كان جبرائيل يأتي إلى رسول الله مرّة في السنة ، ويتلو مرّتين ما نزل من القرآن من أوّل الوحي إلى ذلك الوقت ، ويجدّد وحيه ؛ وكان النبيّ ـ بدوره ـ يقرأه على كتّاب الوحي بنفس الطريقة التي قرأها جبرائيل أخيراً ومنهم ينتشر بين الناس بنفس الكيفيّة ، فتكون النتيجة اختلاف هذا الوحي عن الوحي السابق ، لذا فإنَّ علّة اختلاف القراءة يعود إلى أساس اختلاف قراءة جبرائيل في السنوات المتعاقبة .

التلميذ : حين كان جبرائيل ينزل كلّ سنة فيتلو على رسول الله جميع القرآن ، فهل كان الرسول يقرأه بأجمعه على أمير المؤمنين عليه السلام سنةً ، ثمّ يقرأه على أُبي فقط في السنة التالية ، وعلى زيد بن ثابت فقط في السنة التي بعدها ، وهكذا يقرأه كلّ سنة لأحد كتّاب الوحي ؟

ذلك لأنـّـنا نـرى اخـتلاف هـؤلاء الكـتّاب فـي القـراءة ، وإذا كـان رسول الله يقرأ للجميع ما يأتي به جبرائيل كلّ سنة ، لوجب أن لا يختلفوا بينهم ، بل لتوجّب على القرّاء أن يقرأوا كلّ سنة على نحو واحد ، لاختلاف قراءة كتّاب الوحي أنفسهم في كلّ سنة عنها في السنوات الأُخرى .

العلّامة : نهاية الأمر أنَّ جميع رواياتهم متعدّدة ومختلفة ، وما عندهم فقط في سنة رحلة الرسول الأكرم أنـّه قال : إنَّ جبرائيل عارضني بـالقرآن العامَ مرّتين من أوّله إلى آخره ، ولا أراني إلّا وقد حضر أجلي .

ومن الواضح بطبيعة الحال أنـّه تلاه مرّتين ، أي بكيفيّتين .

ولا بأس بكتاب «الإتقان» للسيوطيّ في هذا المجال ، إذ يكشف فيه الستار إلى حدّ ما عن هذه المطالب . ولقد كان السيوطيّ ـ حقّاً ـ من رجـال الدين الماهرين ، إذ كانت له مهارة وخبرة فائقة في تتبّع الأقوال والروايات ونقلها ، وكان في منتهى التبحّر في هذه الأُمور ، إلّا أنـّه لم يكـن صـاحب رأي فيها .

التلميذ : ينبغي حلّ هذه المسألة في نـهاية الأمـر ، وهـي أنَّ **أُبي بن كعب** كان يقرأ القرآن بنفسه على نحوٍ ما ؛ وكان **زيد بن ثابت** يقرأه عـلى نحوٍ آخر ، وكان **أمير المؤمنين** عليه السلام يقرأ عـلى نـحوٍ ثـالث ، وهـذا يستلزم أن يكون النبيّ قد قرأ القرآن كلّ سنة لأحدهم ؛ ولو كان يقرأه كـلّ سنة عليهم جميعاً ، لوجب أن يكون هناك اختلاف فـي قـراءة كـلّ مـنهم أيضاً **!**

العلّامة : كلّا ، من الممكن أن يكون **أُبي** قد قرأ القرآن على نحوٍ ما سنة ، ثمّ قرأه على نحوٍ آخر في السنة اللاحقة ، ثمّ على نحوٍ آخر في السنة التي تليها ، وهكذا ، وهو ما حصل بالفعل ، فقد نُقلت لنـا عـدّة أنـواع مـن القراءات عن كلّ قارئ من القرّاء ، وحُكي في خصوص أُبي ـ مـثلاً ـ أنـّـه

قرأ سنة بكيفيّة معيّنة ، وقرأ في السنة اللاحقة بكيفيّة أُخرى . فهذا ما يقوله البعض في اختلاف القراءات . فهناك اختلاف بين قراءات أُبي نفسه ، إضافة إلى الاختلاف بين قراءته وقراءة الآخرين .

وكان **لعاصم** تلميذان ينقل كلّ منهما القرآن عنه من أوّله إلى آخره ، وهما يختلفان بينهما في القراءة ، فهذا التلميذ يروي عن عاصم بكيفيّة ما ، بينما يروي الآخر عنه بكيفيّة أُخرى . وهذه الأُمور تنطبق على أمثال **أُبي وعبد الله بن مسعود** .

التلميذ : ألَا يمكننا القول بأنّه كما اختلف النحويّون من أمثال **سِيبَوَيْه** و**الكَسائيّ** وغيرهما على القواعد التي يتقنونها ، فكان أحدهم يقرأ شعراً عربيّاً بطريقة تختلف عن الآخر ؛ وكذلك اختلفوا في الإعراب وهكذا اختلف **أُبي بن كعب** و**زيد بن ثابت** وسائر القرّاء الذين كانوا من العرب أيضاً ومن أهل اللغة الأُمّ ومطّلعين على حقيقة علم النحو والأدب والعربيّة ، فكانوا يقرأون هكذا تبعاً للغتهم الأُمّ والقواعد التي يسيرون على ضوئها ؛ فنقول بأنَّ اختلاف القراءة عائد إلى اختلاف نظرهم واجتهادهم ؟

العلّامة : ليس الأمر كذلك ؛ لأنَّ ظاهر اختلافهم بلحاظ الرواية . أي أنّهم يُسندون القراءة إلى رسول الله . ولدينا روايتان ـ مثلاً ـ في **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** تذكران بأنَّ رسول الله كان يقرأ **مَلِك** كما كان يقرأ **مَالِك** ؛ ولو كانت الروايتان متواترتين للزم منهما ذلك .

بَيدَ أنَّ قارئ**مَلِك** أكثر من **مَالِك** ، فهناك أربعة قرّاء من بين القرّاء السبعة قرأوا بـ**مَلِك** ، بينما قرأ الآخرون بـ**مَالِك** . يضاف إلى ذلك أنَّ الاعتبار في **مَلِك** أكثر انسجاماً ، لأنَّ يَوْم لا يُنسب عادةً إلى مَالِكَ بل ينسب إلى مَلِك ؛ فيقال : مَلِك اليوم الفلاني ، لا مالك اليوم الفلاني .

وكان المرحوم القاضي رحمة الله عليه يقرأ في الصلاة بلفظ مَلِك ؛

ويذكر الزمخشريّ في تفسير «الكشّاف» وجوهاً حيث إنَّ لفظ مَلِك فيها أشمل وأعمّ وأنسب .

التلميذ : ما معنى القرّاء السبعة والقراءات المتواترة والقراءات الشاذّة ؟

العلّامة : إنَّ القرّاء الذين تتواتر قراءتهم عن رسول الله هم سبعة ؛ لذا يقال لهم **القرّاء السبعة** ، وعرفت هذه القراءات بالمتواترة . مثل عاصم الذي يروي بواسطة واحدة عن أمير المؤمنين ، عن رسول الله ؛ ويروي آخر عن أُبي مثلاً ؛ وآخر عن ابن مسعود .

وبالطبع فحين تقلّ الوسائط ، فإنَّ الرواية تصل إلى رسول الله أسرع .

أمّا القراءات **الشاذّة** فهي القراءات التي أخذها الأساتذة عن القرّاء فجعلوها ملاك قراءتهم . والقراءات الشاذّة كثيرة ، والمعروف منها ثلاث إذا أُضيفت مع تلك القراءات السبع المتواترة تصبح عشر قراءات ، هي القراءات العشر المعروفة .

إلّا أنَّ هناك روايات أُخرى غير هذه القراءات الثلاث الشاذّة تنقل قسماً من القراءات المختلفة ، وتُدعى تلك الروايات **الشاذّة غير المعروفة** .

وبطبيعة الحال فإنَّ هناك أفراداً يعدّون تلك الروايات الثلاث الشاذّة أو بعضاً منها متواترة ، لذا يزيد عدد روايات القراءات المتواترة لديهم عن سبع قراءات .

وأمّا عن جمع القرآن ، فحين وقعت حرب اليمامة في زمن أبي بكر وقُتل فيها ما يزيد على أربعمائة قارئ ، وكان يُحتمل إذا وقعت حرب أُخرى أو أكثر فُقتل فيها باقي الأفراد ، فإنَّ القرآن سيضيع تماماً ، إذ لم يكن القرآن قد دُوّن بعد . ولذا فقد كُلّف **زيد بن ثابت** في زمن أبي بكر بتدوين القرآن وجمعه ، فجُمع في ذلك الزمن ، ثمّ جاء زمن عثمان ، وكان

قد حصل اختلاف كبير في كيفيّة قراءة القرآن بسبب اختلاف القراءات ، فكتب **عبد الله بن مسعود** إلى عثمان يقول : أدرك القرآن فقد أشرف على الزوال لكثرة اختلاف القراءات واختلال وضع قراءته . فاستجاب عثمان لكلام ابن مسعود ونفّذه ، فأمر بالمصاحف المختلفة المخطوطة التي كانت تختلف بينها في القراءات ، فجيء بها بأجمعها إلى المدينة ، وكُدّست على بعضها في مكان واحد ، فصارت أشبه بالتلّ .

وكانت هذه المصاحف مخطوطة على ألواح الخشب وعلى جلود الغزال وعظام كتف البقر وعلى الورق ، وكان حجمها كبيراً ؛ فكدّست على بعضها وأُشعلت فيها النار .

ولذلك فقد امتنع ابن مسعود من تسليم مصحفه ، مع أنّه أوّل من كتب إلى عثمان عن أوضاع القرآن الوخيمة وطلب منه أن يُدرك القرآن ويفعل شيئاً حتّى يبقى هذا الكتاب الإلهيّ مصوناً من البلاء ، واستجابة لرسالته أمر عثمان بجمع المصاحف من البلاد المختلفة . وفي الواقع كان ابن مسعود هو المقترح والمحرّك الأساسيّ لهذا الموضوع . وفي ذلك الوقت لم يكن ابن مسعود في المدينة ، بل كان في أحد أعمالها ، فلمّا عاد إلى المدينة واطّلع على الأمر قال : إنَّ ما قلناه كان من أجل صون القرآن وحفظه والآن وقد وصل الأمر إلى إحراق المصاحف فالأمر أسوأ وأنكى . ولن أُسلّم مصحفي أو أدعهم يحرقونه .

وهكذا امتنع ابن مسعود عن تسليم مصحفه ، وأصرّ على موقفه إلى النهاية ، فقُتل بسبب ذلك وارتحل عن الدنيا .

لأنّه كان حين رجوعه إلى المدينة قد باحثَ عثمانَ وتكلّم معه في مجلسين أو ثلاثة ، أسمعه فيها كلاماً جارحاً تعييباً وتعييراً له ، لهذا كان عثمان منزعجاً منه .

وفي أحد الأيّام كان عثمان منهمكاً بالخطابة على المنبر فشرع ابن مسعود بانتقاد سيرته وسط جميع الحضور ، فغضب عثمان وأمر **جلاوزته** وعملاءه أن يجرّوه على وجهه إلى خارج المسجد ، وهكذا فعلوا حتّى أخرجوه فانكسرت إحدى أضلاعه خلال جرّهم إيّاه وسقط مريضاً إلى أن فارق الدنيا بسبب ذلك .

وقد أرسل عثمان هديّة خلال مرضه فلم يقبلها ، وأرسل إليه مالاً فردّه وقال : لست بحاجة ، لم تعطِه وأنا محتاج إليه ، وتعطيه وأنا مستغنٍ عنه ؟**!** وردّه بأجمعه .

وقال : لن أرضى ولن أدعكم تأخذون مصحفي وتحرقونه .

ومن المعلوم أنَّ المعوّذتين (سورة **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** وسورة **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**) لم تكونا في مصحف ابن مسعود ، فقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنّهما لم تكونا في مصحفه . وكان ابن مسعود يعتقد بأنّهما ليسا من القرآن ، وكان يرى أنّهما **عوذتان** جاء بهما جبرائيل من السماء حين مرض **الحسنان** عليهما السلام ليُعَوَّذا بهما ، أي لتعلّق عليهما وتُقرءا لهما ليشفيا ، فعُلِّقتا عليهما وتحسّنت حالتهما .

وكان عثمان يقول بأنَّ المصاحف يجب أن تحرق لمصلحة المسلمين ، بينما كان ابن مسعود يقول بأن لا وجود لمثل هذه المصلحة في إهانة القرآن ، وإحراق كتاب الله بهذا الشكل . فقد كان أسهل وأيسر أن يجري دفن هذه المصاحف في أرض طاهرة ، أو وضعها في مكان مقدّس ، أو إغراقها في الماء .

هذه هي روايات الشيعة في هذا المجال ؛ أمّا روايات العامّة فتقول بأنَّ المصاحف لم تُحرق ، بل وُضعت في قدر ماء يغلي فطُبخت حتّى مُحيت الحروف والكلمات المخطوطة على العظام والألواح والأوراق .

وقد ورد في أحد التواريخ ، ولعلّه «تاريخ اليعقوبيّ» (لا أتذكّر الآن جيّداً) أنَّ أمير المؤمنين سلام الله عليه لم يخرج من منزله بعد ارتحال الرسول الأكرم ، فذهب إليه عدّة من وجوه الصحابة واستفسروا منه عن سبب عدم خروجه وعدم ذهابه إلى المسجد والالتحاق بجماعة المسلمين . فقال بأنّه أقسم أن لا يضع رداءه على عاتقه حتّى ينظّم القرآن ويجمعه ، وينظّم ويرتّب تفسيره وتأويله . وأنّه محبوسٌ هناك برّاً بِقَسَمِهِ .

ودام الأمر ستّة أشهر ؛ نظّم الإمام فيها القرآن ورتّبه حسب ترتيب نزوله ، بحيث كان أوّله سورة **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ** ، وآخره آخر سورة نزلت على رسول الله كسورة المائدة . وبالطبع فإنَّ سورة البقرة ـ وهي سوة مدنيّة ـ ستكون في آخر القرآن .

ومن مزايا هذا المصحف وخصائصة بالإضافة إلى ترتيب السور والآيات حسب نزولها فإنَّه راعى شأن نزول الآيات والسور ، وأوضح وقت نزول كلّ الآيات والسور وشخّص سبب نزولها ، وأوجد الامتياز بين السور التي نزلت قبلاً أو بعداً ، فاحتلّت هذه السور موضعاً بين بداية القرآن وآخره ، أي في وسط القرآن .[1]

والخلاصة ، فقد نظّم أمير المؤمنين عليه السلام المصحف بهذه الكيفيّة والصورة ، حتّى أنّه أوضح بعض الجوانب التفسيريّة والتأويليّة . وبعد ستّة أشهر أتمّ هذا العمل وهيّأه ، فحمله على بعير وجاء به إلى المسجد ، حيث كان الصحابة يتواجدون ، فقال لهم : هذا قرآنكم ، جمعتُه

١ـ يروي المرحوم الشيخ الطبرسيّ في تفسير «مجمع البيان» ضمن تفسير سورة الدهر «هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ» عدّة أحاديث في كيفيّة نزول سور القرآن ، منها عن أبي القاسم الحسكانيّ ، ويعدّ سور القرآن بترتيب نزولها واحدة فواحدة . (تفسير «مجمع البيان» ج ٥ ، ص ٤٠٥ ، طبعة صيدا) .

وجئتُ به . فلم يردّوا عليه ، فعاد عليه السلام بالبعير إلى المنزل ، ولم يُعرف أيّ خبر عن ذلك القرآن بعد ذلك .

هذه حصيلة ما جاء في روايات العامّة ؛ أمّا ما ورد في روايات الخاصّة فهو أنَّ الإمام حَمَل القرآن على بعير فجاء به إلى المسجد وقال : هذا هو قرآنكم ؛ فقالوا : لا حاجة لنا بقرآنك ! ولم يسألوه عنه بعد ذلك ولم يعقب الإمام عليه السلام على الأمر ، ولوى زمام البعير فأعاده إلى المنزل وقال : لن تشاهدوا هذا القرآن إلى يوم القيامة .[1]

بلى ، لقد كان شأن النزول مشخّصاً إلى حدّ ما في ذلك القرآن ، وكان يظهر إلى حدّ ما أين مكان الآية الفلانيّة ، وأنّها تلي الآية التي قبلها في النزول وتسبق الآية التي بعدها . ويبدو أنَّ هذه المسائل كانت واضحة فيه . ويبدو أنّهم منهمكون في مكّة والمدينة بكتابة تفسيرين للكتاب بحسب النزول ، وقد شاهدتُ قسماً من ذلك التفسير ، إلّا أنَّ هناك إشكالاً في نفس الروايات الموجودة لدى العامّة ، والتي ذكر فيها شأن النزول ، فقد جاءت ثلاث روايات في شأن النزول من طرق العامّة تختلف كلّ منها مع الأُخرى ، ولكلّ منها كلام خاصّ يشكّل اختلافاً آخر بينها .

والخلاصة فإنَّ كيفيّة تنظيم مصحف أمير المؤمنين عليه السلام مدوّن في «تفسير اليعقوبيّ» (وقد نسيت أن أقول لأحد المفسّرين ، تفسير في جزء واحد ، وفي تأريخه قدر من مطاعن عثمان ومعاوية وغيرهما) .

التلميذ : ما السبب في عدم مجيء اسم أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن ؟

العلّامة : لو ورد اسمه في القرآن لحُذف وغُيّر ؛ هكذا كان يجيب

١ـ ما ورد من كلامه عليه السلام نقلناه بالمعنى لا بالنصّ ، لذا اقتضى التنويه.(م)

عليه السلام ؛ أمّا القرآن الذي جمعه **زيد بن ثابت** في زمن أبي بكر ، فحاوٍ لجميع القرآن بلا شكّ ، لم تنقص منه كلمة ولم تُزَد فيه كلمة . والقول بتحريف القرآن لا اعتبار له .

وذلك لأنَّ حجّيّة الآحاد التي وردت في التحريف موقوفة على حجّيّة قول الإمام الذي يذكر تلك الأخبار ؛ وحجّيّة قول الإمام موقوفة على حجّيّة قول رسول الله الذي عرّف الإمام كوصيّ وخليفة معصوم ؛ وحجّيّة قول رسول الله موقوفة على حجّيّة القرآن الذي عرّف رسول الله كمعصوم ونبيّ وإمام ووليّ . ولو قلنا بنقصان أو زيادة حرف واحد في القرآن الكريم ، لسقط جميع القرآن من حجّيّته ، ولاستتبع سقوط هذه الحجّة إسقاط حجّيّة أخبار التحريف .

إنَّ القرآن الكريم حجّة بالإجماع ، وقد استشهد الأئمّة عليهم السلام بآيات القرآن واستدلّوا بها في كثير من الموارد وقالوا بحجّيّتها ؛ ولا يوجد أيّ تردّد وشكّ في هذه المسألة أبداً .

وحين وقعت حرب اليمامة في زمن أبي بكر فقُتل فيها سبعين أو أربعمائة قارئ ، جاء عمر إلى أبي بكر وأصرّ عليه بجمع القرآن وقال : إنَّ القرآن اليوم في صدور قرّاء القرآن فقط ، فإن وقعت حرب أُخرى فقُتل فيها من القرّاء عندئذٍ سيرفع القرآن عن الأرض ويضيع . فيجب جمع القرّاء وتصحيف القرآن حتماً ، أي جعله بين جلدين وحفظه بين الدفّتين .

لذلك كُلّف زيد بن ثابت بتدوين القرآن ، وعيّنوا خمسة وعشرين قارئاً من المهاجرين ومثلهم من الأنصار ، فكلّ من يأت بآية مع شاهدين عادلين قُبلت منه تلك الآية .

وعليه ، فإنَّ هذا القرآن المشهود بكيفيّته الحاليّة قد جُمع وصُحّف في زمن أبي بكر ، والأئمّة عليهم السلام أمروا بالإجماع بأن يقرأ القرآن

بتلك الكيفيّة والترتيب ، كما كانوا أنفسهم يقرأونه بذلك الترتيب ، وكذلك أصحابهم .

وكانت كلّ آية ترد تدوّن في هذا القرآن المصحّف ، فإن وردت مرّتين أو ثلاثاً ـ مثلاً ـ دُوّنت في موضعين أو ثلاثة مواضع ، إلّا سورة فاتحة الكتاب التي نزلت ـ بإجماع المسلمين ـ على النبيّ الأكرم مرّتين ، لكنّها دُوّنت مرّة واحدة . والظاهر أنَّ سورة التوحيد كذلك ، بدورها نزلت مرّتين فدوّنت مرّة واحدة .

نعم وكما ذكرنا ، فإنَّ القول بتحريف القرآن لا اعتبار له ، لأنَّ هذا القول مرهون بحجّيّة أخبار التحريف ، وحجّيّتها مرهونة بحجّيّة قول الإمام ورسول الله ، وعلى حجّيّة القرآن في النهاية . فالعمل بمفاد أخبار التحريف التي تسقط حجّيّة القرآن سيوجب إسقاطها هي بنفسها من الاعتبار ، أي أنَّ ثبوتها يستلزم عدم ثبوتها ، لذا فإنَّ العمل بها مستحيل .

نعم ، من الممكن وقوع تغيير مواضع بعض الآيات ، لكنَّ تغيير محلّ الآيات أمر ، والتحريف أمر آخر .

وبحسب الظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ هناك موضعين في القرآن لا أشكّ في تغيير موضع الآية فيهما . كما يمكن أن نقول في مواضع أُخرى بأنَّ محلّ الآية لم يغيّر ، وأن نبرّر ذلك . أمّا في هذين الموضعين فلا يمكن التبرير أبداً .

الموضع **الأوّل** في سورة المائدة ، **والآخر** في سورة الأحزاب . أمّا في سورة المائدة فالآية الكريمة القائلة :

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾.

حيث يظهر من الشواهد التي جمعناها ، ومن الخصائص الموجودة

في هذه الآية وفي الآيات التي سبقتها والتي تليها ، أنـّها تشير ـ دونما شكّ ـ إلى حصول تغيير وتبديل في ذلك الموضع وإلى إبدال موضع الآية .

فقد وضعوا هذه الآية بعد محرّمات الأكل بين المستثنى وجملة المستثنى منه من أجل أن يختلط الأمر في معنى البحث ، فيخال المرء أنَّ المراد الذي يئس فيه الكفّار من التعرّض لدين المسلمين ، واليوم الذي يجب أن يخشى المسلمون فيه الله ، والذي اكتمل فيه دين الإسلام ، وتمّت فيه عليهم النعمة ، واليوم الذي ارتضى فيه الله الإسلام للمسلمين ديناً ، هو اليوم الذي حُرِّمت فيه الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها !

وللتوضيح فإنَّ مسألة محرّمات الأكل قد تطرّق إليها البحث في مواضع أربعة من القرآن الكريم في سياق ولحن وصورة واحدة ، فذكرت موارد الاستثناء تلو كلّ واحد من الموارد الأربعة ، بأنَّ المضطرّين عند الضرورة يمكنهم التناول من هذه الموارد المحرّمة .

أمّا في هذا الموضع فقط ، فقد وقعت هذه الآيات بين جملة المستثنى منه (أي محرّمات الأكل المذكورة) وبين الجملة الاستثنائيّة ، دون أن يكون لها ارتباط أو إفادة لمعنى واضح ؛ بحيث تتبيّن مسألة تغيير موضع هذه الآية بجلاء من مقارنتها بالآيات الثلاث الأُخرى .

أمّا تلك الجمل الاستثنائيّة الأربع التي ذُكرت بعد محرّمات الأكل ، فهي كالآتي :

١ ـ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .**

٢ ـ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .**

٣ ـ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .**

٤ ـ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .**

وقد وردت هذه الجمل الاستثنائيّة الأربع ـ كما هو ملاحظ ـ في صورة

واحدة وسياق واحد ، وجاءت أُولاها في سورة البقرة بهذه الكيفيّة بعد الآية الآتية :

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[1]

وجاءت الثانية في سورة الأنعام بهذه الكيفيّة بعد هذه الآية :

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[2]

وجاءت الآية الثالثة في سورة النحل بهذه الكيفيّة بعد هذه الآية :**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.**[3]

وجاءت الرابعة في سورة المائدة بهذه الكيفيّة :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[4]

وكما يلاحظ من مقارنة هذه الآيات مع بعضها ، فإنّه أورد جملة

١ـ الآية ١٧٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٤٥ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٣ـ الآية ١١٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

٤ـ الآية ٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

الاستثناء في الآيات الثلاث الأُوَل بعد بيان محرّمات الأكل مباشرة ، فذكر فيها الاستثناء .

أمّا في هذه الآية ، فمع أنَّ الجملة الاستثنائيّة هي نفس الجملة الاستثنائيّة في سائر الآيات ، وكان ينبغي أن يأتي بعد جملة المستثنى منه وتذكر بلا فاصلة ؛ ولكن هنا جاءت جملة **ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ** وفصلت بين جملة المستثنى منه وهذه الجملة الاستثنائيّة . ومن الواضح جدّاً أنَّ هذه الجملة التي تختصّ بالولاية والمتضمّنة لتلك المفاهيم العالية والمحتوى الراقي قد وضعوها ذلك الموضع حتّى يختلط الأمر في معنى البحث وتسقط من أفكار الناس ولا يحقّقوا في مفهومها ومحتواها ، وليخال إليهم أنَّ آية الولاية هذه الدالّة على إكمال الدين وإتمام النعمة ، والتي اكتمل بواسطتها النقص في الإسلام ، فصار جديراً أن يرتضيه الله ديناً ، أنّها عائدة إلى أُمور عاديّة من قبيل مراودة الكفّار وحلّيّة طعامهم للمسلمين وحلّيّة طعام المسلمين لهم وأمثال ذلك .

وأمّا الموضع الثاني الذي يظهر أمر تغييره بوضوح ،فهو آية التطهير الواردة في سورة الأحزاب :

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

وهذه الآية قد وضعت بدورها موضعاً حيث لا يربطها علاقة بأيّ وجه من الوجوه مع ما قبلها وما بعدها ، لأنَّ ما قبلها يختصّ بنساء رسول الله وما بعدها أيضاً يختصّ بنساء رسول الله .

وقد حُشرت هذه الآية بين هذه الآيات بالرغم من أنّها تختصّ بأهل بيت رسول الله من أجل أن يشتبه الأمر . ومجموع الآيات هي :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ

وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ـ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ـ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا. [1]

حيث لم يرد لأهل البيت ذكرٌ هنا ، ولم تبيّن لهم أوصاف ، ليخاطبهم الله تعالى ويطهّرهم من كلّ رجس ودنس . بل إنَّ الآيتين تتحدّثان عن **نساء النبيّ** (زوجاته) فقط .

الأُولى آيـة : **يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** .

والآية الثانية التي تتبعها : **وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا.**

وكلتاهما عائدتان إلى نساء النبيّ (أي أزواجه) وما أُعطي لهنّ من تكاليف ، والضمائر راجعة بأجمعها إليهنَّ ، أي ضمائر جمع المؤنّث المخاطب ، مثل : **لَسْتُنَّ** ، **ٱتَّقَيْتُنَّ** ، **تَخْضَعْنَ** ، **وَقُلْنَ** ، **وَقَرْنَ** ، **بُيُوتِكُنَّ** ، **تَبَرَّجْنَ** ، **أَقِمْنَ** ، **ءَاتِينَ** ، **أَطِعْنَ** ،**ٱذْكُرْنَ** . بينما نلاحظ وسط الآية الثانية أنَّ لحن الخطاب يتغيّر فتجيء جملة غير مناسبة راجعة إلى أهل بيت رسول الله ، بحيث إنَّ ضمائرها من جمع المخاطب المذكّر ، مثل : **عَنكُمُ** و **يُطَهِّرَكُمْ** ؛ تماماً كمثل وصلة غير مناسبة ، بحيث تبيّن بوضوح عدم ارتباطها بالآية التي قبلها والآية التي بعدها ، وتبيّن أنَّ محلّ هذا

١ـ الآيات ٣٢ إلى ٣٤ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

الخطاب ليس هذا الموضع . بيد أنّهم جاءوا بها هنا ليصرفوا أذهان العامّة ـ بواسطة الالتباس ـ إلى أزواج رسول الله ، وليُلصقوا بهنّ حسنة التطهير وفقدان الرجس . ونتيجةً لحشر هذه الإضافة صارت الآية الثانية آيتين ، فقد جعلوها آية إلى **وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ، وآية أُخرى إلى **لَطِيفًا خَبِيرًا** ، وجعلوا الآيات الثلاث عائدة بأجمعها إلى **نساء النبيّ** .[1]

التلميذ : هل يلوح في خاطركم كتاب مفصّل يتحدّث عن تأريخ

١ـ جعل آية الله السيّد عبد الحسين شرف الدين العامليّ في كتاب «الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء» المطبوع مع كتاب «الفصول المهمّة» ص ٢١٣ و ٢١٤ ، الطبعة الثانية ، أحد أجوبته هو أنَّ آية التطهير استطراديّة وردت بين آيتين . فيقول :

إنَّ الكلام البليغ يدخله الاستطراد والاعتراض ، وهو تخلّل الجملة الأجنبيّة بين الكلام المتناسق، كقوله تعالى في حكاية خطاب العزيز (عزيز مصر) لزوجته إذ يقول لها : **إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ، يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ** ؛ فقوله : **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا** مستطرد بين خطابيه معها كما ترى .

ومثله قوله تعالى : **إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ** . فقوله : **وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ** مستطرد من جهة الله تعالى بين كلام بلقيس .

ونحوه في قوله عزّ من قائل : **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ** . تقديرة : **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ** ؛ وبينهما استطراد على استطراد ، وهذا كثير في الكتاب والسنّة وكلام العرب العاربة وغيرهم من البلغاء.

وآية التطهير من هذا القبيل جاءت مستطردة بين آيات النساء ، فتبيّن سبب استطرادها أنَّ خطاب الله لهنّ بتلك الأوامر والنواهي والنصائح والآداب لم يكن إلّا لعناية الله تعالى بأهل البيت (أعني الخمسة) لئلّا ينالهم ـ ولو من جهتهنّ ـ لومٌ ، أو يُنسب إليهم ولو بواسطتهنّ هناة ، أو يكون عليهم للمنافقين ـ ولو بسببهنّ ـ سبيل . ولولا هذا الاستطراد ما حصلت هذه النكتة الشريفة التي عظمت بها بلاغة الذكر الحكيم وكمل بإعجازه الباهر كما لا يخفي .

القبلة وتغييرها ووضع المصلّين عند تغيير القبلة ؟

العلّامة : هناك كتابان بسطا الكلام في هذه المسائل ، أحدهما «تاريخ مكّة» والآخر «تاريخ الحرمين» (أي مكّة والمدينة) ؛ وأحدهما كتاب حسن جدّاً يذكر وضع الكعبة وجميع الوقائع التي حصلت في مكّة ، ويبيّن مطالب نفيسة جدّاً عن المدينة والقبلة وكيفيّة تغييرها . وكنتُ قد طالعت قسماً منه خلال سفري الأوّل الذي تشرّفت فيه بالذهاب إلى مكّة . وقد نقلتُ مختصراً منه في الجزء الأوّل من التفسير ، في أمر تغيير القبلة في سورة البقرة ، إلّا أنّني كنت مسافراً فلم أتمكّن من مطالعته كاملاً ، كما لم أُوفّق في سفري الأخير من الحصول عليه وإحضاره .

التلميذ : لقد كان المسلمون يصلّون في بدء الإسلام باتّجاه **البيت المقدّس** ، فهل كان ذلك بناء على تعيّن البيت المقدّس قبلة لهم أم تبعاً لسائر الأديان التي كانت القدس **قبلتهم** ؟

العلّامة : من المسلّم به أنَّ دأب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما كان يصلّي في المسجد الحرام المراعاة بأن تكون الكعبة والقدس أمامه في آنٍ واحد . أي أنّه كان يقف باتّجاه الكعبة بحيث تكون القدس أيضاً قبلة له .

أمّا بعد الهجرة إلى المدينة فقد اختلف الأمر ، وكانت صلاة رسول الله والمسلمين باتّجاه بيت المقدس ، حتّى اعترض عليهم اليهود وعيّروهم بأنّهم لا يمتلكون قبلة لهم ، وقالوا كذا وكذا ، حتّى نزلت في النهاية آيات القبلة ، وفي الحقيقة أنَّ إقامة الصلاة باتّجاه القبلة يمثّل ركناً حسناً من أركان الإسلام .

* * *

التلميذ : ماذا لدينا من دليل قطعيّ على تحريف العهدين بلحاظ

الشواهد التأريخيّة المسلّمة ؟

العلّامة : إنَّ القرآن الكريم يصرّح بأنَّ اليهود والنصارى قد حرّفوا العهدين ، وبالطبع فإنَّ الإنجيل والتوراة لم يُحرّفا بأجمعهما ، بل إنَّ قسماً منهما قد حُرِّف ، لأنَّ القرآن ينصّ على أنَّ العهدين ليسا محرّفين بأجمعهما ، بل إنَّ هنالك مطالب صحيحة فيهما .

ثمَّ إنَّ القرآن يُحاجج اليهود والنصارى في كثير من المسائل بالتوراة والإنجيل الفعليّين ، ويدعوهم إلى المحاججة بهما . كما أنَّ لدينا شواهد تأريخيّة على هذا المعنى ؛ وهناك في نفس التوراة والإنجيل إشارة إلى أُمور تُظهر التحريف بجلاء .

التلميذ : هل نزلت التوراة على النبيّ موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام في تلك الليالي الأربعين ، لمّا جاء لميقات ربّه للمناجاة ؟ ومن أيّ شيء كانت الألواح التي كتبت التوراة عليها ؟ وأين يقع جبل الطور ؟

وكيف كان نزول الإنجيل ؟ وهل كتب حواريّو عيسى الأناجيل في عصره أم بعده ؟ وهل كانوا بأجمعهم من الأخيار الصالحين أم لا ؟

العلّامة : ليس واضحاً تماماً إن كانت التوراة قد نزلت على موسى في ليالي المناجاة تلك ، لكنَّ من الثابت أنَّ التوراة كانت ألواحاً أُنزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور في أربعين ليلة ، فأخذها موسى وأتى بها قومه . ولأنّه كان غاضباً عليهم ، فقد ألقى بالألواح فتحطّم بعضها ، وكانت بأجمعها من الزمرّد . أي أنَّ الله تعالى خلق تلك الألواح الزمرّديّة من كتم العدم .

ويوجد في التوارة مطالب عن المقاطع التأريخيّة والقصص والحكايات والوقائع ممّا لا يمكن نسبته إلى كتاب سماويّ ، وفيها أشياء في منتهى الغرابة .

أمّا الإنجيل فقد طالته أيدي التحريف أقلّ ممّا طالت التوراة . ولقد نزلت التوراة على موسى في جبل الطور ، وهو جبل في صحراء سيناء . ومن المسلّم أنّها نزلت في ذلك الجبل وفي تلك الصحراء . وتقع صحراء سيناء إلى الجانب الأيمن من البحر الأحمر بالنسبة إلى المسافر الذاهب إلى مكّة بالباخرة عن طريق البحر .

وقد نزلت التوراة بأجمعها خلال الأربعين يوماً ، فجمعها موسى وجاء بها قومه فلم يمتثل لها أغلبهم ، فرفع الله سبحانه **الطور** فوق رؤوسهم معلّقاً في الهواء لتأديبهم .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .[1]

وكانت الغاية من تعليق جبل الطور لأجل تأديبهم وتخويفهم حتّى يسجدوا ويسلّموا للحقّ ؛ فسجد بعضهم وقالوا القول الحقّ الذي قيل لهم ، وقال بعضهم كلاماً آخر .

كان وصيّ موسى أخاه هارون في البداية ، لكنّه رحل عن الدنيا قبل موسى في التيه ، فجعل موسى اليسع وصيّاً له .

وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ .[2]

أمّا فيما يتعلّق بوضع نزول الإنجيل فالأمر أكثر إبهاماً ، لأنّه لم يتّضح بالتحديد كيف نزل الإنجيل على عيسى عليه السلام ، هل بطريقة الوحي السماويّ حتّى يكون كتاباً ؛ أو أنّه كان من تلقين عيسى عليه السلام ، أو

١ـ الآية ٩٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٣٨ : ص .

أنـّه كان على نحوٍ آخر ثمّ جُمع كتاباً .

أيّاً كان ، فمن المسلّم به أنَّ جميع الأناجيل قد كـتبت بـعد عـيسى ، فكُتب بعد صعوده مائة وعشرون إنجيلاً عُدَّت أربعة منها مـعتبرة ، أي أنَّ الكنيسة اعترفت برسميّتها ، وهي الأناجيل التي دوّنها **لُوقَا** و**يُوحَنَّا** و**مرْقِس** و**متَّى** ؛ وأمّا الأناجيل المائة والستّة عشر الباقية فقد أُسقطت من الاعتبار ، وهي إلى الآن مرفوضة ولا يعمل بها .

أمّا عن كيفيّة تدوين الإنجيل وأيّ الأجـزاء قـد دخـلت عـليه فأمـر ليس واضحاً أبداً ؛ وحتّى بين المسيحيّين فليس هناك في الواقع كـلام فـي كيفيّة إنجيلهم وكيفيّة نزوله ، وكيفيّة انتشاره بين الناس .كما لا توجد فـي كلماتهم دلالة على أنَّ الإنجيل كان من إنشاء المسيح نفسه .

وقد ظهر إنجيل **بَرْنابا** فأثاروا ضجّة كبيرة بشأنه حـتّى أسـقطوه مـن الاعتبار في النهاية ، لأنـّه يتّفق مع المسائل الإسلاميّة والقرآنيّة في كثير من الأقسام ، وفيه بشارة عن قدوم النبيّ **محمّد** صلّى الله عليه وآله وسلّم .

أمّا **الحواريّون** فهم أنصار عيسى وخاصّة أصحابه ، وقد دعـاهم اللـه تعالى للإيمان ، فكانوا أنصار الله :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّــنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَهِ.[1]

وقد ورد ذكر الحواريّين في مواضع عـديدة مـن القـرآن الكـريم ، أحدها الآية التي ذُكرت ، وهذه الآية من سورة آل عمران :

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَهِ ءَامَنَّا بِٱللَهِ وَٱشْهَدْ بِأَنـَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَآ ءَامَنَّا

١ـ الآية ١٤ ، من السورة ٦١ : الصفّ .

بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ. [١]

وهذه الآية من سورة المائدة :

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـــنَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. [٢]

قيل إنَّ جميع الحواريّين كانوا من الصالحين الطيّبين إلّا واحداً منهم دلَّ أعداء المسيح عليه عندما كانوا في صدد البحث عنه ، فجاءوا للقبض عليه إلّا أنّه عرج إلى السماء ورُفِع من بين الناس تماماً .

وكان مجموع الحواريّين اثنى عشر ، تبيّن انحراف أحدهم ، أمّا الباقون فبقوا ثابتين على سيرة المسيح ونهجه ، وصمّموا بأجمعهم أن لا يتّخذوا أزواجاً لهم وذلك متابعة لنهجه ، وأن لا يتّخذوا لهم مكاناً ولا مسكناً ، ولا يُقيموا في مدينة ؛ بل يجولون من مدينة إلى أُخرى ومن قرية إلى أُخرى في مهاجرة دائمة للتبشير ودعوة الناس لدين السيّد المسيح عليه السلام ونهجه ، منتهجين الرهبانيّة والاعتزال . ومع أنَّ الله لم يشرّع الرهبانيّة ، إلّا أنّه ارتضاها .

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ. [٣]

بَيدَ أنّهم لم يراعوا شرائط الرهبانيّة وآدابها كما ينبغي أن تكون ،

١ـ الآيتان ٥٢ و ٥٣ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآيتان ١١١ و ١١٢ ، من السورة ٥ : المائدة .

٣ـ الآية ٢٧ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

ولم يحافظوا على القيام بها كما يجب .

نعم ، لقد أنجز الحواريّون دعوتهم ونشروها وأرسوا أُسسها وأقاموا دعوة كاملة شملت العالم .

التلميذ : هـل **عدم زواج** السيّد المسيح عـليه السـلام دليـلاً عـلى النقصان ؟

العلّامة : ليست دليلاً على النقصان ، بل هي دليل على نورانيّة النـبيّ عيسى عليه السلام وروحانيّته ، لأنّه لم يرتبط بهذه النشأة أبداً ، فلم يتزوّج ولم يتّخذ له مسكناً ولا بيتاً ؛ لقد كان بحدّ ذاته موجوداً خاصّاً .

أمّا الرسول الأكرم فكانت له الجامعيّة والشمول ، إذ كان جامعاً لكلّ آثار وخصائص هذه النشأة بنحو أوفى ، وخاصّةً وأنَّ سنّة الزواج هي مـن مختصّات رسول الله .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. [1]

التلميذ : ما أفضل كتاب يفصّل أحوال موسى وعيسى على نبيّنا وآله وعليهما السلام بالأدلّة والشواهد التأريخيّة بنحو مسند واستدلاليّ ؟

العلّامة : لعلّه ليس هناك كتاب بهذه المواصفات .

* * *

التلميذ : تبعاً للشواهد التأريخيّة القطعيّة فإنَّ الكثير من الأنبياء ، مثل موسى وعيسى واليسع ويونس وداود وسليمان كانوا من ذرّيّة إبـراهـيم ، [2]

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ـ قال سماحة العلّامة قدّس سرّه في كتاب «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسـلام) ص ٨٩ : وقد ذكر القرآن فقط اسم عشرين ونيّف من الأنبياء ، وهم : آدم ، نوح ، إدريس ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، اليسع ، ذو الكفل ، إلياس ، يونس ، إسحاق ، يعقوب ، ⇦

وبما أنّه من المؤكّد أنّهم لم يكونوا من نسل إسماعيل ، لذا يجب أن يكونوا حتماً من نسل إسحاق . وباعتبار انحصار نسل إسحاق في يعقوب ، لذا يجب أن يكونوا بأجمعهم من نسل يعقوب ، ومن بني إسرائيل ، لأنَّ إسرائيل هو لقب يعقوب .

وهنا يأتي هذا السؤال ، لماذا وضع نسل النبوّة في **يهودا** الأخ الأكبر للنبيّ يوسف وفي نسل إخوته ؟ إذ وفقاً لبعض الروايات الواردة فإنَّ الله تعالى رفع النبوّة من نسل يوسف لتركه الأَوْلى (لأنّه عندما أصبح ملكاً وتربّع على العرش ، دخل عليه أبواه وإخوته قادمين من كنعان ، فلم يقف لهم ؛ أو أنَّ أباه يعقوب أراد ركوب فرسه فسبقه يوسف في الركوب) .

أليست معصية إخوته أعظم من ذلك وقد ألقوه في الجبّ ، وكانوا السبب في ابتلاء أبيهم العجوز بالحزن على فراقه ؟

العلّامة : حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ ؛ فلعلّ ذلك الترك للأَوْلى من قِبَلِ يوسف مع ما له من مقام معنويّ ومنزلة إلهيّة خاصّة ، أعظم وأهمّ من جرم إخوته عندما رموه في الجبّ ؛ هذا **أوّلاً** .

وثانياً : إنَّ يوسف كان من المخلَصين بنصّ القرآن ،[1] والذنب غير متصوّر من قِبَلِ المخلَصين ؛ لذا يمكن ـ استناداً إلى هذه الآية

⇦ يوسف، شعيب ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ، أيّوب ، زكريّا ، يحيى، إسماعيل صادق الوعد، عيسى ، ومحمّد صلّى الله عليهم أجمعين .

وهم الأنبياء الذين ذكروا بالاسم ؛ وأشار إلى جماعة كمثل الأسباط في سورة النساء، الآية ١٦٣ ، ومثل النبيّ الذي صار طالوت بإشارته ملكاً لبني إسرائيل (سورة البقرة ، الآية ٢٤٦)؛ والنبيّ الذي أُشير إليه في سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ ؛ والأنبياء الذين أُشير إليهم في سورة يس ، الآية ١٤ .

١ـ الآية ٢٤ ، من السورة ١٢ : يوسف : **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ** .

القرآنيّة ـ رفض تلك الروايات وعدّها مختلقة بأجمعها .

* * *

التلميذ : أصحيح ما يقوله البعض بأنَّ **إفلاطون** لم يقبل بشريعة عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام وقال : إنّها شريعة لضعفاء العقول ، ولا يمكنني أن أرضخ لها لأنّي اتّصلت بالحقيقة . فهل ذلك صحيح أو مُختلق ؟

العلّامة : هذا الأمر عارٍ عن الصحّة ، فقد عاش إفلاطون قبل السيّد المسيح بخمسمائة سنة ، إذ كان أُستاذاً لأرسطو ؛ وكان أرسطو أُستاذاً للإسكندر المقدونيّ ووزيراً له ؛ وزمان الإسكندر المقدونيّ مدوّن في التأريخ .

وإفلاطون هو صاحب حكمة الإشراق ، وكان رئيساً لسلسلة الرواقيّين ، وكان يحصل له انكشاف للحقائق والمعارف الإلهيّة بواسطة الرياضات والمجاهدات الباطنيّة عن طريق تصفية الباطن .

و**أرسطو** هو نفسه **أرسطوطاليس** (حيث اعتقد البعض خطأً أنّه غير أرسطوطاليس هذا ، وليس لدينا أحداً في التأريخ والحكمة غير أرسطو) وهو صاحب مدرسة المشّائين ، ولم يكن يعتمد على الباطن أبداً ، بل بنى مسائله الحكميّة على أساس البرهان فقط .

ولقد قام **الإسكندر** بعد فتحه بلدان الشرق ببناء ميناء الإسكندريّة في مصر ، وأسّس مدرسة هناك ، فتصدّى تلامذة إفلاطون للتدريس فيها . وقد دُعيت مدرستهم بالمدرسة **الإفلاطونيّة الحديثة** ، لأنّها تشكّلت من بعض أُسس إفلاطون المقترنة بملحقات أُخرى معها .[1]

١ـ ذكر الشيخ الطنطاويّ في تفسير «الجواهر» ج ٢٣ ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥ ، الطبعة ⇦

وقد بقيت هذه المدرسة إلى زمن الإسلام ، ثمّ سقطت في عهد حكومة عمر حين قام بفتح الإسكندريّة .

⇐ الثانية، ١٣٥٠هـ ، مطبعة مصطفى البابيّ ، في تفسير الآية ٥٠ ، من السورة ٥٤ : القمر: «**وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ**» مطلباً بالمناسبة نورده هنا:

[وهذه الآية] تكميلٌ لما تقدّم [في سورة القتال] عند آية «**فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**» ، فقد ذكرت هناك رأي إفلاطون وفيه الكلام على المُثُل المسمّاة مثلاً إفلاطونيّة ، وأنَّ هذه المثل نبذها أرسطوطاليس بعده وقال ؛ إنَّ العلم لا يعتمد إلّا على ثابت ، ولاثابت إلّا المادّة وصورتها. وأنَّ الرواقيّين الذين جاءوا بعده وكان رئيسهم «زينون» في القرن الثالث قبل الميلاد ردّوا عليه كما ردّ هو على أُستاذه وقالوا : أنت لم تبيّن لنا كيف يكون ارتباط هذه المادّة بصانع العالم الذي أنت توقن به ، وما المناسبة بينهما . ثمّ إنَّك تقول : إنَّ المادّة مجرّد إمكان محض. وتقول : إنَّها تشتاق للصورة ! وهذا كلام لا دليل عليه ، لأنـّها إذا كانت مجرّد إ مكان، فأين عشقها للصورة الذي تدّعيه ؟ وهل هي تعقل ؟

فلمّا رأى ذلك الرواقيّون وبعدهم العلماء الذين جاءوا بعد الميلاد ، وهم الفرع الإسكندريّ ، والفرع الشاميّ ، والفرع اللاتينيّ ، نظروا في آراء الحكيمين (إفلاطون وأرسطو) فقومٌ منهم أكبّوا على العلوم الطبيعيّة كالطبّ ، وقوم أكبّوا على الرياضة ، وهؤلاء أكثرهم من الرواقيّين. ثمّ إنَّ هذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وفّقوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة، وإليهم يُنسب كلّما وصل إلى علماء الإسلام كابن سينا والفارابيّ والصوفيّة .

فهذه الحيرة التي وقع فيها القوم بعد الحكيمين سببها أنـّهما لم يوفّقا لانتهاج خطّة بها يصلون إلى الطريق التي بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إلهٍ لا صلةَ بينها وبينه. فلاإفلاطون قدر أن يبيّن ، ولا أرسطوطاليس كذلك ، وهما السبب في اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك .

وقد نقلت من كلام «الأُستاذ سنتلانه» المكتوب بخطّه في كتاب «تاريخ الفلسفة العربيّة» أنَّ حكماء أُوروبا لم يبرعوا في الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلّا ما كان من قبيل العلوم الجزئيّة، كالطبيعيّات والرياضيّات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ؛ أمّا العالَم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التي لأجلها وضعت الفلسفة ، والتي هي المقصود الأعلى لنوع الإنسان من أبحاثه ، فهم فيها ليسوا بالنسبة إلى سقراط وإفلاطون إلّا كنسبة البقّة إلى الفيل، وأنـّهم لو عرفوا ذلك مثل هذين الحكيمين لم يكونوا إلّا ملائكة .

وينبغي العلم أنّ كتاب «الأُثولوجيا» وهو كتاب مختصر مفيد على أساس حكمة الإشراق ، والذي يعدّه البعض لإفلاطون ، هو من تأليف **أفلوطين** أحد تلامذة هذه المدرسة (أي المدرسة الإفلاطونيّة الحديثة) ، ومن الخطأ أن يُنسب إلى إفلاطون .

وقد أسلم أحد تلامذة هذه المدرسة واسمه **ثاميطورس** في زمن الإسلام ، وصار يدعى بـ **يحيى النحويّ** .

* * *

نعم . وهنا تنتهي محاورات الحقير مع سماحة الأُستاذ العلّامة ، وبالطبع فقد كانت هذه المحاورات رسميّة ، وقد دوّنتها في كتاباتي تحت عنوان محاورات ؛ وأمّا ما استفدته من مجالس سماحة العلّامة وفي مناسبات متعدّدة فالكثير .. الكثيرَ ، كنت قد دوّنته أم لا ولكنّي أدرجته في مؤلّفاتي طبق الحاجة . **شَكَّرَ اللَهُ مَسَاعِيَهُ الجَمِيلَة وَحَشَرَهُ مَعَ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البَرِيَّةِ وَآلِهِ الغُرِّ الكِرَامِ حَسَنى السَّجِيَّة .**

وقد اختتمت هذه الرسالة في ذكرى العلّامة الطباطبائيّ مع المحاورات في هذه الليلة المصادفة لليلة الثالثة عشر من ربيع الثاني لسنة ألف وأربعمائة واثنتين هجريّة ، وللّه الحمد وله الشكر على هذا التوفيق الذي استغرق شهرين وثلاثة أيّام قضيتها في الذكر الدائم لهذا الأُستاذ العظيم وفي التفكير فيه ، وهي أفضل أيّام حياتي قرب هذا المكان المقدّس لأعتاب ثامن الحجج عليه آلاف التحيّة والإكرام ، مع الدعاء المستمرّ بالرحمة لروح فقيدنا الغالي ، وكلّما أُحاول أن أسحب عنان القلم أتوقّف وأقول بعض الكلمات أيضاً غنيمة !

یک امشبی که در آغوش شاهد شکرم
گرم چو عود بر آتش نهند غم نخورم

بــبند یک نــفس ای آسـمان دریـچهٔ صـبح
بر آفـتاب کـه امشب خـوش است بـا قـمرم
نـدانـم ایـن شب قـدر است یـا سـتارهٔ روز
تــوئی بــرابــر مــن یــا خــیال در نــظرم
بــدین دو دیـده کـه امشب تـرا هـمی بـینم
دریــــغ بــاشد فــردا کــه دیگــری نگــرم
روان تشــنه بــر آســاید از وجــود فــرات
مــرا فــرات ز سـر بـر گـرفت و تشـنه تـرم
چو مـی نـدیدمت از شـوق بـی خـبر بـودم
کـنون کـه بـا تـو نشسـتم ز ذوق بـی خـبرم
سخن بگوی که بیگانه پیش مـاکس نـیست
بــغیر شـمع و هـمین سـاعتش زبـان بـبرم[١]

١ـ من «كليّات سعدي» باب الغزل ، ص ٢١١ و ٢١٢ ، طبعة فروغي . يقول : «في هذه الليلة وأنا في أحضان الحبيب ولذّاته المعنويّة ... لو أحرقوني كالحطب فلن أحزن.

يا سماء للحظة اقفلي نافذة الصبح بوجه الشمس ليطول الليل ... فالليلة سعادتي مع قمري .

لا أعرف أهذه الليلة ليلة القدر أم نجمة الصبح ... أأنت من أرى أم خيالك يتراءى في نظري .

بهاتين الحدقتين الليلة أراك أنت بهما كلّ لحظة ... واحسرتاه كيف لغيرك أنظر بهما في الغد .

النفس العطشى ترتوي وتسكن بماء الفرات ... ولكنّي غرقت في الفرات ولم أرتوي .

عندما كنت لا أراك من شوقي إليك أجهل معنى الشوق ... والآن وأنا جالس معك من فرط السعادة أجهل معنى الذوق .

اروِلي حديث الغرام فلا غريب بيننا ... غير الشمعة والآن أطفيء لسان شعلتها».

وهنا أختم هذا الكتاب الشريف ببيانات العلّامة حين شرّفني بالحضور في منزلي لتناول طعام الغداء ، فقد تفضّل بالقول بعد الغداء : كنتُ في النجف الأشرف جالساً بعد صلاة الصبح في حال التفات وخلسة ، فاقترب منّي عليّ بن جعفر سلام الله عليهما حتّى كأنَّ أنفاسه تلفحني،وقال: «إنَّ أمر التوحيد في الوجود من أُصولنا المسلّمة أهل البيت» .[١]

١ـ كان العلّامة يترنّم بهذه الآية في كثير من الأوقات خلال المذاكرة : **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ** (الآية ٤٢ ، من السورة ٥٣ : النجم) .

وكان يقول في الشدائد والمحن : **وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ** (مقطع من الآية ١٨ ، من السورة ١٢ : يوسف).

وكان لا يردّ بالمثل على الذين كانوا يخاطبونه بالألفاظ المقذعة ، وينسبون إليه التهم القبيحة من أجل إسقاط نهجه العرفانيّ وأُسلوبه الحكميّ ، فكانت كلماتهم تطرق مسامعه فلا يسعى أبداً للردّ أو القيام بأيّ عملٍ للمواجهة أو المعارضة .

ومعلوم أنَّ أمثال هذه التهم كثيرة وجمّة في الحوزات العلميّة الجامدة التي لا تتعامل مع القرآن والتفسير والروايات والأخلاق العرفانيّة والحكمة العقلائيّة ، وبين الجماعات الذين جلسوا حول المائدة السوداء وانشغلوا بالتكالب على الحُطام وزيادة الشهرة والصيت والسمعة. فلقد هاجر العلّامة من تبريز وحطّ رحاله في الأعتاب المباركة للسيّدة المعصومة أُخت الإمام الرضا عليهما صلوات الملك المتعال من أجل إزالة هذه المعاني ، وهداية الشباب من الطلّاب إلى الأسرار الإلهيّة والحقائق والمعنويّات الدينيّة . ومن البيّن أنَّ البعض كانوا لا يستسيغون هذا النهج والأُسلوب والسبيل ، لذا فقد كانوا يحاولون إطفاء نوره وسحب بساط التفسير والحكمة والعرفان من الحوزة المقدّسة العلميّة ، متوسّلين بالتهم المموّهة المزوّرة، ليخدعوا بها عامّة الناس بأُسلوب ماهر وذكيّ خاصّ بهم أتقنوه وتمرّسوا فيه سنوات عمرهم .

وحين كانت هذه الأُمور والدسائس تصل إلى سمعه ، كان يقول :

وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (مقطع من الآية ٤٣ ، من السورة ٣٥ : فاطر). وهو تماماً معنى ومفاد الآية القرآنيّة الكريمة : **يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ** (الآية ٨ ، من السورة ٦١ : الصفّ) . ⇦

ثمّ قال : وما أبدع ما أنشد سعدي في قوله :

ره عــقل جــز پــيچ در پــيچ نــيست
بــرِ عــارفان جــز خــدا هــيچ نــيست
تــوان گــفتن ايــن بــا حــقائق شــناس
ولى خُـــــرده گـــيرند اهـــل قــياس
كـــه پس آســـمان و زمــين چــيستند
بـــــــنى آدم و دام و دَدْ كـــــــيستند
هــمه هــر چــه هستند از آن كـمترند
كــه بــا هســتيش نــام هســتى بــرند
عــظيم است پــيش تــو دريــا بـموج
بــلند است خــورشيد تــابان بـه اوج [١]

⇦ وكانت تصل إلى سماحة العلّامة رسائل عديدة مليئة بالسبّ والشتم والتهم والمختلقات الكاذبة والكلام الواهي الفارغ دون توقيع ، بحيث سمعنا بذلك وتصوّرنا أنّه لن يطالع بعدُ الرسائل التي لا تحمل توقيعاً .

وعليه، قلت له يوماً ـ عندما تشرّفت بالحضور عنده ـ : لقد وصل الأمر بسماحتكم ـ كما سُمع ـ بحيث إنّكم تفتحون الرسائل فتنظرون أوّلاً إلى محلّ التوقيع ، ثمّ تضعون جانباً الرسائل الخالية من التوقيع فلا تطالعونه أبداً .

فتبسّم بصفاء ، وقال : أُطالع جميع الرسائل ! ومع الأسف حتّى الرسائل التي لا تحمل توقيعاً أُطالعها أيضاً .

١ـ «كليّات سعدي» كتاب «بوستان» ص ١١٣ و ١١٤ ، طبعة محمّد علي فروغي.
يقول : «ليس طريق العقل إلّا متاهات في متاهات ، وللعارفين غير الله لا يوجد شيء.
هذا ما يمكن قوله للعارف بالحقائق ، أمّا أهل القياس فيعترضون (قائلين) ما هي ـ إذاً ـ هذه الأرض والسماوات ، وما البشر والحيوان والوحوش ؟
هي جمعاء ـ مهما كانت ـ أقلّ من أن يكون لها ـ مع وجوده ـ اسم الوجود.
عظيم لديك البحر بأمواجه ، وعالية لديك الشمس الساطعة في أوجّها» .

ولی اهــل صــورت کــجا پــی بــرند
کــه أربــاب مــعنی بــه مــلکی درنـد
کـــه گـــر آفــتابست یک ذرّه نــیست
و گر هفت دریاست یک قـطره نـیست
چـــو ســلطان عــزّت عــلم درکشــد
جــهان ســر بــجیب عــدم درکشــد[1]

وقال : ما أروع بيان الجيليّ في كتاب «**الإنسان الكامل**» :

أَلَا إنَّ الوُجودَ بلا مَحالِ ... خَيالٌ في خَيالٍ في خَيالِ
ولا يَقْظانَ إلَّا أَهْلُ حَقٍّ ... مَعَ الرحمَنِ همْ في كلِّ حالِ
وهُمْ مَتَفاوِتُونَ بِلا خِلافٍ ... فَيَقظَتُهُمْ عَلَى قَدْرِ الكَمالِ
هُمُ الناسُ المُشارُ إلى عُلاهُمْ ... لهمْ دونَ الوَرَى كلُّ التَّعالي
حَظوا بالذاتِ والأوصافِ طُرَّاً ... تَعاظَمَ شأْنُهُمْ في ذي الجَلالِ
فَطَوْراً بالجَلالِ على الْتِذاذِ ... وَطَوراً بالتَّلَذُّذِ بالجَمالِ
سَرَتْ لَذَّاتُ ذاتِ اللهِ فِيهِمْ ... لَهُمْ في الذاتِ لَذَّاتٌ عَوالي[2]

ومن المـناسب هـنا بـعنوان مسك الخـتام أن نـورد قـصيدة أنشـدها سماحة الأُستاذ العلّامة في انقطاع القلب عـمّا سـوى اللـه تـعالى ، والعشـق والوله بجماله وجلاله ؛ وهي في منتهى السموّ والرقيّ من حيث التشبيهات

١ـ يـقول : «ولكـن أنـّى لأهـل الصـورة والظـاهر أن يـدركوا أنَّ أصـحاب المـعنى موجودون في عالم الملكوت!

فليست ـ ولو كانت شمساً ـ ذرّة واحدة ، وليست ـ ولو كـانت أبـحراً سـبعة ـ قـطرة واحدة.

وحين يلوح سلطان العزّة بالراية فيهدي العالم كلّه إلى جيب العدم» .

٢ـ «الإنسان الكامل» ج ٢ ، ص ٢٦ .

والاستعارات والفنون الشعريّة ، بحيث لا يمكن لأحد أن يصدّق كون هذه القصيدة بلطائفها الذوقيّة لزاهد عابد ناسك متهجّد ونموذج بارز في الزهد والتقوى ، ومع أنَّ لغته الأُمّ هي التركيّة التي كان يتكلّمها كما معروف عنه ، أمّا العربيّة والفارسيّة فلغتان ثانويّتان له . ولنتزوّد من دعاء ذلك الفقيد وعناياته :

همی گويم و گفته‌ام بارها — بود كيش من مهر دلدارها
پرستش به مستی است در كيش مِهر — برونند زين جرگه هشيارها
به شادیّ و آسايش و خواب و خور — ندارند كاری دل افكارها
بجز اشک چشم و بجز داغ دل — نباشد بدست گرفتارها
كشيدند در كوی دلدادگان — ميان دل و كامْ ديوارها
چه فرهادها مرده در كوهها — چه حلّاجها رفته بر دارها
چه دارد جهان جز دل و مهر يار — مگر تودههائیّ و پندارها
ولی رادمردان و وارستگان — نيازند هرگز به مردارها
مَهين مِهر ورزان كه آزاده‌اند — بريزند از دام جان تارها[١]

١ـ يقول : «أقول وقلت مرّات ... إنَّ ديني محبّة المحبوب
في دين المحبّة العبادة هي الثمالة ... وخارج هذه الحلقة أهل القياس ذو العقل
بالفرح الراحة والنوم والأكل ... لا تهتمّ بصيرة أفكار قلوب العارفين
غير دموع العين واحتراق القلب ... لا شغل يشغلهم ولا قيد يأسرهم
ضربوا سوراً بين العاشق والمعشوق ... في زقاق العشّاق حتّى لا يلتقيا
كم فرهاد* في الجبال ... وكم حلّاج عُلِّق على المشانق .
وغير القلب وحبّ الحبيب ماذا يوجد في الدنيا ... إلّا السراب والخيال
ولكنَّ الرجال الأتقياء تاركي الدنيا ... لا يهتمّوا أبداً بهذه الجيفة الميّتة
الأحرار هم الذين استطاعوا...أن يخلّصوا أنفسهم من علائقها التي هي خيوط المصيدة».
* : فرهاد اسم عاشق إيرانيّ معروف مثل قيس في الشعر العربيّ واسم حبيبته شيرين.

بـــخون خـــود آغشـــته و رفـــته‌انـــد   چه گل‌های رنگـــین بـــه جـــوبارها

*   *   *

بـهاران کـه شـاباش ریـزد سـپهر   بـــدامـــان گـــلشن ز رگـــبارها
کشد رخت سبزه به هامون و دشت   زَنَـــد بـــارگه گـــل بـــه گـــلزارهـا
نگـــارش دهـــد گـــلبنِ جـــويبار   در آئـــــــینهٔ آبْ رخســـــــارها
رود شـــاخ گـــل در بـــر نـــیلوفر   بـــر قـصد بـه صـد نـاز گـلنارها
درد پـــــردهٔ غـــنچه را بـــادِ بـــام   هَـــــزار آورد نـــــغز گـــــفتارها
به آوای نای و بـه آهـنگ چـنگ   خروشد ز سـرو و سـمن تـارها

*   *   *

بـــياد خَـــم ابـــروی گـــلرخـــان   بکش جـــام در بـــزم مـيخوارهـا
گـــــره را ز راز جـــــهان بـــازکن   کـــه آسـان کـند بـاده دشـوارهـا
جز افسون و افسانه نـبود جـهان   کـــه بســـتند چشـــم خشـايارها[١]

١ـ يقول :«تخبّطوا بدمائهم ورحلوا ... وكم من الورود الجميلة رميت في الأنهار

*   *   *

عندما تمطر السماء في الربيع ... زهوراً تنهمر في أحضان الرياض
ترتدي الصحارى والبوادي لباسها الأخضر ... وتضرب الورود خيامها على الروض
وترى الوجوه في مياه الجواري ... انعكاس الماء كالمرآة لاخضرار الهائم
وتلتفّ أزهار النيلوفر على سيقان الورد ... لترقص بدلال معه زهرات الرمّان
وتتفتّح البراعم بلمس نسيم الرياح ... وترتّل البلابل بآلاف اللغات
وبأنين الناي وموسيقى الأوتار ... ترتفع أصوات السرو والياسمين بالغناء .

*   *   *

ذكرى هلال صاحب الوجه الجميل ... أشرب الكأس في مجلس العاشقين
وأفتح العقد من أسرار العالم ... حتّى تسهل الصعوبات فيها
غير الوهم وخيال الأساطير لا شيء هي الدنيا ... حيث فيها تحطّمت عروش الجبابرة».

بـه انـدوه آينده خود را مباز   كه آينده خوابيست چون پارها
فريب جهان را مخور زينهار   كه در پاى اين گل بود خارها
پياپى بكش جام و سرگرم باش   بهل گر بگيرند بيكارها [1]

اللَهُمَّ أَفِضْ صِلَةَ صَلَوَاتِكَ وَسَلَامَةَ تَسْلِيمَاتِكَ عَلَى أَوَّلِ التَّعَيُّنَاتِ المُفَاضَةِ مِنَ العَمَاءِ الرَّبَّانِيِّ وَآخِرِ التَّنَزُّلَاتِ المُفَاضَةِ إلَى الإنسَانِيِّ؛ المُهَاجِرِ مِنْ مَكَّةَ كانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيءٌ ثانِي ، إلَى المَدِينَةِ وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا كَانَ .

مُحْصِي عَوالِمِ الحَضَراتِ الخَمْسِ فِي وُجودِهِ ؛ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ، راحِمُ سائلِ اسْتِعْداداتِها بِنَدَى جودِهِ ؛ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ، سِرُّ الهُويَّةِ الَّتِي هِيَ فِي كُلِّ شَيءٍ سارِيَةٌ وَعَنْ كُلِّ شَيءٍ مُجَرَّدَةٌ .

كَلِمَةُ الاسْمِ الأَعْظَمِ الجَامِعِ بَيْنَ العُبُودِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ .

نُقْطَةُ الوَحْدَةِ بَيْنَ قَوْسَي الأَحَدِيَّةِ وَالوَاحِدِيَّةِ .

بِجاهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ صَلَواتُكَ وَسَلَامُكَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، مَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرَضُونَ .

كَتَبَهُ بِيُمْناهُ الدَّاثِرَةِ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ والحَقِيرُ الفَقِيرُ ، فِي المَشْهَدِ الرَّضَوِيِّ المُقَدَّس ، عَلَى ثاوِيهِ التَّحِيَّةُ والثَّنَاءُ بِمَنِّهِ وَجُودِهِ ، في مُنْتَصَفِ لَيلِ الثَّالِث عَشَر مِن رَبِيعِ الثَّاني سَنَة ١٤٠٢ هِجْرِيَّة قَمَرِيَّة ، **السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ .**

١ـ يقول :«فبحزن المستقبل لا تحزن للغد ... لأنَّ الغد ليس إلّا النوم مثل الماضي
حذارِ لا تُخدعنَّ بالدنيا ... ففي أصل كلّ وردة تقبع الأشواك
تعال وفقط اشرب كأس التوحيد ... واترك الدنيا للذين يطلبوا منها» .

فهرس التأليفات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـوم مؤسّـسة ترجمـة ونشـر

(دورة العلوم والمعارف الإ سلاميّة)

من تأليفات

العلّامة آية الله الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

بنشر و ترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة **المعارف**، وتشمل أقساماً ثلاثة :

١ ـ معرفة الله (١)

٢ ـ معرفة الإمام (٢)

٣ ـ معرفة المعاد (٣)

دورة **العلوم**، وتشمل أقساماً أربعة :

١ ـ الأخلاق والحكمة والعرفان (٤)

٢ ـ الأبحاث التفسيريّة (٥)

٣ ـ الأبحاث العلميّة والفقهيّة (٦)

٤ ـ الأبحاث التأريخيّة (٧)

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة

(١)

معرفة الله

١ ـ معرفة الله (الله شناسى)

أصل هذه الأبحاث دورة تفسيريّة جرى فيها المذاكرة والتحرير من الآية المباركة «**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**» إلى «**وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**».

وقد جرى البحث والمذاكرة في هذه الأبحاث عن مسألة التوحيد الذاتيّ والأسمائيّ والأفعاليّ للذات المقدّسة للحقّ تعالى، وعن كيفيّة نشوء عالم الخلقة وربط الحادث بالقديم، ونزول نور الوجود في مظاهر الإمكان، وحقيقة الولاية وربط الموجودات بذات الباري تعالى وعن لقاء الله والوصول إلى ذاته المقدّسة بفناء الوجود المجازيّ المُعار واندكاكه في الوجود المطلق الأصيل الحقيقيّ.

وهذه بعض عناوين الكتاب:

رؤية الله ممكنة.

الله محبٌّ لما سواه، وما سواه محبٌّ له.

إمكان رؤية الله ولقائه من قِبل المؤمنين المحسنين.

الله تعالى موجود في كلّ مكان، فافتح عينيك وانظر.

منكرو لقاء الله هم الأخسرون.

الطرق المختلفة لمعرفة الله ـ عدا طريق لقائه ـ جميعها منحرفة ومعوجّة ومظلمة.

منطق القرآن يحصر كلّ كيفيّة وأثر للوجود في الله تعالى.

معنى تشخّص الوجود: **لَا هُوَ إِلَّا هُوَ**.

جميع الناس ـ عدا العارفين ـ ينظرون إلى الله تعالى بعين حَولاء.

القائلون بتأثير غير الله تعالى مُبتلون بالشرك الخفيّ.

الحشويّة والشيخيّة والقشريّة لا خَلاق لهم من الله تعالى.

إنحرافات الشيخ أحمد الأحسائيّ وأتباع منهجه في أمر التوحيد.

وهذه المجموعة (باللغة الفارسيّة)تحت الطبع حاليّاً .

دورة العلوم والمعارف الإ سلاميّة

(٢)

معرفة الإمام

١ ـ معرفة الإمام (امام شناسى)

مجموعة من البحوث التفسيريّة ،الفلسفيّة ، الروائيّة ،التأريخيّة والاجتماعيّة في الإمامة والولاية بشكل عامّ ، وفي إمامة وولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والأئمّة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين بشكل خاصّ ؛ وذلك في هيئة دروس استدلاليّة علميّة متّخذة من القرآن الكريم والروايات الواردة عن الخاصّة والعامّة وأبحاث حِلّيّة ونقديّة عن الولاية .

وتضمّ هذه المجموعة (٢٧٠) درساً في ثمانية عشر جزءاً . وقد جرى فيها مناقشة وبحث مطالب من قبيل : العصمة ،الولاية التكوينيّة ،لزوم الإمام الحيّ ،لزوم متابعة الأعلم ، ضرورة وجود الإمام للمجتمع ، معنى الولاية ، شرح حجّة الوداع ، شرح واقعة غدير خمّ ، أحاديث الولاية ، حديث المنزلة ، شرائط القيادة ، علم الغيب ومجموعة علوم وقضايا ومحاكمات أمير المؤمنين عليه السلام ، معيّة الإمام للقرآن في جميع العوالم ، حديث الثقلين ، تقدّم الشيعة في جميع العلوم ،كتب الشيعة المؤلّفة ، مباحث عن الصحيفة السجّاديّة ، سير علوم الشيعة وتأريخهم من صدر الإسلام ، عظمة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ومقامها العلميّ ، الردّ على نظريّات وعقائد المذاهب المختلفة لأهل السنّة في الأُصول والفروع ، العلوم العالميّة للإمام الصادق عليه السلام ، العلوم الإسلاميّة للإمام الصادق عليه السلام ، خلود مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ، وقيام معاوية لإفناء آثار النبوّة وتبديلها إلى سلطنة و ...

دورة العلوم والمعارف الإ سلاميّة

(٣)

معرفة المعاد

١ ـ معرفة المعاد (معاد شناسى)

تشمل ٧٥ مجلساً في كيفيّة سير الإنسان وحركته في الدنيا وعالم الغرور وكيفيّة تبدّل نشأة الغرور إلى عالم الحقائق والواقعيّات وارتحال الإنسان إلى الله وغاية الغايات.

وتقع هذه المجموعة في عشرة أجزاء طُبعت بأجمعها بالفارسيّة ؛ وقد جرى فيها على نحوٍ وافٍ ومستفيض طرح مباحث من قبيل : عالم الصورة والبرزخ وكيفيّة ارتباط الأرواح هناك مع هذه العوالم ،كيفيّة خلقة الملائكة ووظائفهم ، النفخ في الصور وموت جميع الموجودات ثمّ إحياؤها وقيام الإنسان في ساحة الحضرة الأحديّة ، عالم الحشر والنشور والحساب والكتاب والجزاء والعرض والسؤال والميزان والصراط والشفاعة والأعراف والجنّة والنار ؛ وذلك بالاستفادة من الآيات القرآنيّة وأخبار المعصومين ومن الأدلّة العقليّة والفلسفيّة والمطالب الذوقيّة والعرفانيّة.

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة

(٤)

الأخلاق والحكمة والعرفان

١ ـ رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالهٔ سير وسلوك منسوب به بحرالعلوم)

جرى في هذه الرسالة ، إضافةً إلى شرح حال المرحوم بحر العلوم وصحّة انتساب هذه الرسالة له ، بيانُ حقيقة ومقصد السلوك إلى الله سبحانه ،كيفيّة السلوك إلى الله وآثاره ،وطريقة ذكر العلّامة بحر العلوم ، وذلك بشرحٍ مفصّل من قبل العلّامة آية الله قدّس سرّه.

٢ ـ رسالة لُبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب

(رسالهٔ لُبّ اللباب در سير وسلوك أُولى الألباب)

أصل هذه الرسالة أُسّ ومخّ أوّل دورة من الدروس الأخلاقيّة والعرفانيّة للعلّامة المفسّر

والحكيم العارف آية الله العظمى الطباطبائيّ قدّس سرّه في الحوزة العلميّة في قم ، وقد دوّنت من قبل سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه بعنوان تقريرات ، ثمّ طُبعت مع تنقيحات وإضافات لسماحته .

وقد جرى في هذا الكتاب ذكر كيفيّة السير والسلوك إلى الله بشكل إجماليّ وتفصيليّ ، وشرح تفصيليّ للعوالم المقدّمة على عالم الخلوص ، وطرح مباحث من قبيل الشرائط اللازمة للسلوك ، مراتب المراقبة ، لزوم الأُستاذ ، والطرق المختلفة لنفي الخواطر ، وذلك بأُسلوبٍ جامع وجميل .

٣ ـ التوحيد العلميّ والعينيّ (توحيد علميّ وعينيّ)

سلسلة رسائل حكميّة وعرفانيّة بين آيتين عَلَمَينِ هما : الحاجّ السيّد أحمد الكربلائيّ والحاجّ الشيخ محمّد حسين الأصبهانيّ (الكمبانيّ) حول بيتٍ واحد من الشعر للعطّار النيسابوريّ ، حيث فسّر كلٌّ من هذين العَلَمَينِ ذلك البيت وفق مذاقه في العرفان والحكمة .

وبسبب اشتمال هذه الرسائل على مباحث دقيقة توحيديّة عرفانيّة وفلسفيّة برهانيّة ، فقد كتب سماحة العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه ضمن دروسه في الحوزة العلميّة في قم تذييلات ومحاكمات من ستّة أقسام على الرسائل الثلاث الأُولى المتبادلة بين المرحومينِ الشيخ والسيّد ثمّ حرّر سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه ثمانية تذييلات على الرسائل الأربع الأُخرى للمرحومينِ المذكورينِ بعنوان تتمّة لتذييلات العلّامة الطباطبائيّ .

وقد جيء في هذه المجموعة بمقدّمة حول هويّة أصل الرسائل والعرفاء الأجلّاء الذين جرى التطرّق إلى أسمائهم فيها .

٤ ـ الشمس الساطعة (مهر تابان)

يمثّل هذا الكتاب تأبين ومحاورات التلميذ مع العلّامة العارف بالله وبأمر الله السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ التبريزيّ قدّس الله تربته ، ويشمل قسمين يتطرّق سماحة العلّامة آية الله المؤلّف قدّس سرّه في أوّلهما لبيان تأريخ حياة العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه وأُسلوبه

العلميّ والفلسفيّ والعرفانيّ والتفسيريّ ولبيان أحوال ثلّة من الأجلّاء ، في حين يتطرّق في القسم الثاني إلى ذكر بعض محاوراته مع العلّامة الطباطبائيّ التي تشمل أبحاثاً قرآنيّة وفلسفيّة وعرفانيّة وأخلاقيّة وعلميّةوتأريخيّة .

٥ ـ الروح المجرّد (روح مجرّد)

في تأبين الموحّد العظيم والعارف الكبير الحاجّ السيّد هاشم الموسويّ الحدّاد أفاض الله علينا من بركات تربته ، من أقدم وأفضل تلامذة الأخلاقيّ الكبير العارف بالله وبأمر الله آية الله العظمى الحاجّ السيّد علي القاضي الطباطبائيّ التبريزيّ نفعنا الله والمسلمين من بركات علومه .

وقد ذكر في هذا الكتاب كيفيّة تشرّف سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه بالحضور في محضر سماحة الحدّاد ،وعن كيفيّة حياته وسيرته العمليّة وحالاته ومقاماته التوحيديّة وأحوال تلامذته .وتطرّق ضمن بيان أسفار سماحته إلى ذكر المباحث التوحيديّة الدقيقة ،والسلوك إلى الله ،ولزوم متابعة الأُستاذ ، وإلى الدفاع عن العرفان والعرفاء بالله ، وإلى ردّ التُّهم غير اللائقة التي وُجّهت إلى محيي الدين بن عربي ، وإلى معنى وحدة الوجود و...

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة

(٥)

الأبحاث التفسيريّة

١ ـ رسالةٌ بَديعةٌ

أُلّفت هذه الرسالة بالعربيّة في تفسير آية «**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ**» وتتضمّن دروساً استدلاليّة في مورد جهاد وقضاء وحكومة المرأة ، وبحثاً في فلسفة حقوق المرأة والرجل ومعنى تساوي حقوق المرأة والرجل ، وحدود مشاركة النساء في الجهاد ، وروايات وإجماع الفقهاء في عدم جواز تصدّي المرأة لمناصب الحكومة والقضاء وعدم جواز ورود النساء في مجلس الشورى (المجلس النيابيّ).

وتضمّ هذه المجموعة مطالب تفسيريّة، روائيّة، فقهيّة، علميّة واجتماعيّة؛ كما جرى البحث فيها ـ للمناسبة ـ عن ولاية الفقيه.

وقد تُرجمت هذه الرسالة من قبل عدّة من الفضلاء إلى الفارسيّة لتعميم الفائدة منها.

٢ ـ **رسالة جديدة** في بناء الإسلام على الشهور القمريّة (رسالهٔ نوين)

بحث تفسيريّ، روائيّ، فقهيّ وتأريخيّ حول بناء الإسلام على السنة والشهور القمريّة، جرى خلاله البحث في تفسير آية «**إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ**» والخطبة المعروفة لرسول الله في مِنى، وفي تفسير آية «النسيء».

ومن الأبحاث الأُخرى لهذا الكتاب، عدم مشروعيّة تبديل الأشهر القمريّة إلى الشمسيّة، التدخّل المباشر للأجانب في تغيير تأريخ المسلمين على يد مجلس الشورى الوطنيّ الاستعماريّ خلال ثلاث مراحل تدريجيّة، انقراض العائلة البهلويّة أثر إعلان نسخ التأريخ المحمّديّ، وفوائد السنة القمريّة ومضارّ السنة الشمسيّة.

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة

(٦)

الأبحاث العلميّة والفقهيّة

١ ـ رسالة حول مسألة رؤية الهلال

مجموعة مراسلات ومكاتبات سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه مع أحد أساتذته في علم الأُصول: المرحوم آية الله الحاجّ السيّد أبي القاسم الخوئيّ تغمّده الله برحمته في لزوم اشتراك الآفاق في رؤية الهلال لثبوت الأشهر القمريّة. ويضمّ هذا الكتاب بحوثاً علميّة، فقهيّة، فنيّة وحلّيّة موسوعيّة تتضمّن خمس رسائل للطرفين وباللغة العربيّة.

٢ ـ وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام

(وظيفهٔ فرد مسلمان در احياى حكومت اسلام)

مجموع مطالب هذا الكتاب التي جاءت على أساس الحقائق التأريخيّة على هيئة دروس ستّة ، من إنشاء سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه للفضلاء من طلّاب مدينة مشهد المقدّسة ، وبجمع و تنظيم أحد الفضلاء .

وبعض عناوين مطالب هذا الكتاب عبارة عن : لزوم تأسيس الحكومة وإعداد مقدّماتها ، العلاقات الأكيدة للمؤلّف مع القائد الكبير للثورة سماحة آية الله الخمينيّ قدّس سرّه في تأسيس حكومة الإسلام ، سجن آية الله الخمينيّ والنشاط الحثيث للمؤلّف في تخليصه من الإعدام ، حقّ التقاضي القنصليّ (كاپيتولاسيون) ، نصّ رسالة سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه حول مسوّدة القانون الأساسيّ إلى آية الله الخمينيّ واقتراحاته العشرون إلى القائد الكبير للثورة بواسطة المرحوم الشهيد آية الله الشيخ مرتضى المطهّريّ ، مع صورة كيفيّة تشكيل ثمان عشرة لجنة مختلفة الأثر في الجمعيّة الإسلاميّة لمسجد القائم في طهران .

٣ ـ ولاية الفقيه في حكومة الإسلام (ولايت فقيه در حكومت اسلام)

تتحدّث هذه المجموعة حول ولاية الفقيه في حكومة الإسلام ، وقد جرى بيانها بعد طبع كتاب «وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام» ، حيث جُمعت ونظّمت من قبل اثنين من الفضلاء في أربعة أجزاء تضمّ ٤٨ درساً .

وقد جرى في هذه المجموعة البحث والتحقيق في مطالب من قبيل : دلائل ولاية الفقيه وشرائطها وموانعها ، حقيقة ولاية الإمام والفقيه العادل الجامع للشرائط وحدودها وثغراتها ، وأُسلوب الحكم في الإسلام وواجب الناس تجاهه ، وذلك بالاستفادة من الآيات القرآنيّة والروايات والأبحاث الفقهيّة والعلميّة والشواهد التأريخيّة والاجتماعيّه .

٤ ـ نور ملكوت القرآن (نور ملكوت قرآن)

هذه المجموعة في القسم الأوّل من دورة أنوار الملكوت (الشاملة لنور ملكوت القرآن ، نور ملكوت المسجد ، نور ملكوت الصلاة ، نور ملكوت الصيام ، ونور ملكوت الدعاء) .

وقد دوّنت مجموعة «نور ملكوت القرآن» في أربعة أجزاء ، جرى البحث خلالها عن هداية القرآن إلى أفضل مناهج وسُبل السلام ، خلود أحكام القرآن ، عدم نسخ القرآن ، التطبيق

العمليّ لآحاد آيات القرآن في كلّ عصر ، الردّ على نظريّة تحديد النسل ، دور القرآن وموقعه بعنوان كتاب سماويّ ، نقد ومناقشة بعض الأفهام الخاطئة للآيات القرآنيّة الكريمة ، والإشكالات الواردة على مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) وكتاب «دانش و أرزش» (= الفكر والقيم) ، وكذلك كتاب «خلقت انسان» (= خلقة الإنسان) و «تكامل در قرآن» (= التكامل في القرآن) و «راه طيّ شده» (=الطريق المطويّ) .

ومن العناوين الأُخرى لهذه المجموعة : منطق القرآن توحيديّ ؛ بيان القرآن لأخطاء التوراة والإنجيل ؛ أحكام القرآن في الجهاد ، القتل ،الاسترقاق ، والفدية ؛سير القرآن في آيات الأنفس والآفاق ؛ بيان محكمات القرآن ومتشابهاته ؛كيفيّة قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ؛ تأثير القرآن في تربية الإنسان الكامل ؛ عظمة أخلاق القرآن ؛ بيان كيفيّة خلقة الإنسان والسيّارات في القرآن ؛ دعوة الآيات الآفاقيّة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق ؛ العربيّة وإعجاز القرآن ؛ لزوم التكلّم بالعربيّة لجميع المسلمين والردّ على مسألة إحياء اللغات الفارسيّة القديمة ؛ عظمة القرآن الكريم وأصالته ؛تأثير القرآن في الحضارة الإسلاميّة العظيمة ، تفوّق علوم الإسلام على اليونان ؛ بيان كيفيّة كتابة القرآن وطباعته ؛تأريخ التوراة والإنجيل الحاليّين ؛ قاطعيّة القرآن وشموله ؛ عموميّة القرآن الكريم وامتناعه على التغيير ؛كيفيّة جمع القرآن وتدوينه .

٥ ـ نظرةٌ على مقالة بسط وقبض نظريّة الشريعة للدكتور عبد الكريم سروش

(نگرشى بر مقالۀ بسط وقبض تئوريك شريعت دكتر عبدالكريم سروش)

قام سماحة آية الله العلاّمة قدّس سرّه العالي في هذا الكتاب ـ ضمن بيانه لعشرة إشكالات مهمة من إشكالات مقالة «بسط وقبض نظريّة الشريعة» للدكتور عبد الكريم سروش ـ بالإجابة في أحسن وجهٍ وأتقنه على الانتقادات الواردة في هذه المقالة على حجّيّة القرآن وخلوده وعلى جميع مقدّسات العالم وحقائقه .

وكان هذا الكتاب في الأصل يشكّل القسم الأعظم من الجزء الثاني لكتاب «نور ملكوت القرآن» ، وطُبع مستقلاًّ دون تصرّف نظراً لأهميّة الموضوع ، وبناءً على اقتراح بعض

العلماء ،ولتسهيل أمر تناوله من قبل الأساتذة وطلبة الجامعات والمحقّقين ، فيُهدى إلى مَن ينشدون سبيل الحقيقة وسُبل السلام .

وهذه بعض عناوين الكتاب :

أصالة وخلود الدين الإلهيّ ومحدوديّة الفهم البشريّ ، عظمة العلوم الإسلاميّة وتفوّقها على العلوم الحاليّة ، أساس الحوزات العلميّة قائم على القرآن والعرفان ، إعراض دعاة الانفتاح عن المباني الإسلاميّة بتأثير من الثقافة الأجنبيّة ، بُرهان العلّامة الطباطبائيّ في استناد العلل الطبيعيّة إلى العلل المجرّدة ، منطق القرآن حجّيّة العقل واليقين لا الفرضيّات الوهميّة .

٦ ـ الرسالة النكاحيّة : تحديد النسل ضربة قاصمة لكيان المسلمين (وقد طبع الكتاب في طبعته الأُولى بهذا العنوان :«الحدّ من عدد السكّان ضربة قاصمة لكيان المسلمين»)

(رسالهٔ نكاحيّة :كاهش جمعيّت ، ضربه‌اى سهمگين بر پيكر مسلمين)

أصل هذه الرسالة قسمٌ من الجزء الأوّل لكتاب «نور ملكوت القرآن» جرى فيه البحث في تفسير آية **وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ**» . ونظراً لأهميّة المطالب فقد استخرجت من ذلك الكتاب وطُبعت بشكل مستقلّ باسم «**الرسالة النكاحيّة**» . وبالنظر لحصول نشاطات واسعة تستلفت الأنظار في وقت طبع هذه الرسالة ـ حيث تنقضى سنواتٌ خمس على ارتحال الفقيد المعظّم القائد الكبير للثورة الإسلاميّة ـ تحت عنوان تنظيم العائلة والحدّ من عدد السكّان ، فقد عمد سماحة آية الله العلّامة إلى كتابة تذييلات على هذه الرسالة ، وفسّر اسم الرسالة النكاحيّة بعطف جملة «**تحديد النسل ضربة قاصمة لكيان المسلمين**» ، حيث جرى في هذه التذييلات التي ضمّت ثلاثة عشر مطلباً ، تحليل مسألة تحديد النسل من وجهة نظر القرآن والإسلام ، كما أُزيح الستار فيها عن السياسات الاستعماريّة الخادعة الرامية إلى تقليل قوّة المسلمين .

وبعض العناوين التي تتصدّر هذه التذييلات هي :

الهجوم العنيف للاستكبار العالميّ بعد ارتحال القائد الكبير الفقيد للثورة ؛ عدم الرجوع إلى رأى المجتهدين والفقهاء حتّى إلى فتوى آية الله الخمينيّ (ره) ؛ وجهة نظر سماحة آية الله الخامنئيّ في مسألة تحديد النسل ؛ إحصائيّات خسائر النساء والرجال في خصوص مسألة إغلاق

الأنابيب ؛ حُرمة إغلاق الأنابيب و تعلّق الدية الكاملة بها ، تضادّ فلسفة الإسلام وروح الإيمان مع تحديد النسل .

٧ ـ رسالة مسوّدة القانون الأساسيّ (نامهٔ پيش نويس قانون أساسى)

تبدأ هذه الرسالة بالآية الكريمة «**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**» ، وتعكس وجهات نظر سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه الحاكية عن دقّة نظره و تبصّره في المسائل الدينيّة والسياسيّة . وقد جرى في تلك الرسالة نقد وإصلاح أُصول مسوّدة القانون الأساسيّ وفقاً للموازين والمعايير الإسلاميّة .

دورة العلوم والمعارف الإ سلاميّة

(٧)

الأبحاث التأريخيّة

١ ـ لَمَعات الحُسين

حاوية لبعض كلمات ومواعظ وخطب سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام مع ترجمتها وذكر مصادرها من الكتب المعتبرة ، وهي ـ لاختصارها وبساطتها ـ قابلة للحفظ من قبل العموم ، وخاصّة طلّاب العلوم الدينيّة وطلبة الجامعات الملتزمين .

٢ ـ الهديّة الغديريّة : رسالتان قاتمة ومشرقة

(هديّهٔ غديريّه : دو نامهٔ سياه وسپيد)

وتشمل هذه الكرّاسة رسالة من أمير أهل الخلاف في بخارا وجوابها من قبل أمير أهل الولاء في خراسان ، حول ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته بلا فصل ، جرى تبادلها قبل قرنين من الزمن ؛ ويمكن عدّها لإنشائها الرائع ومنطقها المتين وبُرهانها السديد وخطّها الجميل الظريف من بدائع التحريرات . وقد طُبعت هذه المجموعة مع مقدّمة وتحقيق من قبل سماحة العلّامة آية الله قدّس سرّه ، وأُهديت بمناسبة العيد السعيد لغدير خمّ إلى الإخوة المؤمنين

والطلبة المتتبّعين لمعارف أهل اليقين .

* * *

هذه هي مجموعة من الكتب التي أُلّفت من قِبل المؤلّف قدّس سرّه ، والتي بادرت «مؤسّسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة» إلى ترجمتها وتقديمها تدريجيّاً إلى القرّاء المحترمين ، وهناك مجموعة أُخرى للمؤلّف لم تنشر بعد .